المركز القومى للترجمة



أنطونيو مونيوث مولينا

ليلة اكتمال القمر

ترجمة: هيام عبده

مراجعة وتقديم: هالة عواد

2137





المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2137
- ليلة اكتمال القمر
- أنطونيو مونيوث مولينا
- هيام عبده
- هالة عواد
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

PLENILUNIO
By: Antonio Muñoz Molina



شارع الجبلاية بالأوبرا–
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Ope
E-mail: egyptcounci
Fax: 27354554

ليلة اكتمال القمر

(روايـة)

تــــــأليف: أنطونيو مونيوث مولينا
تـــــرجمة: هيــــام عبـــده
مراجعة وتقديم: هـــالـــة عـــواد



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مولينا، أنطونيو مونيوث.
ليلة اكتمال القمر (رواية) / تأليف: أنطونيو مونيوث مولينا،
ترجمة: هيام عبده، مراجعة وتقديم: هالة عواد.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٤٤٠ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الأسبانية
(أ)عبده، هيام (مترجمة)
(ب) عواد، هالة (مراجعة وتقديم)
(ج) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٠١١/٨٩٧٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 216 - 093 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقـــديم المراجع

ولد أنطونيو مونيوث مولينا في يناير من عام ١٩٥٦ في مدينة أوبيدا، خاين، حيث قضى فيها طفولته وشبابه، وهي المدينة التي أصبحت الحيز المكاني المتخيل فى أغلب أعماله. بعد أن أنهى دراسته الثانوية سافر إلى مدريد لدراسة الإعلام، بيد أنه هجرها ليدرس تاريخ الفن في غرناطة. بعد التخرج تم تجنيده فى إقليم الباسك، بالتحديد في مدينتى بيتوريا وسان سباستيان، وكان لتجربة العيش في هذه المنطقة، التي يهددها الإرهاب، الأثر الكبير فى إثراء عملين من أعماله هما: *حماس محارب* و*ليلة اكتمال القمر*.

ليلة اكتمال القمر هي الرواية الثامنة لمولينا ونشرت عام ١٩٩٧، وفيها يشعر القارئ للوهلة الأولى بأن الرواية ذات طابع الروايات البوليسية التي تميزت بها بعض أولى أعماله، ولكن بعد القراءة المتفحصة المتأنية يكتشف أن التقنيات والغاية منها قد اختلفتا، إلا أن الكاتب لجأ إلى هذه الحبكة؛ كي يجعل القارئ يفكر في تاريخ إسبانيا المعاصر، ويتأمل ويتدبر الآفات والآثام الحالية من عنف بأوجهه المختلفة، والضمائر السيئة، بالإضافة إلى التفكك وعدم التضامن أو المؤازرة.

تقوم الرواية، علاوة على الرغبة في جذب انتباه القارئ، على تحقيقات يقوم بها مفتش بوليس للبحث عن قاتل طفلة، وهو مريض سيكوباتى يشد انتباه وسائل الإعلام والأشخاص. وهذا الموضوع، سواء أكان فى الروايات

أم فى الأفلام البوليسية، لاقى نجاحًا كبيرًا في حقبة الثمانينيات والتسعينيات، وخير مثال على ذلك سلسلة الأفلام التي بدأت بفيلم "*صمت الحملان*" التى تلقى رواجًا حتى يومنا هذا.

وتدور الأحداث حول تحقيق يقوم به مفتش بوليس؛ بحثًا عن مجرم اعتداءات جنسية لفتيات قاصرات، وحول التحقيقات البوليسية، فإن الكاتب يتوغل فى حيوات الشخوص الذين لهم علاقة قوية بالمفتش: زوجته، سوسانا جراي المعلمة، الأب أوردونيا، الطبيب الشرعي فيريراس، بل والقاتل نفسه. أما محور الأحداث فليس ردود أفعال الشخصيات وتصرفاتهم، بل التأمل والتفكر فى هذه الحيوات المحكوم عليها بالفشل والانكسار.

فالبطل، مفتش البوليس، نقل حديثًا إلى المدينة حيث مسرح الأحداث، وهى فى الوقت ذاته مدينة طفولته وشبابه الأندلسية؛ حيث درس فيها فى مدرسة اليسوعيين وقد ربطته علاقة وطيدة بالأب أوردونيا. أما زوجة المفتش فتعالج فى مصحة نفسية بعد أن أمرضتها كثرة التهديدات التى كان يلقاها زوجها فى إقليم الباسك. على ذلك، فتعايش المفتش مع الألم والموت بسبب الإرهاب، ووهنه الداخلى، وعلاقته المتباعدة مع زوجته قد جعلت منه كائنًا بائسًا، شكاكًا، متعبًا من التعايش اليومى للجانب المظلم للظلم والشر. وإذا كان المفتش قد عانى من التهديدات والقتل والعنف فى الباسك، ففى مقر عمله الثانى عاد يواجه نوعًا آخر من العنف، عنف غير عقلانى، بطله مجرم وهاتك أعراض فتيات صغيرات.

أما شخوص الرواية فهم ليسوا أبطالاً أو شخوصًا رومانسية، بل على العكس هم أشخاص عاديون ليسوا مهمين، وليست لهم تطلعات كبيرة فى حياتهم. فهم لا ينتظرون كثيرًا من الحياة التى يعيشونها، والتى عانوا كثيرًا فيها لأسباب مختلفة: صعوبة العيش فى الباسك والمرض العقلى للزوجة فى حالة المفتش، الفشل الأسرى والحياتى للقاتل، تحطم المثل والتهميش للأب أوردونيا، حياة الوحدة والفشل في الحب لفيريراس، وأخيرًا، انهيار الحياة الزوجية وهجر الابن بالنسبة لسوسانا جراى. وعلى الرغم من ذلك فهذه الأخيرة هي الوحيدة التي ثارت على هذه الحياة الرمادية، وحاولت إضفاء تغييرات جذرية للحيلولة دون الوقوع فى الفشل أو الاستسلام له.

وفي النهاية يمكن القول إن *ليلة اكتمال القمر* هى رواية واقعية من صميم المعايشة اليومية؛ فهى مليئة بالأحداث، والشد والجذب، والحنق، والحنان، وفيها ينصهر الإبداع والتفكر لتحدثنا عن أمور جد قريبة من الحياة اليومية.

هالة عواد

إهـــداء

إلى إلبيرا

التى كانت تتوق إلى قراءة هذا الكتاب

١

كان يجوب المدينة ليل نهار باحثًا عن نظرة. كان يعيش فقط من أجل القيام بهذه المهمة، رغم محاولته القيام بأشياء أخرى أو تظاهره بفعلها، كان ينظر فحسب، يتجسس على نظرات الناس وعلى وجوه من لا يعرفهم، يتجسس على ندلاء الحانات والبائعين فى المتاجر ونظرات المشتبه فيهم فى الصحيفة الجنائية. كان المفتش يبحث عن نظرة شخص كان قد رأى شيئًا مريعًا جدًا، شيئًا لا يمكن أن يخفف النسيان وطأته أو أن يخفى ملامحه، كان يبحث عن أعين سكن بها ملمح ما أو أثر لجريمة ما، كان يبحث عن مآق عند فحصها يمكن أن يكتشف فيها دون تردد الإحساس بالذنب، بالضبط كما يفعل الأطباء عندما يُقربون كشافًا صغيرًا من العين؛ ليتعرفوا على أعراض المرض. كان الأب أوردونيا قد قال له بعد أن أمعن فيه النظر: «ابحث عن عينيه» مما جعل المفتش يشعر بقشعريرة خفيفة، مثلما شعر تمامًا منذ وقت طويل مضى، كانت هاتان العينان الضيقتان، الكليلتان، اللتان تتنبآن، المصابتان بقصر النظر، هما اللتان تعرفتا عليه عندما ظهر فى المدرسة الداخلية الملحقة بالكنيسة، كان على المفتش أن يتعرف فى الحال على الشخص الذى يبحث عنه مثلما عرف فيه الأب أوردونيا منذ سنوات طويلة مضت الإحساس بعدم الأمان، والحقد، والخجل، والجوع، وأيضًا الإحساس بالكراهية، الكراهية الدائمة والدفينة للسكن الداخلى وكراهية كل ما فيه، وكذلك كراهيته للعالم الخارجى.

ربما تكون نظرة شخص لا يعرفه، ولكن المفتش كان متأكدًا من أنه سيميزها ويتعرف عليها دون تردد ودون خطأ عندما يقع بصره عليه، حتى لو حدث ذلك مرة واحدة فقط ومن بعيد، أو من الجانب الآخر من الرصيف، أو عبر زجاج واجهة حانة. كان لديه ميزة كبيرة تساعده فى بحثه وهى أنه غريب عن المدينة ولا يعرفه الكثيرون لأنه نُقل إليها منذ بضعة أشهر، كان ذلك فى أول الصيف ونُقل إليها تقريبًا بغتة عندما اعتقد أنهم لن يستجيبوا لطلبه، على الأقل كان لا بد أن يمر عام حتى تبدأ حركة التنقلات. إذا تأخر شىء فى الحدوث فمن الأفضل ألا يحدث نهائيًا، عرض المفتش قرار النقل على زوجه التى كانت تنتظر سماع هذا الخبر منذ سنوات، ولكنها لم تظهر الفرح ولا حتى الارتياح عند سماعها للخبر، اكتفت بقبول الأمر فحسب، كانت تبدو مُغَيبة، شعثاء الشعر كأنها قد استيقظت لتوها رغم أن الساعة كانت الثالثة عصرًا. عادت ووضعت القرار الذى يحتوى على ختم وصيغة تعبير رسمية فى الظرف، ووضعته على الصِوان ومكثت لحظة مطأطأة الرأس تفرك يديها كمن لا يتذكر إلى أين كان يذهب.

يبدو أن الشىء الذى يتأخر كثيرًا فى الوقوع سيان كأنه لم يقع، بل أيضًا وقوعه أسوأ من عدم وقوعه وذلك لأن تحقيق الشيء الذى رُغِبَ فيه بشدة فى الوقت غير المناسب يأخذ وجه السخرية. كان قد رفض طلب النقل منذ وقت طويل أو كان يكذب عليها فى شىء منه عندما كان يقول لها إنه أرسل الطلب أو إنهم أغلقوا باب قبول الطلبات قبل الموعد المحدد، كلها أعذار كى لا يقول لها إنه لا يهمه الخوف أو الخطر بقدر ما يهمه إمكانية الشعور بالخجل، أو عدم الوفاء تجاه الزملاء، تجاه أصدقائه الذين قُوتِلوا أو الذين شُوهُوا أو الذين أُصيبوا بالشلل إثر أحد التفجيرات. هذه الأشياء تُهمه ولكن لا تهمها: كانت تنتظر منذ الصباح وحتى المساء، وأحيانًا أثناء الليل، كانت تنتظر جالسة بجوار التليفون أو أمام التلفاز أو على الجانب الآخر من

ستائر إحدى النوافذ تنظر إلى الشارع، يمكن أن يزعجها أى شىء، قد يكون رنين جرس أو فرقعة سيارة أو إطلاق جهاز إنذار فى أحد المتاجر المجاورة. على مر السنين، سنين طويلة، طويلة جدًا، كانت قد انتظرت ساعة وراء ساعة، يومًا وراء يوم، فى النهاية لم تعد تسأل، لم تعد تطلب، وكذلك لم تعد تبدأ أى محادثة عابرة أثناء الطعام لكى تنزلق حينما تجد الفرصة لتسأله عن النقل. بالتحديد فى الوقت الذى وصل فيه قرار النقل (فى الواقع كان أمرًا أو ربما اقتراحًا لاعتزال العمل) كانت قد كفت عن السؤال منذ وقت مضى، لم تكف فقط عن السؤال عن النقل ولكن لم تعد تسأل عن أى شىء آخر، لم تعد تنتظر المفتش وهى ترتدى قميص النوم كى تتشاجر معه أو تنخرط فى البكاء عندما يعود فى وقت متأخر دون أن يهاتفها تليفونيًا. كان يدخل البيت وقد أراحه تمامًا رؤية الأنوار مطفأة، يخلع الحذاء وقِراب المسدس ويدخل يتحسس طريقه إلى غرفة النوم يضىء له الضوء الذى تبعثه أعمدة الإضاءة فى الشارع، يخلع ملابسه فى صمت وهو يسمع صوت أنفاسها فى الظلام الذى تلمع فيه الأرقام الحمراء للمُنَبِّه الراديو، ينزلق داخل السرير وهو يشعر بدوار ثقيل إثر شرب السجائر والويسكى، يغلق عينيه متلمسًا باحثًا عن جسدها الذى لم يعد يرغب فيه منذ فترة، حينئذ يدرك أنها ليست نائمة ويتصنع هو النوم لكى يتجنب جبنًا منه الأسئلة المحتملة التى تكررت كثيرًا مثل البكاء والشكوى عن لماذا كان عليه أن يحملها إلى أرض عدوانية تبعد كثيرًا عن أرضها، ولماذا لم يعد يلمسها قط.

كان المفتش غريبًا على المدينة وكان العاملون فى قسم الشرطة يتفحصونه بشىء من الإعجاب والحذر، وذلك لأنه قد جلب معه من الشمال أسطورة محيرة حول الحسم والشجاعة من ناحية، وأيضًا عن نوبات من عدم الاتزان من ناحية أخرى، كان يمشى فى الشارع باحثًا عن وجه إنسان يمكن أن يتعرف عليه، كان متأكدًا أنه سيتعرف عليه فى الحال أو ربما بعد ثانية

من الدهشة مثل من يرى نفسه فى إحدى الواجهات ولا يعرف من يكون لأنه لا ينظر إلى تعبير الوجه المعتاد الذى تظهره المرايا عادةً ولكن يظهر وجه آخر، الوجه الذى يراه الآخرون والذى يبدو وجه مجهول على الإطلاق. كان الأب أوردونيا قد قال له «ابحث عن عينيه»، وكان قد خرج اليوم من المدرسة الداخلية التابعة للكنيسة باحثًا عن وجوه ونظرات فى المدينة شبه الخاوية فى ظلام شتاء جاء قبل موعده، أغلقت أبواب المنازل والنوافذ والشرفات فى وجه الشتاء والخوف، منذ موت الطفلة يبدو كأنه قد تولد خوف قديم من تهديدات وأخطار الليل وأصبحت الشوارع تخلو سريعًا ويبدو الظلام حالكًا، دامسًا، وتصبح الأضواء أكثر خفوتًا. تُسمع خطوات أى شخص مثل خطوات ذلك الرجل الذى يبحث المفتش عن نظرته، يتخيل أن أى شخص يمشى بمفرده ويقابله يمكن أن يكون هو نفس الشخص الذى لم يره أحد وهو يصعد متنزه "كابا" الصغير ليلة وقوع الجريمة، شخص يحاول أن يتصنع الطبيعية عند عودته للنور، وكان بلا شك قد نفض التراب الذى وسخ سرواله، ومرر أصابعه على شعره كى يرتبه بينما يتسلل بين الأسوار الموحشة، وبين المقاعد التى لم يعد يجلس عليها المحبون والمخطوبون وأسفل أعمدة الشوارع التى لن تضاء أبدًا لأن فى عطلة نهاية الأسبوع تقذفها بالحجارة مجموعات الشباب وهى فى طريقها إلى الحدائق للشراب. عند خروجه من المتنزه يطأ زجاج الأعمدة وزجاجات البيرة، تاركًا وراءه عند المنحدر أسفل ضوء القمر بقعة شاحبة لوجه عيونه مفتوحة شاخصة. شخص يمشى اليوم فى المدينة ويحتفظ بداخله بذكرى تلك العيون التى كانت قادرة على النظر حتى آخر لحظة قبل أن يحجرها الموت، والذى كان سببًا وشاهدًا على هذا الاحتضار، فهو لا يستطيع أن ينظر مثل أى شخص آخر، فلا بد أن يظل فى مآقيه أثر أو بقايا أو ومضة من الفزع الذى اعتلى تلك العيون الطفولية. منذ أربعين عامًا، كانت نظرات الأب أوردونيا تجوب صف من

الأطفال ينظرون إلى الأمام بينما ينتظرون العقاب واستطاع أن يميز بوضوح نظرة المذنب، ثم بعد أن نزع عنه القناع وأخجله أمام الآخرين، ابتسم وقال «الوجه هو مرآة الروح».

لكن المفتش كان متأكدًا من أن هناك أناسًا بلا روح، وكل ما كان يبحث عنه، دون أن يحتاج إلى هذا التفكير مليًا، وجه لا يعكس أى شيء، وجه محايد وعيون لا يسكنها شيء. قد رأى هذا النوع من العيون فى بعض المرات طوال حياته، ولكن لحسن الحظ لم ير الكثير منها، كان قد رآها على الجانب الآخر من مائدة التحقيقات أسفل ضوء المصابيح الفلورسنت التى توجد فى أقسام البوليس، أو فى صور بعض وجوه المشتبه فيهم والمجرمين، أولئك الذين لا يوقظون فيه الشعور بالخوف أو بالاحتقار بل يوقظون فيه شعورًا غير لطيف بالبرد. فى الواقع، كان يفكر الآن فى أنه لم يعرف الكثيرين، لم يكن من المعتاد، حتى بالنسبة لرجل شرطة، أن يجد وجهًا لا يعكس ولو بدرجة طفيفة من الحس أو أن يقابل عيونًا تنظر فحسب. الأب أوردونيا قد قال له:

- لكن هذا ليس صحيحًا، لا يوجد شخص بلا حس، حتى أسرش قاتل خلقه الله فى الهيئة والصورة.

قال المفتش:

- حضرتك يمكنك أن تتعرف عليه؟ أيمكنك أن تميزه بين صف من المشتبه فيهم، كما كانوا عندما يرتكب أحدنا شقاوة يضعوننا فى صف وتقوم حضرتك وتفحصنا واحدًا واحدًا ودائمًا كنت تجد المذنب؟
- لقد عرف المسيح أن الخائن هو يهوذا فقط عندما نظر إليه.
- ولكنه كان يتصرف ولديه مزية، حضراتكم تقولون إنه الله.

كان وجه الأب أوردونيا قد اكتسب تعبيرًا جادًا وقال:

- لقد عرف المسيح يهوذا بجانبه الإنسانى، ذلك الخوف البشرى من أنه كان عليه أن يتعذب ويموت.

كان يبحث عن عينين، عن وجه قد يكون مرآة لروح دفينة، وجه لمرآة فارغة لا تعكس شيئًا، لا تعكس حتى الندم ولا الرحمة، وربما لا تعكس أيضًا الخوف من الشرطة. فقد وجدوا آثار دم ذكورى، آثارًا لجلد ولشعر رأس وصفن، وأعقاب سجائر عليها لعاب. على الأرصفة على الجانب الآخر من واجهات الحانات وفى الليالى الأولى الباردة للخريف رأى المفتش وجوه الناس مثل بقع غير محددة المعالم وأثناء ذلك ظهر دون إنذار الوجه المتخيل لزوجته التى تحدث معها بالتليفون قبل أن يخرج من المكتب. كان يتصل بالمصحة كل مساء فى السادسة عندما تحين ساعة الزيارة وأحيانًا كان يسألها عن حالها، لم تكن تقول شيئًا، كانت تظل على التليفون صامتة، تتنفس بصعوبة مثلما كانت تفعل وهى مستلقية فى الظلام فى غرفة النوم.

ولكن الآن هناك وجوه أخرى تفرض نفسها عليه، بمجهود إرادى كان أيضًا تهديد غريزى بالهرب من الخجل الذى لا يمكن قهره. الآن لا يجب أن يشتت انتباهه، يجب عليه الآن أن يبحث، وأن يستمر فى البحث عن وجه الشخص المجهول، لم يكن الدافع الذى يغذيه فى عملية البحث المسيطرة عليه والتى لا تدعه ينام أو يهتم بشىء آخر له علاقة بواجبه أو بالفخر المهنى، والأنكى من ذلك لم يكن الدافع فى عملية البحث له أدنى علاقة بفكرة العدالة: ما كان يدفعه هو ضرورة استعادة شىء مستحيل وحقد متأجج، كان دون أن يعلم أحد رغبة واضحة فى الانتقام. كان يجب عليه أن يجد وجه هذا الشخص المجهول ليعاقبه لأنه قتل وليمنعه من أن يعود ويقتل مرة أخرى، ولكنه كان يريد أن يجده خاصةً لكى ينظـــر إلى عينيه ليبث فيهما لمدة ثوان

أو دقائق رعب التهديد. ولكى يمسك هذا الشخص من تلابيبه أو من ياقة قميصه وينظر إلى عمق عينيه عن قرب ويضرب رأسه فى الحائط كى يموت من الخوف، كى يتبول كما كان يفعل الطلاب والمعتقلون السياسيون فى القسم منذ سنين طويلة مضت.

كان يخرج من المكتب بعد أن يلوح لحرس الباب مودعًا، ينظر يمينًا ويسارًا، وقد سيطر عليه خوفه القديم الذى لا يزال كامنًا، لم يُمس، كان ينظر بحذر إلى هؤلاء الذين يقتربون ويمعن النظر حال وجود سيارة تقف فى وضع مشتبه فيه، وبمجرد أن يبتعد صوب وسط الميدان، حيث يوجد تمثال الجنرال، يتحول إلى غريب ويبدأ رحلة بحثه، يفحص وجهًا تلو الآخر، يتجسس دون أن يلفت النظر ويعود دائمًا إلى نفس الأماكن: مكتبة القلب المقدس حيث شوهدت الطفلة آخر مرة، ويتجه صوب ممر كابا والحدائق التى تقع فى أقصى الجنوب للمدينة، على حافة الجانب المزروع بشجر الصنوبر والذى يصب فى الحقول، فى التموجات الأولى للوادى.

فى بعض الأمسيات كان يجوب أسوار المدارس ساعة خروج التلاميذ. يسمع من بعيد صخب الأطفال أو يظل ساكنًا بين الأمهات اللائى ينتظرن على الرصيف وحينئذ يعن له وجه الطفلة الميتة التى رآها فى الصور وفى شريط الفيديو الذى سجل حفل التناول، وهو نفس الوجه الذى رآه تحت ضوء المصباح والفلاش الذى أطلقه "فيريراس"، الطبيب الشرعى، أسفل الأغصان العالية لأشجار الصنوبر عند المنخفض حيث وجدها بالصدفة بعض كناسى البلدية بعد مرور يوم وليلة بأكملهما من البحث. كان فى حوالى التاسعة مساء ولم يكن قد تأخر الوقت عن ذلك، قال فيريراس عد ذلك وهو ينزع عن يديه قفاز البلاستيك محدثًا صخبًا غير لطيف ثم غسلهما بالماء الساخن أسفل الصنبور: «ماتت حوالى التاسعة، ما لا نعرف كم استغرقت كى تموت؟!»

واقترب مرة أخرى من المائدة التى تستلقى عليها الجثة شاحبة اللون، النحيلة، الزرقاء، العارية، المجروحة فى ركبتيها، كانت ترتدى جوربًا أبيض. قالت الأم أمام المفتش وهى ترى شريط فيديو حفل التناول أن الطفلة كانت تبدو كالعروس، وذلك وسط جو من الحزن الجاثم فوق الشقة التى لم تعد إليها "فاطيما" بعد أن ذهبت لتشترى ورقًا مقوى وعلبة ألوان شمع من المكتبة المقابلة لمنزلها، وحيث توجد الآن صور لها مثل الصور الموجودة فى الكنيسة، توجد إحدى الصور على مسند فوق مائدة التلفاز، وصورة أخرى معلقة على الحائط داخل إطار مذهب، وصورة أخرى بالألوان مطبوعة على خامة تشبه القماش.

جلس المفتش فوق الكنبة وقدمت له السيدة بحفاوة بالغة بيرة وطبقًا به زيتون، وكانت تحثه على تناولهما بينما تنظف أنفها بمنديل ورق، ثم وضعت شريط الفيديو، أو دون مقدمات أو إنذار، ظهر فى المستوى الأول وجه الطفلة، بشعرها المموج الذى يعلوه تاج، ترتدى فستانًا أبيض عليه قماش من الشيفون، نفس الفستان الذى ألبسوها إياه بعد موتها، لكنها كانت قد كبرت بعد مرور عام على حفل التناول، لذا اضطروا أن يتركوه مفتوحًا من الخلف واضطروا أيضًا أن يضعوا لها مكياجًا كى يخفوا قدر استطاعتهم العلامات والبقع الزرقاء حتى لا يُلاحَظ ما رآه المفتش فى المنخفض، أسفل أشجار الصنوبر العليلة، لقد رأى عينين مفتوحتين، عمياء، زجاجية، مستديرة، مفتوحة جدًا مثل فمها.

كان يغطى فمها شيء تسبب فى اختناقها، عبارة عن قماش ممزق ومبقع بالدم قام بإخراجه بعد ذلك ببطء الطبيب الشرعى، كان لا يزال مبتلاً باللعاب الكثيف، لم يكن بالدم سائل منوى، قال فيريراس، وهو يشير إلى أحد البقع بطرف القلم، شعر وقتها المفتش بنوبة من القرف والبرد وبداية غثيان،

وسرعان ما أدى به إلى رغبة محمومة فى البكاء. ولكن كان من المستحيل أن يبكى، لقد نسى البكاء، فلم يعرف أن يبكى ولم يستطع البكاء أثناء دفن والده، وربما حدث هذا لوالد الطفلة، كانت عيناه جافتين وحمراوين، عين من لم ينم ولن ينام لوقت طويل، حتى لو نام فلن يجد الراحة لأن فى النوم سوف يتكرر اختفاء ابنته والخوف، والبحث، ثم المكالمة التليفونية، وجرس الباب وظهور المفتش واثنين من الحرس فى زى رسمى وسيخلعون قبعاتهم قبل أن يقولوا أى شيء. لم يبك الرجل؛ فتح فاه واهتز فكه السفلى وصرخت زوجته الصرخة الذى لم يستطع هو إطلاقها، صرخت وهى فى الردهة دون أن تواتيها الشجاعة لتقترب من الباب عندما دق الجرس. صرخت وسقطت على الأرض وجاءت امرأة أخرى لمساعدتها، ومنذ ذلك الحين بدا للمفتش أنه لم يكف عن سماع بكاء المرأة، ولا حتى بعد مغادرته للمنزل وعودته إلى القسم وهو ينتوى ولكن دون تحديد عمل شيء بعينه، يبرر موقفه، يفكر أن الجريمة لن تمر بلا عقاب، وأن هناك تحريات وبحثًا ممكنًا وأوامر هو فقط من يقدر على إصدارها.

فى الليل، كان مستلقيًا على الفراش، فى الظلام، طوال ليال كثيرة من الأرق يتوق دون اقتناع حقيقى إلى الكحول والسجائر، كان يرى تتابع الوجوه المختلفة للطفلة فى خياله، وجهها عندما رآها أول مرة، والوجه الذى رآه فى غرفة التشريح عندما أزاح الطبيب الشرعى الملاءة لكى يشرح له الإصابات، ويمر بخياله أيضًا الوجه الأخير الذى رآه لها فى شريط فيديو حفل التناول. كان يرى فى الظلام هذه الوجوه ثم يبدو الظلام أكثر عتامة، ويرى الوجه الآخر دون ملامح، وجه أحد ربما لا يستطيع هو أيضًا النوم فى هذه الساعة، وجه شخص من المؤكد أنه يوجد فى هذه المدينة، يمشى فى شوارعها ويذهب إلى عمله ويسلم على جيرانه. حينئذ كان يعتدل المفتش فى بعض المرات مثل من كان على وشك النوم وهاجمته أزمة قلبية مفاجئة، كان لديه

إحساس مستحيل بأنه على حافة ذكرى ولكن لم يكن يحدث شيء، ولا حتى كان يأتيه النوم، أو كان يأتيه النوم فقط عندما يبزغ الشروق، كان يفكر فى صباح ذلك اليوم مع بداية الضوء الذى كان قد حدد له وجه الطفلة، جسدها المكوم الذى يمكن أن يبدو من بعيد كأنه كومة ملابس ملقاة هناك فى المنخفض حيث يقذف بعض الحمقى القمامة مثل: أغطية زجاجات البيرة المكسورة أو صناديق النبيذ وعصير الأناناس الفاسدة. فى ذلك الصباح فوجئ بأنه مستيقظ وكان قد رأى الظهور التدريجى لضوء الصبح وعرف فقط أنه نام عندما أيقظه، مثل طلقات الرصاص، رنين جرس التليفون.

اضطرب وخشى أن يكون المتحدث من المصحة، خشى أيضًا أن يتلقى خبر أحد التفجيرات أو خبر موت أحد زملائه فى القسم، ولكن عندما أفاق تذكر أنه لم يعد الآن فى بلباو[1]، وأنهم أذنوا له بالنقل منذ شهور، وذلك بعد انتظار طويل، عندما فات الأوان. دائمًا ما تحدث الأشياء عندما لم يعد هناك حل، تذكر كيف نظرت إليه زوجته عندما عرض عليها قرار النقل، وأظهر لها ظرفًا حكوميًا تطل الورقة من أحد أطرافه الممزقة. عندما اقترب منها كان ثبات مآقيها يجرح ولكنها لم تكن تنظر إليه، كانت تنظر خلاله، لم تكن تنظر إلى التلفاز ولا صوب النافذة التى انتظرت بجوارها مرات كثيرة، وإنما كانت تنظر إلى الحائط، إلى ورق الحائط الملون للشقة التى عاشت فيها سنوات كثيرة دون أن تشعر أنهما يعيشان فيها، وعندما حان الرحيل أدركت فقط أن هذه السنين مرت دون اهتمام، دون فائدة، منذ نهاية مرحلة الشباب وحتى الدخول فى مرحلة عمرية أخرى لا يمكن تسميتها بشكل منطقى مرحلة النضج، يشعر المفتش الآن أنه يقطن مرحلة مؤقتة غير رحبة وربما

---

(١) عاصمة مقاطعة البايس باسكو بشمال إسبانيا وفيها نشأت منظمة إيتا الإرهابية التى استهدفت فى عملياتها كثيرًا من رجال الشرطة. (ت)

تكون نهائية مثلما يقطن الشقة الخالية التى يعود إليها كل يوم منهكاً من كثرة المشى بعد النظر إلى وجوه لا يعرفها ويعود إلى الفراش الذى يبدو أن الأرق ينتظره فيه مثلما ستنتظره زوجته عندما يأذنون لها بالخروج من المصحة.

٢

قال الأب أوردونيا «لله المجد» بينما نطق هو الإجابة الأوتوماتيكية التى لم ينطق بها مرة واحدة طوال أكثر من ثلاثين عامًا: «لله المجد والتقديس دومًا». يبدو الأب أوردونيا أقل حجمًا ولكنه ليس أكثر هرمًا، كان يرتدى نظارة سميكة العدسات لها إطار قديم، لكنه لم يزل يتمتع بشعر قوى كثيف، لم يغزه الشيب تقريبًا، وإذا كان يمشى وهو منحنٍ قليلاً يجر قدميه فهذا لا علاقة له بالعمر؛ لأنه كان يمشى بنفس الطريقة عندما كان أصغر من ذلك بسنوات كثيرة وهذا لا يرجع إلى كونه أخرق وإنما إلى إهماله لمظهره وانغلاقه على ذاته. ومن المثير للدهشة أنه لا يرتدى ثوب القس ولم يحلق وسط الرأس ولا يمد يده إلى من يدخل عليه ليُقبلها. ولكنه كان عليه الانحناء أو الركوع عندما يصل إلى مكانه، كان يخفض رأسه ويقبل ظهر يده برفق وحينئذ يلاحظ عن قرب رائحة الثوب أو رائحة الصابون أو الكولونيا التى تغمر الأيدى البيضاء، الناعمة جدًا والباردة دومًا، أيدى باردة لها ملمس الشمع أو الحرير. أما الآن فلا يستطيع التعرف على أيدى الأب أوردونيا، فهى أكثر ما تغير فيه، الآن هى أيد كبيرة وقوية بعد سنوات من العمل العضلى، لا يزال براحة اليد بقايا من الخشونة، تبدو أيدى عامل وليست أيدى قس رغم أنه اعتزل العمل بالكنيسة منذ وقت مضى. الآن ما هو إلا شخص متقاعد أو كما يقول قطعة أثاث قديمة، مهدد دائمًا بأزمة قلبية أخرى ربما تتسبب فى موته. لم يعد يدخن ولا يسمح لنفسه بتناول كوب صغير من النبيذ مع الطعام، قال وهو يضحك إنه لم يكن يجرب إلا نبيذ القداس الذى يبلل به بالكاد شفتيه، كانوا قد منعوا عنه الملح ولم يحزنه هذا بالقدر الذى أحزنه منعه من التدخين، فى شبابه كان مولعًا بالسجائر، لقد كان يجلس خلف مكتبه فوق المنصة فى قاعة الدرس يلف على مهل سيجارته بينما يسأل عن كتاب

تعليم أصول الدين. أما فى الليل فكان يُسمع من غرفة نومه صوت سعاله الربوى وعندما يقترب وجه طفل من يده اليمنى كان يشم رائحة التبغ ويرى بقعة النيكوتين الصفراء بين إصبعيه السبابة والوسطى. أما ثوب الأب أوردونيا فكان يفوح منه رائحة الشمع، والكنيسة والبخور والتبغ.

«لله المجد» قال الأب أوردونيا بعد بضع ثوان مترددًا إثر اندهاشه عندما وجد من ينتظره فى حجرة الاستقبال الصغيرة، وذلك لأنه لم يعد يتلقى زيارات كما كان يحدث من قبل عندما كان هذا المكان نفسه، الذى يسكنه الآن، مكانًا للعزاء والسلوى وللمناقشات السياسية، حتى أنه كان مأوى للبعض فى أوقات الشدة. ذات مرة دخلت الشرطة بعد أن كسرت الباب وفتشت أوراق الأب أوردونيا وكتبه للبحث عن شخص لم يكن هناك، ثم ذهبت بعد أن تركت كل شىء ملقى على الأرض والباب شبه مخلوع من المفصلات. منذ ذلك الوقت تبقت بعض الآثار القديمة على الحوائط: لافتات مضى عليها عشرون عامًا أصبحت الآن قديمة جدًا، صورة "لتشى جيفارا"، ملصق "لأنطونيو ماتشادو" مدون عليه أبيات شعرية أسفل الصورة،[1] هناك ملصق آخر عليه خريطة باللونين الأخضر والأبيض وامرأة شابة رسمت بطريقة خرقاء وبدت أنها استيقظت من النوم أو نهضت بصعوبة من الأرض: «انهضى وسيرى يا لوثيا[2]». كانت كل الصور صفراء شاحبة غير مثبتة جيدًا على الحائط، ولكنها معلقة بشكل مرتخٍ مثبتة بدبابيس المكتب. وبدت، خاصة، كطابع قديم ومعتاد على الفاقة، الأريكة والمقاعد

---

(١) **أنطونيو ماتشادو** (١٨٧٥ـ ١٩٣٩): أحد شعراء إسبانيا البارزين فى القرن العشرين، ترك إسبانيا أواخر الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦- ١٩٣٩) متوجهًا إلى فرنسا ولكن لم يمهله القدر للوصول إلى باريس وتوفى ودفن فى كوليل، مقاطعة فرنسية على الحدود مع إسبانيا. (ت).

(٢) تشكل هذه الجملة جزءًا من النشيد الوطنى لمقاطعة أندلسيا وهى صرخة لطلب الحرية والاستقلال. (ت)

المغلفة ببلاستيك أخضر اللون، بثقوب قديمة من حرق السجائر، مثلما هو حال منازل الفقراء، كانت هناك ثلاجة فوقها، منذ زمن بعيد، زهرية ذات رقبة طويلة ورفيعة مطلية باللون الأزرق وبها أزهار جافة، وبجانبها، على الحائط، تقويم للآباء ربارادوريس[١]، عليها صورة شديدة الاتساخ للعائلة المقدسة وهى تعمل فى ورشة يوسف النجار.

إذا كان الأب أوردونيا لا يبالى بالرفاهيات فإنه لا يبالى كثيرًا بالديكور؛ لأن الزهد الفطرى لا يسمح له بالتوقف كثيرًا أمام مذاق الطعام، وجعله لا يرى التفاصيل المادية للأشياء المحيطة به، لا يرى سوقيتها، قِدمها أو حالة إفلاسها. بالنسبة له سيان أن يكون ظهر السرير الصغير الذى ينام عليه من الفورميك، أو يكون الحذاء الذى يرتديه، حذاء قس عجوز رحال، له مقدمة رومانية وكعب عريض، كان الحذاء موضة منذ عشرين سنة مضت. لم تكن تعوزه أيضًا سجادة يضع عليها قدميه عندما يستيقظ كل صباح حتى لا يطأ البلاط البارد. كان بمسكنه الصغير الذى يعوزه كل شىء، شقة صغيرة، مثل تلك الشقق الموجودة فى حى العمال، شىء، دون قصد، من متحف من زمن آخر، زمن ليس بعيدًا، ولكنه قليل الشأن، حتى بدا جزء كبير من كتبه مثل بقايا القديسين، زمن لم يعد حديثًا ولم يعد له وجود. لديه مجلدات لعلوم اللاهوت وعن ماركسية لينين، وكتب عن مجادلات شغوفة منسية حول الدين والالتزام، الإنسان والمجتمع وما بعد الوجود، كتب حوارية لشيوعيين وكاثوليك، ولديه أيضًا رواية سوقية من هذه الروايات التى تباع بسعر زهيد فى المكتبات الرخيصة ولها عنوان قديم جدًا يدعو للخجل: *القساوسة الجدد، القساوسة الشيوعيون*.

---

(١) تقويم القسيسين ربارادوريس يحمل تاريخًا مهمًا وهو ٣٠ مايو الذى يوافق الاحتفال بعيد كاثوليكى. (ت)

من يتذكر الآن ذلك، حتى الأب أوردونيا نفسه كان قد نسى المدينة التى خانته، الجزء الكاثوليكى والآرى، المرتد المظلم الذى خجل من الابن المسرف على نفسه الذى طلب نفيه وطرده من الحملة، بل طرده من نظام القساوسة: قادمًا من حيث أتى، حاملاً اللقب الذى كان يحمله. فوق الأريكة وفوق المقاعد البلاستيكية ذات اللون الأخضر، فى قاعة لأسرة فقيرة كانوا قد أقاموا اجتماعات سرية للمسيحية البدائية، احتفلوا بالتناول، بخبز قسموه بالأيدى ونبيذ لم يُشرب فى كؤوس من الذهب أو الفضة ولكن فى أكواب كبيرة من الزجاج المصنع، فى كؤوس الطعام الرخيصة التى توجد فى منازل وغرف الطعام لعائلات الطبقة العاملة، نفس الكؤوس الباهتة، المستهلكة التى يقدم فيها الأب أوردونيا القهوة باللبن الدافئ لزائره، الذى كان قد تعرف عليه دون أن يسمع اسمه. قهوة خالية من الكافيين، لبن بودرة، وماء، شىء لم يتعب الأب أوردونيا نفسه فى تسخينه على السخان الكهربائى الذى يحفظه فى خزانته.

«بارك هذا الطعام الذى سنتناوله»: أكواب ماركة دورلكس، بسكويت ماريا، صينية من البلاستيك عليها شعار دعاية لصندوق التوفير، مثلما هو الحال فى أحداث الحواريين، يجتمع المنصفون سرًا ليتقاسموا الفقر والمطاردة. كان الأب أوردونيا محاط بالشباب الذين كانوا قد صعدوا سرًا لزيارته، يرتدى سترة داكنة من الصوف، وبنطلونًا أزرق من القطن، يرفع يديه مثل الخطيب القديم، كانت يده كبيرة، عريضة وقوية تشبه الأيدى الرومانية من كثرة العمل. كانوا يناقشون بصوت خفيض رسالة القديس بيدرو وكتابات لينين التى تدور حول النشاط النقابى، وفجأة خُيل لهم أن عدوًا عنيفًا يصعد السلم وكسر القفل وفتح الباب ركلاً دون ضرورة لذلك؛ لأنه لم يكن هناك قفل ولا مفتاح.

نتيجة ذلك السطو البوليسى تلقى الأب أوردونيا الإشارات الأولى عن ضعف قلبه. أباح الرؤساء بسماحة يشوبها الرياء للأب أوردونيا القيام بكل واجباته الرعوية وحرموا عليه أن يقول أى قداس عدا قداس السابعة والنصف صباحًا الذى لا يذهب إليه أحد. شيئًا فشيئًا بدأ يظهر أشخاص على المقاعد كل صباح: منعوه من النطق بالعظة، ولكنه كان يختار فقرات من العهد الجديد أو من رسائل الأنبياء وكان يقرؤها بصوت واضح مسموع فى الفــراغ البـــارد المظلم للكنيسة فى تلك الســـاعة التى لم يبـــزغ فيها ضوء النهار بعد.

الآن لا يزوره أحد، وكانت صلته العادية والوحيدة بالعالم الخارجى هى سماع الاعترافات التى خصص لها جزءًا من وقته كل صباح بعد القيام بالقداس، أول قداس فى اليوم، قداس السابعة والنصف صباحًا التى تعد ساعة ليلية تمامًا فى الشتاء. ولكن كان يعجبه أن يلقى هذا القداس حتى وإن لم يأت إليه أحد، أو حتى عندما كانت توجد سيدتان أو ثلاث سيدات جادات، متفرقات يجلسن فى المقاعد الخلفية، فى الأماكن المظلمة للكنيسة. كان يفطر ويأكل فى زهد شديد فى المطعم الصغير الذى يظل مفتوحًا لأعضاء الجماعة الذين لم ينقلوا بعد إلى مقر آخر. ولأن قلبه يعانى من الضعف الشديد لم يعد يقوم بالنزهات الطويلة التى كان يقوم بها من قبل، عندما كان يتنزه عبر الأماكن المرتفعة وفى طريق الحقول. أيضًا لم يعد يكتب خطابات كثيرة مثلما كان يفعل من قبل. الشىء الذى كان يخصص له جزءًا معقولاً من وقته كان ترتيب الخطابات التى كانت تحوى فقرات يفتخر بها كثيرًا مثل الخطابات التى كتبها له لويس الثوسير[١] فى بدايات السبعينيات، أو الخطاب

---

(١) لويس ألتوسير Louis Althusser (١٩١٨ ــ ١٩٩٠): فيلسوف ماركسى. (ت)

المكتوب على الآلة الذى كتبه بيير باولو باسولينى[1] حول فيلمه الذى يحمل عنوان: *الإنجيل وفقًا للقديس متى*، أغرى هذا الخطاب الأخير الأب أوردونيا أن يؤطره ويعلقه على حائط غرفته، ولكن بعد وقت طويل من التداول مع نفسه خَلُص إلى أنه إذا فعل ذلك سيرتكب إثم الخيلاء أو الأسوأ منه وهو الكبر الدنيوى السطحى؛ لذا حفظ الخطاب ولكن ليس مع الخطابات الأخرى وإنما فى درج خوان السرير بداخل صفحات كتاب العهد الجديد المغلف بالجلد الأسود المرن والذى حمله معه منذ أن كان يدرس فى المدرسة الأكليركية.

كان يستمع إلى راديو صغير محمول كان يصحبه معه فى الصباح إلى الحمام عندما يقوم بنظافته الشخصية، ويجادل بصوت عال فى بعض الأحيان مع مقدمى البرامج أو مع السياسيين الذين يجرون معهم اللقاءات، كان قد سمح لنفسه بنقطة الضعف هذه دون أن يعرف أحد، أثر من عاداته القديمة فى النقاش خطوة خطوة، بنظام ومنهجية مع جدال عنيد ومزدوج بين اللاهوتية والماركسية. ما زال يملؤه الحماس رغم أن أى انفعال سرعان ما يؤثر على القلب، كان يسمح لنفسه بنوبات من الغضب الدينى ضد فضيحة أصحاب النفوذ فى العالم، ولكن لم يعد يعبر عن هذا علنًا، وذلك لأنه متعب أو لأنه لم تواته فرصة لذلك. بأية قناعة يمكنه أن ينبئ بمملكة العدل على الأرض لعدد كبير من السيدات الكبيرات المتفرقات، اللائى يرتدين المعاطف القاتمة ويركعن كل صباح فى نفس التوقيت ويشغلن نفس المكان المنعزل بين صفوف المقاعد، سيدات يعرفهن بأسمائهن ويكررن نفس الآثام التى يهمسن بها بعد ذلك فى الاعتراف، دون أى ندم وبالطبع دون أى نية فى القلق أو التأثر،

---

(١) **بيير باولو بازولينى Pier Paolo Pasolini** (١٩٢٢ــ ١٩٧٥): شاعر وكاتب ومخرج سينمائى إيطالى. ألف وأخرج فيلم *الإنجيل وفقًا للقديس ماتيو*، وهو إنتاج مشترك إيطالى ــ فرنسى ١٩٦٣ وقد حصل على عدة جوائز. (ت).

بشيء من مواظبة الموظفين على القرابين المقدسة. كان يمضي وقتًا طويلاً بمفرده يلوث نفسه ببطء بمرارة تأخر الزمن والشيخوخة التي لم يعرها إهتمامًا والتي لم يقف عندها في الأساس، أيضًا لم يتوقف أمام سأم الطعام الخالي من الملح، أو برودة البلاط في الغرفة، أو القبح والرائحة السيئة لأنبوبة الغاز التي يستدفئ بها، أو إناء الإنارة الأزرق الكهربائي الحديث أو الغطاء البلاستيكي الأخضر للمقاعد والأريكة. لم يكن يعير اهتمامًا لكآبته ولم يكن يشتكي من الوحدة، ولكن عندما تعرف على الزائر، الذي ظل صامتًا أمامه في الضوء الخافت لقاعة الاستقبال، أخرق، لم ينطق باسمه بعد، كان لديه فيض جريء من المرح، وفزع من الامتنان الذي كان يبلل عينيه بالدموع وأيقظ أكثر المشاعر المختبئة في روحه: الحنان القديم والحنين بلا سبب، ندم ضروري وحاسم تسبب في جزء منه الذكريات المشوشة.

قال الأب أوردونيا: – لله المجد.

أجاب المفتش بشكل آلي، دون أن تتدخل إرادته أو ذاكرته، تاركة بالكاد الكلمات تخرج من شفتيه: – لله المجد والتقديس دومًا.

٣

يحمل أحدهم سرًا، يغذيه بداخله كأنه حيوان يلتهمه، مثل السرطان، تتكاثر الخلايا فى الظلام المطبق داخل الجسم، تتضاعف فى الظلام الطرى الرطب، يتحرك الظلام تحت إيقاع كالطبل البعيد، بداخل ضمير لا يعرفه أحد تزدهر خلايا سرطانية بقدر ما تزدهر ذكريات مهيمنة، وصور سرية لا يستطيع أن يتشارك فيها مع أحد. صور لن تتركه أبدًا، صور تعزله دون سلوى عن باقى البشر. توجد الآن فى ذاكرة وفى أعين شخص ما صور لجريمة لا يمكن محوها، فى هذه اللحظة ذاتها تنظر العيون فى مكان ما فى المدينة. عيون عادية، هادئة، وربما تكون مثل عيون أى شخص عادى.

لكن عيون أى شخص، عيون الشخص نفسه، يمكن أن تبعث على الخوف الشديد. كان المفتش ينظر إلى نفسه فى مرآة الحمام الصغير المجاور للمكتب، تذكر فى خجل كامن وقتًا ليس ببعيد عندما كان ينظر إلى نفسه فى مرايا البارات بعد أن يحول الكحول عينيه الحمراوين إلى عينين مضطربتين، زائغتين. عاد إلى المكتب الذى كانت تعلوه فى غير نظام صور المجرمين والمشتبه فيهم، يحمل وجه كل منهم سرًا، فى عينيه وخلف نظراته، كل وجه به جزء من التحدى والخوف والكره، عيون ذكية، عيون غبية، عيون بلا شفقة، العيون التى رأت اللحظات الأخيرة من حياة الطفلة، المآقى التى ضاعفت الصورة المحدبة الصغيرة، مثل الرؤية من خلف ثقب الباب. كانت صورة الطفلة، المعلقة فوق الحائط، والتى سلمها والداها عندما أبلغا عن اختفائها، ذكرى، أمرًا عاجلاً، لمواصلة البحث، ولكن أيضًا كان النظر، بالنسبة للمفتش، إلى هذا الوجه البشوش العذب، إلى العيون الكبيرة الواسعة

التى لا يوجد فيها أى أثر للارتياب، ولا الإحساس بالألم، طريقة لعدم التفكير فى الصور الأخرى، لكى لا يتذكر الوجه ذا الجفون المغمضة، والفم المفتوح جدًا الذى كان قد رآه فجأة على ضوء الفوانيس فى حفرة بجانب جذع شجرة الصنوبر دون أن يفهم فى البداية وبشكل كامل ما كان يراه، الجلد الشاحب، وضع الرأس وكأنها مفصولة عن الرقبة، الرجلين المتباعدتين جدًا، الحركة غير الممكنة للفم الكبير جدًا كأنه ثقب، ثقب غير آدمى به نسيج أبيض وقذر للباس داخلى يخرج منه مثل القئ أو الفضلات، استغرق المفتش وقتاً ليميزه.

عيون قد رأت قاتلها وهو يخنقها، ما هى الذكرى التى تحملها الآن فى وعيها، فى أى مكان تذهب إليه، ربما حتى فى الأحلام، بماذا كانت تشعر الطفلة فى النهاية. لا يستطيع أى شخص أن يتحقق من هذا أبدًا. لا أحد بمقدوره أن يفهم امتداد الشعور وعمقه ولا قسوة الخوف، ليس بمقدور أى شخص سوى فاطيما، الطفلة نفسها، التى لم يعد لها وجود، بعد مضى ثوان أو دقائق من اللهاث، الفم المفتوح، الأصابع الذكورية تدفع بداخله اللباس الداخلى الممزق، وصل القماش إلى الحلق وضغط على اللسان ودخل إلى فتحات الأنف: خرج أحد أطراف اللباس الداخلى من إحدى فتحات الأنف. ثم حدث أن توقفت العينان الحيتان والفزعتان عن النظر، جسد ميت فجأة، جسد له صفة الزجاج، تأكد هو من أنها لم تعد تتنفس وابتعد عنها، مضطربًا من أثر المجهود والضيق، وبسبب المجون القذر، كان القمر بدرًا بين الأفرع الطويلة لشجر الصنوبر، الوجه أكثر بياضًا الآن، الوجه المستدير الذى لا يزال طفوليًا، لا يزال وجه طفلة، وليس وجهًا فارقته الحياة مع آخر ضوء وصورة متخيلة فى المآقى، وأيضًا انعكاس مقعر وبعيد للوجه الذى يميل فوقها ليتأكد من أنها لم تعد تتنفس بعد.

صعد التل، ربما متلمسًا طريقه يتعجل الهرب، وطأ أوراق شجر الصنوبر التى كانت تطقطق تحت نعل حذائه، ولكن هل من الممكن أن يكون قد جهز لكل شيء ببرود؟، بالإضافة إلى المطواة كان يحمل فانوسًا رغم أنه لم يكن ضروريًا لأن القمر كان بدرًا فى تلك الليلة. تذكر المفتش الضوء الذى كان يملأ الغرفة عندما أيقظه كابوس، ولم يستطع العودة إلى النوم حتى أشرق الصباح. كان قد استيقظ ليذهب إلى الحمام وقد رأى عبر النافذة مستطيلاً أزرق فى الظلام وتحديدًا فى المنتصف فوق أسطح المنازل وأسلاك أجهزة التلفاز. كان القمر بدرًا كبيرًا أبيض، كان بريقه البارد الفسفورى يبرز الأحجام دون أن يلون الجو، عندما عاد من الحمام ثنى الوسادة حتى لا يتمدد كلية وظل متكئًا مستيقظًا ينظر إلى القمر عبر النافذة ثم يلتفت صوب الحائط كى يرى كم الساعة فى ساعة المنبه الرقمية الموجودة فوق خوان السرير. كان قد سمع صوت أجراس ساعات أبراج المدينة، كانت أجراس ساعة الميدان التى تقع بجوار قسم الشرطة هى أكثر الأجراس عنفًا وقربًا حيث تتسبب فى اهتزاز زجاج مكتبه بشكل خفيف. ربما فى نفس الوقت الذى استيقظ فيه المفتش من النوم ووجد نفسه يرتطم بالأرق، كان الآخر، القاتل، حديث العهد بالقتل، قد رقد على السرير لتوه، ما زال مستيقظًا، متعبًا ومنزعجًا وربما كان قد أخفى الملابس وفكر فى أن يعدمها فى الصباح التالى بعد أن استحمّ بعناية، لعل الاستحمام منحه بلا شك إحساسًا بالراحة، أو إحساسًا بالذوبان تقريبًا؛ لأنه بعد أن يستحم الشخص مباشرة دائمًا ما يشعر بالبراءة. أما إذا كان لا يعيش بمفرده فإذن كيف يكون قد دخل البيت دون أن يلفت نظر أى شخص، دون أن تخرج زوجة، أو أم لتفتح له الباب أو أن تستيقظ إحداهما لتسأله أين كان ولماذا تأخر كثيرًا؟. امرأة ترتدى الطيلسان والخف، عصبية، شعرها أشعث تقف ساكنة فى غرفة الاستقبال وفى يدها سيجارة يخرج منها الدخان وهو؛ أى المفتش، يقف ساكنًا بجانب الباب الذى

أغلقه لتوه، متعبًا جدًا أو ثملاً لدرجة تُصعِّب عليه اختلاق أى عذر، أى كذبة معقولة، ويريد تجنب أن تشم رائحة أنفاسه أو ملابسه.

كيف تمكن القاتل من التخفى أمامهما، أمام الزوجة أو الأم، أين وكيف استطاع أن يمحو قبل وصوله إلى المنزل آثار ما وقع، كيف أمكنه محو البقع والأوساخ التى يمكن أن توجد فى شعره وملابسه، كيف أمكنه أيضًا محو الرائحة، من يعرف إذا كانت تفوح منه رائحة عرق أو دم. من يمشى ليلاً أو نهارًا فى المدينة دون أن يخفى سرًا؟!. على الطريق آباء كانوا يتجولون بالسيارة يراهنون على الشابات العاهرات، أجساد نحيلة وأرجل عارية وعلامات تدل على وخز الحقن فى الأذرع. أزواج بعد خروجهم من المكاتب وقبل عودتهم إلى المنزل يقومون بجولة فى البارات التى يذهب إليها صبية أو يقومون باتصال تليفونى جاء فى إعلان فى إحدى صفحات الاسترخاء فى الصحف بجوار إعلان بالكلمات، يفكرون فى الوعد بالإثارة الخفية، بأنه جريمة وخيانة بدون أثر، بلا عواقب، بلا ذكرى وبلا إحساس بالذنب. الكل يحمل سرًا كما يحمل بطاقة شخصية ومعها جرعة صغيرة أو حارقة من الخجل، بخدعته المتخفية، مع ذكرى ساعة من الخيانة أو المجون المدفوع بكارت الفيزا ومعه سر رغبة ظهرت ببساطة عند النظر إلى امرأة أخرى على الجانب الآخر من الشارع بينما كان يمشى مع زوجه التى تتأبط ذراعه. مع الحضور الخفى أو غير المعروف لفيروس أو لمرض أو لتأنيب ضمير.

ودون أن يشعر المفتش كان الجو قد أمسى وبدأت تمطر خفيفًا وهو بمفرده فى مكتبه معطيًا ظهره للشرفة، كان يتذكر جسد الطفلة الباهت الميت، يتذكر عينها المغمضة وفمها المفتوح، وكما يتذكرها دائمًا وسط حفرة واسعة من الضوء الأصفر للمصابيح، شعر بقشعريرة وبإحساس عضوى غير لطيف على الإطلاق، إحساس بالقئ مثل من يستيقظ فى مكان غير رحب

ومبلل، مثل من يلمس شيئًا مبللاً وغير معروف فى الظلام، إحساس بالضيق وبالرحمة، إحساس بالغضب المنزوع السلاح وليس له حدود، أيضًا إحساس بالرعب ثم فجأة الإحساس بالغيظ.

إذا نظر من الشرفة وشاهد من يعبرون الميدان كان من الممكن أن يرى القاتل، وجهًا طبيعيًا، عيونًا رأت ما لم يتذكره أى شخص فى المدينة كلها. ومن بين من يحملون أسرارًا مشينة أو رديئة أو بائسة أو صبيانية، كان ذلك الرجل هو الملك الخفى، المالك المطلق لأسوأ سر من كل هذه الأسرار، لأسوأ وصمة لم يعترف بها إلى الآن.

الاعتراف أمام القس هو أكثر الأسرار أهمية وقدسية. كان الأب أوردونيا قد قال له إن كم الأسرار التى استمع إليها فى عتمة غرفة الاعتراف على مدار سنوات كثيرة هى دون شك أكثر الأفعال خجلاً من الأفعال التى عرفها المفتش طوال حياته كرجل شرطة. وانتابه الرغبة فى الخروج إلى الشارع دون حتى أن يحفظ ملف الصور والصحيفة الجنائية، ارتدى السترة والمعطف وخرج فى ليل نوفمبر يمشى فى المدينة يتأمل وجهًا وجهًا، وجوه كل الرجال، الوجوه الغبية أو الوجوه الفظة، الوجوه المنتفخة والوجوه الدموية من كثرة الطعام أو من شرب الكحول، الوجوه الوحشية للسائقين الذين يصرخون فيمن يعبر طريق المشاة ببطء شديد، أو من يطلق صافرة العربة بغيظ لأن السيارة التى تتقدمه لم تَدُر عندما أُضيئ اللون الأخضر لعمود الإشارة: وفجأة وجه جامد أو وجه هادئ لأحد السائقين تغير وتحول إلى قناع قاس لشخص يمكن أن يكون هو القاتل، شخص يشتم ويتحدى، احمر وجهه من الغضب وتوتر الفكان وبرزت أنسجة عروق الرقبة، إنها ملامح قاتل تقتحم وجهَ سوقىٍّ وتحوله مثلما تفعل فى شعر الرجل الذئب فى ذلك الفيلم الذى أذاعه التلفاز فى ساعة متأخرة منذ عدة أيام. هذا التحول يجعله يرى

الطفلة في وجه ذلك الرجل المجهول أو المعروف. من يمكنه أن يعرف ذلك، لا يجدب أن يكون لهذا الرجل مظهر يقلق، فجأة يتحول بالنسبة لها إلى وحش مخيف أسوأ من أى كابوس، إنه يتحول مثل الفيلم: وجه بشرى يتحول إلى قناع حيوانى يتنفس فوقها بين أشجار الصنوبر، يرمى بنفسه فوقها مثل ذى الأربع أو مثل حيوان من آكلى لحوم البشر.

كانت الساعة المعتادة التى يتحدث فيها يوميًا إلى المصحة، لم يصبر المفتش على الاستمرار حبيس المكتب، كان يريد النزول إلى الشارع وهو متدثر بالسترة الواسعة ذات اللون الأخضر الداكن، غير مرئى؛ لأنه لا يزال غير معروف إلا لأشخاص قليلين فى المدينة، نزل ليمارس ما يفعله: ينظر إلى الجميع، فردًا فردًا، يتفحص النظرات، النظرات التى تتقابل مع نظراته، والعيون التى تتجنب النظر إليه، أو التى تركز بصرها على الأرض أو التى تنظر فى الفراغ. مضطربًا وأعمى بسبب قلة النوم، إذا أغمض عينيه وتبنى حالة من التوتر الذهنى الحاد كان سيشعر أن بمقدوره أن يرى ذلك الوجه، يراه أمامه فى الظلام، لا يرى وميض الجفون المغمضة وإنما يرى الملامح التى رأتها الطفلة، الملامح التى ربما هو نفسه قد رآها ولم يعرف أن يميزه: كان ممكنًا أن يكون الوجه فى ذاكرتها، كانوا يقولون أيضًا منذ حوالى قرن من الزمان أن وجه القاتل يظل متحجرًا فى مآقى الضحية، وإذا التقطت صورة دقيقة بشكل كافٍ لمآقى الضحية، يمكن أن تُرى الصورة صغيرة، مزدوجة، مذنبة، نهائية، مريعة، وعادية أيضًا، هى ملامح وجه شخص ارتكب جريمة قتل.

اتصل بهاتف المصحة وأراحه أنه سمع الخط مشغولاً، سيحاول أن يطلب فيما بعد من البيت؛ لأنه يُسمح بالاتصال حتى التاسعة. حفظ الصور فى الخزانة ثم أغلقها بالمفتاح، لا تزال خزانة مصنوعة من المعدن لمكتب

قديم يتبع وحدة سياسية واجتماعية. استحم بمياه باردة وعندما أبعد المنشفة المبللة غير النظيفة عن وجهه، ورأى فجأة عينيه الحمراوين بسبب الأرق، عاد إليه من جديد الإحساس بأنه أوشك على رؤية أو تذكر عين الرجل الذى يبحث عنه، مثل من هو أوشك على تذكر كلمة لا تأتى إلى ذاكرته، كلمة يسعى وراءها كى يقحمها فى وعيه، فقاعة تصعد من العمق وتفرقع وتبقى فى لا شىء، أو تذكر اسم لسبب ما يستعصى على النطق، أو وجه لا توجد طريقة لإعطائه الاسم واللقب المنوط به، واحد من هذه الوجوه لمن يموتون ويظهرون فى الخلاء ولا يطالب بهم أحد بعد ذلك.

ولكن وجه الميت يصبح فى الحال بلا اسم، كل وجوه الضحايا فى صور الطبيب الشرعى تشبه بعضها البعض؛ لأن الجريمة لم تحطم صلتها بالحياة فحسب وإنما أيضًا حطمت أى نوع من صلة يربطها بالعائلة. كان المفتش سيخرج من مكتبه ولكنه عاد عندما وصل إلى الباب، وكاد أن يغلقه، رغم أنه كان قد وعد نفسه بألا يفعل، ولكنه عاد وفتح الدرج حيث يوجد ظرف أصفر يحوى صور الطفلة المتوفاة ووضعه فى أحد جيوب السترة، ووضع شريط الفيديو الذى كان قد رآه عدة مرات وحفظه عن ظهر قلب فى الجيب الآخر. الفيديو الذى صور حفل تناول الطفلة فى مايو قبل عام من وفاتها. كانت الصور سيئة والألوان سوقية والكاميرا مترددة، صيحات وضوضاء الأطباق والموسيقى وقد اصطف الأطفال من الأولاد والبنات واقتربوا للتناول، والآن تظهر الطفلة كأنها اختيرت لمأساة بفستانها الأبيض وتاجها، ووجهها الأسمر الباسم ويديها المضمومتين أسفل الذقن، وعينيها اللتين لا يربطهما المفتش الآن بالعيون التى كان قد رآها فى الحفرة، وكذلك لا يبدو أن الوجه الذى يراه الآن يشبه الوجه الذى رآه أسفل المنحدر.

كان على وشك الجلوس مرة أخرى ليضيء مصباح المكتب ونسى كم تأخر الوقت، ولكن سمع أجراس ساعة البرج القريبة تعلن الثامنة، صوت الأجراس التى تجعل زجاج الشرفة يهتز قليلاً، يخرج الآن وهو أكثر حيوية، هبط السُّلَّم ووصل إلى المدخل المظلم حيث يدخن بعض الحراس وهم يستمعون إلى مباراة كرة القدم فى الراديو. كان يفكر: لن أذهب لأنام، ولم يكن هناك شىء يشغل به وقته ويخفف من بطء سيره، ليس هناك كتاب، ولا فيلم، ولا مباراة كرة قدم. يختلط صوت المذيع بصيحات الجماهير مع أصوات الصفارة ورسائل إذاعة قسم الشرطة، ليس هناك شىء، الوقت فارغ مثل الحجرة غير المأهولة، هناك الأرق الذى لا يقلل منه التدخين ولا يخفف أو يعكر صفوه الكحول، ولا يلهيه وجود أى شخص. قبل أن يخرج من مكتبه كان المفتش قد فحص الميدان عبر الشرفة، الرصيف الأسود اللامع أسفل المطر، المكان الصغير المشجر المقابل للقسم حيث توجد نافورة وتمثال، وتصطف عربات التاكسى: ظاهريًا لا يمكن الاشتباه فى أحد، لا أحد يحوم، ليس هناك أى سيارة متوقفة بشكل لافت للنظر، كان لدى الحراس تعليمات صارمة أملاها عليهم هو بنفسه كعادته بالطبع فى الحرص والريبة المبالغ فيها بسبب الخوف المستمر الذى لا يبتعد عنه أبدًا ولا حتى عندما لاحظ أنه هو نفسه نسى الخوف، يقل الخوف مع مضى الأسابيع. لاحظ أنه اعتاد على التنفس بشكل آخر وأنه سيتخلى قريبًا عن الحدة ورد الفعل والحدس باقتراب الخطر. يمشى الآن فى الشارع دون أن يخاف من أن يتبعوه ويبحثوا عنه، بل هو من يبحث الآن، ورغم أنه متعب جدًا إلا أنه غير قادر على منح نفسه هدنة والجلوس ببساطة فى أحد البارات ليشرب كوكاكولا أو قهوة ويقرأ الصحيفة دون أن يحافظ على رقابة لا تنام من حوله. وفجأة تذكر أنه لم يتصل بالمصحة ومنح نفسه العذر بأنه عندما اتصل كان الخط مشغولاً، ولكن هذا العذر لم يعفه من تأنيب نفسه ورأى فى هذه

الساعة الردهة التى تمر بها السيدات الحبيسات، إنه مكان محايد مثل الفندق، به ستائر من نسيج صناعى، ولوحات رخيصة بها مناظر طبيعية فوق الحائط، ستحضر أى ممرضة أو أية راهبة لترد على التليفون، وستنادى بصوت واضح وبارد فى مكبر الصوت على الاسم، تسير السيدات بسرعة ورتابة، يتقابلن دون أن يتكلمن أو يتكلمن مع أنفسهن، وجميعهن تقريبًا يرتدين اللباس الرياضى ويجرجرن أرجلهن وهن ينتعلن حذاء من القماش. إذا كان قد أخّر الساعة التى يتحدث فيها إلى زوجته كل ليلة فهذا لأنه كان يشق عليه أن يقيم محادثة طويلة معها. كان يحكى لها شيئًا ولديه إحساس مؤكد بأنها لا تسمعه. كان يسألها سؤالاً وكانت تستغرق وقتًا لتعطيه الإجابة، كانت هى تجيبه بنعم أو لا، وتظل صامتة وهو يسمع صوت تنفسها فى التليفون، وعندما تتصاعد أصوات أنفاسها فهذا لأنها بدأت فى البكاء. كانت تبكى فى التليفون مثلما كانت تبكى فى صمت وفى الخفاء فى كثير من المرات فى ظلام غرفة النوم، كانت تبكى دون نحيب ودون حدة كأن بكاءها شىء خاص جدًا، ليس له علاقة به، بزوجها، الذى كان يظل صامتًا يسمعها دون أن يفعل شيئًا أو يقول شيئًا، وبنفس الطريقة يظل أيضًا صامتًا على التليفون مثلما كان يظل صامتًا وهو ممدد بجوارها فوق السرير، على مسافة لا يمكن حسابها من البُعد والجفاء.

الكل مع سره المخبأ فى نفسه، يقرض فى قلبه، لا يمكن الاطلاع عليه أبدًا، لا يُطلع عليه الغرباء فحسب وإنما الأقربين أيضًا؛ سر الأزواج الذين يتنزهون متأبطين فى الشوارع ليلاً، الرجال الذين يقودون عرباتهم بمفردهم عند الخروج من العمل وينتظرون بفارغ الصبر أن تتحول إشارة المرور سريعًا إلى الأخضر، الرجال أو النساء الذين يرى المفتش ظلالهم فى نوافذ المنازل المضيئة، الأطياف الوحيدة التى تنزلق بالقرب من الجدران وتدلف بطابع من الحذر أو الهرب صوب ناصية الحارات. هو أيضًا، لا يعرفه أحد

وغريب عن المدينة، وصل لتوه إليها، يعيش بمفرده، يسير دون سكينة، ويظل فى غرفة نوم زوجية، غرفة لم تمكث فيها زوجته أبدًا، مستيقظًا حتى يبزغ ضوء الصبح. كان قد بدأ فى السير دون أن يدرك إلى أين سيذهب، يسير فى شوارع سيئة الإضاءة، شوارع بدأت تبدو مهجورة، كان قد وصل لميدان صغير به كنيسة حيث يسمع وقع أقدامه بشكل واضح، ثم ظل فى حارات لم يطأها من قبل. كان المطر قد توقف وكان القمر أبيض عاليًا ينزلق بين حزمة من الغيم، ولكن الهواء كان ثقيلاً ومحملاً بالرطوبة ومضببًا. كان يبحث عن الخروج إلى شارع رئيسى، ولكنه لم ينجح فى الوصول إليه. الآن لا يطأ الأسفلت، وإنما يطأ رصيفًا غير مستو، لامعًا أسفل الأضواء الخافتة للنواصى. وبالضبط فى أحد الأركان المؤدية إلى حارة كان هناك محراب به هيكل للمسيح يضيئه مصباح أصفر، اندهش من أن ذلك أخافه، ولكنه لم يكن الخوف المعتاد فى حياته كرجل ناضج، ولكنه خوف قديم جدًا، خوف قادم من رعب ذكرى أثناء الطفولة: خوف الأطفال من التيه فى الشوارع غير المعروفة والمظلمة. الآن لو قدم ناحيته شخص وتقابلا وكان هو قاتل الطفلة فلن يستطيع التعرف عليه. سار بسرعة أكبر دون أن يرى أحدًا، كان يسمع فقط أصوات أدوات المائدة وأصوات أجهزة التلفاز داخل المنازل لأنه من المؤكد كانت ساعة تناول العشاء. خرج بارتياح إلى شارع واسع جدًا ثم إلى ميدان خاو وسيئ الإضاءة، حينذاك رأى أنه وصل إلى المتنزه الصغير الذى يقع فى نهاية المدينة، على حافة الأسوار، بالقرب من المكان الذى ظهرت فيه جثة الطفلة، فكر وهو يدخل بين ظلال الحواجز وأشجار السرو ونبات الورد المهجورة أن القاتل قد عاد، كان يسمع وقع أقدامه فوق حصى الحديقة، وفوق الزجاجات المكسورة. ولكن بدا كأنه يسمع وقع أقدام القاتل، كأنه يشعر بوجوده قريبًا منه، فى متناول يده الممدودة، الساكنة، وينتظره هناك فى نفس المكان بين ظلال الأشجار التى تبدو فى بعضِ الأحيان ظلالاً بشرية.

٤

خيم على المدينة الشتاء والخوف ووقوع الجريمة مع قشعريرة آنية عند الانزواء فى الشوارع الصامتة الخالية فى المساء، الشوارع التى هزمها المطر البارد والريح المفعمة برائحة الأرض التى ألقت فى غضون ليلة أو ليلتين كل أوراق أشجار الموز وأبى فروة التى كانت قد جفت قبل الصيف بسبب الجفاف الطويل. وعادت من جديد الأوراق الداكنة المبللة فوق رصيف الميدان، وسُمِعَ من جديد صوت الماء فى المصارف المصنوعة من الزنك وكان من الضرورى الخروج إلى الشارع بمعطف ومظلة وشراء سترات من البلاستيك وأحذية من الكاوتش للأطفال. جاء المطر الذى احتاجوه بشدة فى الوقت نفسه مع ليالى أكتوبر التى جاءت مبكرة وفاجأ المدينة خبر الجريمة والانتقال إلى فصل آخر مثل الخروج من نفق سيظهر فى نهايته مشهد غير معروف. الماضى، صيف كامل جاف، والأيام الأخيرة من سبتمبر التى ما زالت حارة قد بعدت مثل الوقت الذى سبق اختفاء ومقتل الطفلة، ووصول كاميرات التلفاز وفيضان من الصحفيين الذين استقروا فى ميدان الجنرال أوردونيا، أمام قسم الشرطة، مثل مستعمرة صاخبة من الطيور المهاجرة، ثم غادروا بعد ذلك بسرعة كما جاءوا وتركوا الأكواب الورقية وأدوات الطعام السريع ملقاة فى الحدائق التى تحيط بالتمثال فقط كدليل على وجودهم، تركوا أيضًا وعيًا مباغتًا من الكذب والعار. جاءوا من عاصمة المقاطعة، ومن أشبيلية ومن مدريد بنهم الطيور الكبيرة الجارحة، وشغلوا جوانب الميدان بشاحناتهم الكبيرة وعرباتهم المتوّجة بالأطباق الفضائية، هجموا على الناس دون احترام وفى أيديهم الميكروفونات وأقاموا حرسًا أمام البوابة التى كانت قد عاشت فيها الطفلة، وأحاطوا قسم الشرطة على مدار ساعات اليوم، حشد عارم ومدجج بالميكروفونات وكاميرات الفيديو وطقطقة الفلاش والتقاط

الصور، حاصرت المفتش مسجلات صوت صغيرة عند دخوله وخروجه. فى البداية فحسب عندما ظهرت بالطبع الجثة وجرت الإشاعة حول اعتقال أحد المشتبه فيهم وأن الشرطة تمكنت من تحديد مكان إحدى المكالمات المجهولة التى كانت تدق كل مساء فى بيت الطفلة، دائمًا فى الساعة نفسها حين بدأ يفكر والدها أنها تأخرت فى العودة، فى السابعة إلا ربع كانت الطفلة تقوم بفروضها المنزلية وذهبت إلى المكتبة لشراء لوح من الورق المقوى الأزرق وعلبة ألوان خشب ولم تعد. الآن هناك من يتصل بالتليفون فى ذات الوقت، فى السابعة إلا ربع، يتصل ويظل صامتًا، غير مرئى وغامضًا فى أحد أجزاء المدينة، بجانب التليفون شخص سادى لا يُعاقب حتى وإن لم يكن القاتل، وإذا كان يتصل فحسب بسبب فضول مرضى ليسمع الصوت اليائس والمحشرج للأب، قالوا إن المكالمات تحدث من بيت قريب، ربما تأتى من منزل فى نفس المبنى، وإن القاتل كان أحد معارف الأسرة، حتى لعله من أقارب الطفلة، وعلى مدار يوم أو يومين كانت كاميرات التصوير وأجهزة التسجيل ومعدات مراسلى التلفاز ظلت مركبة وقابعة أمام قسم الشرطة أو عند باب المحكمة، فى النهاية لم يتم معرفة شىء أو لم يُقَل شىء، وبدأ يختفى المراسلون بنفس ضوضاء العصافير المهاجرة التى أتوا بها، وبعد مضى أسبوع كانت قد اختفت من نشرات الأخبار ومن الصفحات الأولى الأنباء حول إشاعات جديدة أو دلائل جديدة وكانت توجد الأخبار فقط فى أقسام أخبار المجتمع فى الصحف.

فى أحد الأيام رأى المفتش وجهه فى نشرة الأخبار، التقطت صورته عن قرب، وظهر اسمه ومنصبه مكتوبًا أسفل الشاشة، كما لو كانت صورته غير كافية، اشتاظ غضبًا وانزعج أكثر مما كان هو نفسه مستعدًا للاعتراف به. كان يأكل على مائدته المعتادة فى "المونتيرّى"، فى الدور العلوى، بالقرب من النافذة التى يرى منها الميدان ويرى شرفة مكتبه، عندما ظهر وجهه على الشاشة نظر حوله وهو يخشى من أن يكون من يأكلون قد دققوا النظر، لم

تكن هناك موائد كثيرة مشغولة ورغم أن الجميع كان يعير انتباهًا مشتتًا لنشرة الأخبار، لم يلتفت أحد إليه. فى المونتيرّى اعتاد أن يأكل المسافرون بمفردهم أو أحد الموظفين الذين نقلوا حديثًا مثله، أو أشخاص يمرون بالمدينة. سأل نفسه إذا كان أحد المجهولين الذين كانوا يرسلونهم إليه عندما كان يعيش فى الشمال كان قد رأى هذه الصور وفهم بشكل غير لطيف أنه لديه شعور بالجبن غير الشريف، جُبن مُركَّز من أن يصل إليه هؤلاء بغتةً بسبب قلة الحرس. كان قد بدأ يعتاد على نسيان الخوف بشكل جزئى وذلك لأنه حتى ذلك الوقت كان عنده حد معقول من الأمان بأن من كانوا يهددونه بالقتل منذ عدة شهور مضت لن يستطيعوا معرفة إلى أين نُقل، والسبب الثانى الذى جعله ينسى الخوف كان لكونه معزولاً وغائبًا عن كل شىء لأن البحث فى مقتل الطفلة كان مسيطرًا عليه تمامًا حتى أنه محا وأبعد كل ظروف حياته الأخرى، زوجته فى المصحة، ماضيه فى الشمال، المكالمات الهاتفية التى يعلن له فيها صوت شاب بأنه سيموت، الأظرف غير المغلقة التى تُترك فى صندوق بريده، حتى أنه حدث ذات مرة، قبل بضعة أسابيع من وصول قرار النقل، أن تُرِك ظرف أسفل باب الشقة. دق جرس باب شقته مرات كثيرة ولم تجرؤ زوجه التى كانت بمفردها على فتح الباب ولا حتى من أن تقترب من العين السحرية ورأت وهى صامتة بعد أن شلّها الخوف ظهور طرف الظرف الأبيض شيئًا فشيئًا وبداخله صورة فوتوغرافية قديمة للمفتش ومقصوصة من مجلة بوليسية، صورة منسية منذ عشرة أو خمسة عشر عامًا وعلى الصورة رُسم بقلم جاف شكل صليب يشطب على وجهه وعليها حروف كبيرة: ر،ى، ب، وتاريخ ميلاد المفتش ووراءه تاريخ سيأتى بعد بضعة أيام قليلة.[1]

---

(١) الأحرف هى R.I.P: وتعنى باللاتينية "ارقد فى سلام"، كذلك هى اختصار لفرقة موسيقية فى البايس باسكو (إقليم الباسك) وهو مقاطعة حكم ذاتى فى شمال إسبانيا. (ت)

رأى وجهه على شاشة التلفاز ولكن ظهوره لم يستغرق أكثر من ثانية وفى جميع الحالات كانت المرة الأخيرة التى يشيرون فيها إلى موت الطفلة فى نشرة الأخبار. فجأة خاف من أن الآخرين ينسون الطفلة بنفس الإصرار التافه الذى نسى به الصحفيون الطفلة بعد مضى أسبوعين أو ثلاثة، وعد نفسه بألا ينساها. سيستمر فى البحث عن نظرات القاتل فى وجوه وفى عيون من فى المدينة، سيفحص كل فصول التحريات والتحقيقات، وكل الاعترافات والشهادات وتقارير الطبيب الشرعى والصفحات المكثفة المكتوبة على الآلة الكاتبة والتى نسخت عدة مرات من النص القضائى، سيدرس القصص البوليسية التى أملاها بنفسه: صفحات مكثفة مكتوبة دون علامات وبها أخطاء هجائية، كتبها الحراس الذين يجيدون استخدام إصبع السبابة فقط على الآلة الكاتبة، صفحات قرئت وكررت برتابة فى ليالى الأرق ولها صيغ قانونية، رغم ذلك تحفظ دون مساس الإيحاء بالفزع وذكرى ليلة مظلمة من ليالى أكتوبر الباردة المضببة بأمطارها الخفيفة التى كانت تتحرك فيها الفوانيس بين الجذوع العريضة لأشجار الصنوبر وأخيلة أجساد رجال الشرطة التى بالكاد تخرق الضباب وتعبر من خلالها أحزمة النور المنحرفة للفوانيس التى تُذَكر بعواكس مضادة للطائرات.

قال الطبيب الشرعى الذى ركع بجوار الطفلة فى الدائرة المتقطعة من النور حيث تصادفت عدة فوانيس منها فانوس المفتش:

- ماتت منذ ليلة أمس، فى أى ساعة قالوا إنها اختفت؟

قال المفتش دون أن يستطيع أن يبعد عينيه عن وجه الطفلة ذات الجفون شبه المغمضة الشاحبة وعن طرف القماش الذى يخرج من فمها ومن إحدى فتحتى الأنف:

- في حوالى السابعة إلا الربع، قبل ذلك بدقائق كانت قد رأتها صاحبة المكتبة.

- أعتقد أنها لم تعش أكثر من ساعتين.

أشار قاضى التحقيق المناوب إلى البقعتين البنفسجيتين. مثل البقع القديمة التى تظهر فوق سطح الرخام. على جانبى الرقبة التى ظهرت بعد أن شف عنها ضوء الفوانيس، وقال:

- ماتت مخنوقة، أليس كذلك؟

قال الطبيب الشرعى:

- أعتقد أنه خنقها، أدخل اللباس الداخلى إلى عمق الحلق، حاولت أن تتنفس عن طريق الأنف، وكل ما استطاع عمله هو سد فتحات الأنف.

قال الشرطى المناوب:

- أراد ألا تصرخ.

صحح المفتش بجفاء:

- أراد قتلها.

ثم مال بجوار الطبيب الشرعى كى يفحص جيدًا وعن قرب البقع التى على جانبى الرقبة، انعكست حركة ولمعان ضوء المصباح على انتفاخات العين التى لا تغطيها الجفون. بدت العيون لمدة ثانية وكأنها تنظر، عميت من اقتراب المصابيح، فصان نحيلان أبيضان، دون مآق، عادت للحياة بسرعة البرق أسفل الرموش الطفولية. كان الفم المفتوح عبارة عن حركة فظة من الرعب الذى لا يمكن مسامحته، مثل الرجلين المنفصلتين جدًا والتواء الرأس بقوة ناحية الكتف الأيمن، حيث يظهر فيه بعض الخدوش وبعض العلامات

الزرقاء مثل العلامات الموجودة فوق الرقبة، ولكن على الجفون فى الحافة المثنية من العيون التى تلمع تحت الرموش كان هناك تعبير شبه هادئ وعذب وهدوء مصون ولم يمس للحلم الطفولى.

قال الطبيب الشرعى بصوت خفيض وهو لا يزال محنيًا فوقها:

- فى النهاية فقدت الوعى، كان نقص الأكسجين بمثابة التخدير.

يعلن لنفسه أو للطفلة الميتة أملاً من نظام خاص، ليس له علاقة بالمرة بمهنته ولا بحضور الآخرين، ولا حتى بالعدالة أو بالجريمة، لكنه له علاقة بالرحمة الأخيرة الممكنة، بالراحة أو بعفو الموت.

٥

مثل كل مساء كانت تجلس على مائدة الطعام بعد أن أبعدت بحذر زهرية الورد كى تضفى مساحة أكبر تحتاجها لكراساتها المخططة وكتبها التى غلفتها بنفسها بورق بلاستيك لاصق والعلبة المزودة بزمام منزلق حيث تحفظ فيها أقلام الرصاص، ومبراة القلم والممحاة، كل فى مكانه وجميعها جميلة فى نظرها، ناعمة الملمس والنظر والرائحة، كانت منغمسة فى القيام بفروضها المنزلية، منحنية فوق حافظة أوراقها العريضة ذات الأشكال الدائرية غير مبالية بصوت التلفاز شديد الارتفاع حيث يشاهده أبوها وأخواها الصغيران.

كان يعجبها كثيرًا رائحة أقلام الرصاص ورائحة الكراسات ورائحة الممحاة النفاذة المثيرة للحواس، رائحة الخشب، ورائحة الحبر الحامض لأقلام الفلوماستر ذات الخطوط العريضة، كانت منهمكة تكتب بالقلم الرصاص الذى شحذ سنه بشكل جيد دون أن تخرج عن الخطين الأزرقين للكراسة، أو أن تلون رسمًا انتهت لتوها منه، منغمسة تمامًا حتى النخاع بجدية طفولية رقيقة دون أن يزعجها صوت التلفاز المرتفع ووجود أبيها وأخويها الصغيرين يشاهدونه، لم تكن تسمعهم، كان يكفيها بسط كراستها وأقلامها الرصاص فوق المائدة حتى تنغمس فى سعادة شاقة، كانت ترتدى حذاء رياضيًا وجوربًا قصيرًا وقدماها تتشابكان أسفل المائدة، ينسدل شعرها القصير عند مستوى الذقن على جانبى وجهها، به فرق إلى اليسار يمسكه مشبك شعر من البلاستيك على شكل إطار نظارة وردية اللون.

لا أحد يتنبأ بأى شىء، لا أحد يكتشف فى سلسلة الأحداث المتماثلة والمتكررة أى علامة تسمح بتمييز آخر حدث وقع. وُجد بعد ذلك مشبك الشعر ملقى بجوارها، بعد أن أُنتزع بعنف وما زال يعلق به مجموعة من الشعيرات التى أحصاها وفحصها فيريراس، الطبيب الشرعى، ثم حفظها بعد ذلك فى كيس صغير من البلاستيك مغلق بإحكام، وكتب عليه بخط يديه: "شعر الضحية". فى كيس مماثل تمامًا للكيس الأول وضع مشبك الشعر، وفى كيس ثالث حفظ شعرة واحدة، شعرة قصيرة، حالكة السواد وليست من شعر الطفلة، قام فيريراس بعد ذلك بتحليلها لأنه كان متأكدًا أنها تخص القاتل. كانت الطفلة قد انتهت من عمل واجبات الرياضيات والعلوم الاجتماعية ووضعت الكراسة والكتب فى الحقيبة المدرسية، وكان عليها تنفيذ نشاط يدوى، طلبت من والدها نقودًا لتذهب إلى المكتبة لأنها كانت تحتاج إلى ورق مقوى أزرق وعلبة ألوان شمع. كانت إعلانات التلفاز صاخبة وكان أخواها الصغيران يتعاركان على شىء على الأريكة، لذا لم يفهم والدها فى البداية ما تقول، ظل ينظر إليها والسيجارة فى فمه، ثم طلب من الطفلين وهو غاضب أن يصمتا وأن يخفضا من صوت التلفاز، وقال: لا أحد يمكنه أن يحاط علمه بشىء فى ذلك المنزل. كان قد اعتاد أن يقول نفس الكلام كل مساء، كأن ذلك المساء مساء عادى، أيضًا، وكما يحدث دائمًا سقط رماد السيجارة فوق الكنبة، ونظرت إليه فاطيما وهى تخفى استياءها لذلك الأمر، كانت تضايقها رائحة الدخان، رائحة الدخان الأسود التى تُدرَك بمجرد الدخول فى الشقة الصغيرة قليلة التهوية، يفوح من الشقة رائحة التبغ وزيت عباد الشمس، فكر المفتش بمجرد الدخول إلى الشقة، فى حياة التقشف الصعبة، والفقر الذى تصحبه الكرامة. تخرج فاطيما وهى تقبض بيديها على الخمسمائة بيزيتا وتغلق الباب خلفها، ولم يرها الأب حية بعد ذلك. كان يعجبها كثيرًا الذهاب إلى المكتبة ومشاهدة ما تحويه واجهتها من دفاتر جديدة، علب الألوان، أغلفة

كتب براقة، حافظات الفرجار وأقلام الحبر، والأقلام الثمينة، ولكن ما كان يعجبها حقًا هو دفع الباب الذى يعلوه جرس يدق، والاقتراب من طاولة الشراء وهى تشم رائحة مَكثفة وهادئة فى الوقت نفسه، رائحة ناعمة ونفاذة، رائحة هدية فتحت لتوها صبيحة يوم الملوك المجوس[1]. وُجد الورق المقوى على بُعد أمتار من الجثة، كان قد تدحرج فى المنحدر إلى أسفل قليلاً، وكان لا يزال مربوطًا بالصمغ المطاطى التى كانت قد وضعته صاحبة المكتبة بعد أن لفته على شكل إسطوانة فوق طاولة الشراء. أما علبة ألوان الشمع فقد سحقها أو داسها شىء، كانت مفتوحة وبعثر جزء من محتوياتها بين الأوراق الجافة لأشجار الصنوبر، فكر فيريراس: ربما هناك الآن فى نعل حذاء شخص ما بقعة كريمية ملونة ودليل اتهام، سيكون هذا دليلاً قاطعًا، ورغم ذلك لن نكتشفه، وبالمثل من الجائز جدًا ألاّ يفيدنا تحليل الدم والبصمات التى لا تخص الطفلة، والشعر الأسود القصير والذى هو دون شك شعر رجل. عندما وجدوا الجثة كانت بدأت تفقد حالة التيبس، وفوق الجلد الميت الذى يشبه الشمع وعلى الجانب الخلفى للرقبة كان يميز بدقة مطبوعة علامات ضغط إصبعى السبابة والإبهام. وفى الجزء العلوى من اللباس الرياضى، وبالتحديد أعلى الكتف كان هناك أثر ليد كاملة، يد شبح، واضحة مثل طباعة حبر، أو طين طرى ملطخ بدم، ليس دم فاطيما. لا أحد غير مرئى، لا يمكن لأحد أن يمر دون أن يُلاحظ: هذه اليد التى يمكن أن تطابق هيئتها بالتحديد بقعة الدم الموجودة أعلى كتف سترة اللباس الرياضى توجد الآن فى مكان ما، تفعل شيئًا ما، يد مثل أى يد أخرى: بريئة، محايدة، ربما تمسك بسيجارة

(١) فى السادس من يناير يحتفل فى إسبانيا بيوم الملوك المجوس وبحسب التقليد الإسبانى هم ثلاثة ملوك يأتون للاحتفال بميلاد السيد المسيح، وهم من يحضرون الهدايا للأطفال فى هذا اليوم مثل بابا نويل فى الولايات المتحدة الأمريكية. (ت)

من ماركة فورتونا[١]، كان هناك خمسة أعقاب سجائر بجوار الجثة، استنفدت حتى الفلتر، وطئها بجوار ألوان الشمع المحطمة. جمع فيريراس أعقاب السجائر واحدة واحدة بملقاط ووضعها فى كيس بلاستيك وهو يفكر فى أقل جرعة معلومات تحتويها هذه الأعقاب: اللعاب الجاف، علامة على أحد الأسنان. ووضع فى كيس آخر ألوان الشمع السليمة والمنسحقة والمكسرة، وعرض على صاحبة المكتبة علبة الألوان التى وطئتها الأرجل، والورق المقوى الأزرق الملفوف على شكل إسطوانة والمغلق بصمغ، قالت إنها هى الأشياء التى كانت قد اشترتها الطفلة، تذكرت أنها قد أضاءت الأضواء قبل دخول الطفلة بوقت يسير؛ لأنهم كانوا قد غيروا التوقيت وقدموا الساعة منذ وقت قليل، لذا فى السادسة والنصف عندما نزلت الطفلة كانت قد بدأت تمسى. بدا لها أنها تراها باللباس والحذاء الرياضى، وهى تمسك جيدًا بالنقود فى يدها الصغيرة، كانت تشترى دائمًا أشياء بسيطة من المكتبة: قلم رصاص، ممحاة ملونة، إحدى الكراسات القديمة للخط التى كانت تتحمس لها معلمتها، الآنسة سوسانا، كانت فاطيما تلقى السلام بشكل مهذب جدًا عند دخولها وعند مغادرتها، والكلام لصاحبة المكتبة، ليست مثل أطفال كثيرين فى هذا الزمان، ودائمًا كانت تقول شكرًا. لم تكن تأتى فى صحبة أحد، وكانت آمنة، لم أكن أعرف إذا كان ينتظرها أحد بالخارج، انتظرت بصبر جميل حتى قِست لها وقصصتُ الورق المقوى، ثم لم تتأخر كثيرًا فى اختيار علبة ألوان الشمع، كانت تعجبها كل العلب كثيرًا لدرجة أنها لم تقرر بسهولة، ولكن لأن النقود التى كانت معها لم تكن كثيرة، كان عليها أن تشترى الأقل ثمنًا. كانت من أولئك الأطفال الذين يذهبون للشراء وهم يقبضون جيدًا على النقود فى راحة أيديهم، لذا عندما يسلمون النقود للمحل، كانت العملة تحمل حرارة يد بشرية: كانت تتذكر صاحبة المكتبة هذا، تتذكر العملة فئة

---

(١) ماركة سجائر، ذات لون فاتح وطعم مخفف. (ت)

الخمسمائة بيزيتا التى سلمتها إياها الطفلة، تتذكر العملة دافئة ومبللة بقليل من العرق، شرحت لها الطفلة بأن عليها أن تسلم عملاً يدويًا فى اليوم التالى، وودعتها بنفس النبرة الجادة والمرحة التى سمعتها منها فى أوقات أخرى، رأتها صاحبة المكتبة وهى تدير ظهرها باللباس الرياضى وردى اللون، وشعرها القصير، وحذائها الرياضى الأبيض، والورق المقوى تحت الإبط، أغلقت الباب خلفها وسُمِع صوت الجرس ولم ترها بعد ذلك أبدًا. ولم يرها أحد بعد ذلك إلا بعد مرور ثلاثين ساعة عندما وجدها بعض موظفى البلدية، على الجانب الآخر من المدينة، على جانب أشجار الصنوبر التى تتحدر بميل من حدائق كابا إلى بساتين الوادى. يبدو أن لا أحد رآها حية سوى قاتلها، كانت قد خرجت من المكتبة وغرقت بغتة فى هوة، أو فى حفرة غير مرئية من الفزع الليلى، وعندما وجدوها فى المنحدر كانت كأن البحر قد ابتلعها ثم أعادها إلى ضفة بعيدة وهى مفسخة وعارية، كانت ترتدى الجورب فقط، وكانت زرقاء ومتحجرة تحت ضوء القمر فى ليلة تمامه، الذى يقص بدقة مطلقة ظلال أشجار الصنوبر.

يشعر أبوها عندما كان يتذكرها فيما بعد وهو تحت تأثير صاعقة الألم المخدر أنه من الغريب أن تكون الصورة الأخيرة التى تبقت لابنته هى صورة مماثلة لصور أخرى، صورة متكررة ومعتادة: يجلس هو على الأريكة بجوار ابنيه الصغيرين، لا يزال أصغرهما بالحفاظة والمصاصة المسكتة، التلفاز الكبير الذى يعمل بكل صخب، فى حجرة السفرة الصغيرة، الضيقة بسبب حجم المكتبة التى تشغل الحائط بأكمله، كان الطفلان يتناولان وجبة المساء الخفيفة وهما يشاهدان الرسوم المتحركة والإعلانات. كانت فاطيما قد جهزت لأخيها الصغير زجاجة إرضاع الفاكهة، مثلما قالت لها والدتها عندما كانت ستخرج، ليس من الضرورى أن يُذكّر أحد فاطيما بذلك؛ لأنها من أولئك الأطفال الجادين الذين تعودوا منذ أن كانوا صغارًا على

المساعدة فى البيت وعلى رعاية الإخوة الصغار. هذه الجدية القديمة للطبقة العاملة، هذا ما قالته للمفتش الآنسة "سوسانا جراى" معلمة فاطيما على مدار ثلاثة أعوام دراسية، ولأنها وجدت أن هذا التعليق بدا للمفتش غريبًا نوعًا ما، اهتمت أن تعبر بشكل جيد، قالت: "ما أريد قوله هو أنها كانت بجدية أطفال الطبقة العاملة الذين اعتادوا على التعلم منذ صغرهم الوعى بالمجهودات وقيمة الأشياء، يساعد الأولاد والدهم فى الورشة أو فى الحقل، وتساعد البنات أمهاتهن فى المنزل، ودون أن يدركوا كثيرًا، ودون أن يفقدوا تمامًا الإحساس بأنهم يلعبون، يصلون إلى التاسعة أو العاشرة من العمر بغريزة تحمُّل المسئولية التى اختفت فى الأجيال الأخيرة ولم يتبق لها أثر". قال المفتش: أترين هذا سيئًا؟

لا أراه بأى شكل. أحكى لحضرتك ما أعرفه فحسب. منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا كان أبناء هذه الطبقة أقوياء، وكان لديهم مفهوم عن العمل وعن التضامن. الآن أصبحوا أكثر فقرًا عمّا سبق، لكنهم لا يملكون أى شىء ولا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم.

كان للآنسة سوسانا طابع من الريبة لا يمكن إخفاؤه ونفور دفاعى، ولكن كان يلاحظ أنه سلوك دخيل عليها، ربما حرض عليه عداء غامض تجاه الشرطة والتحقيقات. كانت تتحدث كأنها تشك فى إمكانية أن يفهمها مفتش شرطة. كذلك بالنسبة لها، بسرعة لا يمكن ملاحظتها، تحولت فاطيما إلى شخص من الماضى، إلى صورة أخيرة من الطبيعة اليومية التى كانت قد تحطمت بغتة والآن تجاهد كثيرًا فى إعادة بنيانها من الذاكرة: لا تنتبه لما يحدث كل يوم، لا تعرف أنه عندما يقول أحد إلى لقاء الغد أنه يودع للأبد. كانت دائمًا آخر من يخرج من الفصل لأنه كان عليها أن تحفظ كل شىء بمنتهى النظام ومنتهى الدقة فى حقيبتها، قالت ذلك الآنسة سوسانا وأشارت

إلى المقعد الذى كانت تجلس عليه فاطيما، مقعد مثل المقاعد الأخرى، فى منتصف الصف بجوار النافذة، مقعد من مادة صناعية، لونه أخضر، بال، قليل الجودة، مثل كل المقاعد فى القاعة، مثل المدرسة بأكملها، كل شىء كان مستهلكًا ومتدهورًا، حديث ورغم ذلك قديم، مصنوع من خامات رخيصة جدًا. كان يلاحظ هذا الاستهلاك بصفة خاصة عندما تصبح القاعات والردهات خاوية، وتنتقل هذه العدوى بشكل ما إلى المعلمين، إلى الآنسة سوسانا التى رغم ذلك لها طابع شبابى غير محدد، شجاعة، جادة رغم التعب، فى نهاية يوم دراسى كامل.

أشارت إلى المقعد الذى كانت تجلس عليه فاطيما، مقعد مثل باقى المقاعد ولكنه أصبح خاويًا، لأنه الآن مقعد طفلة ميتة، ولم يشغله أحد، له شكل بسيط، سطحه صناعى، يبدو أنه تهالك مؤخرًا، مقعد سيئ الصنع ولم يعتنَ به، فجأة اكتسى صفة درامية من الضعف والخراب، صفة مكان مهجور لا يمكن إصلاحه، أوذى بالغياب، وبالموت. كانت فاطيما غيابًا أكثر منها ذكرى؛ لأنه من الصعب التفكير فى طفلة مثل التفكير فى شخص قد مات. يشير مقعدها الخاوى والمطابق للمقاعد الأخرى بشكل قوى إليها مثل الصور أو مثل اللباس الرياضى المتسخ، المبقع بالدم، أو مشبك الشعر الصغير البلاستيكى الوردى اللون الذى يعلق به بعض الشعيرات. كان المقعد الذى كانت قد جلست عليه منذ بداية العام الدراسى والذى قامت من عليه قبل ساعة ونصف بالتمام من اختفائها النهائى، كانت تجمع حافظة أوراقها وحقيبتها عندما انتهت الآنسة سوسانا من مسح السبورة، قالت لها كما كانت تقول لها كل مساء بأن تُعجِّل، أجابتها الطفلة بلطف بأنها بطيئة فى كل شىء، ودائمًا تكون الأخيرة فى الخروج.

ولكنها فى الواقع لم تكن متأكدة من تذكر هذه المرة الأخيرة بالضبط. ربما، دون أن تعى جيدًا أنها كانت تزيفها، استخدمت ملامح تنتمى لأمسيات أخرى كثيرة لكى تعطى مصداقية لروايتها، مثل الأب من كثرة يأسه وسيطرة فكرة الألم والندم، لم ينجح فى التأكد من أن آخر ذكرى لها كانت حقيقية، لم يكن يستطيع أن يعيش كل لحظة من اللحظات التى أمضاها مع ابنته، كل تفصيلة كانت كأنها تكرار حالم لتفاصيل أمسيات أخرى. المعاناة والأرق كانا يتصرفان مثل الأحماض فوق هذا المشهد القصير فى ذاكرته، فوق هذه الساعة التى أعاد بناءها بعد ذلك فى صوت عال مرات عديدة مثلما عاشها فى خياله وفى أحلامه، فى الأحلام القاسية التى لا تغتفر التى لا تطلب فيها ابنته نقودًا لكى تذهب إلى المكتبة، أو فى الأحلام التى تعود فيها الابنة من الشارع، مثلما كان يحدث دائمًا، تعود بهمة ولديها نشاطات كثيرة لأدائها، مثلما حدث فى كل مرة من المرات التى كانت تذهب فيها لشراء شيء من المكتبة أو من متجر، وكانت ترجع دون أن يفهم والدها أو يمتن لقيمة عودتها، لهبة وجودها غير الملموس والمستمر، لعذوبة وتحفّظ مشاعرها الطفولية.

قالت المعلمة سوسانا جراى، وهى تقف بجوار مقعد فاطيما وعيناها تتجهان صوب الفناء حيث يلعب بعض أطفال الصفوف الأخيرة كرة القدم حتى تتجنب نظرة المفتش:

- تعرف ماذا كان يؤرقنى فى مرات كثيرة؟ أشرع فى التفكير فى أنه لو لم أطلب منهم ذلك النشاط اليدوى لم تكن قد ماتت.

إذا لم تذهب إلى المكتبة لتشترى الورق المقوى وأقلام الألوان، إذا لم يتركها والدها، إذا كانت والدتها قد طلبت منها أن تصاحبها فى الذهاب للتسوق، لو كانت أمها أصرت قليلاً عندما أخبرتها فاطيما أنها لن تستطيع مصاحبتها لأنها يجب أن تنهى فروضها وتنفذ النشاط اليدوى، وإذا لم تذهب

الأم، لو تدخل أدنى قدر من الحظ لمنع المسيرة الفظة للأحداث المتتطابقة، إذا لم تكن طفلة جادة فى حيوية طاقتها الطفولية، إذا لم تكن تستمتع جدًا بالورق المقوى والمقص الصغير وبالمساطر وأقلام الرصاص الملونة وبالأحرف الكبيرة التى كانت تلونها وتقصها ثم تلصقها بعد ذلك بدقة وعناية فوق الورق المقوى للحوائط. فى أوقات الأرق، فى ساعات النوم القليلة التى تمنحها له المهدئات والتى تحرك نفاذ المعاناة، كان يتذكر أبوها بوغزة من القشعريرة اللحظة المحددة التى طلبت فيها الطفلة النقود لتشترى ورقًا مقوى وكانت قد خرجت تغلق الباب خلفها محدثة صوتًا كبيرًا، يتذكر هذا الآن ولكن بلا شك لم يسمعه حينذاك: كان يتخيل أو يحلم أنها لم تخرج، أو أنها عادت بعد خمس دقائق وقد وجدوا فيما بعد بجوار الجثة لفة الورق المقوى الأزرق ممزقة وذابلة، كان يفكر فى أنهم بحثوا عنها ساعات فى الشوارع والغابات المظلمة وأنها تظهر فجأة باسمة وهادئة، بذلك الطابع من البطء الذى كان لها عندما تقوم بالأشياء التى تعجبها حقًا، وتسألهم لماذا انشغل بالهم كثيرًا؟، إنها كانت تتسلى قليلاً فى المكتبة فحسب، أو إنها كانت تلعب فى الشارع مع إحدى صديقات المدرسة.

تنزلق كل الأشياء بهذه النعومة دون حوادث حيث يتم استعادتها والاشتياق إليها كثيرًا بعد وقوع المصيبة، كل حدث يتشابك مع التالى للوصول إلى المساء الأخير من حياة فاطيما، الآن تتآمر الأحداث المعتادة لتدفعها إلى الموت، مقعدها النظيف فى القاعة بجوار الحائط المصنوع من البلاط القيشانى الصحى والنافذة التى يشاهد عبرها ملعب، مشيتها البطيئة من المدرسة إلى البيت، منحنية قليلاً تحت ثقل حقيبة الظهر المدرسية، تتكرر خطوات رحلتها بالضبط والطريقة التى تتوقف بها دائمًا فى مفترق الطرق وتنظر إلى كلا الجانبين لترى إذا كانت هناك سيارات قادمة، كل شىء فى موعده، فى الدقيقة المحددة، الدق على البوابة الآلية، وجبة العشاء الخفيفة،

يشاهد أخواها الرسوم المتحركة والإعلانات فى التلفاز ويدخن والدها بجوارهما على الأريكة، فى الصالون الصغير جدًا حيث لا يسع المكان أى شىء، ذهبت أمها التى كان من الممكن أن تنقذ حياتها ببساطة إذا اصطحبتها للشراء ورغم ذلك ذهبت من غيرها، يتكرر كل شىء مثل كل مساء، بآلية الأحداث اليومية للحياة، كل شىء يدفعها مثل التيار القوى غير الملاحَظ صوب تلك اللحظة بين السادسة والنصف والسابعة إلا الربع، صوب تلك البئر المظلم والمجهول الذى لن تعود منه أبدًا: مثل من يسقط فى البداية عندما يخطو خطوة، أو يضيع فى البحر ويظهر فى الليلة التالية مخنوقًا فوق ساحل بعيد وغير مأهول.

٦

قال الأب أوردونيا:

- اعتقدت أنك لن تأتى أبدًا لترانى.

لم يجب المفتش، ولم يبحث عن عذر لتأخره الطويل. ظل واقفًا فى البهو الصغير، بشعره المبلل الأشعث، كانت السترة تلمع من المطر الخفيف والعنيد، الصخب والهادئ، مثل مطر الشمال الذى يسمع يضرب فوق الأسقف القريبة، فوق الزجاج، تسيل من المواسير فوق أفنية الملاعب الخاوية التى عبرها المفتش كى يصل إلى غرفة الأب أوردونيا.

كانت المدينة تعيش داخل المطر والشتاء الذى عاد مثلما عاد الخوف المطلق من جديد، فى الانزواء الليلى للمنازل المغلقة، وفى أساطير رجل الجِوال، وصناع الزبدة، والمصابين بالدرن الذين يعودون ليحصوا الأطفال بعد مرور جيلين لم يعرفا أكثر من القشعريرة المتخيلة فى التلفاز. لأول مرة بعد مرور وقت طويل عاد الأطفال ليحملوا معهم إلى المدرسة أغطية رأس وأحذية المطر ويحصى بعضهم البعض، فى ردهات المدرسة، فى صخب القاعات قبل وصول المعلم، إشاعات خيالية حول قاتل فاطيما أو حول ظهور رجل طويل يرتدى الأسود، يرتدى قبعة ومعه مظلة يطل أثناء الفسحة من أسوار الأفنية، أو ينتحل صفة أب لأى منهم ساعة خروج التلاميذ ليراقب الأطفال الذين لا يأتى أحد لاصطحابهم. عادت الريبة تجاه الغرباء، عادت تُحكى من جديد قصص حول الرجال الذين يرتدون معاطف كبيرة ويقدمون الحلوى أو الذين يمرون ليلاً فى زوايا المدينة ومعهم جوال على كتفهم: أساطير منسية عن متجولين أو عطارين بغرض السرقة أو النهب ليست

سابقة فقط على التلفاز بل على السينما وعلى الضوء الكهربائى فى الشوارع، إنها بقايا من الأوقات التى يجلب فيها الليل ظلمة المخاوف والتهديدات، ليالى الشتاء الطويلة التى ليس بها ضوء سوى ضوء لمبات الكيروسين أو قناديل الزيت، فى تلك المنازل حيث يطقطق الخشب وتُسمع خدشات الفئران فوق أسقف من القنب والجبس، وصفير الريح فى خشب النافذة التى لا تغلق أبدًا بشكل جيد، والأصوات التى تهمس بقصص متحلقة حول النار أو حول المائدة المزودة بجمرة للتدفئة، بجوار مخدة الأطفال.

الآن، مثلما عاد الشتاء والمطر، عادت أيضًا مخاوف الليالى القديمة، وبالكاد عندما تمسى كانت تخلو الشوارع، وتُغلق بوابات المنازل بمفتاحين، تراقب الأرصفة الخالية من خلف ستائر النوافد للبحث دائمًا عن شبح لا يستطيع أحد أن ينسب إليه ملامح محددة إلا إذا كانت ملامح من الخيالات الطفولية المثيرة: رجل طويل يرتدى قبعة ومعه مظلة، شاب شعره أسود ويرتدى نظارة داكنة، يتجول فى الشوارع يقود سيارة حمراء، وجهه الشاحب يظهر ويختفى وفقًا لرتم عصا المساحات أسفل مطر الخامسة مساء بين فوضى السيارات والمظلات والأطفال الذين يخرجون من المدرسة.

قال الأب أوردونيا:

- سمعت أن لديك دليلاً مؤكدًا ضده، تحتفظ به سرًا حتى لا تحذره.

خلع المفتش سترته المبللة وقال وهو يشاهد بغرابة وحسرة كيف كان الأب أوردونيا يحمل السترة إلى المشجب وهو يجر رجليه فوق البلاط مرتديًا حذاء بيت من نعل كاوتش:

- لا نعرف أى شىء، أو تقريبًا لا نعرف إلا أن شعره أسود، وأن فصيلة دمه "O" وأنه يدخن سجائر "فورتونا".

- والبصمات؟
- فقط تستخدم لمعرفة المسجل لدينا.
- لكنك مبتل جدًا، سيصيبك البرد.
- فجأة لم يعد الأب أوردونيا يسمع المفتش، كان يفحص ملابسه وحذاءه بنوع من الاستعداد الأمومى القلق:
- انتظر سأشعل المدفأة.
- لا تكلف نفسك العناء.
- اصمت يا رجل، لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة.
- اختفى الأب أوردونيا عبر باب مجاور، لعله كان غرفته، وعاد وهو يدفع مدفأة غاز كبيرة لها عجلات، شيئًا كبيرًا وقديمًا قدم الإعلانات التليفزيونية فى بداية السبعينيات، فتح صنبور الغاز وببطء حذر بحث فى جيبه عن ولاعة، وعندما قرب الشعلة بيديه المرتعشة، اشتعل الغاز بوهج مباغت أزرق برتقالى.

قال الأب أوردونيا:

- من فعل شيئًا كهذا يحمله مكتوبًا فى وجهه، سيكون له علامة مثل قابيل عندما قتل أخاه وكان يريد أن يختبئ من الله.

قرب المدفأة من المفتش الذى شعر بالدوار من رائحة الغاز الساخن والمضر وجلس أمامه، وقد أصبح هرمًا منكمشًا فى كرسيه الكبير إلى حد ما بالنسبة لحجمه، أسفل مصباح الفلورسنت الطويل الذى يضفى على حجرة الإستقبال طابعًا إداريًا كئيبًا. تفاجأ المفتش أنه ما زال صوت ذلك الرجل الذى لم يره منذ أكثر من أربعين سنة وتعبيرات وجهه يحتفظان بمقدرة هائلة على إحراجه.

- الآن أخبرنى لماذا تأخرت كثيرًا لتأتى لترانى.

كان قد مضى عليه عدة شهور فى المدينة منذ بداية فصل الصيف وكان أول ما سأل عنه هو إذا كانت لا تزال المدرسة الداخلية لليسوعيين موجودة وإذا كان لا يزال أحد مؤسسيها على قيد الحياة، ذلك القس الذى كان شابًا وقتها الذى حسب ما يتذكر أنه قد حكى له أنه قريب للجنرال الذى عانى تمثاله من نقر طلق نارى قديم ولا يزال فى الميدان، مقابلاً لشرفة المكتب الذى يشغله الآن. أخبره نائب مفتش عجوز كان مكلفًا بصفة خاصة بالمهام الإدارية، أنه مضى وقت طويل على إغلاق المدرسة الداخلية ولكن الأب أوردونيا ما زال على قيد الحياة، وقال له فى نبرة بين التهكم والانزعاج أغضبت المفتش رغم محاولته التصنع باخفاء ذلك لأنه كان قد وصل لتوه ويفضل أن يحافظ على سلوك محافظ محايد، وأن يدرس من على مسافة محددة سلوكيات وردود أفعال الغرباء الذين سيصبحون من الآن مرءوسيه، الذين سيدرسونه أيضًا فى ريبة وخلفية من الإهانة تجاه من جاء من بعيد لكى ينتحل الفضائل التى تنتمى للآخرين. أكمل نائب المفتش:

- إنه حى، ولكن لم يعد كما كان، هذبته السنون كثيرًا. أعتقد أنه لم يعد حتى يقول القداس، لقد أصبح شيخًا.

- هل حقيقى أنه كان قريبًا للجنرال الذى له تمثال فى الميدان؟

قال نائب المفتش الذى كان يحمل فى يديه حزمة من ملفات كرتونية ونظر أيضًا باتجاه الميدان، كان صباحًا منعشًا فى بداية الصيف وكان ينعكس ظل برج الساعة ومبنى الشرطة فوق الحدائق التى تتوسط الميدان حيث يوجد التمثال الثابت فوق القاعدة مائلاً قليلاً صوب الأمام.

- قريبه جدًا، كان ابن أخ شقيق للجنرال أوردونيا، إحدى العائلات العريقة هنا، يمكن تخيل الفضيحة التى سببها عندما ذهب ليعيش فى ذلك الحى

الجديد، حى "الفيتنام"، الذى يعيش فيه الغجر واللصوص. عمل أولاً عامل بناء، ثم دخل كصانع فى صهر الحديد الذى كان لأسرته. يمكن أن تتخيل حضرتك ما يعنيه قس شيوعى فى ذلك الوقت. كانت الناس تقول إنه استبدل ثوب الراهب بالرداء الأزرق للعمال.

- هل أحضرتموه هنا ذات مرة؟

ارتسم على وجه نائب المفتش إبتسامة ارتياب وخبث، كان رجلاً ذا مظهر وبيل وفاقدًا للهمة موظفًا عجوزًا ولديه حنين واضح للأزمان السالفة.

- أحضرناه أكثر من مرة، آخر مرة كان ينبغى أن يأتى سكرتير الأسقف لكى يخرجه، كان لهم خلية شيوعية داخل المدرسة الداخلية، هل تعرفت حضرتك عليه حينئذ فى إحدى البطولات الأخرى؟

لم يجب، لم يرد أن يعرف الآخر عمق معرفته بالأب أوردونيا. كان قد سمع أشياء بعيدة عنه على مر السنين، ولكن المؤكد أنه لم يحاول العودة لرؤيته، ولم يتجاوز الإغراء العارض بالكتابة إليه نية الخيال. بالطبع كتب له فى البداية عندما كان حديث الخروج من الداخلية، عندما حصل بفضل وساطته على منحة ليدرس الثانوية فى مدرسة أخرى لليسوعيين. كان يكتب له بانتظام كل أسبوعين أو ثلاثة من المدينة الباردة التى أرسلوه إليها فى شمال قشتالة، مرة أخرى سكن داخلى وحسب ما بدا له أنه مصير حتمي: غرف نوم مشتركة، طعام متقشف وردهات مظلمة، كان وقتها مراهقاً، يشتاط غيظًا من الوحدة والدراسة بين بشر يبغضون الإتقان، فى منافسة بغيضة مع الآخرين يمنح فيها لنفسه بالسكينة فى مرات قليلة. ثم توقف عن الكتابة له فى ذات الوقت الذى توقف فيه عن الاعتراف والتناول، علاوة على تأثيرات الإهمال والبعد زادت جرعة الخجل والخوف أمام اللوم المحتمل أو المؤكد من الأب أوردونيا. أولاً كذب عليه قليلاً ثم توقف ببساطة عن الكتابة له. لم يخبره أبدًا أنه دخل الشرطة، ولكنه كان معه دائمًا حتى عندما نسيه

تمامًا، احتفظ بداخله بالقلق من الندم، فكرة غامضة وملحة من البحث، من الندم العام والمحدد فى الوقت نفسه، الذى بلا شك لا يزال حيًا فى مكان ما، سيظل الأب أوردونيا معادلة مضادة. فى بعض المرات كان يشكر كونه لم ينجب أطفالاً؛ لأنه وفر الخوف من خيبة الأمل، من سيطرة عدم الامتنان، لأنه وفر على الآخرين الضيق بالشكر والإحساس بالذنب.

قال الأب أوردونيا وبريق من دموع الفرح وضعف الشيخوخة فى عينيه:

- كنت أفكر فى أنك لم تشغل حتى نفسك لتعرف إذا كنت ما زلت حيًا - وسريعًا ما أشار بسخرية فى صوت مرتفع:.

- كنت أتوق أن أذهب لرؤيتك ولكن يمكنك أن تتخيل أن المكان الذى تعمل فيه يحمل لى ذكريات سعيدة.

- الوقت تغير يا أبتى.

- نعم تغير الوقت ولكن لم يتغير بعضكم. اعتلى تعبير وجهه اللطيف لمحة من الصرامة:

- رغم أننى تقريبًا أعمى لكن ما زال بإمكانى قراءة الصحف، هل صحيح أنك كنت فى الشمال قبل أن ينقلوك إلى هنا؟

- قضيت أربعة عشر عامًا فى بلباو.

- هل شعرت بالخوف؟

- انتهى بى الأمر إلى الاعتياد.

- وزوجتك؟

- أعياها الأمر كثيرًا. كانوا يدقون على الباب وهى بمفردها ويهددونها بالموت. يبقون على التليفون دون أن يقولوا شيئًا وعندما تغلق السماعة

يعاودون الاتصال فى الحال. لم يمكنها أن تترك سماعة التليفون مرفوعة تحسبًا لأهاتفها، أو أن يخبروها بأنه وقع لى شىء.

- علمت أيضًا أنك لم تنجب أولادًا.

والآن بدأت تتغير نبرة صوته، أصبح ناعمًا فجأةً، لم يعِ المفتش فى صوته اتهامًا خفيفًا وتوبيخًا محتملاً.

- وأنها الآن محجوزة فى مصحة، كما ترى لا ينقص قسيس عجوز الخروج إلى الشارع ليكون على علم بكل شىء، هل سيعطونها إذنًا بالخروج قريبًا؟

- قال لى الطبيب أنه خلال أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر حالما تنتهى من العلاج.

لكى يركز الأب أوردونيا فى الاستماع كان يخفض من رأسه ويحركها بالإيجاب ويداه متشابكتان، نفس الوضع الذى يكون عليه بالضبط فى حجرة الاعترافات. كان المفتش الذى تنقصه بالكامل العادة الرحيمة لتذكر أيام الطفولة، قد جاءته لحظة تبصر فى الزمن ورأى نفس هذه الرأس أكثر شبابًا، تتحرك كما تفعل الآن فى ظلام إكليركى، نفس الأيدى الشاحبة المتشابكة، واسترجع الرائحة الغامضة لذلك الوقت، رائحة الثوب، رائحة الكنيسة، ورائحة تبغ الأب أوردونيا الذى كان يستجوبه بفزع بصوت خفيض فى الليلة السابقة لأول تناول له، سمعه بعد ذلك بجدية بطيئة، حيث يرفع يديه الشاحبتين والطريتين فى الهواء، بحركة عفو خاطفة. ولكنهما ليسا فى الكنيسة، ويجلس الواحد فى مقابلة الآخر على مقعدين فى حجرة الاستقبال تفصلهما مائدة منخفضة عليها مجلات قديمة، نشرات نقابية أو خاصة بالكنيسة، مائدة وبعض الكراسى مثل كراسى صالة الانتظار حيث لا يجلس

عليها أحد لينتظر شيئًا. الآن، يظن الأب أوردونيا أن المفتش ربما تخطى الخمسين ولكن أكثر ما كان يرهقه هو عدم تذكر كيف كان المفتش فى صغره عندما أحضروه إلى المدرسة الداخلية الدينية وإنما يعير انتباهًا حقيقيًا لملامحه الآن، لوجهه العادى، الحزين، الحيوى، لحضوره الفوضوى والقوى لرجل ناضج يبدأ فى الأفول. كان القسيس يفكر فى حنين أبوى لا يصدق أنه ربما لا يمكن أن يرى الشخص الناضج بشكل كامل، شخصًا كان حاضرًا فى طفولته ولا يزال يتذكرها، وأن الذكرى الحقيقية لسنوات العمر الأولى لا تنتمى أبدًا للشخص نفسه، وإنما تنتمى لمن عرفوه، وعلموه ومن رأوه يكبر. لم تبق ملامح للطفل الذى كان والذى يبدو أنه الآن غير حقيقى: فى الوجه الفظ الأحمر، فى الشعر الأشيب الأشعث والخفيف، لم يكن فى رقبة المفتش العجوز والتى لم تحلق جيدًا ملامح للطفل الذى لا يصدق الآن ما كان عليه: شعر الأب أوردونيا بفخر شجى أنه هو نفسه كان أمينًا على ماض شديد الخصوصية لرجل آخر، ماضى رجل غريب.

ظل يفحصه فى صمت بضع لحظات وهو يتساءل إلى أى حد يكرر بالضبط وجه المفتش الآن كما اعتاد أن يحدث للرجال عندما يشيخون بعضًا من ملامح أبيه، الذى كان قد رآه الأب أوردونيا مرة واحدة منذ سنوات طويلة والذى لم يتحدث المفتش أبدًا عنه. يفكر الأب: الوجه ليس فقط مرآة الروح وإنما يعود ويصبح أيضًا مرآة لوجوه الموتى. منذ أربعين عامًا مضت فى نفس هذه الغرفة مكث الطفل الموجود الآن فقط فى ذاكرة الأب أوردونيا مرات كثيرة بالضبط هكذا، كما يكون الآن رجل ذو ذقن خشن، ووجه أحمر وشعر خفيف أشيب لا يزال مبللاً. مكث بعيدًا، خلف ضوضاء المطر فوق الأسقف وزجاج النوافذ كانت الأجراس تدق فى برج أحد الكنائس معلنة وفاة شخص، واستدعى وقعها البطىء والعميق إلى داخل تلك الغرفة التى كان فيها رجلان صامتان وكان أحدهما ينظر بشكل صريح إلى الآخر الذى يوعز

له بإحدى الأشتية البعيدة، بالحارات المظلمة التى تتسلل منها النساء وعلى رؤسهن أغطية فى الطريق إلى ساحات مضيئة. كان لديه وقتها نفس عمر الطفلة المقتولة، حسبها الأب أوردونيا: كان يتذكر طفلاً نحيفًا، بعلامة من ضربة حجر مرئية بوضوح فى مفرق الشعر الحليق، يرتدى صندلاً وجوربًا رماديًا، ومريلة رمادية ذات رقبة من سليولويد أبيض وفى يديه وأذنه تقرحات من البرد، وعين كبيرة مندهشة وبها وهن الطفولة التى لحسن الحظ لم تكن تحفظها الذاكرة الضعيفة للعجوز. فرض على نفسه مهمة رعاية ما لا يهم أحدًا، الاحتفاظ بالأشياء المنسية والضائعة، خطابات لباسولينى والتوسير والنشرات القديمة المطبوعة التى تتفق على البشرى بالمسيح والخطابات التشهيرية للأنبياء مع التكهنات العلمية لماركس ولينين وأرنستو جيفارا. كل شىء عنده مصنف ومحفوظ ويرعاه بغيرة شديدة مثل الملفات التى لم يتفحصها غيره منذ عقود وربما لا يعرف أو لا يتذكر أحد شيئًا عنها. رفوف معدنية مطلية باللون الرمادى، ملفات من الكرتون، حزمة مربوطة بشريط أحمر، قوائم أسماء مكتوبة على الآلة الكاتبة، ملفات بها صور شخصية. يحتفظ بالمفتاح الوحيد المتاح فى جيبه مع حزمة المفاتيح التى تفتح كل الغرف الخاوية للمدرسة الداخلية. قال:

- تعال معى، أريد أن أريك شيئًا.

قال بنفس النبرة غير القابلة للاستئناف للأوقات الماضية ونهض دون صعوبة، بل وبحيوية عجوز متعجل.

٧

تجلس امرأة على مقعد تنتظر فى بهو قسم الشرطة، تتشح بالسواد وتبلغ من العمر ستين عامًا، ذات طابع بائس ومتدين، ترتدى كعبًا أفطس ملتويًا، وتمسك بين يديها حقيبة يد صغيرة سوداء مثل كتاب القداس، كانت عصبية ومتصلبة، تتعلق عيناها بالباب الزجاجى للشارع الذى يضربه المطر والذى يظهر عنده من وقت لآخر خيال شرطيين يدخلان ويغلقان المظلات وينفضان عنها ماء المطر وهما يلعنان الطقس. تتخيل المرأة فى كل مرة يصل فيها شخص يرتدى الملابس المدنية أنه المفتش، رئيس المباحث، وتنظر فى استجواب إلى الشرطى الجالس خلف المائدة فى الاستقبال الذى يشير إليها بحركة مملة برأسه: لقد قلت لحضرتك إن المفتش رئيس المباحث ربما يتأخر كثيرًا، وربما حتى لا يعود هذا المساء، فى الآونة الأخيرة يتجول دائمًا فى الشوارع، ألا تشاهدين التلفاز؟ ألا تقرئين الصحف؟ الشرطى الكبير الضخم الذى يرتدى كابًا مزحزحًا قليلاً للوراء، وكوعاه على المائدة كأنهما تحوطان الأوراق العريضة لسجل تسجيل الداخل والخارج للقسم وأمامه منفضة السجائر مليئة بأعقاب السجائر. يرى المرأة من على الجانب الآخر لدخان سيجارته القليل: لا، لا يبدو عليها أنها تعرف شيئًا، تبدو إحدى هؤلاء السيدات القرويات المتشحات بالسواد اللائى يأتين من قرى الضواحى للشراء، أو لاستخراج بطاقة الهوية، يفزعن من المرور ويتركن الخوف يتملكهن من أخلاق الموظفين خاصة إذا كانوا يرتدون زيًا رسميًا. تجلس وظهرها مفرود فى مقابلة الحائط، أسفل لوحة عليها صور إرهابيين، تضم ركبتيها أسفل التنورة السوداء والكعبان المتشابهان ملتويان، بهذا السلوك

المركَز من الجمود والحسم لأشخاص اعتادوا دائمًا على الانتظار، كانت المرأة تنظر صوب الباب الزجاجى الذى يُسمع المطر من خلفه ويبدو أن عقارب الساعة تتقدم من حين لآخر ببرود عارض، وتقبض فى حجرها على حقيبتها السوداء، تمسك بها بأصابع قوية عفية، أصابع تتحكم فى معدات وتجمع الزيتون.

- إذن، تقول حضرتك أن السيد المفتش يأتى فى حوالى الرابعة؟

- سيدتى، لا تثقلى علىّ، يبدو أن حضرتك لم تسمعى ما أقوله لك.

رتدى الشرطى الكاب جيدًا مثل من يريد التركيز على وضعه الوظيفى وسحق بشكل غير متقن، بين أعقاب السجائر الموجودة فى المنفضة، عقب سيجارة دُخِنت حتى آخر نفس.

- فى هذه الأيام ليس للسيد المفتش رئيس المباحث مواعيد محددة ولا لأى منا. لا أعرف إذا كنت أدركت حضرتك أننا نبحث عن قاتل. ألم تشاهدى حضرتك نشرات الأخبار؟

كانوا يتخيلون شبحًا قد منحوه كل الخصال المجردة من القسوة والرعب، وفى ذات الوقت كانوا يعرفون، رغم أنهم تقبلوا التفكير فيه بصعوبة، أنه ليس خيالاً من أفلام الأبيض والأسود، ولا أحد لصوص الأطفال المجهولين فى أساطير عصور أخرى، بل هو شخص يشبههم، قابل للذوبان فى وجوه المدينة، مختبئ بين هذه الوجوه، وربما كان شخصًا قد تحدث عن الجريمة مع جيرانه أو مع زملائه فى العمل وأنه قد انضم إلى الجحافل الصامتة التى صاحبت الصندوق الأبيض لفاطيما إلى المقبرة.

كانت قد اجتمعت كل المدينة هناك، فاضت عن حدود طريق السرو وساحة الدخول حيث كان يُسمع فى وسط الصمت أصوات التقاط الصور

بكاميرات المصورين وكاميرات الفيديو لنشرات الأخبار التليفزيونية، جمع غفير من الوجوه الجادة المحبطة المتضايقة بسبب عدم تصديق أن جريمة مشابهة وقعت فى المدينة بينهم وليست فى التليفزيون ولا فى أحد تلك البرامج ذات الأحداث الدامية وإنما وقعت فى نفس الواقع الذى يعيشونه، فى الشوارع التى يسيرون فيها، ومن الآن سترتبط دون سلوى باقتحام القسوة الهمجية التى قامت بتصفية فاطيما. كانوا يعرفون الطفلة، كان لهم أولاد أو بنات فى نفس المدرسة التى كانت تذهب إليها، كانوا زملاء لوالدها فى أحد الأعمال الوقتية التى كان يقوم بها، كانوا أقرباءه أو أقرباء لزوجته أو يمكنهم أن يحكوا أنهم يعرفونها من الجوار أو أنهم تحدثوا معها فى أحد المتاجر. هناك زهو بائس عند اقتراب المصيبة مثل الزهو عند الاقتراب من النجاح: تتضح المصاهرات، تتأكد الروابط الوثيقة مع العائلة أو مع الشرطة أو مع المكاتب القضائية، أى شخص يمكنه أن يعرف الطبيب الشرعى أو موظف البلدية الذى وجد الجثة بالصدفة. يُحكى أنه فى أحد أكشاك السوق من مصدر موثوق فيه أنه قد وصل لتوه مفتش جديد من بلباو أو من مدريد ليكلف بالتحقيقات، رجل ذو معارف علمية واسعة سيكتشف القاتل فقط عن طريق تحليل اللعاب المشبعة به أعقاب السجائر التى وجدت بالقرب من جثة فاطيما، أو عن طريق بعض آثار الدماء أو ببساطة وجود شعرة له، وأن هناك تقدمًا الآن فى معامل الشرطة فى أن شعرة أو بصمة أو نقطة من اللعاب كافية للتعرف على الشخص وحمله إلى السجن.

عاودوا النزول إلى حدائق كابا والتى أصبح يذهب إليها فقط بعض كبار السن والمدمنون، وحيث تعسكر فى ليالى نهاية الأسبوع جماعات من المراهقين الذين يثملون من شرب نبيذ رخيص، ولترات من البيرة، وزجاجات مشروبات كحولية محلاة ومميتة: ينزل الآن إلى الحدائق جيران الأحياء الأخرى بغرض رؤية المكان المحدد الذى ظهرت عنده الجثة، ولكن

هناك شريط بلاستيكى أصفر يمنع المرور، كما أنه يوجد شرطى يراقب المكان بشكل دائم لحين يستمر المفتش الذى وصل من مدريد أو من بلباو والطبيب الشرعى فى البحث عن احتمال وجود آثار، يُحكى أنهم يكنسون بفرش صغيرة كل سنتيمتر من الأرض ويبعدون الأوراق الجافة لشجر الصنوبر ويلتقطون صورًا بكاميرات خاصة لكى يكتشفوا آثار نعل الحذاء، الذى يرى بالكاد وعلى الرغم من ذلك هو أثر دامغ مثل البصمات. لكن مرت الأيام ولم يتحول أى من الإشاعات الخيالية التى كانت تدور فى المدينة إلى خبر، وبدأ يقل عدد الصحفيين والمصورين وكاميرات التلفاز التى كانت قد عقدت حراسة أمام باب القسم، فى البداية بدأت تقل بشكل غير مدرك حتى جاء اليوم الذى لم يبق فى الميدان أى سيارة بطبق فضائى صغير على سقفها ولا الشعار ذو الألوان العنيفة لأحد القنوات التليفزيونية المرسوم فوق هيكل السيارات. بسبب قلة الأخبار الجديدة على الإطلاق كان من الممكن تخيل أهمية أى اكتشاف محدد: لدى الشرطة دليل قاطع لكنها تلتزم الصمت كى توقع بالقاتل، كانوا قد ألقوا القبض على شخص وحملوه سرًا إلى مدينة أخرى كى يمنعوا الجمهور من أن يعاقبه دون انتظار عقوبة القانون. لكن الصحفيين رحلوا فى الوقت نفسه الذى بدأ فيه المطر ودخلت المدينة فى شتاء رمادى السموات وضباب مثلما كان الحال منذ سنوات كثيرة مضت. ومن استولى عليه الفضول لكى يذهب إلى حدائق كابا للبحث عن مكان الجريمة وجد شريط الشرطة الأصفر وقد خربته الرياح والتف بين الحواجز والجذوع الداكنة لأشجار الصنوبر، ولم يستطع معرفة المكان بالضبط الذى وجدت فيه الجثة ولم تتح له فرصة الطواف للبحث عن آثار لم تجدها الشرطة وآثار على موت فاطيما؛ لأن المطر كان قد بلل الأرض وجر أوراق شجر الصنوبر الجافة التى تكومت فى سنوات الجفاف وحملها كلها إلى منحدر فى الأسفل، صوب الأرض المظلمة والفجوات التى بين البساتين، صوب

السواقى التى زادت الآن من التيارات الى تغرق مجرى المياه الجافة ومنخفضات مزارع أشجار الزيتون.

يستنشقون غرابة هذا الشتاء المضبب والليالى الطويلة الممطرة، شتاء يشبه الأشتية التى يتذكرها العجائز، كانوا يعيشون فى وقت مكثف من الماضى، وفيه كانت تتحول الطفلة إلى أحد موتى الأساطير الإجرامية القديمة، إلى صورة بدائية للقداسة والاستشهاد، لم يكن القاتل رجلاً مثلهم، مواطنًا مضطربًا وعاديًا سيتعرف عليه الكثيرون عند القبض عليه، وإنما هو خيال صاف شفاف دون ملامح، شبح تصرف دون أن يترك علامات على تماسكه المادى غير المبرهن، بصمات أو آثار نعال الحذاء، فلتر سجائر من التبغ الفاتح، بقع دم وآثار لعاب. لم يكن هناك شيء، بدءوا يفكرون، لن يجدوه أبدًا، هذا المفتش الذى وصل مؤخرًا سيعود إلى مدريد وفى أمتعته كل أجهزته عديمة الفائدة، بالفرش التى تكنس الأرض، بأكياس البلاستيك، بآلات التصوير الخاصة، وغطرسة رجل الشرطة العالِم.

كانوا يمتثلون للصفة التى لا يمكن فك شفرتها للجريمة، المأساوية غير المرئية التى ابتلعت فاطيما على مدار ٣٠ ساعة والتى اختفى فيها القاتل بشكل مقترن. لكن لا يمكن أن يختفى بهذا الشكل دون أن يترك أثرًا صغيرًا، دون أن يُبقى ذكرى واحدة، شهادة شخص، دون أن يرى أحدًا، دون أن يلفت انتباه أحد، دون أن يشاهد أحد جزءًا صغيرًا أو أية علامة من الذى حدث فى ذلك الشارع الضيق جدًا، فى مسافة أقل من مائة متر بين المكتبة وبوابة المنزل، ما بين الوداع المشتت لصاحبة المكتبة والإنذار الخفيف ثم الرعب التدريجى للأب: الرصيف الضيق، العربات المتوقفة بشكل سيئ والمكومة فوق الرصيف، بالقرب من بعضها البعض، حيث لا تسمح بوجود فراغ للمرور بينها، والمحال التى دخلتها الشرطة محلاً محلاً لتسأل نفس الأسئلة دائمًا بنفس الرتابة وبإصرار لا يتغير، وهى تعرض صورة فاطيما وتسجل أشياء فى دفترها، تسجل أشياء عديمة الفائدة، أشياء مكررة ومعروفة سلفًا

مثل الأسئلة، يجيبون بأنهم نعم يعرفون فاطيما، كانوا يرونها تمر فى الصباح وعند الخروج من المدرسة، لم يروا شيئًا خاصًا ذلك المساء، لا يتذكرون أنهم رأوا شخصًا مشتبهًا فيه، من المؤكد أنه لو حدث ذلك لكانوا قد انتبهوا، فى الحى يعرف الناس بعضهم بعضًا، والجميع هنا أناس طيبون.

كانت متاجر صغيرة لحى ليس شديد الثراء: بائع الألبان، محل مواد غذائية، محل حلوى للأطفال، يملؤه الأطفال بعد خروجهم من المدرسة، محل الحلويات الذى توقفت عنده فاطيما صبيحة اختفائها لتشترى معجنة محشوة بكريمة الكاكاو، كان يعرفها الجميع، يتذكر الجميع كم كانت عذبة وكم كانت مهذبة عند طلبها للأشياء، كان البعض قادرًا على حكى أشياء تافهة وقعت منذ فترة مثل كيس البالونات الذى اشترته فاطيما من محل حلوى الأطفال يوم عيد ميلادها، الورقة التى تدون فيها دائمًا الأشياء التى تكلفها أمها بشرائها فى أوقات غير مناسبة من محل المأكولات، كان هناك مثل إرادة جماعية لتذكر فاطيما، حنان مجروح، إهانة بغيضة، غريزة بالإجماع على توضيح من هو الذى لم يعرف صفة البراءة فيها، ومن لا يعرف فزع جريمة تشبه الجرائم القديمة لتعذيب الأطفال، قصص رجال الجوال ولصوص الأحشاء أو لصوص دم الأطفال. كانوا يتذكرونها وعلى حوائط بعض المحال كانوا يثبتون الصورة الملونة التى نشرتها إحدى المجلات، وكان وجه فاطيما يكتسى فى الحال بطابع من الاستشهاد الدينى المجرد، ببعد الموت، بنقطة الضعف تلك التى تكتسبها نظرة وابتسامة الموتى فى الصور. كانوا يحكون أشياء ويصححونها فيما بينهم، يقولون تفاصيل أشياء دقيقة، يلعنون، يطالبون بعقوبة الإعدام، الإعدام الفورى للقاتل، يغلقون المتاجر فى الليالى الباردة الممطرة التى وصلت مع الشتاء وينظرون صوب نهاية الشارع المظلم بنية المراقبة، يرتابون فى الغرباء، فى أى ظل يظهر بمفرده بين العربات المتوقفة تحت حماية أفاريز الأسطح والبوابات. لكن لم يعلن أحد أنه رآها

وبالتحديد بعد أن خرجت من المكتبة، لم ير أحد أى شخص يتلصص، ولم يلفت انتباه أحد تجول عربة ذات مظهر غير مألوف ببطء فى الشارع وربما تعرقل المرور، لم ير أحد فاطيما وهى تميل على زجاج شباك سيارة تدور، مثل من يقترب ليشرح عنوانًا، لم يرها أحد تركب لتجلس فى المقعد الأمامى لسيارة، فجأة تحولت لشيء غير مرئى، خرجت من المكتبة وسارت، على الرصيف بالورق الأزرق المقوى الملفوف تحت إبطها، وعلبة ألوان الشمع فى جيب بنطلونها، ربما تكون قد توقفت ونظرت يمينًا ويسارًا، كما كانت تفعل دائمًا، قبل أن تعبر الشارع وتسير صوب بوابة منزلها، اختفت ببساطة رغم أنه كان مستحيلاً أو بدا مستحيلاً فى مثل هذا الشارع الضيق الذى يرتاده الكثيرون وبمحاله المفتوحة والتى كانت لا تزال مضاءة فى ليل أكتوبر الذى يأتى مبكرًا، وجاءت اللحظة التى شعر فيها الأب وهو يجلس أمام التلفاز بجوار ولديه الصغيرين أنها تأخرت قليلاً، لم ينزعج حينئذ معتقدًا أنه يمكن أن يكون قد شغلها التحدث مع إحدى صديقات المدرسة فى الشارع، أو مع صاحبة محل الحلويات أو صاحبة محل المأكولات. قالوا بعد ذلك إنه كان يسعدهم التحدث معها، حيث كانت تتحدث مثل الكبار، رغم أنه لم يكن لها الاستعداد السخيف لهؤلاء الأطفال الذين يتصنعون أنهم كبار، قالتها بعد ذلك سوسانا جراى معلمتها فى السنوات الآخيرة، كانت لديها ملكة يولد بها بعض الناس، ملكة الإصغاء لما يقوله الآخرون، ملكة تحفزهم على قص حياتهم والتعبير بعناية عن أنفسهم، كانت تتسع عيناها كثيرًا لتستمع إلى ما يحكونه، وتطل على شفتيها ابتسامة رضا رقيقة، كما كانت تفعل فى الفصل عندما تعير انتباهًا لشرح شيء يعجبها كثيرًا. من يعرف، لعلهم أوقعوها بهذا، لو كان من خطفها من الحياة فى مشوارها اليومى بين المكتبة وبيتها لم يسحرها بأن يقص عليها شيء، لم يطلب إصغاءها بالشكل الذى لم يمكنها رفضه وذلك لأدبها الجم.

بحثوا فى مدخل كل البوابات، فى كل الشقق التى لها شرفة تطل على الشارع، سألوا كل أطفال فصلها، سألوا كل من يعرفها، ربما من خطفها كان قد تحدث معها عند خروجها من المدرسة، ربما وقعت حادثة، ربما يكون انتقامًا حتى لعله سوء فهم، ربما رؤى شخص غريب يتحدث معها أو ينتظرها عند خروجها من المدرسة، لكن كان كل ذلك عديم النفع ويبدو غير حقيقى، لا أحد يعرف، لا أحد يتذكر ولا أحد لفت نظره أى شىء خاصة فى ذلك الساعة ما بين السادسة والنصف والسابعة إلا الربع مساءً فى ذلك المكان الصغير حيث حدث اللقاء الذى لا يمكن تجنبه، حيث لم يكن من الممكن ألا يكون حاضرًا أحد الحدث الغريب، وربما كان وقوعه عنيفًا: غلق باب السيارة بفظاظة مفرطة، حركة شخص يجذب طفلة أو يميل نحوها بسلوك غير سوىّ. فى الأصبحة المطيرة، فى الأمسيات القصيرة بسبب قرب السماوات الرمادية وحلول الليل مبكرًا، كانوا يرون الشرطة تعود إلى نفس المحال حيث سألت نفس الأسئلة فى مرات أخرى، يأتى رجال الشرطة بالزى الرسمى والمفتشين باللباس المدنى، البعض منهم أرسلته العاصمة كتعزيز، يأتون مبللين متماسكين ويقودهم رجل ذو شعر خفيف أشيب ولكنة غريبة، يرونه أحيانًا واقفًا ومنغمسًا فى وسط الشارع أو على الرصيف بجوار بوابة منزل فاطيما وهو يرتدى السويتر المفتوح ويداه فى جيبه، غير مبال بالمطر ولا بالمرور، ينظر إلى كل شىء: إلى الوجوه والأشياء، بتعبير فيه ارتباك داخلى وإصرار على المراقبة، كمن لا يرى شيئًا مما حوله، وفى الوقت نفسه يتجسس على كل شىء دون أن يبدى علامات على بحثه. كانوا يدقون على كل بوابة من البوابات الأتوماتيكية، يصعدون إلى كل الشقق وهم ينظفون الأحذية المبللة فى دواسة الردهات معتذرين ومطالبين بتفاصيل، يحيكون عن طريق ملاحظاتهم المدونة البناء الخانق وعديم النفع لكل الأشياء الذى فعلها أو شاهدها السكان فى ذلك المساء من شهر أكتوبر، فى إعادة لبناء القصة الجماعية والتافهة للجيران، الخريطة المتناهية فى الصغر لكل دقيقة ولكل

حدث من الأحداث التى وقعت بالتأكيد أو لكل ما كان خيالاً فحسب وتكهنًا ضعيفًا، سرابًا صافيًا حفزت عليه إرادة البحث داخل النفس من أجل تحديد التفاصيل. لكن كان هناك فتحة، فقاعة أو ضبابة غير مرئية فى الوقت الذى انغمست فيه فاطيما بعد خروجها من المكتبة بزيها الرياضى الوردى ولفة الورق المقوى الأزرق وعلبة ألوان الشمع، ويبدو أن تلك الدقائق بالتحديد كانت هى الدقائق الوحيدة التى لم يرى فيها أحد شيئًا وبالضبط فى ذلك الجزء من الشارع لم يعبر أحد فى تلك اللحظة، ولم يطل أحد من شرفة.

فى أحد أمسيات بدايات شهر نوفمبر، كانت أنوار المكاتب والمحال المغلقة بسبب المطر مضاءة رغم أن الساعة لم تكن وصلت إلى الرابعة، وصلت تلك المرأة الستينية التى ترتدى السواد، لم تكن شديدة الأناقة، ذات طابع بائس كنسى، صاحبة عمل شاق فى الريف، بيديها الخشنتين والحمراوين اللتين تقبض بهما على الحقيبة فى حجرها، إلى قسم الشرطة وقالت إنها تريد رؤية المفتش رئيس النيابة، أو المسئول الكبير فى القسم، وعندما طلب منها الشرطى الذى يجلس على البوابة أن تحكى له عن سبب زيارتها رفضت بلطف وبحسم أن تخبره، وجلست على مقعد له ظهر مستقيم حيث جلس عليه أكثر من مرة سجينات مكبلات بالقيود أسفل يافطة عليها صور بالألوان لإرهابيين، وعندما دخل المفتش بعد ساعتين وكانت قد أمست بالفعل، عرفته واتجهت نحوه رغم أنها لم تكن قد رأته من قبل وبضربة كوع أفلتت من الشرطى الضخم والسخيف الذى كان يريد منعها، قالت وهى تصر بعصبية: أريد التحدث مع حضرتك، وفتحت حقيبتها وأخرجت منها ورقة مطوية، ورقة مقطوعة من إحدى المجلات التى وضعت صورة بالألوان لفاطيما. قال المفتش: اصعدى حضرتك معى، نظرت المرأة من طرف عينيها فى احتقار إلى شرطى البوابة، فكرت فى أن الرجل الذى وصل لتوه هو من يأمر وتبعته وهى تصعد السلم ثم عبر ممر قبيح من القيشانى البنى

اللون مثل الذى يوجد فى المدخل، فتح المفتش أحد الأبواب وأضاء النور دون أن يدخل حتى يمنحها الدخول أولاً، تتضح هذه التفصيلة عندما يكون الرجل مهذبًا، يعرف كيف يعامل النساء ودعاها للجلوس، كان شعره مبللاً وأسفل الضوء الكهربائى كانت تلمع السترة التى لم يخلعها بعد. فردت المرأة الورقة المقطوعة فوق المائدة وأشارت إلى وجه فاطيما بإصبع السبابة القوى والملتوى، بظفره العريض المكسور والداكن عند حافته، وقالت: «رأيت تلك الطفلة، أرتنى أختى المجلة وانقبض قلبى، وفجأة تذكرت كل شىء». دمعت عيناها وبدا أنها ترتدى ملابس الحداد من أجل فاطيما، كانت تعيش تقريبًا طول العام فى بيت فى مزرعة على ضفاف النهر، ولكنها تذهب بين الحين والآخر إلى المدينة لتزور أختها ورأت الطفلة، قالت: «أقسم لحضرتك، رأيتها مثلما أرى حضرتك الآن، كانت تسير مع شاب أسمر، نعم كان يبدو كأبيها أو عمها، كان يضع يده على كتفها، تقابلنا على الرصيف». سألها المفتش وهو يسيطر بصعوبة على توتره الشديد ولا يزال يشك: لماذا انتبهت لذلك؟ ما الشىء الذى لفت نظرك؟ قالت المرأة وهى على وشك البكاء من جديد، كانت العينان الدامعتان تلمعان فى وجهها المعذب: «انتبهت لأن الرجل كان يلعق الدم من يده المجروحة، وقلت لنفسى، لو لم ينتبه سيلطخ ملابس الطفلة بالدم».

٨

كانت تدخن أمام نافذة قاعة المدرسين تنظر بلا مبالاة إلى المطر وإلى حركة سير السيارات وإلى الأبنية الموجودة على الجانب الآخر من الشارع، إلى مبان من الشقق العشوائية التى تحيط الآن بالمدرسة، شرفات ومطابخ تغلق بالألوميتال وشرفات منشور فيها غسيلٌ، ظهرت كل هذه الأشياء فى أقل من عشر سنوات، تقريبًا فى الخمس عشرة سنة الأخيرة، عندما وصلت إلى المدينة، كانت المدرسة عبارة عن مبنى واحد فى الخلاء، بعيد قليلاً عن آخر المنازل التى اختفت الآن ولم يبق لها أثر، كانت منازل بيضاء ريفية قريبة من طريق المقابر، وكانت ترى أسوار المقابر وأشجار السرو فى تضاد مع الأزرق البعيد ومزارع الزيتون التى كانت تراها من نافذة القاعة الأولى التى درست فيها، فى سبتمبر بعيد، تتذكره، إنه مختلف عن شهور سبتمبر الحارة جدًا الآن، كان سبتمبر مطر الرذاذ، سبتمبر اللون الأصفر المكثف للحقول التى ما زال فيها عيدان القمح والشعير المقطوعة. بالقرب من المدرسة كان يوجد معصرة زيت قديمة لا تتذكر متى اختفت، ينبعث منها فى الشتاء رائحة قوية للزيتون المفروم. فى ذلك الوقت، فى شهر سبتمبر، كان يُرى دواب وحمير تحمل حمولات من أقفاص تمتلئ بالعنب الأسود والعنب الأصفر، رغم أنه لم تمر سنوات كثيرة كما توحى الذاكرة ولم تحدث التغيرات بشكل فجائى، بين ليلة وضحاها، مثلما تفكر هى، تنتظر وصول ذلك الشرطى الذى اعتقدت أنها قالت له كل شىء، ثابتة ومتبرمة أمام النافذة التى لم تعد تستطيع أن ترى منها الأسوار ولا أشجار السرو الموجودة عند المقابر، ولا المنازل البيضاء القصيرة التى كانت قد حملقت فيها فى خمود الهمة السابق لأوانه فى المرة الأولى التى وصلت فيها إلى المدينة، فى سيارة

الخط القادمة من مدريد، فى نهاية الصيف الذى فازت فيه بمسابقة العمل بالتدريس. كان عمرها اثنين وعشرين عامًا، بدا لها غير حقيقى أنها مرت بكل هذا، بدءًا من حياتها كمعلمة ثم زواجها وحدوث الحمل، فى بداية كل هذه الأشياء دون الاعتياد عليها، كان كل شيء جديدًا وفيه ريبة ومفاجأة، كانت تفوح من رائحة الشقة التى انتقلوا إليها رائحة الدهان والجبس الطرى الجديد، كان يعد كل خروج إلى المدينة اكتشافًا، كان كل الأطفال الذين يجلسون أمامها على مقاعدهم أول يوم عمل لها فى أول عام دراسى لغزًا يؤثر فيها ويحيرها.

كانت قد تزوجت قبل أسبوعين من سفرها إلى المدينة وكانت لا تزال تتفاجأ عندما تفرك يدها وتجد دبلة الزواج فى إصبعها البنصر، كذلك تستغرب قول "زوجى" عندما تتحدث إلى أحد، وأن ترى نفسها فجأة دون أن تفكر فى ذلك طويلاً امرأة كاملة، ناضجة، أمامها حياة بأكملها لتعيشها، كما كان يقال، ولكنها حياة مقننة ببعض الضمانات التى لم يتعلم خيالها وقتها تقديرها وجزء من السبب أن هذه الضمانات كانت تفزعها: ضمان وظيفة تستمر معها حتى سن التقاعد، الصياغة القانونية والسخيفة التى أشار بها القاضى إلى زواجها: حتى يفرقكما الموت، كانت حديثة السن لتكتسب فكرة غير متناسقة عن الاستمرارية. كانت لا تزال تحسب الوقت عن طريق الصيف، والسنوات الدراسية، الإجازات وفترات الامتحانات، وفى نفس تلك السنة بينما كانت تخضع لعذاب امتحانات المسابقة كانت قد شعرت أنها تعيش بنفس الطريقة التى عاشت بها دائمًا: شهر يونيه الحار وليالى عدم النوم لمذاكرة المحاضرات، وبينما كانت تذاكر لم يخطر لها أن تفكر بأن هذه الامتحانات تختلف عن الامتحانات التى استعدت لها منذ أن كبرت، وأنها إذا نجحت ستحصل على منفعة عملية أكبر من الحصول على درجات جيدة،

ستحصل على شهادة ستدخلها بشكل صحيح إلى حياة الناضجين، إلى الحياة العملية لمن هم يعملون لكسب العيش ومن يتزوجون وينجبون أبناء.

أطفأت بحذر السيجارة فى منفضة السجائر التى تمسكها بيدها اليسرى دون أن تبتعد بعد عن النافذة رغم أنها كانت قد اعتقدت أنها سمعت وقع خطوات يمكن أن تكون للمفتش، خطوات ذكورية قوية فى الممر الواسع والخاوى للمدرسة، الخالى من الأطفال، ورغم ذلك ما زال مشغولاً بشكل ما ببقية من ضوضاء الصيحات، بالخطوات ووقع أقدام مسرعة على السلم، ببقية رائحة طفولية ورائحة لمراهقين فى الهواء، الذى يبدو لها عند استنشاقه هواء مستنفذاً ومتعبًا، مستهلكًا مثل الأثاث أو الكتب أو المعدات الصحية، ومتعبًا مثلهم جميعًا، مثل المعلمين المنهكين آخر اليوم مقارنةً بالطاقة الجسمانية للتلاميذ التى لا يسيطَر عليها. كل مساء فى مثل هذه الساعة عندما تستعد للخروج من المدرسة تعبر ممرات مظلمة وتهبط سلالم خاوية تلاحظ على نفسها تعبًا تدريجيًا لم يكن بالتحديد تعبًا جسمانيًا ولا تعبًا معنويًا خالصًا، إنما خليط من إنهاك قديم وخمود همة داخلى من المعتاد أن يستمر معها حتى تصل إلى المنزل، إلى المكان الذى لا تعيش فيه بمفردها الآن، منذ عدة شهور مضت. شديدة الحساسية أمام جودة الأشياء المادية التى تحيط بها، بدا لها أن تعبها كان بالأحرى تدهورًا مشابهًا لتدهور الأشياء التى تراها فى المدرسة وتلمسها بيديها، كل الأشياء خاضعة لتهالك بطىء مثل تراجع البحر، لنوع غير إرادى ومقبول من التراجع الذى أدركته هى فقط. كانت قد عادت صوب باب قاعة المدرسين مفترضة أن من سيظهر عنده سيكون المفتش، ولكن الخطوات تستمر ولكنها تبتعد الآن، شعرت بقليل من خيبة الأمل، جعلتها إثارة الاستمرار فى الانتظار التى ما زالت فى البداية ترى بحدة شديدة المكان الذى مضت فيه ساعات ميتة من حياتها، حيث حضرت فيه اجتماعات كثيرة، اجتماعات مجالس للمعلمين، مؤتمرات، همسات، مآسى

سوقية وسرية، المكان الذى وصلت إليه بخليط من التوقع والرهبة والأمل منذ خمسة عشر عامًا، عندما كانت شابة صغيرة وتحمل فى أحشائها دون أن تعرف بعد جنينًا وحياة بشرية. رأت السوقية الماحقة التى لم تكن هى نفسها قادرة على ملاحظتها دائمًا بهذا التحديد، لوحات مريعة لمهرجين وزهريات دهنها منذ عدة سنوات تلاميذ ويطلق عليها الآن "التعبير الجمالى" ولم ترفع من مكانها أبدًا، كانت هناك عندما وصلت صورة مؤطرة وباهتة الألوان لملك وملكة إسبانيا، تقويم دعاية لإحدى المكتبات، رفوف كتب مدرسية قديمة أو حزم من الامتحانات أو الملفات، آلة الكتابة التى لم تُستبدل بعد الظهور الحديث للكمبيوتر، كما لم تحل آلة التصوير بشكل كامل مكان ورق الكربون. منافض سجائر من البلاستيك الأصفر عليها شعار ريكارد أو ثينثانو، لافتات قديمة عن أسبوع الآلام: تُعَدّ كل من هذه الأشياء إهانة شخصية، شهادة على المرور الخادع للوقت، مثله مثل ألم الظهر أو التجاعيد على جانب العينين، والدهون تحت جلد الجوانب والأفخاذ، إهانة، وفى الأعماق خضوع للإرادة، للاستسلام الحتمى للملل والشيخوخة.

فى مرآة علبة مسحوق الوجه فحصت لمعان عينيها وحالة الخط الداكن الذى خط فوق جفونها وبينما كانت تضع الأحمر القانى على شفتيها وجدت فى مآقيها تعبير تحد لنفسها، قالت، ماذا تفعلين هنا، فى البداية كان لذلك السؤال نفس المعنى العام الذى سألته عدة مرات، ماذا تفعل فى المدينة التى لا يربطها بها شيء ولا شخص، لكن فجأة ومن جديد اقتربت خطوات صوب قاعة المدرسين، اكتسب السؤال دقة غير متوقعة وعاجلة ضد ما لم تنجح هى نفسها فى الدفاع عنه، ماذا تفعل فى هذه الساعة وفى هذا المكان، تنتظر شخصًا تأخر كثيرًا، شخصًا لم تفكر فيه ولو لمرة واحدة على أنه شخص حقيقى، وإنما فكرت فى صورة مجردة، أو فى التجسيد لمهمة، رجل الشرطة، المفتش، الذى يتحرى مقتل فاطيما، كانت قد تحدثت معه مرة واحدة

أو بالأحرى كانت قد أجابت على أسئلته، وكانت قد نظرت إليه وهو يستمع إليها، كانت قد لاحظت وضعه الذى بلا شك وضع من هو غريب عن المكان، كان واضحًا جدًا وفى الحال فى هذه المدينة المغلقة، حيث تعرفت عليه هى بطريقة آلية، كانت قد تمعنت فى طريقة ملبسه الغريبة على المدينة؛ لأنه كان يرتدى ملابس وحذاء خاصًا بأرض أخرى معتادة على الراحة فى الشتاء، على المطر المستمر، سترة غليظة مبطنة، من قماش عازل للماء، مثل من اعتاد على التعامل على تغير الطقس بين الفصول وعلى الرياح البحرية، يرتدى حذاء خشنًا بسيطًا للسير بين الغابات. الآن تتفحص فى المرآة ظلال العين وتضع مرة أخرى أحمر شفاه لأنها كانت تنتظر هذا الغريب ربما لأنه لم يبد لها جذابًا وإنما لأنه كان غريبًا وليس له مظهر من سيتــأقلم بسهولة مع المدينة، وهذا جعلهــا تتخيله بشكــل من الغمــوض أنه يشبهها.

كانت قد سمعت فى إحدى المحادثات لقاعة المدرسين بأن المفتش بالفعل وصل لتوه وخفض أحدهم نبرة صوته وقال إنه عرف من مصدر موثوق به أنهم قد نقلوه بسرعة من "البايس باسكو" وإنه ربما كان سبب نقله لمدينة صغيرة عقابًا له على شىء. لكنها كانت تقاوم المشاركة فى هذه المحادثات وجزء من السبب كان أن الفزع والمعاناة التى اختصت بهما بسبب مقتل الطفلة جعلها لا تتقبل التدنى المريب للإشاعات والنميمة، والسبب الآخر أيضًا أنها شعرت بحافز قوى جدًا للتخلص من كل الروابط اليومية بالمدرسة وبالمدينة، ضرورة الاستعداد للرحيل، لطلب نقل ومنح النفس ميزة الهرب قبل أن ترحل، كانت تستحوذ عليها ببهجة هذه الحالة النفسية التى كانت تستحوذ عليها فى أوقات أخرى فى الليلة السابقة للسفر، فى بداية هذه الحياة التى بدأتها فى الثانية والعشرين من العمر بشهادة المعلمين، وبخاتم المتزوجة حديثًا وبابن لا يزال جنينًا ينمو سرًا مثل كائن يبدأ فى النمو فى بطنها.

كانت قد أعطت لنفسها مهلة غير قابلة للاستئناف، هدنة لن تجددها مرة أخرى كما فعلت فى مرات أخرى طوال سنوات كثيرة مع بداية العام الدراسى، فى الأيام الحارة لمنتصف شهر سبتمبر عندما كانت تأتى إلى المدرسة وتجد فى انتظارها نفس الرائحة المميزة التى تركتها فى نهاية يونيه، رائحة الطباشير وعرق الأطفال، وتنتظرها أيضًا نفس الردهات والقاعات ولكنها أصبحت قديمة ومهجورة، نفس الأفنية حيث ستمضى أصبحة كثيرة وهى تراقب فسحة الأطفال الصغار، والتلاميذ الكبار ممن هم أطول قامة منها، تلاميذ السنتين النهائيتين، غرباء بالنسبة لها، رغم أنها كانت قد علمتهم القراءة وكيف ينظفون المخاط منذ سنوات مضت، الآن يدربون أنفسهم على الهمجية، يهبطون السُّلم مثلما تعدو الجياد ويدفعون الصغار لإبعادهم، الصغار الذين سيتحولون فى غضون سنوات أيضًا إلى مراهقين مثل هؤلاء بزغب وقطوب الحاجبين وبثور فى الوجه، يرتدون السراويل المنتفخة والقمصان الواسعة الخفيفة، وأحذية رياضية سوداء يشبهون مراهقى المسلسلات التليفزيونية الأمريكية يتمايلون عند السير مثلهم، وبعضهم، الأكثر جرأة، سيضعون طاقية البيسبول بالعكس، يمضغون اللبان فى الفصل وأرجلهم متباعدة وأجسادهم مرتخية أكثر من اللازم فوق المقعد مثلما شاهدوا تمامًا فى التلفاز.

كانت قد وعدت نفسها، أو طالبت نفسها بأن هذا العام سيكون العام الأخير لها فى المدينة، وأنها ستحاول تحريك نفوذ قديم لتحصل على نقل إلى مدريد، ولكن فى اليوم الأول من العام الدراسى فى غرفة المدرسين بينما كانت تتحاور مرة أخرى بنفس الكلمات مع نفس زملاء العام الماضى، أكبر سنًا، ولا يزالون يحتفظون باللون البرونزى، فكرت فى أنها لن تتحمل تسعة أشهر أخرى من حياتها فى تلك المدرسة، فى تلك المدينة حيث يعتريها إحساس بأنها عاشت فيها سنوات كثيرة هباء دون أن تحصل فى المقابل على

شيء، قضت تقريبًا نصف عمرها، حياتها الناضجة بأكملها؛ لأنها كانت قد أنهت دراستها، وسرعان ما اجتازت امتحان مسابقة المعلمين في العام التالي لحصولها على دبلوم المعلمين. وبدلاً من أن تطلب مدرسة قريبة من مدريد ساندت بلطف أكثر منه حماسًا هدف خطيبها الذي أراد أن يستقر في نفس المدينة التي ولد فيها حيث توجد أشياء كثيرة سيقوم بها كما أكد لها، كان مشعًا، طموحًا، ومحملاً بالمشاريع والمبادئ والأفكار غير القابلة للاستئناف حول العدل والظلم، حول الأزواج والأسرة والأبوة والأعمال الحرة، حول كل مظهر من مظاهر الحياة البشرية، كان له رأي حاسم ومحدد حول التاريخ والسياسة والأخلاق، وبالطبع أيضًا حول عملها؛ أنها أصبحت معلمة بالصدفة وأن لها روحًا عملية أكثر من اللازم يصعب معها تغذيتها بالأفكار المجردة والتبشيرية التعليمية التي طالما ما أعجبته، وكان يريد تطبيق هذا ربما بشكل حاد في المدرسة وعلى أولاده عندما ينجبان، حينما يرى الاثنان هذا واضحًا، لم يكن خطيبها منحازًا ألا يترك شيئًا للمصادفة أو التلقائية أو العفوية كما كان يقول، وهذه الشخصية العلمية الدقيقة جعلتها تشعر بتفاهتها مقارنة به، كان يوحي لها بشيء يشبه الشعور بالذنب، وبالشك في أنها ليست في مستوى قناعاته الثابتة، كذلك لم تكن تعتبر نفسها في مستوى ذكائه.

كانت تريد أن تتزوج وإذا لم يكن الفستان طويلاً على الأقل يكون أبيض، مع تنورة قصيرة وكعب عال وجورب من الحرير، في قرارة نفسها لم يكن يضيرها أن تتزوج في الكنيسة ولكن طبعًا لم تقل له شيئًا عن كل هذا، حيث كانت لديه أفكار واضحة وصارمة عن طقوس الأعراس وكان عندما يبدأ والدها أو والدتها في شكوى كانت تغضب منهم وتنحاز لصف من سيكون زوجها باقتناع عنيف كأن دفاعها عنه بهذه الغيرة هو دفاع عن استقلالها الشخصي ولتبدد شكوكها التي لم تعترف بها. لذا تزوجا في المحكمة، أمام قاض لا يؤمن بشكل جلي بقيمة هذا الطقس غير الشرعي والذي ألقى عليهما تقليدًا حادًا لخطبة كنسية، وبعد ذلك سببت لهما سرعة

الإجراءات تثبيط العزيمة والذهول وخرجا إلى الشارع بعد أن دفعهما بالفعل موظف قضائى، حيث كان ينتظر أزواج آخرون ومجموعات من المدعوين، نساء بدينات بقبعات القش كن يقهقهن وهن يقذفن بحفنات من الأرز، كل شيء كان بسبب القلق من التأمين الاجتماعى، أمدتها سرعة الإجراءات وعدم الحماس الذى ميزها بضيق فى الصدر لا يمكن التغلب عليه، ورغبة عنيفة فى الانغلاق والبكاء هناك فى نفس ذلك المكان، فى دورة مياه المحكمة، حيث كانت اللافتة "رجالى وحريمى" مكتوبة بالقلم الجاف فوق ورقة وملصقة على الأبواب بشريط لاصق.

اكتشفت وعمرها الآن سبعة وثلاثون عامًا أشياءً عن نفسها كانت قد أثرت فى حياتها كثيرًا دون أن تفهمها وتتقبلها، وفى أحيان كثيرة لم تكن حتى تدركها، على سبيل المثال، الطريقة التى تؤثر فيها التفاصيل الصغيرة، قبح أو حُسن الأماكن أو الأشياء التى تحيط بها، وكيف انتابها الألم المريع عند رؤية اللافتات المكتوبة بالقلم الجاف والملصقة بشكل سيئ فوق أبواب دورات المياه، كان عليها أن تتقبل بلا شروط ودون إدراك أسوأ المخاوف، الاستسلام، ترك بعض التفاصيل وإهمال الأشياء اليومية: فى الشتاء حول إحدى الموائد المزودة بمجمرة فى غرفة المدرسين تتناول بعض المعلمات أثناء الفسحة كوبًا من الكوكاكولا مع بسكوت قد أحضرنه من المنزل ملفوفًا فى ورق ألومنيوم، يستدفئن بمصراع المنضدة كى يتلقين حرارة المجمرة الكهربائية ويغمسن البسكوت فى الكوب وهذا يسبب لها كآبة بالطبع سخيفة، ولكنها كآبة مكثفة مثل التى شعرت بها بعد زواجها عند التفاصيل المحددة الخاصة بالحميمية الزوجية عندما اكتشفت أن زوجها غير معتاد على شد السيفون بعد أن يتبول، على سبيل المثال، كآبة من الصعب أن تفضفض بها إلى أحد، كـــآبة جعلتها تشعر بالذنب، باتهـــام نفسها بالتفاهة أمام استقامة زوجها الصارمة.

كان هو من أحضرها لمدينته حيث كان يفكر فى ممارسة عمل فخارى فى الورشة التى ورثها عن والده: بعد مرور وقت ليس بالطويل كان يتركها بمفردها، بمفردها مع الطفل الذى ولد بالضبط فى نهاية أول عام دراسى لها كمعلمة، وعندما رحل لم تكن قد أتمت عامها الثالث، كان يشرح لها كل شىء باستقامة وهو معذب دائمًا، بتلك الصراحة المحددة المخيفة التى كانت تتفادى كل رقة. أصبحت فجأة الحياة الجديدة حياة أخرى، اضطرابًا بسبب الوحدة والعمل، إهانةً لأنه هجرها والفزع بسبب عودات محتملة، ضيقًا وهى فى الليل بمفردها مع الطفل وهو مريض، ودقائق من الانتظار فى الصباح حتى تصل الفتاة التى ستمكث معه، من الخروج مسرعة من اجتماع فى المدرسة لأخذه من الحضانة، لحمله إلى الطوارئ فى الرابعة فجرًا لأنه كان يبدو أنه يختنق فى فراشه ولم تنخفض درجة حرارته.

والآن إذا كانت تحن لشىء، فلا تحن لشبابها ولا لأحلامها وآمالها حين ذاك، لا تحن لما تحطم للأبد عند انتهاء حياتها الزوجية - سذاجة فى جزء كبير لا يمكن تقبلها لدى شخص ناضج، استعداد أولى للتصديق والثقة لن تستعيدهما أبدًا مرة أخرى - إنما ما تحن إليه هو الإحساس الخالص بالشىء الجديد، بحياة منفتحة بدأت لتوها، سيان كان هذا الإحساس للمرة الأولى فى الحنان أو الألم، فى الفرح أو الخوف: عندما وصلت إلى المدينة لم يكن العالم مستهلكًا، مثلما الآن، لم يكن متوقعًا، ولا يمكن أن يكون مسموحًا بأن يدار على أساس الخداع والمكر. كانت الأشياء تظهر وتتغير من يوم لآخر، كان وصول أول شتاء فى تلك المدينة وفى غرف الدور الأول التى كانا يؤجرانها هو البداية المثيرة لفصل جديد، لحياة لها رائحة أشياء صنعت لتوها، غرف دهنت حديثًا، رائحة خشب أثاث جديد، الرائحة التى بدأت تلاحظها حينئذ عندما كانت تعود من المدرسة والتى ميزتها فى الحال على أنها ملمح ورمز فى الوقت نفسه للحياة الجديدة.

لم يكن هناك شيء يضايقهما، لم يكن هناك شيء مؤكد أو نهائى بشكل مطلق، كانا قد ركّبا رفوفًا فوق ألواح مرفوعة فوق الطوب، كانت قد أحضرت من المدرسة مقعدين قديمين كانا يستخدمانهما كخوان سرير، تعلما الطهى من كتاب "سيمون أورتيجا" رغم أنه لم يكن صبورًا وليس لديه مذاق للأطباق التى يستغرق إعدادها وقتًا ومجهودًا والتى كانت تعجبها، نفس الشيء كان بالنسبة لغرف الشقة التى كان لها بقدر كبير فوائد متبادلة بالنسبة لهما طوال ساعات النهار، وكانا يمكنهما البقاء فيها حتى طلوع الصبح يتحاوران ويدخنان مع بعض الأصدقاء (مع فيريراس وخطيبته حينذاك المنافقة الماكرة، بشعرها القذر وثديها الضامر، فيما بعد تذكرت هذا بحقد متأخر وغير مفيد على الإطلاق)، والاستيقاظ فى الثالثة ظهرًا يوم الأحد وممارسة الحب فى المطبخ على عجل، أو قضاء مساء بأكمله يتدفآن جيدًا فى الفراش دفعًا للبرد وهما يقرأن على الضوء المضبب للشتاء.

من أول مرتب دفعت القسط الأول لجهاز كبير للموسيقى، الأثاث الوحيد الثابت والقيم الموجود فى المنزل، تبرق أزراره الفضية وتترنح الإبر المرشدة مثل إبر مسجل الزلازل فى الأزمان السابقة على التكنولوجيا الرقمية. كان لديهم أسطوانات قليلة، أسطوانة "لكارمينا بورانا[1]" كانت تعجبه كثيرًا لدرجة أنه كان يتحمس ويقوم بحركات كمن يغنى فى الكورس أو يقود أوركسترا، دوبليه لفرقة بيتلز، شيء من موسيقى أمريكا الجنوبية التى لم تكن قد سقطت بعد فى الكساد. لكن كانت هناك أسطوانة تعجبها أكثر من باقى الأسطوانات وإلى الآن ما زالت تحفظها عن ظهر قلب رغم أنه مضى وقت

---

(١) هى اسم أوبرا للملحن الألمانى كارل أورف (١٨٩٥ ـ ١٩٨٢) المستوحاة من مجموعة من الأغنيات البوهيمية التى جمعت فى مخطوط ظهر فى القرن الـ١٩ وتتحدث عن اللذات الدنيوية. (ت)

دون أن تسمعها، كانت الأسطوانة منتخبًا من أغنيات "خوان مانويل سرات[1]" التى كانت تسعى لسماعها عندما لا يكون زوجها بالمنزل، وهذا ليس لأنه كان سينتقدها بشكل مباشر وإنما لأنه كان سيبتسم بشكل من التنازل، تلك الابتسامة التى كانت من الإشارات المتفردة التى تلخص الشخصية وتحذر منها، ابتسامة احتقار وصبر، ابتسامة للميل التعليمى الذى لا يكل. من تلك الأسطوانة كانت تعجبها أغنية بعينها: *وقت المطر*، كان يبدو لها أنها تتحدث بالذات عن ذلك الخريف فى حياتها عندما بلغت اثنين وعشرين عامًا، وبداية كل شىء، كان خريفًا بطيئًا، سماؤه نظيفة فى الصباح وأمسياته مضببة وبها رياح وكان أعذب شىء فيه هو الدخول إلى الفراش فى الليل وملاحظة ملامسة الملاءات الدافئة والتى يمتن لها الجلد، بعد أن خلا من عرق الصيف وأصبح أكثر حساسية وولد من جديد، ولفرط الحساسية التى لم تكن تنسبها فى ذلك الوقت إلى فترة الحمل، إلى رذاذ الحياة التى تنمو بداخلها. أمسيات من المطر تعود فيها الشمس عندما كان ينتظر قدوم الليل بعد ظلمة الضباب الخادعة، كانت تنظر من النافذة التى لا تزال بلا ستار والمطر يلمع خلف شمس المساء المائل وعندما تلتفت إلى داخل الحجرة شبه الخالية كانت ترى نفس المكان الذى ترسمه الأغنية:

جاء وقت المطر

والحياة من قُبلة إلى قُبلة

بين حوائط من الجبس

لنترك الأيام تجرى...

---

(١) شاعر وملحن ومغن، وأحد أبرز أعلام الموسيقى الحديثة بإسبانيا، ولد فى برشلونة عام ١٩٤٣. (ت)

كانت الأغنية قد كُتبت من أجلها، لشهر سبتمبر ولذلك المساء بالتحديد التى كانت تجهل فيه أنها سترزق بطفل فى نهاية الربيع المقبل، وهكذا سيكون الفصل السنوى الأول لأمومتها، مثلما كان الخريف بداية دخولها للعمل وللحياة الزوجية. *وقت المطر*، ما زالت تسمع الأغنية وتغنيها هى أيضًا بهمس: *وقت الحب بصوت خفيض*.

لم يكن لديها أيضًا بعد الانفصال عن زوجها حنين للجنس: كانت تحتفظ فى قلبها بشىء من بقايا حنان مضطرب وكانت تفضل ألا تتذكره بالتفصيل، بالطبع لم تكن تفتقد لمن كان زوجًا لها، بل بدا لها غير لطيف التفكير فى إمكانية بحق أن تنام معه ذات مرة، أو ظهور خاطف فى وعيها لأحد المرات التى نامت فيها معه منذ عشرة أو خمسة عشر عامًا. تدريجيًا وفقًا لتجاوزها فزع ومهانة الهجر كان مفهوم أنه لم يكن أبدًا فى الحقيقة حبيبًا يمكن تذكره ولا حتى فى بداية علاقتهما فى الخريف الأول لحياتهما معًا وفى المدينة الجديدة بالنسبة لها. نعم لديها حنين لشىء: لديها حنين إلى الإحساس الدافئ الذى لا يصدق، إحساس غامض فى البداية بأن تكون حاملاً، كان أكثر شىء جديد لخص وتفوق على الأحاسيس الجديدة الأخرى حيث غلفها فى عذوبة جديدة أيضًا، عذوبة لم تشعر بها من قبل، بالطبع عذوبة شخصية جدًا لأنه لم يكن لديها إحساس أن يشاركها فيه زوجها بشكل كامل. كانت تكمن عذوبة هذا الإحساس فى طبيعته وهى أنه لا يمكن أن يشاركها فيه أحد سوى من هو سيتأخر سبعة أشهر ليولد، إنها سعادة لا تقل أبدًا، ولا حتى تنقص أو تستنفد مع مرور الوقت، ولا حتى عندما تتحول إلى خبر عائلى.

قالت فى إحدى الأمسيات للمفتش بعد أن مر شهران على تقابلهما فى قاعة المدرسين فى المدرسة عندما اعتادت أن تتحدث إليه دون أن يسألها ودون أن يحكى لها أشياء كثيرة، كان فقط يعيرها تركيزًا وانتباهًا صامتًا:

– لكنه فجأة لم يرد أن ننجب طفلاً، قال إنه مبكر جدًا وإنه سيحطم كل خططنا، وإن كلينا ليس بالنضج العاطفى لتحمل مسئولية الأبوة، كانت هذه كلماته وقتها، وبدت كلمات حقيقية ومحددة ولاحقًا كلمات تجىء وتذهب مثل أغانى الصيف.

لم يكن حتى لديه حنين لابنها الذى عاش معها حتى نهاية السنة الدراسية للعام الماضى الذى أنهته فاطيما بحصولها على أعلى الدرجات فى الصف كله وتسلمت النتيجة وهى جادة وباسمة وسعيدة وخجولة من تفوقها، بتردد بين الخجل والحياء. كان ابنها قد أتم الرابعة عشرة من عمره، طوله ١٩٠ سم، كان يحلق ذقنه يوميًا ويترك فى الحمام الملعقة متسخة وعبوة كريم الحلاقة مفتوحة. لا ينظف المرحاض بعد أن يتبول ومن المعتاد أن ينسى شد السيفون، ولأنه لا يعيش الآن معها يعد هذا ارتياحًا لا يمكن الاعتراف به لأنه كالعادة أيضًا به جزء من الذنب. لا تفتقد للمراهق الذى ذهب ليعيش موقتًا مع والده تاركًا إياها وحيدة للمرة الثانية فى تلك المدينة التى ليست مدينتها. ولكن لديها حنينًا جارفًا للطفل الذى كان منذ أن شعرت بنبضه وبحركته لأول مرة فى بطنها إلى أن بلغ تسع أو عشر سنين، والآن أدركت أن فى حنينها جزءًا من الحداد لأن هذا العمر الذى تشتاق فيه إلى ابنها هو العمر الذى أوقف الموت عنده فاطيما للأبد. لم يكن هناك فرق، لم يفرق شيئًا رباط الدم. ماتت الطفلة وكانت تنظر إلى أعمالها المدرسية وإلى مقعدها الفارغ بحداد اليتم العميق، كأن الحياة قد انتزعت من طفلتها هى.

كانت شاردة جدًا عندما دق صوت جرس التليفون الذى سبب لها فزعًا من الضيق والعجلة المشابهة لتنبيه جرس المنبه. باضطراب كمن يستيقظ فجأة التقطت السماعة وسألت من المتحدث، فى البداية لم تتعرف على صوت المفتش. قال لها إنه كان قد حدث شيئًا وإنه من الصعب جدًا أن يزورها فى المدرسة ولعلها لن تمانع فى الذهاب لزيارته فى المكتب فى أى وقت فى المساء، وسيكون فى انتظارها.

٩

كان ينهى قهوته شديدة التركيز التى تترك له طعمًا مرًا فى سقف فمه، كان يحرك الملعقة فى قعر الفنجان ويخرجها منغمسة فى السكر السائل داكن اللون، الذى يشبه الكراميل السائل، يتذوق السكر بمتعة صبيانية، على المائدة التى جلس عليها منذ أول يوم لوصوله والتى كان قد احتجزها له النادل بشكل ضمنى، كانت هناك مائدة صغيرة بجوار النافذة تطل على الأروقة والميدان، كان يجلس عليها ليتمكن من النظر بشكل مريح إلى الخارج فى الوقت ذاته يرقب مدخل المطعم. كانوا قد علموه ألا يعطى ظهره للباب وأنه من المفضل فى الأماكن العامة أن يرى من يتوافدون قبل أى شخص آخر. الواحد منهم يمكن أن يكون فى أحد البارات أو المطاعم مثل مطعم مونتيرى يتناول بمفرده وجبة اليوم على مائدته المعتادة وهو يشاهد نشرة الأخبار وفجأة يدفع الباب الزجاجى شخص ذو مظهر عادى يرتدى سروالاً من الجينز وحذاء رياضى وعليه سترة* أو معطف من البلاستيك ويرفع يده إلى جانبه ويمد ذراعه وفى الحال يضع فوهة المسدس فى القفا ويطلق النار ويبقع بالدم وبمادة دماغية مفرش المائدة المربعات أو المصنوع من الورق المقوى الأبيض الرخيص. وبعد مرور ثوان يكون الوافد قد ذهب لتوه بثبات وهدوء وهو ما زال يحتمى بالمسدس، للتحذير، وما زالت تُسمع الأصوات فى نشرة الأخبار بنفس الطريقة، ولا يقترب أحد صوب المائدة التى يرقد عليها رأس الرجل المهشمة فوق الطبق الذى انتهى من نصفه.

أكثر الأشياء التى أعيت المفتش كان الاعتياد على غياب الخوف. كان قد عاش وتنفس الخوف طوال وقت طويل، كان قد أمد به نفسه كأنه تطعيم، جرعة سم ضرورية للحصول على مناعة محددة، والآن عندما لم يصبح فى

حاجة إليه استمر الخوف معه يلازمه، فهو عادة موغلة فى القدم لا يتمكن من التحرر منها فى أيام أو أسابيع، فى الشهور القليلة التى ابتعد فيها عن بلباو. الآن يكرر إجراءات وقائية عديمة النفع: ينظر بمجرد أن يستيقظ إلى الشارع من شرفة غرفة نومه باحثًا عن ظهور سيارة غير عادية أو شخص غير مألوف فى الحى، كان يحفظ أرقام السيارات، ويغير طريق سيره بين قسم الشرطة والمنزل، يعود بعد خطوات قليلة ليتأكد من أن أحدًا لا يتبعه، ينظر أسفل سيارته قبل أن يركبها. ورغم أنه الآن يستخدمها قليلاً، ففى كل مرة يدير مفتاح المحرك يفعل ذلك بحافز من الترقب، فى رعب يمتد عُشر الثانية. يمكن أن تقتل هذه الحركة الصغيرة الآخرين، كان يتساءل دائمًا إذا وصلوا إلى معرفة ذلك، إذا كان لديهم وقت لفهم أنهم يموتون، سيتفجرون فى عُشر الثانية ويتحولون إلى أشلاء فى وسط مخلفات، نسيج بشرى ممزق وملابس وبلاستيك محروق، دخان كثيف وخانق، نوافذ لا يطل منها أحد تحطم زجاجها، يفضلون عدم النظر، عدم المعرفة.

كان يفكر، ربما لا، من المحتمل ألاّ يصل أحد إلى معرفة ذلك، أن يكون مشتتًا لأى سبب وأن يصفيه الموت، حركة سريعة وجزء من الثانية هى المسافة الوحيدة التى تفصل بين الحياة والموت، بين ركوب السيارة والتفكير فى أن الجو بارد أو أنه سيصل متأخرًا أو أن مباراة كرة القدم اليوم كانت فظيعة، وفجأة لا تكون أى شىء، لا تكون حيًا، ولا حتى تعرف أنك بشر، أشلاء أو خرق من الملابس والأحشاء، دم ومادة دماغية فوق تنجيد ولوحة أجهزة قياس السيارة المهشمة نتيجة الانفجار، فى شارع ساده الصمت إثر جلبة الزجاج المكسور، ساد الصمت كل شىء، صمت ما قبل الشروق، ووجود وجه شاحب مرتاب لا يطل بشكل كامل من نافذة مرتفعة.

يتذكر مع فتح كل خطاب من الخطابات القليلة التى تصله من فقدوا أيديهم أو عيونهم عند فض المظروف، عند إزاحة غلاف الطرد دون أن

يراودهم الشك فى شىء. يفضل الموت المفاجئ السريع على العمى المرعب، على الأيدى المبتورة، على الجلوس على كرسى بعجل، على أجهزة الأطراف الطبية المأساوية، لكن لا، لا يريد أيضًا هذا الصنف من الموت، إذا كانوا يقصدونه ولم يتمكن من الهرب يفضل أن يقتلوه بسرعة ولكن ليست بالسرعة التى لا تسمح له أن يعرف أنه سيموت، دون أن يعى بأى شكل ويتقبل أنه سيموت. كان لدى فاطيما ساعات من العذاب البطىء لكى تعى الذى سيحدث لها، لكن ربما قد أدهشها الفزع لدرجة أنه أعمى إدراكها، فى النهاية لم تتعذب، فيريراس قد قال ذلك، كان الاختناق بمثابة المخدر.

كان ينتظره، واعده فى مكتبه ولكنه كان كسولاً لا يريد النهوض والخروج فى المطر والرياح، ومنح نفسه هدنة لمدة بضع دقائق: لم تكن ساعة البرج قد أعلنت الرابعة. وبينما يحتسى آخر ما تبقى من القهوة الباردة تذكر دون حنين ولكن مع الندم المحادثات حول مائدة الطعام فى أوقات أخرى فائتة، السجائر وأكواب الويسكى، التظاهر بالقوة وتوقد الذهن والشجاعة التى يمد بها الكحول. كان يفكر فى الشراب وفى المكان الآخر الذى تركه وأصبح الآن بعيدًا، رغم أنه لم يكن متأكدًا أبدًا من أنه عند مغادرته كان يهرب أو أنهم ببساطة كانوا يطردونه.

فى الرابعة تمامًا شاهد من النافذة وصول فيريراس إلى الميدان فوق الدراجة البخارية التى أوقفها فوق الرصيف المقابل لقسم الشرطة، كان يرتدى خوذته، وسترته الجلدية الواسعة كأنها سترة واقية، وكان يحمل بحماس حافظة أوراقه الكبيرة البالية الطويلة بسبب الطيات ومشابك الورق. عندما اقترب من الشرطى الذى لدى باب القسم خلع الخوذة ورآه المفتش وهو يومئ بالإشارات وتنبأ قبل أن ينفى الشرطى بثانية أنه سيشير إلى الجهة المقابلة للميدان ناحية بوائك مطعم مونتيرى. يعجب المفتش أن يرى الناس

من على مسافة، من مكان مرتفع محصن مثلما كان عليه أن يراقب شخصًا على مدى وقت طويل وانتهى به الحال إلى اكتساب نوع من الألفة شديدة الحميمية مع مسيرة وعادات هذا الشخص الغريب، الذى عندما يراه بعد ذلك عن قرب لا يطابقه كلية مع الهدف الذى كان يراقبه. تذوب الهوية من بعيد، لم يكن من الصعب رؤية الأشخاص كأنها شخصيات مسرحية تتحرك فى شوارع اختصرت إلى أبعاد مسرح صغير، وتدخل إلى منازل لها فى الحقيقة واجهات من الكرتون يقص فيها مكان الشباك وتضاء من خلف خشبة المسرح بفانوس أو شمعة.

وهكذا يرى الآن الميدان، فى الهدوء الناعس لمحادثة حول مائدة الطعام، التمثال فى المنتصف مثل إحدى تلك الشخصيات العسكرية التى من الرصاص ونبات الحناء ذى الأوراق المستديرة، برج الساعة، والأسقف التى لها لون الكرتون القديم، المبتلة الآن من المطر وتلقى بظلالها على السماء الداكنة حيث تتحرك السحب بسرعة متزايدة كأنها مشهد مشوه. ترك فيريراس الدراجة البخارية أمام قسم الشرطة ويراه المفتش الآن وهو يعبر الشارع متجهًا إلى بوائك مطعم مونتيرى واستطاع أن يحسب كما يحدث فى لعبة الشطرنج كل الخطوات الآتية، واللحظة المحددة التى سيراه فيها يظهر عند باب غرفة الطعام، الخوذة فى يد وحافظة الأوراق فى اليد الأخرى، تتلاحق أنفاسه إما بسبب الإثارة أو السرعة التى عبر بها الميدان وصعد بها سلم المطعم.

استغرق فيريراس وقتًا حتى رأى المفتش رغم أنه لم يتبق أحد فى المطعم فى تلك الساعة: من ينتظر بانتباه تكون لديه دائمًا ميزة عن الذى وصل لتوه، عُشر الثانية التى يستغرقها هذا الأخير فى إراحة ناظريه على وضع الأشياء والحضور. يبدو فيريراس أى شيء عدا الطبيب الشرعى وهذا ليس بسبب السترة الجلدية والحذاء ذى الرقبة الطويلة والخوذة: يبدو على

الأرجح أنه مصور حوادث، أو مراسل خاص إلى أى مكان، إلى أى منطقة خطيرة أو وعرة. كان له وجه شديد السمرة كأنه عائد لتوه من حرب فى بلد استوائى، وقد أحضر معه شيئًا ثمينًا جدًا: رسالة أو ميدالية، يبدو محتوى حافظة أوراقه، المصنوعة من الجلد السيئ مثل سترته، بخيوطها وطياتها مثل أمتعة المكتشف. يوعز حضوره بتقلبات جسيمة ومخاوف وأخطار. ولكن عندما كان يخلع السترة أو عندما يكون فى مستودع الجثث مرتديًا معطفه الأبيض يبدو فجأة أنه طبيب، طبيب جاد ومتأمل حيث يعطى بعناية تفسيرات فنية وسرعان ما يهتم بأن يجعلها تفسيرات مفهومة بالنسبة لمستمعه وأحيانًا بلفتة تعليمية وتسامح بدرجة مفرطة. كان هو من التقط صورًا لجثة فاطيما. فتح بعد مجهود الخيوط الكثيرة لحافظة أوراقه وترك ظرفًا أبيض كبيرًا فوق المائدة التى لم يزيحوا عنها بعد المفرش. عن قرب بدا جلد وجهه الملفح بسمرة الشمس كأن به صبغة ترابية وكانت عيناه حمراوين شديدتى الاتساع، استدعى النادل وطلب منه كأس كونياك.

- ألا تريد كأس كونياك؟

حرك المفتش رأسه بالنفى مشيرًا إلى فنجان القهوة، تركز انتباه فيريراس على زجاجات الكوكاكولا الثلاث الفارغة التى كانت فوق المائدة.

- أتشرب قهوة وكوكاكولا فقط؟ لذا يبدو على وجهك أنك لا تنام أبدًا.

- لا يبدو أيضًا أن حضرتك نمت كثيرًا؟

- ولكنى أهرول دائمًا، أذهب دائمًا وأنا متعجل كأننى وضعت شيئًا لنفسى.
- كان فى لهجة فيريراس وكذلك ملابسه سخرية زائدة، جرعة من التورية التى يقبلها هو شخصيًا، ويشهد عليها الطابع الشبابى، أو كلماته القوية، وملابسه أو دراجته البخارية – انتهيت من كتابة هذا فى الثامنة صباحًا، حينئذ لم أنجح حتى فى أن أرى لوحة مفاتيح الكمبيوتر.

أحضر النادل كأس الكونياك وشرب نصفه دفعة واحدة. انتشرت رائحة الكحول القوية فى الهواء. طلب المفتش كوكاكولا. مسح فيريراس بيده على وجهه ثم غاصت أصابعه فى شعره الأشيب الكثيف، بحركة غير إرادية تدل على التعب والانهماك.

– كنت أريد أن أسلم تقرير التشريح للقاضى اليوم، وأحضرت لك هذه النسخة.

كان على وشك أن يتناول رشفة أخرى من الكونياك ولكنه انتظر حتى يحضر النادل الكوكاكولا وعندما أفرغها المفتش فى الكوب الذى به ثلج، قام بإشارة ساخرة على النخب. يثير الأشخاص المتحفظون عصبيته ويعطونه انطباعًا غير لطيف بعدم الملاءمة. يكلفه كثيرًا أن يظل صامتًا وأن يعتبر فى استسلام أن فصاحته تجعله يبدو أقل دونية من وضعه الوظيفى. فمثلاً الآن ينظر إليه المفتش فى صمت وهو يرشف على دفعات قصيرة الكوكاكولا ورغم أنه بلا شك كان يتعجل معرفة الجديد عن تشريح الجثة إلا أنه لم يظهر العجلة: كان فيريراس نفسه، من يعرف كل شىء، لم يكن يستطيع الكتمان. فكر بعد ذلك، بعد أن تعامل معه بشكل أكبر، أن المفتش لم يكن أقل انتباهًا منه، ولكنه انتباه ينبع من وعى ينسحب أكثر ناحية الداخل، من مكان يوجد به المفتش دائمًا بمفرده، فى منزل لا يستقبل فيه أبدًا أية زيارات.

– لم يغتصبها، قال فيريراس بغتة وهو يرشف الكونياك، لم يحتلم المجرم فى أى لحظة. ليس هناك أثر للسائل المنوى بداخلها أو فى الخارج. نعم جرح المهبل، من المؤكد أنه استخدم أصابعه. كان هناك شعر عانة فى حلقها.

– وماذا عن الدم؟

– تقريبًا كل الدم كان منه، عدا دم نزيف المهبل الذى لم يلطخ ملابسها لأنها كانت عارية.

– هل هو من نفس فصيلة الدم التى وجدت فى المصعد؟

– هى نفسها، فصيلة (o)، ربما جرح نفسه بشىء جرحًا عميقًا.

– هل من الممكن أن تكون الفتاة عضته؟

– لا أعتقد ذلك، ليس هناك علامات على المقاومة، ولا يوجد قطع من جلد ولا شعر منزوع لهذا المدعو فى أظافرها. إذا كانت قد عضته كنا وجدنا أى أثر على أسنان فاطيما وبالتأكيد كنا وجدنا شيئًا من الدم.

لكن كان فى المصعد دم، علامة حمراء بجوار لوحة الأزرار وأيضًا على درابزين السلم وفوق الحائط، تقريبًا علامة كاملة على يد مثل الأيدى الزرقاء التى تظهر فى واجهات بعض البيوت فى القرى المغربية، قال فيريراس، حيث كان قد قاده استعداده الهائل للاكتشاف مرة واحدة فقط فى حياته إلى شمال أفريقيا عندما كان يسافر للبحث عن الحشيش. وهذا يعنى أن قاتل فاطيما لم يفاجئها فى الشارع وإنما من المحتمل فى المصعد بعد أن عادت فاطيما من المكتبة. ربما رآها وهو يحوم حول البوابة ودخل معها فى الوقت نفسه وعندما بدأ المصعد فى الصعود ولزمت الطفلة الصمت بجوار هذا الرجل فى المكان شديد الضيق، مع علبة ألوان الشمع ولوح الورق المقوى تحت إبطها، قام هو بحركة لم تفهمها، بحركة لم تفزعها بعد، مد يده وضغط على زر التوقف وكان ينزف. بأى شىء أحدث الجرح؟ قال المفتش، كيف ظهرت نفس بقعة اليد على كتف اللباس الرياضى لفاطيما، نفس علامة الخمسة أصابع، مثل علامة أخذ البصمات، اليد التى تنزف والتى غرزت فى عظمة أعلى الصدر وكتف الطفلة الرقيق، عندما كانت تضغط على العظام الضعيفة، واليد التى هتكت وجرحت بعد ذلك؟

- حاول الولوج بداخلها ولكنه لم يستطع. قال فيريراس فى نبرة استطاع أن يحصل فيها على كثير من الحيادية، ولكن لم يستطع التحكم فى أعصابه، مر بيديه فوق شعره الأشيب المجعد وهو يلاحظ من طرف عينيه الطريقة المنهجية التى يشرب بها المفتش رابع زجاجة كوكاكولا - يحدث لهم ذلك فى بعض الأحيان؛ لذا يمكن أن يكون قد أجبر الطفلة على أن تضع عضوه فى فمها. استخدم المطواة. كان هناك قطع واضح فى رقبة الطفلة. ولكنه سيطر على نفسه: نفذ سن المطواة أقل من ملليمتر.

لم يكن يريد كلاهما التفكير فيما يقوله. كان هناك تناقض فى التفاصيل ولكنهما تجنبا تخيل الملابسات التى تكشفها، تقلص الرعب فى كل واحدة من هذه التفاصيل. اليد التى تنزف والإصبعان اللذان تركا علامات لا يمكن محوها فى الجزء العلوى من الرقبة وانتهاك الجهاز التناسلى للطفلة وشعر العانة الأسود المجعد اللاصق فى أعلى الحلق. لم يكن المفتش يريد التوقف ليعرف ما قد رأته عينا فيريراس الفاتحة والفولاذية على مائدة التشريح، وما لمسته يداه الكبيرتان السمراوان، يد صحفى أو يد مكتشف وليست يد طبيب. فكر مستنتجًا طريقة دينية غريبة هو وفيريراس أعضاء فيها ولكن لا يروقه الانتماء لها: يشتركان فى سر وذكرى الرجل الذى قتل فاطيما. مثل عين فيريراس التى تبدو حمراء الآن ومتسعة من قلة النوم، من الرعب الذى شاهدته، سيكون لعينى ذلك الرجل تعبير لا يسبر غوره، وستحمل إلى الأبد فى عمق الحدقة كأنه ومضة نفس الوجه الذى لا يمكن أن ينساه المفتش والذى كان لا يتحرك فى الصور، الوجه الذى، ولا حتى والدى فاطيما، كانا قد تمكنا من رؤيته.

- وما زال طليقًا. قال المفتش، وهو يشير إلى الناس الذين يمرون بالميدان، خيالات ترتدى المعاطف وتغطى وجهها بالمظلات وهى منحنية تحت المطر، موظفون يعودون إلى مكاتبهم أو إلى متاجرهم بعد الغذاء وبعد

غفوة فوق الأريكة، امرأة مع عربة طفل مغلفة بالبلاستيك، عجوز بالقبعة والكوفية ينثر حبوب قمح أو لبابة الخبز فوق رصيف وسط الميدان، جاذبًا وسط ضوضاء رفرفة أجنحة الحمام الذى يترك أغصان التمر حنة وأكتاف تمثال الجنرال المبقعة بالصدأ.. إنه هناك طليقًا، النذل، يمشى بيننا وهو هادئ، وهو متأكد تمامًا من أنه ليس لدينا شىء ضده حتى نقبض عليه.

- لدينا بصماته. قال فيريراس، بعصبية وهو يشتاط غضبًا ويميل صوب الأمام مبعدًا زجاجات الكوكاكولا الفارغة لكى يجد مكان لأوراق تقريره المكتوبة على الآلة الكاتبة. لدينا فصيلة دمه ولعابه وشعره وجلده وشكل نعل حذائه وأنا فى انتظار أن يرسلوا لى من مدريد تقرير الحامض النووى. فمن غير الممكن أن يذهب دون أن يترك أثرًا، حضرتك تعلم ذلك، سيدى المفتش، فقط بهذا الشعر الذى وجدناه فى حلق فاطيما يمكننا أن نتعرف عليه. هذا رائع، ألم تدرك ذلك؟ فى شعرةٍ، فى برادة أظافر، فى نقطة لعاب هنا حياتنا بأكملها، معلومات أكثر من التى تسعها أكبر مكتبة فى العالم، إنها معلومات عن كيف يكون الشخص، كل ما يعرفه أو ما لا يعرفه عن نفسه، عن أصله، وعن مصيره، عن المرض الذى سيسبب وفاته.

ولكن الآن لا يفيدنى أى من هذه المعلومات، فكر المفتش، وهو يوافق على كلام فيريراس من الزاوية المغلقة التى يراه منها الآخر، ويتذكر كلمات الأب أوردونيا، «ابحث عن عينيه»، عن وجهه بين الناس، ولا تبحث عن شفرته الوراثية ولا عن فصيلة دمه ولا حتى عن بصماته، لأنها لن تفيد الآن بشىء لأنه احتمال كبير ألا يكون من المجرمين المسجلين، ابحث عن عينيه، عن وجهه، عن مرآة روحه، عن المرآة الأكثر ضبابًا التى لا يمكن أن ينظر فيها أحد فى المدينة، الآن الآن، بينما أصبحت جثة فاطيما باردة ومخيطة، لا

ترقد تحت التراب وإنما بداخل ثلاجة من الألومنيوم، بينما يعود المطر ليتساقط وكأنه عودة لمطر أشتية الماضى وتنخفض السحب جدًا ويصبح لونها داكنًا وبعد أن أُضيئت بعض نوافذ الميدان وأنوار النيون فى المكاتب والمتاجر وفى مكاتب قسم الشرطة.

الآن يخرج شخص عادى متخفٍ، شاب فى العشرينيات من العمر، له شعر أسود ومجعد، شاب قوى تجرى فى عروقه فصيلة الدم (o)، يداه عريضتان ذات أصابع قصيرة وقوية، وبصمات مرسومة بوضوح فى تقارير الشرطة، بنفس الدقة التى سجل به رسم نعل حذائه مقاس أربعين الذى ربما يرتديه الآن والتى تؤكد أنه لا يمكن أن يكون طويلاً جدًا، طوله أكثر من ١٦٠ سم، أكد فيريراس، وهو يشير بحركة مبالغة بيديه، كأنه يشكل فى الهواء شكلاً من الجبس، هو شخص يدخن فورتونا ومن الممكن أن تكون أصابعه مبقعة بالنيكوتين وذلك بسبب عدد أعقاب السجائر التى خلفها وراءه فى المنخفض، هى فلاتر عليها آثار أسنانه، أعقاب مبقعة وطرية من اللعاب، فى اللعاب مظهر على وجود كحول، إنه شخص يشبه الكثيرين ولكنه لا يمكن أن يتشابه فى كل شىء مع الآخرين، لعل له ملمحًا يوشى به، ملمحًا واحدًا فقط، لا يمكن الشك فيه مثل بصمته الوراثية، تعبيرات وجهه، لمعان عينيه، ولكن الوجه مكان خال، وجهًا ممحوًا أو مشطوبًا، إنه شخص يسير الآن فى المدينة ولعله يمضى بخطوات هاربة وبطيئة فى نفس الميدان الذى يشاهد فيه المفتش وفيريراس الوصول المبكر للمساء، شخص له أيد وشعر وبصمات، يرتدى حذاء، ويحمل علبة سجائر من التبغ الفاتح وربما مطواة، ولكن لا يمكن تمييزه أو التعرف عليه لأنه لا يزال بلا وجه، وحتى بلا الملامح الأساسية التى تنذر بها صورة بالروبوت.

- انظر من يسير هناك. عندما تحدث إليه فيريراس شتت انتباهه بعيدًا عن تأملاته العميقة، كأنه أجبره على أن يفتح عينيه، على أن يستيقظ من حلم، وأشار إلى امرأة كانت تعبر الميدان بالقرب من التمثال، لم يميزها المفتش؛ لأن فى هذه اللحظة كانت المظلة تغطى وجهها. سوسانا، سوسانيتا جراى. كان على أن أتعرف عليها عندما وصلت إلى هذه المدينة منذ سنوات كثيرة لا أعرف عددها.

١٠

بحركة من رأسه طلب منه القس أن يصحبه، نفس الإشارة التى كان يعطى بها أوامره التى لا تناقش فى زمن آخر، تلك الأوامر التى لم تكن تحتاج إلى الطاقة المخيفة للصوت ولا تحتاج إلى الضرب. فعل هذا بحركة جانبية من رأسه وسبقها بجر قدميه فوق بلاط الردهات بنوع من الرشاقة الصبيانية، بسرعة مرتعشة لرجل كهل عجوز.

هو لا يتذكر أى شىء، شىء عجيب، ليس لديه أدنى حدس بالنسبة للأماكن التى كان يمر بها، ولا أى شىء من الأشياء التى لفت الأب أوردونيا نظره إليها أيقظت عنده الذكريات أو التعرف الغريزى عليها. لعل الردهات تذكره بالمصحة التى ربما فى هذه اللحظات تسير فيها زوجه برتابة. غرف النوم خالية، وما زالت بالقاعات الكبيرة أرض خشبية مليئة بالتراب وسبورات كبيرة، تنتمى لعالم آخر، لماض بعيد لا يبدو له أنه يخصه. يبرز فى هذا المكان الأسود من الذاكرة وجه الأب أوردونيا ووجه قس آخر أو مرشد مثلما هو الحال فى اللوحات ذات الخلفية المحايدة أو المجردة، مثل الاقتراح الخالص بالفراغ أو الظل. أيضًا لا يتذكر وجوهًا أو أسماء لزملائه فى المدرسة الداخلية: فقط يتذكر صفوفًا من الرؤوس الحليقة والمنخفضة أثناء وقت التعلم أو أثناء القداس، وبقعة المرايل الزرقاء فى الشمس تلعب كرة القدم فى أصبحة يوم الأحد.

– هنا كانت قاعة الكيمياء، أتتذكر؟

– لا أتذكر أى شىء.

لا يعير الأب أوردونيا انتباهًا كبيرًا لنقص ردود الأفعال الشعورية للمفتش أمام ما يراه، بلا شك لأنه هو أيضًا لم يكن عاطفيًا جدًا. كان يريد أن يريه شيئًا محددًا وفى هذا كان تركيزه بهاجس من التصميم الذى لدى كبار السن. منذ أربعين سنة مضت كان يسكنه عدة مئات من الأطفال بمرايلهم الزرقاء، كانت مدرسة اليسوعيين بناء مدهشًا، متاهة من القاعات الشاسعة والردهات المظلمة، يحيط بها أراض قفر علت فيها شيئًا فشيئًا مبان منخفضة للورش، مزرعة وأفنية للعب. الآن جزء كبير من هذه الممتلكات بيعت لمكتب عقارات واختفت المزرعة والورش مثلما اختفت المرايل الزرقاء ورؤوس التلاميذ الحليقة. الآن، قال الأب أوردونيا: نقلت المدرسة إلى مكان آخر بعيد جدًا فى ضواحى المدينة، نقلت إلى أرض أقل ثمنًا. الشيء الوحيد المتبقى من المدرسة القديمة هو الكنيسة والمبنى الذى كان به القاعات، وغرف نوم التلاميذ، والذى ما زال يعيش فيه الأب أوردونيا، والبواب، وبعض الموظفين القدماء من كبار السن مثله، كذلك يعيش فيها بستانى ولم يتبق حتى الزرع ليعتنى به، وكذلك الطاهية التى تعد لهم الطعام ونساء النظافة اللاتى ينظفن غرف نوم قليلة، لإذ ربما، من حين لآخر، يمكث أب يسوعى يكون فى زيارة للمدينة، أو أى مدعو جاء ليشارك فى لقاء أو حضر لإلقاء محاضرة.

- كل شيء كبير جدًا وشاسع جدًا، الحدائق والورش وملاعب كرة القدم والمزرعة - قال برتابة العجوز الشاكى -. كنا نعمل باجتهاد شديد فى السنوات الأولى، وفى المدينة كانوا ينتقدوننا لأننا نشمر عن سواعد ثياب الكهنة وكنا نشرع فى تقليب الأسمنت ونحمل قوالب الطوب مع البنائين. كانوا لا يثقون بنا، ولا يزالون لا يثقون فينا كثيرًا. حينئذ لم يدر بخلد أحد التفكير فى أن القس يمكن أن يكون يساريًا. كنا نتخيل مجتمعًا كاملاً مثل مجتمع العائلة المقدسة، مثل المجتمعات المسيحية الأولى: العمل،

الدين، الغذاء الصحى، الهواء النقى وغرف النوم جيدة التهوية. كل شيء فى تلك السنوات المريعة، أسوأ سنوات، عندما كان يسقط الناس فى الشارع موتى من الجوع، وحينئذ كنا نسمع ليلاً دفن الموتى فى المقابر. ولكننا هنا كنا سنبنى قلعة لله، جزيرة للخير وللعمل. لذا وافق الرئيس الأب على فكرة أن نحضر على سبيل الداخلية أيتامًا من أبناء الفريق الآخر أو أبناء سجناء. كنا نريد أن نعلم أبناء الفقراء مهنًا شريفة، وقمنا بذلك طوال سنوات بقدر ما سمحت به قوتنا، ما زلت أتأثر عندما أتذكر رائحة خشب ورشة النجارة، والأطفال بسروال العامل الأزرق وأدواتهم فى ورشة الميكانيكا، وكما ترى الآن، كل شيء خاوٍ، غير مفيد على الإطلاق، حتى الكنيسة. ولكن أعتقد أننا فعلنا شيئًا، مع كل جهلنا وانغلاقنا الأيديولوجى، حينئذ لم تكن قد تفتحت أعيننا على العدالة ولكن كنا ندرك أن المملكة الحقيقية لله هى مملكة الفقراء. الآن أنظر إلى كل هذا ولا أعرف من أين كنا نأتى بالمال وبالطاقة لكى نعلو بهذا المنزل كثيرًا. تخور قوتى عندما أسير من مكان لآخر وعلىّ أن أجلس لأرتاح على أى سلم. ألا ترى هذه الردهة الطويلة جدًا؟ أتتذكر أنه عندما كانت تمطر كنا لا نترككم تخرجون للأفنية وكنتم تمكثون الفسحة كلها فى الردهات؟ كان المبنى بأكمله يضج بأصواتكم وكنا نقرع الجرس ونطلق الصفير لكى تتجمعوا وكان هذا بلا فائدة لأنكم لم تكونوا تسمعون شيئًا.

يجعل الصمت الذى كان يُسمع فيه صوت الأب أوردونيا هذه الذكريات بعيدة جدًا: خطوات المفتش فوق البلاط، ملامسة نعل حذاء القس المصنوع من الكاوتش للبلاط، تنفسه الصامت والمتهدج، صوت المفاتيح بداخل جيبه وبمقدار ما كان يتعب كانت رأسه تميل أكثر فوق صدره، ولكن ذقنه كان مرفوعًا ويتقدم الفك السفلى كأنه يشد الجسم كله. كان يُسمع فى مخيلته أصوات ووجوه الأطفال الذين كانوا يحيطون به فى نفس هذه الأماكن، ولكن بالكاد كان يمكنه أن يفكر فيما يكونون عليه الآن، من منهم على قيد الحياة

يبدو-فى وجوههم وحياتهم أنهم رجال غادرهم الشباب منذ وقت طويل. على كل حال، عندما كانوا أطفالاً كانوا ينتمون إليه، كانوا معاصرين له. ولكن عندما تحولوا إلى رجال بدوا له رجالاً من زمن آخر، رجالاً من هذا الزمن، رجالاً ناضجين وأقوياء، فاقدين للذاكرة، ذوى ملامح غليظة أو ضعيفة بفعل السنين، لمحة من القسوة فى الوجوه دون أثر للبراءة، الذقن المرتخية تحيط بياقات القمصان وعقد أربطة العنق. عندما كان يراهم وهم صغار كان يفكر فى خوف كيف سيكونون عندما يكبرون، كان يتخيلهم مطابقين لآبائهم الريفيين الفقراء، الذين يعانون من سوء التغذية، ويملأ الخوف والطاعة والحقد أعينهم. بالطبع كان البعض منهم هكذا، ضاعوا عندما عادوا إلى البؤس الذى كانت قد أنقذتهم منه بشكل عابر الرحمة والخيرية. أصبحوا محطمين، اختفوا دون أن يتركوا أى أثر سوى بطاقات التعريف والكراسات والصور الفوتوغرافية التى كان الأب أوردونيا قد أمضى سنين فى تصنيفها وترتيبها دون أن يطلب منه أحد ذلك، ومع تقدم العمر أصبح أقل مهارة وضعف نظره، كان يقرب جدًا الأوراق من وجهه ليرى أسماء هؤلاء المنسيين وملامحهم: الوجوه التى كانت تصطف فى ردهات المدرسة، وفوق مقاعد الخشب العادية ذات محبرة الحبر، وخلف مركع الكنيسة، وجوه وحيدة فى الظلام خلف شبيكة غرفة الاعتراف، وجوه وأصوات طفولية تهمس بالخطيئة مرعوبة من كتاب الدين.

آخرون، أكثر مما استطاع هو تخيلهم، أصبحوا أكثر قوة ونجحوا وأصبحوا مزهوين بأنفسهم، أصبحوا رجالاً لا يشبهون فى شىء ما كانوا عليه وهم أطفال. ولكن لا أحد يشبه طفولته، كان الأب أوردونيا يفكر بعمق وفى صمت وهو ينظر من طرف عينه إلى المفتش الذى يمشى بجواره ويجتهد فى ألا يتركه فى الخلف، من يحتفظ بملمح، بتعبير عارض، بشيء من البريق الطفولى فى عينه. أحيانًا يحييه فى الشارع شخص يقول إنه كان

تلميذاً له وهو لا يتذكره رغم أنه يحاول أن يكتشف خلف قناع الإنسان الناضج أى بقية من ملامح أو نظرة طفل. ولكنه كان يبتسم ويوافق ويقدم الشكر ويسأل بشكل عام وتحفظ عن الأسرة والعمل. فى بداية الصيف عندما لم يكن يعلم بوصول المفتش إلى المدينة حضر لزيارته فى المدرسة رجل ناضج، ثرى، به بذرة لوحشية حبيسة داخل أناقته، ذو رقبة عريضة وشديدة الاحمرار، ويبرز صدره بشكل بالغ تحت القميص وكان أحد أزرار البطن مفتوحة. كان يعود للمدرسة الداخلية بدافع ربما لا يكون الحنين وإنما بدافع الانتقام القاسى من نفسه، كان يطوف بالأفنية وهو أكثر ضياعًا فى الحاضر عنه فى الماضى وهو يستعذب فى صوت عال ذكريات غير محددة ستظل شديدة القسوة إذا كان الزمن لم يكن قد استهلكها. كان يحدثه عن البداية، عن أصوله القاسية، عن امرأة ترتدى نظارة داكنة وأساور، شعرها أشقر مصبوغ، عن ابن مراهق ينظر إلى الأرض ولا يصغى إليه.

عندما كانوا يمرون بجوار نافذة كانوا يسمعون صوت المطر يسقط بقوة «مياه مباركة، جاءت فى الوقت المناسب»، قال الأب أوردونيا فجأة، لم يعترِ المفتش ذكرى وإنما إحساس جسدى محدد لم يمهله وقتًا ليحتمى منه، تدفق من مشاعر الغيظ القديم والحنان، من السعادة والإحساس بعدم الحماية: رائحة قماش القنب للحذاء المبلل، النفس الساخن للأنفاس والمرايل المبللة فى صباح شتوى ممطر ومظلم. توقف الأب أوردونيا واستند على ذراعه حتى يسترد أنفاسه.

- ها قد وصلنا.

أخرج كومة المفاتيح، المندسة فى جيب البنطلون، واستغرق فترة وهو يجرب الواحد تلو الآخر بنفاد صبر متزايد حتى استطاع أخيرًا أن يفتح الباب الذى توقفا عنده. جعله يدخل غرفة صغيرة جدًا بلا نوافذ، لا يُسمع فيها المطر ولا أى صوت يأتى من الخارج. أخذ يتحسس بحثًا عن مفتاح النور

ولم يجده، طلب من المفتش ولاعة أو كبريتًا ولكن لم يكن مع المفتش شيء منهما، وهمس بسخرية عجوز غاضب «هذا ما يحدث لنا لإقلاعنا عن التدخين». كذلك كان طوال حياته سرعان ما يسيطر عليه نفاد الصبر أمام المضايقات الصغيرة التى تحدث فى البيت، تتشابك يداه البيضاوان القويتان فى حماقة مع أى شيء، نفس الشيء يحدث مع آلة الكتابة حين أراد أن يغير لها الشريط الموجود بداخل غلاف من البلاستيك ولم يستطع فتحه. نقص الانتباه أمام تشغيل الأشياء أو طبيعتها الأكثر استخدامًا، ربما كان جزءًا من عدم مبالاته بالممتلكات ورفاهيات العالم. زادت الشيخوخة وضعف الإبصار ورعشة اليدين من إهماله. كان لا يزال يتحسس الحائط عندما أضاء المفتش النور: تضيء لمبة طويلة فلورسنت فى السقف المرتفع جدًا حجرة ضيقة تتوسطها مائدة، تمتلئ حوائطها بالأوراق، وكتب المحاسبة وملفات من الكرتون تحتوى على تواريخ مكتوبة منذ سنوات بعيدة. قال الأب أوردونيا:

- ها هو. تاريخ المدرسة بالكامل منذ أن افتتحناها عام ١٩٤٧. قبل ذلك كان كل شيء فوضوى، ولكن رويدًا رويدًا بدأت فى ترتيب الأشياء، كل فى مكانه، رتبتهم بالأعوام: وأدرجت كل القساوسة، والمدرسين، والتلاميذ الذين كانوا بالمدرسة. كنت أفكر فى كتابة تاريخ لجماعتنا ولكن بدا لى أن الوقت تأخر، تمر الأيام دون أن أشعر بها، هذه الغرفة أكثر صمتًا من سرداب الكنيسة رغم أنها لحسن الحظ أقل برودة. أبدأ فى مراجعة الأوراق والصور الفوتوغرافية حتى أنى أنسى النزول لتناول الطعام، حدث أكثر من مرة أنهم كانوا يبحثون عنى وخشوا أن تكون هاجمتنى أزمة قلبية. ولكننى كنت بخير هنا مع أوراقى، مع مدفأتى ومع سجائرى. أتريد أن ترى أين أنت؟

لم يكن المفتش يرغب فى ذلك، ولكنه لم يقل شيئًا. بسهولة يمكن أن يتحول الحنان الذى يكنه للعجوز إلى ضيق. بصفة عامة لا يتذكر الكثير عن طفولته ولا عن سنوات شبابه الأولى، ينقصه عادة الذاكرة غير المهتمة، وبالطبع كان لا يتأثر بأى شكل من أشكال الحنين. ولأنه قضى جزءًا من حياته مخفيًا أصوله أو مختلقًا أكاذيب حولها انتهى به الحال لأن ينسى جزءًا كبيرًا من الذى اجتهد كثيرًا فى إخفائه. يحزنه كثيرًا المتعة التى يحكى بها الآخرون أشياء عن طفولتهم، كأنهم عاشوا خبرات فريدة، روايات ممكنة. كان ينقصه الزهو بالذكريات وإذا كان يحتفظ بتفاصيل خاصة بإحدى الذكريات لا يدين بذلك لحدة ذاكرته وإنما للندم. ربما إذا كان قد أنجب أطفالاً كانت قد استيقظت فى نفسه صور وأحاسيس طفولته. ولكنه مثل أشخاص كثيرين، لم يتعاملوا أبدًا مع أطفال، كان يعيش كأنه لم يعرف سوى المرحلة العمرية للكبار وكانت حياة الأطفال تبدو له حالة بعيدة جدًا عن تجربته الشخصية مثل تجربة الكلاب أو الشمبانزى. الآن فقط وبعد الجريمة كان قد بدأ يتأمل التفاصيل فى وجود الأطفال: كان يراهم يخرجون من المدرسة التى كانت بها فاطيما، كان قد حقق مع بعضهم، ومع بعض صديقات فاطيما، وخاصة مع البنات الخائفات والتى لا زلن مرعوبات وينظرن إليه كأنهن يتشككن فيه ويرجعن للوراء بشكل غريزى إذا اقترب منهن قليلاً.

كان يدهشه أنه عالم مجهول بالنسبة له، يجهل رائحة الطباشير، وعرق الأطفال فى الفصول، الضوضاء على السلم وقت الفسحة، عدم التناغم بين أصوات كثيرة حادة. بدت له معلمة فاطيما، التى يناديها الجميع بالآنسة سوسانا، امرأة متعبة أو منفية فى بلد به كائنات صاخبة، صغيرة القامة، لا يمكن فهمها، كائنات حادة، تغلفها بصرخاتها، ببكائها، بطلباتها الضرورية وجذبها من ملابسها مثلما كانت تفعل الكائنات صغيرة الحجم فى جزيرة

"ليليبوت" مع "غاليفر" بحبالهم المنسوجة من خيوط العنكبوت[١]. كانت آخر مرة رآها فى قسم الشرطة قد لاحظ أنها تضع أحمر شفاه قانى اللون أكثر قوة من التى تضعه فى المدرسة. شفاه زوجه متورمة وجافة وبالكاد تحركها الآن لتتكلم، وعندما تتحدث يصعب جدًا معرفة ما تقول.

- فيمَ تفكر؟. نظر إليه الأب أوردونيا عن قرب بعينيه الصغيرتين، عينيه المتسائلتين دائمًا والتى بهما شىء من الاتهام، وترك على المائدة صندوقًا من الكرتون تسبب إفلاته بفظاظة كبيرة فى نثر قليل من التراب. ها هى الوثائق الخاصة بالعام الذى جئت فيه. ها هو ملفك حينذاك.

- ولكن لماذا تتكلف العناء، يا أبتى؟ قال المفتش، الذى لاحظ بداية غيظ غير منصف تجاه العجوز، راغبًا ألا يكون هناك، فى الغرفة الصغيرة جدًا والخانقة من التراب، محصنة بالصمت كأنها داخل غرفة تحت الأرض، وألا يسمع نفس الأب أوردونيا الذى يخرج بصعوبة ولا رائحة نفسه المريض والأدوية ولا رائحة ملابسه غير النظيفة تمامًا ولا رائحة الكولونيا الرخيصة التى يستخدمها.

- ليس هناك أى عناء - ينظر إليه الأب أوردونيا فى صرامة وهو يعتدل كأنه سيؤنب شخصًا ولم يتخذ طابع التهديد وإنما الجدية -. أريدك أن تعرف من تكون. لا يبدو عليك أنك تتذكر جيدًا. الآن الناس تنسى كل شىء وبالتالى لا أحد يعرف من يكون حقًا. أتتذكر ما كان يقوله دون كيخوته؟ «أنا أعلم من أكون» يا لها من كلمات مريعة. وكان المسيح

---

(١) يشير إلى رواية جوناثان سويف "رحلات غاليفر" (١٧٢٦) وهى إحدى كلاسكيات الأدب العالمى. بطلها غاليفر يصل فى أول أسفاره بعد إنقاذه من الغرق إلى الجزيرة الخيالية Lilliput (ليليبوت) ويبدو عملاقًا مقارنة بسكانها الأقزام. وفى عام ٢٠١٠ ظهر فيلم أمريكى بعنوان رحلات جويفر الذى استوحى قصته من هذه الرواية. (ت)

يسأل تلامذته: «وأنتم، ماذا تعتقدون من أكون؟». والواقع أنهم لم يكونوا يعرفون، لم يكونوا متأكدين، والأسوأ من ذلك أنهم لا يتجرؤون على معرفته. أنا أعلم ماذا كنت، ولكن كان هذا منذ زمن طويل لا تتذكره أنت أو لا تريد تذكره، وربما لا تعرف من تكون الآن.

- ما أريد معرفته هو من يكون الآخر.

- الذى قتل فاطيما؟

- ومن سواه. هذا هو آخر ما يهمنى الآن.

- ولا تهتم أن تعرف من تكون بحق؟

- لا أفهم لماذا تقول لى ذلك – أبعد المفتش عينيه بعيدًا عن نظرات الأب أوردونيا، الآن هو حانق على نفسه، فى قرارة نفسه جبان، غير واثق، مثل المراهق الذى دُعى للمكتب ليتلقى تأنيبًا رغم السن التى وصل إليها – بالطبع أعلم من أكون. الذى يمكن ألا يعرف هو حضرتك. من عرفته حضرتك لا يوجد. بالطبع، لحسن الحظ. لم تكن لى حياة أحسد عليها. إذا لم تستقبلونى حضراتكم لكان قد انتهى بى الحال فى ملجأ أو فى الشارع آكل الطعام السيئ لمعسكرات الجيش.

ولكنه كان يعبر عن نفسه، كان يعترف تقريبًا أمام رجل لم يره منذ أكثر من أربعين عامًا، ورغم ذلك كان يتحدث إليه بنفس اللهجة كأنه كان بالقرب منه دائمًا، يراقبه، يتنبأ مثل الشرطة بتفكيره أو نقاط ضعفه، يراقب أفعاله مثل الأب الغاضب المثابر، مع إرادة فى الحماية والنصيحة.

- انظر ماذا كنت. كان الأب أوردونيا قد قلب وبعثر فوق المائدة محتوى صندوق الكرتون وهو يبحث بين حزمة الأوراق وبين ملفات من اللون الأزرق الترابى بيده غير الصبورة وغير الماهرة وينحنى كثيرًا ليرى

عن قرب الوجوه فى الصور الفوتوغرافية، قوائم الأسماء المكتوبة على الآلة: عرض عليه ورقة عليها صورة مثبتة فى الزاوية العليا بجوار الشعار الذى كان عبارة عن نِير وأسهم. أتتذكر؟

ولكنه لم يستطع التذكر وليس هذا لضعف ذاكرته وإنما لأنه لم ير لنفسه صورة عندما كان طفلاً. وقتها لم تكن الناس تلتقط الكثير من الصور، لم يكن لديهم كاميرات ولا ألبومات تحفظ بها الصور، ولا مال تدفعه للمصور. فى منزل فاطيما كان قد رأى عشرات من الصور للطفلة المتوفاة منذ لحظة ميلادها بوجهها الأحمر وشعرها المفرود الناعم، مغمضة العينين وتلوى شفتيها فى علامة على البكاء. فى ظلام الشقة الخانق ظل التلفاز مغلقاً علامة على الحداد، عرض له والدا فاطيما كأنه كنز مصور شرائط الفيديو والصور الملونة للطفلة، صورًا لعيد الميلاد، الرقصات التنكرية لحفلات نهاية العام، صورًا لحفلات التناول، صورًا كبيرة مؤطرة فى الصالون معلقة فوق الحائط أو وُضعت فوق الأرفف، فوق التلفاز مثل الصور فى الكنيسة، كتالوج لا ينفد، لا يعيد الحضور ولا يخفف الألم، يملأ كل شىء بالأشباح البائسة والمتتابعة، تصطف هذه الصور الآن فى اتجاه النهاية، مشاهد ضرورية صوب الوفاء بالمصير: صوب الصور الأخيرة بالأبيض والأسود التى التقطها فيريراس ولم يرها أحد سواهما.

ولكن لم يبد له وجه صورته وهو طفل صورة لشخص بها تحديد لهويته بشكل كامل. لم يكن يرى وجه طفل له اسم ولقب، بملامح مميزة عن أى طفل آخر وإنما صورة أكثر منها تجريدية مثل صورة العملة، وجهًا لأحد العصور، صورة ترجع لزمن محدد ولطبقة اجتماعية، الشعر حليق بشكل نهائى، التعبير فزع، الأذن كبيرة والقميص بلا رقبة وأطرافه متهالكة ومُزرّر حتى آخر زر. حتى لم يكن شىء شخصى فى الخوف الذى جعل العين تتسع: كان الفزع الطفولى تجاه الإجراءات وسلطة الغرباء والخوف ومفأجاة

الفلاش. كانت الأيدى الغازية للكبار تضغط، تحرك الذقن إلى الجهة الأخرى، تسبب ألمًا عندما تلمس البطن أو الركب، أو الرقبة فوق الملاءات الباردة فى عيادة الطبيب، تدخل الأصابع إلى الحلق، وأصابع القاتل فى الفم وفى الحلق المختنق لفاطيما، بداخل المهبل، كان قد قال فيريراس، تهتك كل شىء. ترتفع أيدى القساوسة الشاحبة رأسيًا فى الهواء أو تمتد لتتلقى قبلة على ظهرها، أو تنزل بقسوة صوب وجه لتصفعه.

– كنا نضربكم. قال الأب أوردونيا، الآن لا ينظر إلى الصور التى أمامه، وهو خجلان من نفسه. براحة اليد على الوجه، أو بقبضة اليد فوق القفا. كنا نهددكم بالضرب بالعصا أو بالعقاب من النار، كنا نحكى لكم الاستشهاد السادى للحواريين والموت المريع للكافرين ولأصحاب الذنوب الكبيرة. وإن لم يكن فى حياتكم خوف بالشكل الكافى ومآس كنا نزيد الجرعة بشكل أكبر، يا له من عار! يوميًا أتتذكر؟ من الصباح وإلى المساء، فى القداس، فى الصلاة، أثناء العظة فى الكنيسة، فى التمارين الروحية. فيما بعد فكرت مليًا فى هذا، فى كل هذه السنوات، خاصة السنوات الأخيرة عندما أصبحت وحيدًا جدًا. كنت آتى هنا أنظر إلى وجوهكم فى الصور وتعترينى الرغبة فى طلب العفو منكم جميعًا، من كل واحد منكم.

قال المفتش:

– كان هذا زمنًا آخر، يا أبتى. كنتم تتكلمون وتتصرفون مثل الجميع.

– هذا ليس عذرًا.

كان الأب أوردونيا ينظر إلى يديه المتشابكتين بتعبير حزين يزيد من تجاعيد وجهه، وبدا أنه عند رؤيتهم كان يرى فيهم كل الألم الذى كان قد تسببت فيه منذ سنوات بعيدة، تلك الأيدى نفسها المرتخية الآن التى ترتعش

وظهرها مبقع – كنا نعاقبكم وأنتم جاثون على ركبكم وأذرعكم ممدودة، كنا نهددكم، كنا نتجسس عليكم دائمًا، كنا نسمم أرواحكم بهوس الخطيئة. هذا كان ما نفعله.

- أى أب كان يعاقب أولاده حينئذ بالضرب بالحزام. لا ذنب لحضرتك فى أن الزمن كان بهذا الشكل.

قال الأب أوردونيا وهو يعيد إليه الورقة ذات الصورة المدبسة فى أعلاها والتى كان قد تركها المفتش على المائدة دون حتى أن ينظر فيها:

- ولكن انظر إلى نفسك جيدًا، حتى أنك لم تتمعن. كنت هكذا بالضبط عندما أتيت إلى هنا. أنظر إلى هذه الصورة وأراك. أوقفتكم فى صف عندما أتوا بكم من المحطة وقلت: «هذا هو أضعفهم». لم تكن تجرؤ على أن تتذوق فنجان الكاكاو الذى أعطيناك إياه لتفطر.

كان بإمكان الأب أوردونيا أن يريه أيًا من الصور الأرشيفية الأخرى وهو أيضًا كان بإمكانه أن يعتقد أنها صورته: إذا كان متأكدًا ليس لأن الوجه بالأبيض والأسود كان لصورة طفل من زمن آخر بل لوجود الاسم واللقب المكتوبين على الآلة الكاتبة فى الورقة بالأحرف الكبيرة. قرأ أعلاها التاريخ والعنوان، مدريد، قرأ التعبير الجاف والرسمى الذى يلخص فى عدد محدود من السطور أصوله والبقعة التى ولد بها والمستقبل الذى يخصه: *وجدنا أمه ينقصها وسائل المعيشة غير قادرة بسبب مرضها، أما أبوه فيوفى العقاب المشار إليه أعلاه*، عندما قرأ هذا شعر أنه يحمر خجلاً وأن الأب أوردونيا سيلاحظ ذلك. لم يكن هو الطفل الموجود بالصورة والليلة التى جعلوه يسافر فيها فى عربة قطار درجة ثالثة بطىء جدًا وشديدة البرودة دون أن يقولوا له إلى أين يذهب فى المرحلة التالية من حياته، ولكن الخجل والندم على الشعور بالخجل كانت خاصة به وحده، إنها الخصال الخاصة بهويته الشخصية.

- كان علينا أن نقسو عليكم، أن نحولكم إلى المسيحية - قال الأب أوردونيا. قالوا لنا إنهم أرسلوكم هنا كى ننزع عنكم البذرة السيئة التى زرعها آباؤكم فى أرواحكم. كنا مثل التبشيريين، مثل الأنجيلكيين.

- هل كنت تعتقد حضرتك حينذاك فى هذا؟

- بالطبع كنت أعتقد فى هذا - كان من يحنى رأسه الآن هو الأب أوردونيا: يحمل كل منا فى نفسه ندمًا خاصًا به، طريقته الخاصة فى الخجل - كان لدىّ أفكار حول عمل الخير والفقراء ولكنى كنت قسًا أصوليًا، كنت فى الحرب فى جانب الفريق الذى انتصر.

- كنت فى الحرب بصفتك قسيسًا؟

تظاهر الأب أوردونيا بأنه يرتب البطاقات الكرتونية التى تحمل أسماء التلاميذ الموجودة فوق المائدة، ورد:

- لا، ليتنى كنت كذلك. كنت أطلق النار، كنت ضابطًا احتياطيًا. جاء بعد ذلك عملى كقس. موهبة متأخرة، مثل موهبتك فى قوات النظام.

لم تصل اللهجة الحانية غير الودودة إلى الكشف عن حد من الاستياء المتكرر، شىء كان فى عينيه، نوع من الرقابة أكثر تأثيرًا لأنها لم تصل إلى أن تتشكل فى كلمات وتقوّى بهذا الشكل الإحساس بالذنب عند الآخر.

- على أى حال كان علىّ أن أكسب قوتى.

- هل نما ذلك إلى علم والدك؟

- لا أعتقد ذلك - رفع المفتش كتفيه وترك الورقة التى بها الصورة فوق المائدة؛ أراد أن ينهى الزيارة وأن يخرج بأقصى سرعة من الغرفة - مات قبل أن أنتهى من دراسة الحقوق. ولكن بدا له أنها كارثة قوية أن ابنًا له أراد أن يكون محاميًا وبعيدًا عن السياسة.

- لا أحد يمكنه أن يبتعد عن السياسة.
- هذا نفس الشيء الذى كان يقوله.
- أكنتما تتجادلان كثيرًا؟
- كنت أراه قليلاً. أصابته جلطة وعندما وصلت إلى المستشفى اعتقدت أنه لن يتعرف علىّ. بالتأكيد كان يفكر فىّ بالطريقة التى تفكر بها حضرتك، ولكنه لم يكن لديه حل سوى مصارحتى بهذا الشىء.
- نفس الطريقة التى أفكر بها؟

كان يقف قريبًا جدًا من المفتش، أقصر منه وأقل حجمًا، اعتدل الأب أوردونيا لينظر إلى عينيه.

- ماذا تعرف أنت عما أفكر فيه؟
- ارتكبت نوعًا من الخيانة تجاه أهلى، أيًّا كانوا من هم. حضراتكم تبحثون دائمًا عن خونة وصابئين، عن ناس تطردونهم من مجتمع المتدينين.
- «وحضراتكم؟»
- أريد أن أقول من الجانبين، - كان يشق على المفتش التعبير عن نفسه لأنه لم يكن معتادًا على محادثة حقيقية مع أحد -، من جانب القساوسة ومن جانب حزب والدى. كان أبى يعتبر ستالين، أو فيدل كاسترو، أو هو تشى منه[1]، لا يمكن أن يخطئوا كما تعتبرون حضراتكم البابا هكذا. لذا

---

(١) - **هو تشى منه** (١٨٩٠-١٩٦٩): مؤسس الدولة الفييتنامية الشمالية ورائد النهضة القومية فى الهند الصينية. كان ينتمى إلى أسرة فقيرة معدمة. هاجر إلى بريطانيا للعمل هناك عام ١٩١٤، وقد خاض مع رفاقه حروبًا محدودة ضد الاستعمار الفرنسى لبلاده ١٩١٧، ثم التحق بالحزب الشيوعى الفييتنامى وأصبح عضوًا فاعلاً فيه. (المراجعة)

انتهى بهم الحال إلى التفاهم الشديد بينهم، كان لديهم نفس الميل نحو تقسيم العالم إلى أوفياء وخونة.

- هناك شيء مشترك بيننا، ألا وهو أنهم لقبوني أيضًا بالخائن. عادت نغمة الحنان إلى صوت الأب أوردونيا. لا يزال هناك أناس في هذه المدينة يلقبونني هكذا، لا تتخيل كيف يكونون. كانوا يقولون إنني أقرأ في القداس مطبوعات شيوعية، وكانت فقط فقرات من الأناجيل أو من أحد رسائل الحواريين أو الأنبياء، أتتذكر رسالة سانتياغو؟

أجاب المفتش بالنفي. عندما تزوج كان قد أهداه أحد الأشخاص إنجيلاً كبيرًا، مبطنًا بجلد صناعي، حروفه وتقسيماته مذهبة ولكنه لم يقرأه أبدًا. هذه الأناجيل كانت تشكل جزءًا حينذاك من أثاث المتزوجين حديثًا، مثل البار أو صليب غرفة النوم. أغمض الأب أوردونيا عينيه وأنشد من الذاكرة ودون تردد بصوت أجش وقوي:

«هيا، الآن، ابكوا يا أغنياء وانتحبوا من البؤس الذي سيأتيكم. ثرواتكم متعفنة، وتأكل العتة ملابسكم، يتلف الصدأ ذهبكم وفضتكم، وسيكون الصدأ شهادة وسيأكل لحومكم بالكامل مثل النار...» من سبقوك في قسم الشرطة فتحوا لي ملفًا لكوني أقوم بترويج غير قانوني. بالطبع كان يجب عليهم أن يحفظوا التحقيق عندما علموا أنه قرأ فقط بعض الآيات من العهد الجديد. طلب إبراشي كنيسة تريندادا على الملأ في العظات التي يلقيها طردي من النظام الكنسي. رجل مسكين، رحمه الله وتوفاه بعد موت فرانكو بفترة قصيرة.

في شيخوخته تدمع عين الأب أوردونيا سريعًا ويضايقه كثيرًا هذا الميل للدموع، تبدو له تقريبًا خطيئة وقاحة. بتعثر مسح عينيه وزجاج النظارة بمنديل وقبل أن يطبقه بأي شكل وأن يحفظه مرة أخرى تمخط.

– عليّ الذهاب يا أبتى، قال المفتش، لدىّ عمل كثير فى قسم الشرطة.

كان قد قالها بصوت منخفض بعد أن فكر طويلاً لأنه لم يكن يجرؤ، لم يسمعه الأب أوردونيا. كان يرتب مرة أخرى حافظات الورق، الملفات وشهادات الدرجات، البطاقات الكرتونية ذات الصور، أسماء وتواريخ تلخص حياة أطفال تشبه حياة المفتش، شبيهًا جدًا بها مثل وجوه الأطفال الآخرين، حيوات منسية من عدم الحماية والفقر، والخوف من الضرب بالعصا ومن القساوسة ومن عقاب النار. منذ أربعين سنة مضت عندما بدأ ذلك الولد الخائف المصاب بالأنيميا فى النمو بشكل صحى وبدأ يكتب ويقرأ بحدة غير متوقعة، كان ينظر إليه الأب أوردونيا وهو يلعب فى الفناء، أو وهو يصغى فى قاعة الدرس كانت تتوارد إلى خياله سرًا بعض الكلمات من الإنجيل التى حتى حينذاك من المحتمل ألا يكون قد فهمها: *هذا هو ابنى الحبيب، الذى أرضى عنه.*

– يا أبتى، علىّ أن أذهب الآن.

كرر المفتش، بصوت أعلى ولكن الأب أوردونيا لم يرفع عينيه، لأن خجله من نفسه جعل عينيه تدمع.

تظاهر الأب أوردونيا مرة أخرى بأنه ينظف زجاج النظارة ولملم على أى نحو فوضى المائدة، وهو يحفظ بعد ذلك صندوق الكرتون الكبير فى مكانه على الأرفف. انتظر حتى خرج المفتش ليطفئ النور، وعندما همّ أن يفعل ظل ساكنًا لحظة كأنه تائه فى شىء، وهو ينظر حواف الصناديق المصطفة فوق الأرفف المعدنية.

– لا أعرف كيف لم يخطر على بالى من قبل – قال الأب: هو أيضًا يمكن أن يكون هنا.

- ماذا تقول؟ – كاد صبر المفتش ينفد فى الحقيقة، تأخر به الوقت، وإذا كانت هناك ضرورة لا أحد يعرف أين يجده.

قال الأب أوردونيا بحزن:

- هذا الرجل الذى تبحث عنه، الذى قتل تلك الطفلة. ربما كان تلميذاً لنا وتوجد صورته فى الملف.

١١

كانت تتلخص الآن حياته كلها، ضميره، إرادته فى تساؤل واحد مُلِح، محموم يتكرر دائمًا منذ أن يفتح عينيه عند الشروق فوق السرير الذى ينام عليه بمفرده منذ أشهر، عندما يستيقظ فى منتصف الليل ويعرف أنه لن يتصالح مع النوم والآن دون سجائر ودون كحول كى تمر الساعات، ودون أحد بالقرب منه، دون امرأة تتقلب على الجانب الآخر من السرير تتصنع النوم، وحيدًا مع ضميره، مع جهازه العصبى الحاد إلى أبعد حد بسبب الأرق وزيادة الصفاء الذهنى الذى يسببه غياب النيكوتين والكحول فى دمه. كان يعتقد أن شرب الكحول يوقظ فيه القوة ويستثير ذكاءه، وفجأة توقف عن الشراب واكتشف العكس تمامًا، أنه لم يكن يعيش تحت تأثير محفز بل تحت تأثير مخدر، وبدون الثقل الفظيع والذى فى جزء كبير منه لا يُلاحظ من الكحول اكتسب كل من الجهاز العصبى والقدرة على التحليل سرعة ونقاء لا يمكن العفو عنهما، دون سراب وبلا راحة، رغم أنه أيضًا دون عزاء، صفاء بارد من الانتقال إلى البلد الجديد الذى يعيش المفتش فيه الآن، لا يعرف إذا كانت ظهرت هويته لتوها أو استردت، إذا كانت مزيفة مثل الأخريات، اللائى كن قد أمددنه طوال سنوات ملبسًا مزدوجًا من التنكر والكحول. كان يعيش فى مدينة أخرى، يبحث عن شخص، يأكل ويتناول العشاء على إحدى الموائد المخصصة لشخص واحد فى كافيتريا مونتيرى، يتصل بالتليفون مساء كل يوم بين السادسة والسابعة بالمصحة التى لا تزال بها زوجه دون أن يأذنوا لها بالخروج. ينام فى ساعة متأخرة بمساعدة الفاليوم، يستيقظ بشكل تلقائى مع ضوء الصباح فى غرفة نوم تشبه غرف الفنادق، يستخدم السيارة

صباح أيام الآحاد فقط كى يذهب إلى المصحة. يفضل ألا يعرف الكثير عن نفسه، يشعر بالراحة لكونه اختفى، لكونه الآن بصفة خاصة غائبًا فى أماكن كان يعيش فيها من قبل، فى الشوارع التى بلا شك اتبعوه فيها وربما كانوا قد قتلوه، فى المنزل الذى كان قد دق فيه جرس التليفون مرات كثيرة وسمع هو أو سمعت زوجته صوتًا فظًا يهدد، «نعرف من تكون، سنقصدك يا شرطى، يا نذل».

أنا أعرف من أكون، كان قد رتل الأب أوردونيا، بصوته العميق، صوت الخطيب والواعظ القديم، *وأنتم من تعتقدون من أكون*. ولكنه لم يكن يريد أن ينزل للعمق ولا يريد أن يضيع فى الذى ربما كان فقط ارتباك كلمات حماسية ومتشابكة كما كان يقول فيريراس ليخبئ دليلاً فسيولوجيًا لا يمكن قبوله، التعرف على ما هو عليه الإنسان بحق، من الداخل، كان يلح فيريراس، وهذا يعنى، المعنى الحرفى، ما تحت الجلد وعظم الدماغ، وهيكل الضلوع القوى: مشهدًا مشابهًا، حتى فى الروائح التى تنطلق، عند طاولة عرض الأحشاء فى السوق. يمكن إعطاء اسم لأحد الوجوه، لبريق بعض الأعين، لأضعف سطح لجسم بشرى، لصوت، ولكن كيف نعطى اسمًا لكيلو ونصف من كتلة مخ خرجت لتوها من الدماغ، لرئتين ولكبد، لكتلة الأمعاء التى وضعها مساعد فيريراس، صبى التشريح، فى دلو كبير من البلاستيك بنفس فظاظة جزار.

«الروح» كان قد قال فيريراس فى كافيتريا مونتيرى، قالها بقليل من حماس علمى وبكثير من الشجن، ربما كان مغتاظًا من فزع تشريح فاطيما، من التأثير المباشر لكأس الكونياك الثانى، «اللا وعى، الذكريات، الأنا. أدب أو ليس سوى خوف، عدم مقدرة على مشاهدة من نكون بعيون مفتوحة. أتتذكر ذلك الروسى الذى خرج إلى الفضاء وقال عند عودته إنه لم ير الله فى أى مكان؟ أنا أنظر بداخل الشخص وأرى فقط أنسجة وأعضاء منذ أن

أرفع جلد الوجه وفراء الرأس وأفتح القفص الصدرى، الهوية الإنسانية التى أمامى هى حدث إيمانى، أو أكثر من ذلك تحديدًا، ولا تستغرب من أننى أستخدم الكلمة، كلمة الرحمة. مع الكبار الوضع مختلف، أريد أن أقول إن مع الموتى الكبار الوضع مختلف. الواحد منا يرى تأثير العمر، والأمراض والرذائل، الرئتان سوداوان تنقطان قطرانًا، الكبد منتفخ، يدرك الواحد منا ويتقبل أن مصير مادتنا العضوية هو الاضمحلال والموت. "الآلية عبقرية ولكن المواد العضوية متواضعة جدًا". لا أعرف أين قرأت هذا. ولكن لا يمكن تقبل هذا ببساطة أمام جثة طفل. لم يمس أى شىء، مستعد للحياة، للرئتين لون زهرى نظيف، ما زالت العظام مرنة، لم تكسر مثل عظام الرجل العجوز، التى تصدر ضوضاء خشنة. لا يهم عدد مرات التشريح التى يقوم بها الواحد منا. ليلة أمس وضد قواعد ميثاقى الأخلاقى المهنى اضطررت أن أقبل من مساعدى كأسًا مريعًا من شراب الينسون. بالنسبة له كل شىء سيان، يقول إنه فتح ألف وخمسمائة جثة. أعتقد أنه فى داخله يحتقرنى، مثلما يحتقر جندى ضابط أكاديمية. «نشرت دماغ الطفلة وانتزعت المخ، لاحظت أنه مبلل ورخو رغم القفاز الجلدى. حينئذ فكرت أنه كان فى هذ المادة أو قد كان يوجد بشكل ما كل الأحاسيس وذكريات الطفلة، كان يحوى العالم بأكمله، إذا توقف الواحد ليفكر فى هذا الشىء...».

لكن المفتش كان لا يريد التفكير فى شىء أكثر من تساؤل أولى ووحيد، ومن يهمه ذلك تنقصه ظلمات الروح الكاثوليكية أو التفاصيل العضوية التى تخلب فيريراس وتشعره بالقرف: يلخص هذا الشىء فى اسم ولقبين، فى وجه ستلتقط له صورة من الأمام ومن كل جانب. هو يبحث ببساطة عن رجل فى النصف الثانى من العقد الثانى خطف طفلة عمرها تسع سنوات وقتلها، يمكن أن يوجد ظلام بداخل هذا اللغز لكن ليس هناك شك، شخص يحمل فى يده البصمات التى حددها فيريراس فوق جلد الطفلة وملابسها، شخص يحمل فصيلة الدم هذه وينتعل حذاء يُرسم نعله الآن فى أرشيف البوليس،

ويبلع نفس اللعاب الذى ترك بعض فقاعات منه على خمسة فلاتر سجائر من التبغ الأبيض.

هو يمكن أن يقول فى سره الخالى من العقاب: *أنا أعرف من أكون*، هو يعرف أنه خطف وقتل، وربما كان يفكر أو يعرف أيضًا أن هذا الاعتراف الخاص لا يحتوى على أى خطر، يعرف أنه ليس هناك شهود، عدا امرأة غير قادرة على تذكر وجهه، تتذكر فقط الدم الذى كان يسيل من يده اليسرى وأخذ يلعقه. ولكن عندما عرض عليها المفتش بعد ذلك ألبوم الصور الخاص بالمجرمين المتخصصين فى الجرائم الجنسية، أخذت المرأة تنظر إلى كل واحدة منها وهى تنفى بشكل آلى بحركة من الرأس، كانت متأكدة، لا أحد من هؤلاء الرجال كان هو الذى رأته. حينئذ دق الباب وقال أحد الحراس للمفتش إن المعلمة تنتظره، فى البداية لم يعرف المفتش إلى من يشيرون، كان مشوشاً من كثرة العمل وقلة النوم، قال الحارس: معلمة فاطيما، تقول إن حضرتك طلبت منها المجيء.

لا ترحلى، قال المفتش للسيدة المتشحة بالسواد التى كانت تنظر إلى صور التقطت لوجوه تنذر بالشؤم من الأمام ومن الجانب فى بطاقات الصحيفة الجنائية بنفس السلوك من الضيق الذى يتفحص به شخص ألبوم أسرته ويرى وجوه الأقارب المتوفين وهى تحرك رأسها دائمًا «لا سيدى، لا أحد من هؤلاء، إذا رأيته تأكد حضرتك أننى سأعرفه، أقسم لك بالمسيح والعذراء أننى كنت سأعرفه». خرجت المرأة من المكتب وكانت المعلمة تنتظر واقفة فى ردهة صغيرة مبلطة حتى منتصف الحائط بقيشانى قمىء بنى اللون الذى لاحظته عينها بتلك الموهبة التى لديها بشأن الإحساس بالضيق من قبح الأشياء اليومية. كانت ترتدى سترة صوفية طويلة أكتافها مبللة وتدخن وهى تمسك بمنفضة السجائر فى يدها اليسرى. دون مهارة

كبيرة طلب المفتش المعذرة لجعلها تنتظر كثيرًا، أولاً فى المدرسة ثم الآن فى قسم الشرطة: بابتسامة خففت المعلمة سوسانا جراى من السخرية وقالت لا يهم، لقد بدأت تعتاد على ذلك، حينئذ لاحظ المفتش لون أحمر الشفاه القانى الذى يتناقض مع الطابع العملى والمهنى لتسريحتها وملابسها وحضورها، حيث كانت ترتدى ملابس شتوية للذهاب إلى العمل ويحمل وجهها كل تعب يوم عمل مع الأطفال. شعرها أسود قصير مصفف بشكل غير منظم فى انسياب، حاجباها واضحان داكنان. عندما خلعت القفازات لاحظ المفتش تحت ضوء لمبة المكتب أن يديها كبيرتان، ولكنها ليست ذكورية، وأنها لا ترتدى خواتم ولا تطلى أظافرها. استغرب غياب خاتم الزواج: كان لسوسانا جراى طابع محدد لامرأة متزوجة ولديها أطفال. قال المفتش وهو يشير صوب المرأة المتشحة بالسواد التى وقفت وأحنت رأسها بإيماءة خوف كمن يحترم السلطة المكملة للمعلمة:

- هذه السيدة رأت فاطيما وقاتلها بالتحديد عندما كانا يخرجان من البوابة. أرغب أن تستمعى حضرتك بعناية إلى وصفها لعلك تشكين فى أنك رأيت ذلك الشخص بالقرب من المدرسة. أو أنه كان ينظر من خلف السور الحديدى للفناء مثلاً، أو كان ينتظر ساعة الخروج بين الآباء والأمهات.

قالت المرأة: «سترين حضرتك»، وبدأت تعيد لسوسانا ما كانت قد قصته على المفتش كلمة بكلمة، بدقة، بغضب، بملل، وهى تقوم بحركة رسم الصليب بسرعة عندما تذكر فاطيما، «هذا الملاك»، كانت تقول، وقفزت الدموع إلى عينيها، وهى تضيف تفاصيل غير مؤكدة أو خيالية بالكامل، كانت تحمِّل نفسها الذنب، كيف أنها حتى لم تشتبه فيه، لكى تدرك أنه كان هناك شىء غريب فى ذلك الرجل الذى يبدو أنه يغطى فمه بيده ويلعق الدم.

- كانت المرأة تتحدث إلى سوسانا جراى وهى تنسب إليها فوقية عظيمة كأنها كانت تتحدث بلا شك إلى طبيبة فى مستوصف قريتها. واقف وظهره يستند على زجاج الشرفة البارد، كان المفتش يستمع إليها وهو متعب، فاقد الحماس ويفكر فى أن أى محاولة للوصف غير مجدية لأن هذه المرأة كانت قد رأت القاتل أثناء بضع ثوان منذ عدة أسابيع، ولأنه أيضًا ربما لا يكون به أى ملمح يسمح بوصفه بشكل محدد، لا شىء غريب، أو غير عادى وغير معتاد كان قد لصق بذاكرة أحد. عدا تفصيلة الدم التى كانت مثل بقعة صارخة اللون وسط لون رمادى داكن لآلة تصوير، فى الحقيقة لا تتذكر السيدة أى شىء، كانت متأكدة فقط من أن ذلك الرجل لم يكن هو، لم يكن ما يشبهه، لم يكن طويلاً وأيضًا لم يكن قصيرًا، لم يكن له لحية ولم يكن يرتدى بشكل مميز، بالطبع كان شابًا، ولكن ليس شابًا صغيرًا، لم يكن سمينًا، ربما كان قويًا، رغم أنه لم يكن ضخمًا جدًا، لم يشبه أحدًا من المغتصبين الذين يهاجمون بالمطواة، ولا يشبه العجائز الغرباء الذين يقتربون من البنات فى المنتزهات العامة أو الذين يلمسون أفخاذ الأولاد فى مقاعد السينما، ولا يشبه أيًا من أعضاء تلك الجماعة ذات النظرات المتماسكة والصور الملتقطة من الجانب المصنفة فى الألبوم المماثل لألبوم الصور العائلية الذى يستخدمه الناس، الألبوم ذى الأوراق المتلاصقة والمغطاة بشريحة بلاستيكية. قالت المعلمة لاحقًا، بعد أن غادرت المرأة الأولى وطلب المفتش من المعلمة أن تنتظر قليلاً، وأن تنظر فى انتباه إلى الصور- لم أكن أتخيل أن يكون أرشيف البوليس هكذا، أليس لديكم كمبيوتر، وملفات كبيرة معلوماتية.

يا له من شىء غريب.

- هنا، لا، ليس بعد، وحتى إذا كان لدينا. ما هو مؤكد أن هذا الشخص لم يقبض عليه من قبل. على كل حال، الآن سيان أن يكون غير مرئى. لا

تشتبهين فى أى من هذه الوجوه؟ انظرى جيدًا. كثير منهم يحومون بالقرب من المدرسة. أحدهم يمكن أن يكون حتى قد ضايق حضرتك.

كان المفتش جالسًا على مكتبه، يفصله عن سوسانا ضوء المصباح والألبوم المفتوح. فى معاملته مع الآخرين، وخاصة مع النساء كان يفضل دائمًا أمان المسافة الفيزيائية، الراحة للاستقامة المهنية.

سألت سوسانا المفتش إذا كان يمكن أن تدخن، فأجابها بالإيجاب بحركة من رأسه وقدم لها منفضة السجائر. أخرجت من الحقيبة، بدون صعوبة، علبة سجائر وعلبة كبريت مطبخ غير متماسكة وبعد ذلك، بدلاً من أن تشعل السيجارة، أخرجت جراب نظارة وعندما ارتدتها تغير وجهها: أصبحت أكثر جدية، أكثر تحديدًا، وأعطاها ذلك طابع امرأة أكثر شبابًا وفى الوقت نفسه وجهًا لامرأة سيدة تصرفاتها، دون النقطة الخادعة لعدم التحديد التى كانت فى عينيها التى تعانى من قصر النظر. ربما تكون فى السابعة أو الثامنة والثلاثين من العمر، حسب المفتش، أربعين عامًا على أكثر تقدير. هدأت نفسه لأنها ليست أصغر سنًا من ذلك. هو لا يعرف أن يتعامل مع الشباب الصغير، سواء كانوا رجالاً أو نساء، إلا إذا كانوا من محيط الأسرة، أو ينتمون إلى عالم الإجرام، ولا حتى يعرف أن يتعامل مع هؤلاء، فى أحيان كثيرة، ليس مع كل الشباب من هؤلاء، ولا مع المراهقين الذين رآهم يحطمون واجهات المحال ويحرقون أوتوبيسات فى بلباو، يهددون رجال الشرطة بالموت ووجههم مكشوف وهم ينظرون إليهم دون أن يحركوا ساكنًا، لا يفعلون شيئًا خلف الدروع والخوذات.

- أتشتبهين فى أحد من هذه الوجوه؟

- جميعهم يخيفوننى.

كانت ترتعش عندما تنظر إلى ملامح أولئك الرجال، بعضهم شباب حديث السن، والبعض الآخر تجاوز السبعين، شعرهم أشعث، وجوههم دون حلاقة، وجوه فظة أمام كاميرات الشرطة، ولا تظهر الندم ولا الخوف أبدًا، وإنما تظهر الحقد والغيظ فى صمت والتحدى: يشترك جميعهم فى صورة الواجهة والصورة الجانبية والأصداغ التى لم تحلق جيدًا، فى ثبات المآقي؛ بدت وجوهًا لها أقنعة ذكورية فظة، ليس بهم خلل عقلى ولا مجون، وإنما زهو وكره، عزم بارد وقسوة مختبئة أسفل ملامح فى أغلبها عادية. يمكن لأحدهم أن يتصرف هذه الليلة فى إحدى الحارات: هى نفسها عند دخولها إلى البوابة المظلمة لبيتها، يمكنها أن تشعر فجأة بيد تمد شريطًا لاصقًا لتغلق فمها وتحس بسن مطواة فى رقبتها. كان يضايقها النظر إلى الصور وكان يعنيها كثيرًا تركيز انتباهها فى كل صورة منهم. كانت قد شعرت بإحساس مشابه فى كل مرة ترى نفسها مضطرة، فى أحد اجتماعات الأصدقاء، أن تشاهد فيلم فيديو إباحيًا. قال لها المفتش:

- أمعنى النظر خاصةً فى صور الشباب منهم. من نبحث عنه لا يجب أن يبلغ أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

أبعدت سوسانا جراى عينيها من على الألبوم ونظرت إلى صورة فاطيما التى ما زال المفتش يحتفظ بها ملصقة فوق الحائط:

- ابن المؤذية. كيف يكون هذا الشخص الذى فعل بالطفلة تلك الفعلة.

- ربما لا يستطيع القيام بها مع امرأة ناضجة.

- لا تقل لى إنهم مرضى. لا يستطيعون تجنب ذلك. كما يقولون إن أولئك الضباط الصرب فى البوسنة لا يستطيعون التغلب على دافع قتل النساء واغتصابهن.

قالت المعلمة ذلك، وقد استول عليها الجدية والغيظ.

- لم أكن أفكر فى قول هذا. «لم يحتلم» كان قد قال فيريراس، «النذل، ولا حتى حدث له انتصاب كامل»، ولكنه استخدم أصابعه، كانت قوية وكانت أظافره مقلمة بشكل سيىء، أو كان لها أحرف فظة، وذلك للعلامات التى تركها على جلد فاطيما. بالتأكيد يقوم بعمل يدوى، - استغرب المفتش من أنه لم يفكر فى هذا الاحتمال من قبل -، أظافره ذات الحرف المقصوف لمن يعمل عملاً يدويًا.

نظر إلى أصابع سوسانا التى بلا طلاء أظافر وتنزلق فوق أوراق الألبوم المغلفة بالبلاستيك، رآها على ضوء لمبة قريبة لأن الظلام كان قد حل، وأرخى الليل ستائره بالكامل، وقد اعتراه الإحساس بأنه قد استيقظ من نوم خاطف سريع، عاد من حلم بتذكر فقرة صغيرة ولكنها ذكرى ثمينة، تخمين تقريبًا، الأظافر المكسورة لشخص تقوى على الهتك أكثر من قدرتها على إحداث خدش، ربما تحتوى قذارة حوافها الداكنة على بقايا صغيرة لا نهاية لها من دم فاطيما وجلدها.

١٢

سمع المنبه فى الغرفة التى يضيئها القمر، صوت الراديو، صوت امرأة دافئ كالصفير تقدم برنامجًا عن المكالمات الليلية، عاهرة، يفكر، ويقول بصوت مرتفع، بحذر، حتى لا يسمعوه، الوقت متأخر ولكن من يعرف، الحوائط لها آذان، المرأة لها كل صفات صوت العاهرات، اللائى يقتربن من الطاولات فى البارات التى تمتلئ بالعاهرات ويقلن، أهلاً، هل دعوتنى إلى تناول كأس؟ ويقدمن السيجارة ويطلبن أن تشعلها لهن، ويكون الكأس دائمًا شمبانيا، والأسوأ أن يكون من سيدرا الشمبانيا، من الماركات الأكثر استخدامًا مثلهن، من يعملن فى هذه البارات التى تقع عند مخارج المدينة، بعد انتهاء آخر بناية، بعد توكيل السيارات وآخر محطة وقود، من بعيد تنادى الأضواء الحمراء التى تومض، بريق الأضواء الحمراء أو الزرقاء خلف الزجاج الداكن، بعد ذلك بؤس حقيقى، نصب، مراتب بلا ملاءات، كؤوس من سيدرا الشمبانيا لها رائحة القيء وفوط ورقية ملقاة على أرض من الأسمنت. يوقظه الصوت كل فجر، فى الرابعة تحديدًا، وفى الثالثة صباحًا أيام السبت، رغم أنه فى أحيان كثيرة عندما يبدأ يدق الراديو يكون قد استيقظ وينظر فى الظلام إلى أرقام المنبه الحمراء ينتظر سماع الصوت، أو يكون ببساطة لم ينم بعد، مستلقيًا مثل هذه الليلة على ظهره، يدخن على ضوء القمر فى ليلة تمامه الذى يدخل من الشباك، يضىء الحجرة كلها، بعد المطر، القمر بدر ساكن، وفى الوقت نفسه يهرب بين السحب الكبيرة التى تُفرقها الرياح تاركة السماء نظيفة مع نسيج من النور يحيط بالقمر ويدخل الحجرة ويستقر فوق الأشياء موضحًا أشكالها وكأن كل الأشياء صنعت من المادة نفسها، من نور وظلام ورماد مقمر، المشجب والسرير، الدولاب، المرآة التى تسمى أيضًا

بالقمر، والآن إذا نهض يمكن أن يرى نفسه فيها، دون حاجة إلى أن يشعل النور الكهربائى، أصبح الليل أكثر وضوحًا.

يعجبه الأرق حقًا، القدرة على أن يبقى مستيقظًا ومنتبهًا بينما ينام الآخرين، يعجبه، فى بعض الأحيان، متعة السير فى الشوارع الخاوية فى الثالثة أو الرابعة فجرًا، وخاصة الآن، فى هذا الشتاء الذى جعل فيها المطر والبرد الناس حبيسة البيوت، بالإضافة إلى المطر والبرد هناك الخوف، لا يجب أن ينسى الخوف، الراحة فى قيادة عربة البضائع الصغيرة دون خطر الاصطدام بأحد، التيام بجولات دون هدف محدد، زيادة السرعة فى الجزء الجديد من الطرين، فى الطريق صوب الحدود غير المأهولة بالسكان، ارتعاشة الأضواء الحمراء، أو صوت الفرامل والعجل عند زوايا الحارات حيث تضىء أعمدة الإنار؛ فجأة أعين أحد القطط، أحد القطط البرية التى تحوم حول المنازل وفى حظائر المنازل المتهدمة لحى سان لورنثو، فى الحى الذى صمم والداه على ألا يتركاه. «بيع المنزل بعد أن نموت»، تقول الأم، «ولكن ليس قبل ذلك». «لم يبق أمامنا وقت طويل نعيشه»، يقول الأب بلهجة جنائزية تهكمية، بصفير التهاب رئوى مزمن بين الكلمات، وربما يكون أيضًا سرطان رئة، ليته كان هذا، يفكر، يقول فى صوت مرتفع وهو بمفرده فى الحجرة أمام مرآة الدولاب، يفحص ويقيس نفسه وهو واقف عاريًا وباهتًا الآن على ضوء القمر، لا يخجل، مزهو بنفسه، حيث يعود وينظر لنفسه كل مرة يدخل الغرفة، ينظر إلى مآقيه، وبشرته خوفًا من أى مرض، ينظر إلى الأسنان، يفتح فمه جيدًا ويقرب فانوسًا ويحنى رأسه ويرفع عينيه ليفحص الحشو والتسوس، يضع يديه معًا فى الفم ليشم أنفاسه، ووقتها عليه أن يعاود غسلها.

تفوح هذه الرائحة دائمًا من يديه، الرائحة التى يستغرب من أن أحدًا لم يلحظها، لكن ربما يتصنعون لإحساسهم بالقرف ولا يقولون شيئًا، مثلما يتصنع هو نفسه فى مرات كثيرة، يبتسم وفى داخله يموت من القرف

والغيظ، نعم سيدتى، حالاً سيدتى، ماذا ستشترين اليوم سيدتى، هذا ما ينقصنى، ليتك تتعفنين وتنفجرين. فى النهار عندما يكون والداه مستيقظين، يخرج من حجرة النوم بحذر مثل الضيف الهارب ويحبس نفسه فى الحمام بعد أن يغلق بابه بالمزلاج، كما كان يفعل من قبل، قبل عشر أو اثنتى عشرة سنة، عندما كان يحبس نفسه ليقوم بالعادة السرية، لكى ينظر إلى ذلك الشىء وكأنه شىء عجيب لعين، يرتفع وحده، وهو مستثار، به تلك الفتحة كعين خاوية، ثم بعد تلك الرائحة التى تعبئ كل شىء، يشعر بأنه مجرم ومذنب، مثل الدخان المسبب للغثيان عند التدخين لأول مرة. كان عليه أن يغسل يديه بصابون حمضى، كان يفركهما جيدًا حتى تحمرا، ولكن على الأقل وقتها كانت يداه أكثر نعومة، رغم أنهما لم تكونا يدى طفل، كانتا يدى طالب، يدى سيد صغير بلا خشونة، دون الأظافر المكسورة والقذرة مثل الآن، دائمًا بها خط أسود ويبدو أنه لا توجد طريقة للتخلص منها. عندما يتناول قهوة الصباح مع قليل من الكونياك، كان لديه عادة تنظيف أظافره بخلة تنظيف الأسنان، مثل الآخرين الذين ينظفون اللثة، ولكنها قذارة قوية أكثر من اللازم تكسر طرف العصا، كان عليه أن يتركها لمدة ساعات منغمسة فى ماء مغلى وحتى ذلك لم يكن مجديًا. كان يستحم بماء ساخن على درجة حرارة يمكن أن يتحملها جلده، كما كان يخرج الماء فى الحمام عندما كان يؤدى الخدمة العسكرية؛ كان ماء مغليًا أو مثلجًا، لم يكن هناك شىء وسط، يكاد المرء يحترق من شدة سخونة الماء، ثم فجأة يزرق لونه من البرد، وينكمش كل شىء، عندها يلقى الجنود النكات الفظة: «انظروا إلى هذا الذى ليس له عضو ذكرى، سيقومون بزرع واحد له». لا يسمع الدق على باب الحمام مع ضوضاء المياه وكان هو شديد الحذر فيغلقه خلفه بالمزلاج، إنه أبوه العجوز يريد الدخول؛ لأنه يتبول كثيرًا، يفكر، اذهب وتبول فى الحوض، يا نذل، يقول بصوت مرتفع؛ لأن سيل الماء والباب المغلق يسمحان له بذلك، ويمشى الأب محتجًا يقول، إنه يستهلك الكثير من الغاز حيث لا يكفيه أن يشتروا

أنبوبة غاز كل يومٍ. يتحسس نفسه ببطء، يبدأ فى تخيل أشياء ويلاحظ أنه يبدأ فى الارتفاع، ذابلاً وخزيان تحت المياه، ليس مثل الأفلام أو المجلات، ليس هناك طريقة لإنكار ذلك، رغم أن كل أولئك الرجال أجروا عمليات تجميل، وكثير منهم شواذ، بالإضافة إلى ذلك لا يستطيعون استخدامه بنفس حجمه، لا يلج، هذا ما كانوا يحكونه عن الأشتورى[1] فى المعسكر، كان ينتقل بين العاهرات ولم يقبلوه عندما رأوا، وأن خطيبته حملت منه لأن الواقى الذكرى انقطع عندما بدأ فى الاحتلام. لنرَ، ليأت الأشتورى ليتبرع لهذا بعضوه أو على الأقل ببضع السنتيمترات، قال آخر، الذى كان قد رآه عند خروجه من الاستحمام قبل أن يواتيه الوقت ليتغطى بالمنشفة. كان يرتعش وانكمش منه، وعندما يدفأ سيرون، فليتركوه وقتًا مع إحدى خطيباتهم أو أخواتهم وسيبرهن لهم. لكن ليس هناك طريقة ليظل آمنًا طوال اليوم، عندما يكون والداه مستيقظين، يجب أن يغلق باب الحمام أو باب حجرة نومه بالمزلاج من الداخل، لذا يفضل الليل، عدم النوم، رغم أنه يقضى الصباح بطوله يشعر بالنعاس، يعتمد على التدخين، يصبح شديد العصبية أيضًا، يعتمد على قوة عضلاته، أصابع يديه، رغم أنه لا يحقن نفسه بالهرمونات، مثل هؤلاء الشواذ الذين يمارسون رياضة نفخ العضلات عن طريق الآلات السامة ويلمعون من الدهان بالزيت. عندما تراه أمه العجوز يدير القفل تنظر إليه بوجه حزين، بوجهها الدائم، تبدو فى كفن وهى حية. لا بد أن نرى، يا بنى، لا ينبغى أن تختبئ منا. دائمًا يحبس نفسه كما كان يفعل عندما كان عمره اثنى عشر عامًا، فى الظلام أسفل البطانية يسعى ألا يحدث جلبة فوق المرتبة الصغيرة، فى حمام الحظيرة، ثم عندما يوجد، فى الحمام، يخبئ المجلات تحت القميص، وبعد ذلك شرائط الفيديو المغلفة فى أكياس الشراء، رغم أنه لم يكن ليفعل ذلك لولا صورة الغلاف، لأنهما لا يعرفان توصيل الجهاز بالكهرباء ولا وضع فيلم، إنهما أحمقان أعياهما كثيرًا الاعتياد على باحث

---

(١) نسبة إلى إقليم أشتوريس بشمال إسبانيا. (ت)

القنوات عن بعد، رغم أنهما لا يتركانه الآن، تضغط الأم على الأزرار بنفس السرعة التى كانت تمرر بها حبات المسبحة، يا لها من امرأة! لها عادة الانتقال من مسلسل إلى آخر، وكى ترفع الصوت تفلت يدها ويضج المنزل بأكمله بصوت التلفاز المرتفع، الأمر سيان للاثنين فحسب، يمكن أن يقع زلزال أو حريق وهما مستمران فى مشاهدة التلفاز، يركزان، دون أن يعلما شيئًا عن الأفلام، ولا عن الأخبار، ولا عن القداس الذى يشاهدانه كل صباح يوم الأحد، وخاصة إذا كان القداس يقوله البابا، تبدأ العجوز فى البكاء وترسل له القبلات، وينظر إليها الأب من طرف عينيه بكراهية ولا يقول شيئًا، يتنفس فقط مع تضخم الشعب الهوائية أو برئتين ملطختين بالقطران، لعله انتفاخ رئوى أو سرطان، إلا إذا لم يكن قد دخن لمدة طويلة الكثير من الدخان كريه الرائحة، ذلك التبغ الذى كان يشعر الواحد بالاختناق، سجائر مغلفة ولزجة كان يحتفظ بها مطفأة فى جيوب السروال.

قِفل فى الحمام وقِفل على باب حجرته، مفتاح لدرج خزانة ملابسه، وتتحسس العجوز طريقها دائمًا كأنها عمياء، وتقول يجب أن نرى ولا نفعل ذلك للسرقة. ولا حتى بالليل يمكن أن يكون آمنًا، ولا عندما يبدأ الصوت النسائى يهمس فى الراديو، مثلما تفعل العاهرة، التى تتصنع وتضحك عندما يقول لها رجل فى التليفون كلمة بذيئة، تتصنع الخجل، وتظهر الضيق وأنها ستغلق الخط، إذا تحدثت إليك ذات ليلة، يفكر، إذا حكيت لكِ. ولا حتى حينئذ سيجد الهدوء الحقيقى، يسمعهما يغطان فى النوم، يسعلان فى حجرتهما، حتى يسمعهما وهما يتحدثان أو يتشاجران فى صوت خفيض، فى الصوت الغريب الذى يكون لدى الناس وقت النوم، يتغطى الإثنان بطى الملاءة حتى ذقنهما، ورأسهما متجاورتان، لهما وجوه الموتى، يطل إحدى المرات دون سبب من غرفة نومهما ويراهما على ضوء الردهة، وجهين متهدلين، دون أطقم الأسنان، رائحة شيخوخة، غازات مستقرة تحت الملاءة وبول فى المبصقة التى ما زالا يستخدمانها، لا يستخدمها أحد الآن، على الأقل هى الآن مبصقة

من البلاستيك، وليست واحدة من هذه الأوعية المجوفة التى من الخزف المطلى التى ظلا يحتفظان بها إلى وقت قريب، عيدان كبريت لا يمكن تصحيحها، الاثنان معًا مثل المومياوات أسفل رأس السرير وفوقهما الصليب، نفس الصليب الذى أُهدى إليهما عندما تزوجا، شأنه فى ذلك شأن المنبه القديم الموجود فوق خوان السرير، بعد أن فقدت الأرقام والعقارب بريق ثانى أكسيد الكبريت، كان شيئًا حديثًا منذ ثلاثين عامًا، كانت ساعة حديثة جدًا ولم يكن ضروريًا أن تضىء الكهرباء لترى كم الساعة. هناك كوب من البلاستيك به طاقم الأسنان المستعار فوق خوان السرير وهناك تمثال صغير من البلاستيك لعذراء *جابيار* مطلى وكأنه من الفضة. كل ليلة تشعل العجوز مصباح زيت إلى أنه ذات مرة كانت على وشك أن تحرق البيت، ذهبت لتحضر الكوب الذى تضع فيه طاقم الأسنان وأمسكت نار شعلة المصباح بكُم قميص نومها وأيقظه صراخها، بالكاد كان قد مر على نومه نصف ساعة ولم يستطع أن يغمض عينيه مرة أخرى، كان واضحًا أنه لم يكن حتى من حقه أن ينام بالليل بعد أن ينهكه العمل. كان يمكن أن يحترق هناك الاثنان كما يحترق الحطب، بين تلك الغازات والملابس الصوفية والبطاطين والملاءات القديمة التى تفوح منها الرائحة فى الظلام، وربما كان قد احترق معهما المنزل بأكمله، بأسقفه التى من الحصير والتى يُسمع فوقها ليلاً خطوات الفئران وبدعامته الخشبية التى ينخر فيها السوس. ليس هناك صمت أبدى، ولا توجد طريقة ليظل آمنًا، ويجلس ليشاهد فيلمًا فى الواحدة صباحًا، على الأقل، بعد أن ينهكه العمل، بعد أن يعمل أكثر من عدد ساعات اليوم ثم يكون من حقه بعد ذلك تناول مشروب ومشاهدة فيلم فى الفيديو، ولكن ليس هناك طريقة، دائمًا يضايقانه، يستيقظان فى الثانية صباحًا ليشربا ماء أو ليتبولا، أو فقط لأنهما نسيا أن يضعا طقم الأسنان فى الماء، شىء مقرف! لذا انتهى به الأمر ليشترى تلفازًا آخر ووضعه فى حجرته وأوصله بالفيديو، ليمكنه أن يفعل ما يحلو له، وسيرى إذا سأله العجوز عن شىء، لن يجرؤ. منذ ذلك

الحين يحبس نفسه ليرى الفيلم وهو فى أمان تام مثلما يحبس نفسه فى الحمام ليرى المجلات، ولكنه يتخذ إجراءات وقائية مكملة من خفض صوت التلفاز حتى يمنع سماع الصراخ وتلاحق الأنفاس والأصوات القوية التى تعجبه، كيف سيسمعها إذا كانت إحدى هذه النساء معه تقول على مسامعه الأشياء التى تقال وتخرج لسانها الطويل لتبلل بطرفه المبلل طبلة أذنه. هكذا كان يستمع إلى الأفلام فى سينما *برنثيبل* قبل أن يغلقوها. يشاهد فى حفلة واحدة فيلمين مختلفين كل ليلة بثمن فيلم واحد، ولكن كان ذلك فى مرحلة عندما كانت السينما قريبة من بيته، بالتأكيد كان البواب يعرفه، ولكنه كان يتسلح بالشجاعة والحق، كان الأمر بالنسبة له سيان، لم يكن يقوم بشىء سيئ، لذلك كان يعمل أكثر من عدد ساعات اليوم، كان ينكسر ظهره من كثرة العمل، كان يترك الحياة، ويشترى التذكرة من نقوده وكان يمكنه أن يرى الفيلم الذى يعجبه، كان قد تخطى سن الثامنة عشرة، كان قد بلغ قبل أن يصل إلى سن الثامنة عشرة بوقت طويل وقبل أن يذهب إلى الخدمة العسكرية. لا شىء من هذا كان يقلل الكرب عند الاقتراب من شباك التذاكر والنظر من طرف العين ليرى إذا كان هناك أحد من معارفه، الكرب عند تسليم التذكرة للعامل، وخاصة، فى المرات الأولى، ولكن لا شىء يهم عندما كان يدخل فى ظلام الردهات التى تفوح منها رائحة معطر رخيص ورطوبة الحوائط القديمة، كان يبدو أن الأرض تتحنى ناحية الأمام بهدف واحد وهو إضافة نعومة وحزم إلى الخطوات، كان يمشى عبر نفق دافئ مكيف ومضاء على مسافات بلمبات حمراء للضرورة وقبل أن يدفع الستار الأحمر أو الأحمر القانى الثقيل للبلكون كان يسمع صوت التأوهات، الكلمات، الصراخ، وأصوات الامتصاص والارتطام، وعندما كان يجلس كان يربكه فى البداية الحجم غير المعروف للأشياء التى تتحرك على الشاشة، الالتواءات، تفاصيل الأعضاء التناسلية للأجسام المفتوحة، الأجسام المنقسمة جدًا فى المستويات الأولى أو الملتوية والمكومة فى تلك الأوضاع التى تستغرق وقتًا حتى تتميز، حتى

تُعرف. ومن حوله، فوق المقاعد فى الصالة، كان يرى فى الظلام حيث بعض اللمبات لضوء خافت ومستهلك من سنوات كثيرة مضت، بعض الرؤوس الوحيدة والثابتة، ليست كثيرة، ولم تتجمع أبدًا، رؤوس كبار السن بصفة خاصة، أشخاص كانت تظل فى السينما دون أن تخلع المعطف وكانت تخرج بنفس السرعة التى تدخل بها، ربما كان لخوفهم من أن تُضاء الأنوار فجأة فى الصالة التى فى الواقع لم تكن لتضاء أبدًا. أحيانًا كان يسمع فى الصمت المتوقع للصالة شبه الخالية بعض الشكوى أو زفرة، سعال، يتحرك أحدهم فوق مقعده مسببًا طقطقة للخشب القديم أو أن يقف أحدهم فجأة ليخرج، لذا لم تكن هناك طريقة للتركيز مع الفيلم. كان يحدث له نفس الشىء عندما يحبس نفسه فى حجرته ويسمع وقع خطوات فى الردهة وسعال العجوز، وفجأة يخطر بباله أنه ربما لم يغلق الباب بالمزلاج ويفسد كل شىء، فى الوقت المحدد والمختار، فى أكثر اللحظات عذوبة عندما يتصادف تقلصه مع تقلص الشخص الفظ فى الفيلم الذى يبقع وجه وفم المرأة التى تلعقه بعد ذلك بلسانها الطويل الأحمر، من المؤكد أنهم يقيسون ألسنتهن قبل أن يتعاقدوا معهن. «لتعمل فى شىء آخر يا بنى، لا أعرف فى ماذا، ولكن لن تكسب عيشك بعملك كممثل إباحى» قال له الرجل فى دورة مياه المعسكر وهو ينظر إلى عضوه مباشرة بوجه ساخر، مكشوفًا دون غطاء، لا يزال عاريًا، لا يخجل، يهتز عضوه بثقل بينما يتجفف بالمنشفة، من المؤكد أن فى دورة المياه الخاصة به لم تكن تخرج العاهرة باردة. يسمع صوت المرأة فى الراديو وبمجرد أن يسمعه يُستثار، يقول الصوت الثالثة والربع، هامسة، توجه حديثها إلى الضمير الثانى كأنها تتحدث إليه وحده فى حجرته، «تكون أينما تكون أريدك أن تعرف أننى فى صحبتك»، يقول، وهو يفكر، ينهض دون أن يضىء النور الكهربى، شاحبًا أمام المرآة، على ضوء القمر، إذا عرفتِ أين أكون، لو تعرفين مَن أكون. يرتدى ملابسه بسرعة، فى صمت، وهو ينظر إلى الساعة، يتحرك مثل القط، يتخيل، فى الظلام بين الأشياء التى

يضيئها نور القمر، يعير انتباهًا وهو ساكن، يطل إلى الردهة، يستمع إلى لغط العجوزين، نومها رقيق، أما العجوز فكان لديه حجارة أو وحل فى الرئة، يرتدى السترة، يشد رباط الحذاء الرياضى، يفتح بالمفتاح درج خزانة الملابس، يتأكد من المطواة قبل أن يضعها فى جيب السروال الخلفى، يخرج نصل المطواة آليًا بعد أن يضربه ضوء القمر، ثم القداحة والسجائر، مفاتيح الشاحنة والبيت، سيصاب بالسأم ذات يوم ويتركهما محبوسين ومكفنين فى سرير الأموات ولن يعود أبدًا. ولكن عندما يخرج إلى الشارع لا يزال الوقت مبكرًا، إلى الحارة المرصوفة التى لا يريدون الرحيل منها، الهواء رقيق وهادئ، مثل وضوح القمر، يتبقى أكثر من نصف ساعة حتى تصل إلى الرابعة، ودون أن يفكر ترك نفسه للميادين، والحارات الخالية، ولأركان المنازل غير المأهولة أو التى يقطنها كبار السن فقط. دون سبب، بدأ قلبه ينبض بشدة وفقًا لسيره حيث يعرف إلى أين يذهب، يشعل سيجارة، يتنفس بعمق ويخرج الدخان الحاد فى هواء الليل، فى الحارة، حول رأسه المنخفض، يمشى وارتعادة فى صدره كأنه يقترب من مدخل سينما *برنتيبل*، كأنه أوقف العربة على رصيف الطريق الخالى، ليلة شديدة الظلمة ويقترب من الارتعاشة الحمراء والزرقاء ليافطة أحد المنازل ذات نوافذ من الزجاج الملون بلون أحمر فاتح متسخ.

١٣

انتظر الأربعة فى الصالون حيث يوجد التلفاز الكبير المغلق دائمًا الآن، كعلامة على الحداد، حداد قديم لا يمكن العودة فيه، مثل حداد السنوات العديدة الماضية والذى كان يغطى فيها صور الكنائس بقماش بنفسجى اللون بعد يوم الجمعة المقدس. كانوا يتحدثون منذ دقائق قليلة مضت فى نبرة صوت مشابهة لنبرة الصوت التى يُتحدث بها فى غرفة عرض المتوفى فى الليلة السابقة لدفنه أو فى صالات انتظار المرضى. يقولون أشياء عامة، لم تعد تتعلق بفاطيما، تعليقات عادية حول حالة الجو أو المدرسة، فى نهاية هذه الأشياء يتبقى دائمًا صمت طويل يستمر إلى أن تقول السيدة أو سوسانا شيئًا آخر، بعض الكلمات التافهة والصعبة التى تستقبل الموافقة الصامتة بحركة من الرأس أو حتى بغير ذلك، لئلا يبدو أن الرجل، الأب، يستمع، لا يريد أن يعرف شيئًا عنهم ولا عن العالم، كان ينتظر فقط، يشبك يديه منتظرًا أن يدق التليفون وأن يظهر قاتل ابنته إحدى المرات أمامه.

كلما اقتربت الساعة شيئًا فشيئًا يظلون فى صمت، يجلس الأب والأم فوق الأريكة والمفتش فوق المقعد بجوار التليفون الذى سيدق، ينتظرون خائفين، بالتحديد فى السابعة إلا الربع، وسوسانا جراى، الآنسة سوسانا، أمامهم جميعًا، على الجانب الآخر من المائدة الزجاجية المنخفضة حيث يوجد كوب من البيرة بلا رغوة، منفضة السجائر والسجائر، تجلس صارمة فوق الكرسى، دون نظارة، ظهرها غير مرتاح، وركبتاها بجوار بعضهما تحت سروال القطيفة، سروال مستهلك من كثرة ارتدائه للذهاب إلى المدرسة للعمل فى فصل الشتاء. كانت هى من تحدثت إلى المفتش، دفعتها أم فاطيما التى لم

تكن ترغب فى البداية أن يعرف زوجها أنها تطلب المساعدة: «هو يقول إن هـذا لن يفيد بشىء، لن تسـاعدنا الشرطة، ولكنه لن يمانع إذا جئت حضرتك أيضًا».

الآن، هى السابعة إلا الثلث، يستمعون للنقرات السخيفة لساعة الحائط، يتجنبون النظر لبعضهم البعض، ودون كلمات يبررون تلاقى الأعين، دون جمل محايدة تغفر لكل من المفتش أو سوسانا عيون الرجل والمرأة المنزعجة من جراء المصيبة، ووجوههما الذى انمحت واختفت ملامحهما من الألم، والكره، والبكاء، وقلة النوم. يجلس الاثنان فوق الأريكة الصغيرة جدًا، بجوار بعضهما بشكل لا إرادى، الواحد منهما ضد الآخر، يسيطر عليهما التفكير دون راحة ممكنة لخطورة المحنة غير المعقولة، لديهما شىء لا يمكن المساس به، الانفصال للأبد عن الآخرين، مثل الذين كانوا يعانون من البرص قديمًا، غير مبالين بالنفور ولا بالشفقة. يشبك يديه بين ركبتيه، يتنفس ويضغط على فكيه، ضاغطًا على جلد الخدين الحليق بشكل ردىء، يغرس أصابع يده المفرودة فى شعره الأسود الأشعث فى الوقت نفسه ينحنى قليلاً، منغمسًا فى شىء ربما لا يراه، فى تمثال من الزجاج أو فى طرف حذائه. يفكر فى شىء واحد فقط، يقول، يعيش فقط من أجل هذا الشىء، من أجل أن يمسك بذاك، وأقتله، ببطء، مثلما فعل مع ابنتى، وأنا مع ذلك الشخص بمفردى، ويشبك يداه من جديد، بيأس وقوة مضاعفة غير مجدية، لأنه منذ شهور أو سنوات لا تفيده يداه فى العمل وكان من الممكن أنها لن تفيده أيضًا ليخنق قاتل فاطيما، الذى يتحدث عنه كأنه يعرفه «ذلك»، يقول، ولا يقول أبدًا «هو»، ويحرقه ويسممه بشكل كبير غيظ شخصى عقيم، لدرجة أنه لم يعد قادرًا إلا على الشعور بالكره. كان الكره هو جوهر تعامله مع الآخرين، الصلة الوحيدة التى تبقت له مع الآخرين: كان يكره القاتل، ولكنه يكره أيضًا رجال الشرطة الذين لم يقدروا على الإمساك به، ويكره الصحفيين الذين تجولوا بطريقة مريبة فى الأيام الأولى فى الشارع والذين تسللوا دون احترام

من البوابة والمصعد ثم ذهبوا، بنفس اللا مبالاة السطحية التى وصلوا بها، كأن موت الطفلة حدث اجتماعى مثل أى حدث آخر، حدث ينسى فى يومين، وكان كرهه للقضاة أكثر من كرهه لرجال الشرطة وللصحفيين، الذين يطلقون سراح الجناة، ويكره الناس الذين لا يجرؤ على النظر إليهم فى الشارع، حتى لا يرى تعبيرات الفضول القذر أو الحسرة، كان يكره المعلمة التى كلفت الطفلة بعمل يدوى، وكان يكره زوجته أيضًا، التى كان من الممكن أن ترافقها ولم تصطحبها، ولكنه يكره نفسه بصفة خاصة لأنه رآها تذهب ولم يمنعها فى اللحظة الأخيرة، لأنه تأخر كثيرًا فى انزعاجه عليها وشكه، ولأنه لم يفعل شيئًا من حينها، لم يفعل سوى إفراز الكره وتغذيته وتشبيك يديه وهو جالس فوق الأريكة، أمام التلفاز المغلق، فى الصالون المسدولة ستائره دائمًا حتى لا يرى الجيران الذين يطلون من الشرفة المقابلة، القريبة جدًا فى الشارع شديد الضيق، اليدين الكبيرتين عديمتى الفائدة لعاطل ينهى سن الأربعين ويروا اليدين والوجه الذين لا يزالون يحملون علامات سنوات طويلة من العمل فوق السقالة وفوق أسقف المبانى، ولكن بالتأكيد لن يجد عملاً شريفًا ومستمرًا مرة أخرى فى حياته. قالت سوسانا بصوت خفيض:

- السابعة إلا الربع.

- قال الأب دون أن ينظر إلى أحد، وهو يركز على يديه الموضوعتين فوق ركبتيه:

- الآن يقترب من التليفون. سيتحدث الآن.

عندما يتحدث لا ينظر أبدًا إلى زوجته. كان له تعبير ثابت من الحقد والكراهية يصعب كتمانه، لأنه ضد الجميع. كانت تغذيه الإهانة من أن هذه المصيبة وقعت له وحده وليس لشخص آخر. يمكنهم أن يعبروا له عن التعازى، يرسلون له البرقيات، يعرضون عليه المساعدة، ولكن لم يكن هذا

سوى كلام. لأن بنات الآخرين لم تُخطف وتُقتل. لا أحد يمكنه أن يفهم معاناته أو يشاطره إياها، معاناة تعزله فى كبسولة مغلقة من اليأس الذى لا يصل إليها أى عزاء: أفواه تتحرك فى صمت، تسحق الوجوه والأيدى قبالة زجاج لا يمكن اختراقه. من لا يعانى من مصيبة مطابقة لا يمكنه أن يتعرف على نظيره، ولكنه ينعزل أيضًا عن زوجته وعن طفليه الصغيرين، اللذين لم يعد يغفر لهما فى صبر غير مبال كان قد شاهد به شجارهما دون أن يتحرك طوال أمسيات كاملة، شاهد بكاءهما العنيف، ولعبهما وكوارثهما المنزلية فى الصالون حيث المساحة الصغيرة والأشياء الكثيرة الهشة أمام الكسر والتلطيخ: أكواب كوكاكولا وقعت فوق غطاء الأريكة، تماثيل من الزجاج تحطمت إلى أجزاء صغيرة، تهدد بوخزهما فى أقدامهما الحافية دائمًا، بينما هو جالس ويشاهد التلفاز، يشاهد مبارايات كرة القدم أو إعادة بث لا نهائى لدورة موتوسيكلات أو مباراة الجولف التى تسبب الدوار لزوجته أكثر ما يسببه صراخ الأطفال. قالت الأم:

- حاليًا لقد أرسلناهما إلى قرية قريبة.

إلى منزل أخت لها، على الأقل لعدة أشهر، وعندما كانت تقص ذلك كانت تقدم بعض زجاجات البيرة الباردة وزجاجة الكوكاكولا للمفتش. كانت تحكى بحنين وضعف وإحساس بالخجل وبحسن الضيافة للزائرين، اللذين يؤثران فيها وبخاصة المعلمة، أكثر من المفتش، لأنها كانت تشعر بإعجاب غير مشروط تشارك فيه ابنتها ناحية سوسانا طوال سنوات عدة، وورثته الآن عن ابنتها. الإعجاب الممتن من امرأة تعرف وتعانى جهلها الخاص صوب المعلمة التى ستساعد ابنتها لتنقذها من نفس المصير الذى لا يمكن للأم أن تهرب منه. كانت من نفس السن تقريبًا، ولكن الأم كانت ترى المعلمة أكثر انطلاقًا، أكثر شبابًا، لها سلطة المرأة العاملة الحرة التى واتتها الشجاعة بألاّ تدين بشىء لأحد وأن تربى ابنها بمفردها. بالطبع، كانت تخاطبها

بحضرتك، وكانت تقدم الأشياء إليها قبل الآخرين، كانت تسألها بقلق، ويداها فى حجرها، إذا كانت تروقها البيرة وإذا كانت تريد القليل من الفول السودانى أو من الجُبن، تقف بجوارها دون أن تجرؤ على الجلوس، منتبهة وغائبة فى الوقت نفسه، ضائعة أيضًا من الألم، رغم أن الألم لا يشبه كثيرًا ألم زوجها، حيث تفتقر إلى إفراز الكره السام.

- هل تحبين زجاجة بيرة أخرى يا آنسة سوسانا؟ أأحضر لك مزيدًا من الزيتون؟

بيرة وكوكاكولا فاترة، أطباق صغيرة من جلد خنزير طرى بشكل خفيف، الفول السودانى، الجُبن، أشياء لم يلمسها أحد منهما تقريبًا، حتى لا يُسمع فى الصمت طقطقة المضغ، ولأنه يمكنهم الانتظار فقط وفقًا لتقدم الدقائق حتى تصل إلى السابعة إلا الربع، ساكنين، يستمعون إلى ساعة الحائط، الضوضاء المشوشة الآتية من الشارع، كأنها آتية من عالم آخر، عالم كان موجودًا حتى اليوم والساعة التى لم تعد فيهما فاطيما من المكتبة بعلبة ألوان الشمع، ولفة الورق المقوى. رؤوسهما مطأطأة، متوترين، راغبين أن تمضى الدقائق وأن يستطيعا المغادرة. يشرد بصر سوسانا والمفتش فى الأشياء. يد مفتاح زجاجة البيرة على شكل قوقعة صاج تستخدم فى الوقت نفسه كمنفضة للسجائر: *ذكرى من كومبوستيلا*. كانت صورة حفل تناول فاطيما معلقة فوق الأريكة، تلفت الانتباه بإطارها الذهبى الفخم وبالألوان الطبيعية فوق ورق يقلد الخيوط وعدم استواء القماش المرسوم بألوان الزيت. الفستان الأبيض للطفلة المطرز والذى يحوى أقمشة فساتين الزفاف، الوجه الطفولى ذو العيون المبتسمة والأسنان المتفرقة، يلتف بنصف استدارة فوق خلفية تتطور من الأسود إلى الأزرق.

- تفضلى يا آنسة، جربى الزيتون، إنه معد فى المنزل، من النوع الذى سيعجب حضرتك.

ولكن لم يجربا شيئًا تقريبًا، تفقد البيرة البرودة والرغوة فى الأكواب وكذلك تنطفئ المحادثة بينما تمر الدقائق، آخر دقائق فى الانتظار، ربما، لأنه بعد عدة أسابيع من موت فاطيما كانت مكالمة التليفون التى دقت فى الأيام الأولى فى السابعة إلا الربع قد عادت تتكرر، ولكن ليس كل يوم، بل كل أربعاء، نفس يوم اختفائها، فى الساعة نفسها. يدق جرس التليفون فى الشقة الكئيبة التى لم يعد يسمع فيها صرخات طفل ولا موسيقى ولا صوت التلفاز، ويظل الرجل والمرأة مشلولين عند سماعه؛ لأنه بالنسبة لهما سيكون هذا دائمًا صوت الأخبار الشنيعة. ينتظران، وقلباهما مروعان، مفزوعين من الصوت، دون أن يرفعا السماعة، ربما على أمل أن تتلاشى الدقات، ولكنها تستمر فى الدق بصخب تدريجى وبعدها يرفع الرجل السماعة بفظاظة ويقول "ألو" دون أن يقربها كثيرًا من وجهه، بذلك الصوت الفظ والمنكسر الذى لازمه بعد الدفن، وعلى الجانب الآخر، لم يكن يسمع شيئًا فى البداية، ربما كان يسمع أصوات أنفاس، أو الأصوات الساكنة للخط، ولكن قبل أن يضع السماعة أو يبدأ فى صب اللعنات يقول صوت ذكورى، فى نبرة خفيضة، ولكن بوضوح تام، وهو يُشكل بعناية كل مقطع وهو شديد القرب من ميكروفون السماعة:

«فاطيما»

وحينئذ يضع السماعة ولا يعاود الاتصال إلى أن يجيء الأربعاء التالى. يظل الرجل ماسكًا بالسماعة عندما ينقطع الاتصال، يصب اللعنات، يحرق غيظه العقيم، يصرخ فى وجه السماعة المغلقة بأسوأ الشتائم التى

تزوده بها اللغة، ثم، يحمر وجهه فجأة، واقفًا، يظل ساكنًا وصامتًا، ويتفكك فمه فى اعوجاج صارم لطريقة البكاء عند الأطفال.

لكنه كان يرفض طلب المساعدة، والاتصال مرة أخرى بالشرطة، لماذا يتصل بها؟ ماذا فعلوا؟ بماذا أفادت الجنازة والحشود التى تحمل لافتات، وصور لفاطيما وشموع مشتعلة أسفل المظلات؟ ماذا سيفعلون أكثر من أن يكرروا عليه نفس الأسئلة، أكثر من أن يطلبوا منه توقيع طلبات وإقرارات وأن يدون رقم بطاقة الهوية ويقولون له، نعم، الصبر، إنهم يتقدمون، يجمعون الشواهد والأدلة، يستجوبون المشتبه فيهم؟! كذب، يصرخ، يدور فى حجرة الطعام المليئة أكثر من اللازم بالأثاث، بالأشياء، باللوحات، والصور المؤطرة، بمفارش من أشغال الإبرة، بأطباق الديكور، بتماثيل صغيرة من الزجاج أو من البورسلين، لا يرجى منه فائدة فى العمل، أو القصاص لموت ابنته، أصبح مشلولاً، عاجزًا، كان يقول، يبدأ فى البكاء وفمه مفتوح ويغطى وجهه بيديه، كأنهم خصونى.

ذات مساء، ذهبت المرأة إلى المدرسة بعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة من موعد خروج المدرسة، لأنها لم تكن تريد رؤية الأطفال، وعندما قابلت الآنسة سوسانا تعانقا وبدأت الاثنتان فى البكاء وهما يتذكران زيارات كثيرة سابقة تسأل عن حال الطفلة، لتتلقى الأم المدح الخاص الذى تقوله كلمات المعلمة «ابنتك، ممتازة، لم يكن عندى فى المدرسة فى كل هذه السنوات ولا حتى ثلاثة تلاميذ مثلها». «اضغطى عليها حضرتك يا آنسة، إنها كسولة، من المؤسف أننى لا أستطيع مساعدتها، تسألنى عن شىء فى الواجبات وأقول لها، ابنتى، تسألين من؟!».

كانت تريد أن تتعلم ابنتها، كانت قد أقامت مع سوسانا تعهدًا ضمنيًا به شىء من التواطؤ السرى بين النساء كى تصل إلى أن تحيا الطفلة حياة أقل ألمًا وخضوعًا من حياتها. لم تكن تهتم كثيرًا بالأولاد؛ لأن الرجال دائمًا ما

تكون لهم مميزات رغم أنهم أكثر فظاظة، ولكن على الطفلة أن تتأهل، دون أن تفقد أى سنة دراسية، ولا حتى يوم، ولا تترك اختبارًا، من الضرورى لها كل العلم وكل الذكاء الذى يشتهر به الذكور ويبذرونه دون ثمار، وأيضًا مع كل قوة الإرادة، المثابرة ودهاء النساء، لتصبح قوية، لكى تعيش عندما تنضج حياة لا تكون فيها تحت رحمة رجل، أو تحت رضائه أو قسوته، تقع فى فخ الزوج والأولاد والواجبات المنزلية الرتيبة التى تستنفد حتى الفناء ولا تترك شيئًا، لا تترك نتائج ولا كلمة امتنان. فى إحدى المرات، فى آخر يوم فى السنة الدراسية الماضية، عندما أعطتها درجات فاطيما، سألتها سوسانا ماذا تحب أن ترى ابنتها عندما تكبر، وأجابتها هى دون أى شك وبتأكيد مسلَّم به: «أحب أن تكون مثل حضرتك».

أعلنت دقات ساعة الحائط بتمهل عن الربع، وأدار الجميع، بشكل غريزى وجهه صوب التليفون الذى ما زال صامتًا، فى متناول يد الرجل. قال له المفتش:

- تذكَّر. ينبغى أن تحاول تعطيله، على الأقل لدقيقة، حتى يكون عندنا وقت لنحدد مكان الخط.
- كيف ستفعل ذلك، وما أحضرت حتى مسجلاً للصوت. قال الرجل، وهو ينظر إليه من طرف عينيه، بحركة من التعب والسخرية.
- كيف تقول ذلك، هو يعرف أفضل منك ما يجب عليه فعله؟

نظرت المرأة بتعبير من الاعتذار إلى سوسانا وليس إلى المفتش. قال المفتش:

- سيسجلون المكالمة فى السنترال.

الجميع مفزوع فى هذه اللحظة، كأنهم لم يخصصوا وقتًا كبيرًا لانتظار هذه المكالمة فقط، دق التليفون كأن جرسه سوطًا حادًا.

- انتظر حتى يدق عدة مرات.

أمسك المفتش بيد والد فاطيما

- الآن. تحدث إليه، وتحمّل دقيقة على الأقل.

كان قد تحدث بصوت خفيض جدًا، كأنه يتوخى الحذر حتى لا يسمعه من على التليفون. كانت سوسانا قد أشعلت سيجارة، صارمة أمامه، دون أن تراه، وجهها جاد وعيناها هادئتان خلف الدخان. يستمعون إلى الساعة، إلى الثوانى البطيئة، والدقات التى تتقدم ببطء صوب الاستمرار الذى بدا لهم أبديًا، مرت دقيقة. ولكن الرجل لم يقل شيئًا، يبلع ريقه، يضغط بشدة على السماعة التى فى يده اليمنى، كانت راحته المقابلة لسطح البلاستيك مبللة من العرق. يحاولون أن يرهفوا مسامعهم، ولكن لا يُسمع شيء على التليفون، ولا حتى الأنفاس التى كانت تُسمع فى أوقات أخرى، يُسمع فقط الصمت الذى أصبح أكثر ظلامًا ويعكر الحضور الموجود على الجانب الآخر، قرار السخرية والقسوة التى تثير أحد الأشخاص فى هذه اللحظة، ربما لا يكون القاتل، هذا ما كان المفتش قد أقسم عليه. أشار إلى الرجل بيده ليحثه على التحدث، ولكنه ظل غائبًا، متوقعًا فى صمت الآخر، يحرك شفتيه ويسمع فقط صوت حركة اللسان وهو يبلع ريقه شبه الجاف. أبعد السماعة عن أذنه قليلا، وحينئذ سمع الأربعة صوت نفس قوى، ثم الصوت، ضعيفًا وقاتمًا، بعيدًا وقريبًا فى الوقت نفسه، باقتراب من يترقب واشمئزاز جسدى، يقول الاسم، وهو يقسم المقاطع بعناية، وفى الحال انقطع، عندما لم يمر ولا حتى أربعون ثانية.

«فاطيما».

١٤

«يستيقظ كل صباح فى الثامنة. أول شىء يفعله هو إلقاء نظرة على الشارع وهو فى رداء المنزل. يبعد الستار لبعض الثوانى وينظر أولاً إلى النوافذ المقابلة ثم إلى الشارع. يركز بصره على السيارات المتوقفة، ليتأكد من أرقام اللوحات المعدنية. يخرج فى حوالى الثامنة والنصف. يرتدى الحلة، رابطة العنق، سترة ذات لون أخضر داكن. الدور الثالث، شمال، شارع جرانادوس، رقم ١٤، عقار به خمسة أدوار ومصعدان. حى للطبقة المتوسطة وأقل من المتوسطة بعيد عن منطقة وسط البلد القديمة. عند البوابة السيدة المسئولة عن النظافة يومى الأربعاء والجمعة. ينتهى الشارع إلى طريق رئيسى به مرور متكدس ينتهى فى تقاطع طرق، على بعد كيلومترين من التقاطع مع مدريد. الخروج ماشيًا على الأقدام إلى الطريق الرئيسى أسهل، ومن هناك يقطع ٩٠ كم فى طريق سيئ حتى يصل إلى الطريق السريع المتجه لبايلن[١]».

ولكن من يمكنه التحقق من شىء، باستخدام الذكاء أو التنبؤ؟!، إذا ارتاب أحد لن يكتشف شيئًا، إلاّ إذا كان بفضل اعتراف أو بفضل بلاغ، أى وجه هو قناع تام ولا توجد عيون لا تبرق مختبئة خلف قناع أسود. الموتى يتحدثون، يقول فيريراس، على خلاف الأحياء، هم لا يخفون أى سر، إنهم على الجانب الآخر من الخجل ومن الحياة، يظهرون دون كلام كل ما كانوا عليه، ما هو أكثر حميمية وكان أكثر بؤسًا، ما هو أكثر عُريًا وأكثر وضاعة، عصارة ما أكلوه قبل ساعات من وفاتهم صفراء ونصف مهضومة، أثر الرذائل، قطرانًا فى الرئة، تضخمًا فى الكبد إثر شرب الكحول، تسوسًا،

---

(١) مدينة تتبع مقاطعة جيان فى جنوب إسبانيا. (ت)

شمعًا داخل الأذن، التهابًا فى العضلات العاصرة بسبب قلة النظافة، آثار العمل على الأيدى، آثارًا للنيكوتين، الحروق الحمضية للجير، وجوهًا بها حبر. فى إصبع سبابة يد فاطيما اليمنى توجد بقعة حبر قلم الفلوماستر، وخشونة صغيرة فى إصبع الوسطى، تصبح للأطفـــال الذين يكتبون وهم يضغطون كثيـــرًا على القلم الرصاص.

«... كان يملك سيارة قديمة، رينو ١٨، مرخصة فى بلباو، رمادية اللون براقة، نفس السيارة التى كانت تحت المراقبة فى مرات أخرى. لا يتركها أبدًا متوقفة فى الشارع. يستأجر مكانًا لإيقاف السيارة فى جراج عليه حراسة أربعًا وعشرين ساعة. لا يستخدم السيارة تقريبًا. يخرجها أيام الأحد، فى العاشرة صباحًا، ويخرج فى اتجاه غير معروف. يعود فى ساعة متأخرة من المساء. يغير يوميًا طريقه فى الذهاب إلى القسم. ويصل دائمًا قبل التاسعة بقليل».

ولكن لم يكن فيريراس متأكدًا من شعوره بالرأفة تجاه الأحياء؛ لأن كل ما كان يشعر به مع مضى سنوات الشباب الأخيرة، كان عدم الفهم، الارتباك، الغضب، الشك، الرعب، كلما مر الوقت اعترته رغبة حاسمة فى أن يبتعد عن العالم، ويلاحظه من بعيد، وأن يتدخل فى هذا العالم فقط عن طريق الممارسة الصارمة لعمله، الذى يشكل بالنسبة له حصنًا للوضوح والعقل، للأمل البشرى المتواضع من أن بعض الأشياء التى يقوم بها شخص يمكن أن تكون قادرة بكل موهبة وبكل مهارة أن تُحسن الظروف بطريقة ما، أن تساعد فى تدرج ربما يكون أدنى ولكنه أيضًا غير قابل للنقصان ثمين وحيث لا يسود اللا معقول والفوضى بدون شرط. مع تقدم السنين عاد ليقرأ ألبرت كاموس: لا يفهم شيئًا تقريبًا مما يدور حوله، لا يهتم بصفحات الصحف السياسية، وبسبب العيش وقتًا طويلاً فى مدينته المعزولة كان قد فقد عادة الاطلاع على كل ما هو جديد فى السينما وفى الكتب، التى كان قد

خصص لهما جزءًا من سنوات شبابه الأولى، ويفترض الآن أن هذا الجزء زيادة عن طاقاته الذهنية. ولكن هذه اللا مبالاة تجاه الأشياء الخارجية عوض عنها بمرور الوقت إرادة أكثر تأملاً وعاجلة من أن يقوم بعمله على أحسن وجه ممكن، وأن يطلع يوميًا على كل ما يقع من مستجدات فى العلم وفى الطب الشرعى، وأن يعتنى بحماس بتحاليله وتقاريره مع الدقة والوضوح والصرامة التى لا تخف أبدًا، والتى لا يسمح فيها بالتعلل بالتعب ولا الاستسلام الذى لا يمكن تجنبه نحو اتجاه كلما مر الوقت أصبح عالميًا وهو القيام بالأشياء على أى وجه، حيث تفعل بإهمال أو بحماقة أو ببساطة بشكل سيئ، لا يهم، أول أحد يدرك ذلك، وإذا فُعلت بشكل جيد لا أحد يقدم الشكر، داخل نظام محكوم بدقة بعدم التنافسية والفساد. يشترى الصحيفة ويمر اليوم دون أن يقرأها، ولكنه ينظر كل يوم بنهم إلى صندوق البريد فى انتظار المجلات العالمية التى يدفع إشتراكها، ويظل يقرؤها حتى وقت متأخر، وهو يدون الملاحظات والملخصات ويرجع إلى كتب أساسية وقواميس بمظهر من التركيز الشديد وبهدوء ربما لا يراه أحد، لأنه لم يعتد أن يظهره فى حياته اليومية وفى معاملته مع الآخرين، مثلما كان أيضًا يضع النظارة عندما يكون بمفرده بأناقة شبابية لرجل يناهز الأربعين.

داخل عمله، وتخصصه الدقيق المحدد، الذى كان رغم ذلك لا ينفد لأنه كان يشمل بالفعل كل إمكانات الحياة والموت عند البشر، يمكن تفسير الألغاز وحلها بدرجات مختلفة من التقارب أو اليقين، ولكن كانت دائمًا هناك أحداث لا شك فيها تستند على دلائل تشريحية وعمليات كيميائية كان من الممكن تحديدها دون غموض: عن طريق البقع البنفسجية ودرجة تيبس الأعضاء عرف كيف يحسب الساعات التى مرت على موت فاطيما، وبفضل تحليل بسيط نسبيًا كان متأكدًا من أن الجزء الأكبر من الدم الذى كان على ملابسها ليس لها، وإنما دم القاتل، ولكنه كان متأكدًا مما هو أبعد من ذلك، بعد كلمات التقرير الفنية، وبعد وضع النقطة الأخيرة والتوقيع، تبدأ منطقة مظلمة يشعر

صوبها فيريراس بالخوف كلما مر الوقت. بعناية لا نهائية، برقة لا يمكن أن تكون كافية، كان يفحص من حين لآخر، فى إحدى ليالى المناوبة الليلية، امرأة مغتصبة، يستخرج بقايا الحيوانات المنوية والإفرازات المهبلية، ويمشط شعر العانة برقة للبحث عن شعرة للمغتصب: يمكن أن يحدد بعدها دليل الإهانة، وفصيلة دم من ارتكب الجريمة، وربما يمكن أن تكون هذه البيانات مفيدة للوصول إلى إدانة، ولكن ليس من أجل معرفة شيء مما حدث بالفعل فى نفس المرأة المغتصبة، ما كان قد انكسر للأبد، وما كان لا يزال ممكنًا أن يُسترد ويُشفى، ما كان ينبض بكدر شديد فى وعى المغتصب، الفسق القذر أو التكبر أو الكره الذى دفعه ليتصرف هكذا.

- أتفاهم مع الموتى بشكل أفضل. قال للمفتش، وهو يضحك. على سبيل المثال، مع ألبير كامو[١] أو مع كيبيدو[٢] الذى توفى منذ زمن. أقول مثله: *أعيش لأتحدث مع الموتى...*

- *وأستمع بعينى إلى الموتى.*

أكمل المفتش الاقتباس، وظل فيريراس ينظر إليه، مرتبكًا، رغم محاولته بطريقة مهذبة، أن يخفى مفاجأته.

---

(١) **ألبير كامو** (١٩١٣ - ١٩٦٠) فيلسوف وجودى وكاتب مسرحي وروائي فرنسي مشهور ولد بقرية موندوفى بالجزائر، من أب فرنسى، وأم إسبانية، وتعلم بجامعة الجزائر، وانخرط فى المقاومة الفرنسية أثناء الاحتلال الألمانى، وأصدر مع رفاقه فى خلية الكفاح نشرة باسمها ما لبثت بعد تحرير باريس أن تحولت إلى صحيفة "الكفاح" combat التى تتحدث باسم المقاومة الشعبية، واشترك فى تحريرها جان بول سارتر. (المراجعة)

(٢) **فرانسيسكو دى كيبيدو:** من أهم شعراء إسبانيا فى القرن السابع عشر (١٥٨٠ - ١٦٤٥)، تميز شعره بالتعقيد وكثرة الصور البلاغية، وله أسلوب ساخر، هزلى، كتب رواية ساخرة معروفة بعنوان "المحتال". (ت)

- لقد علمنى إياه أحد القسوس، منذ ألف سنة. يبتسم المفتش كأنه يعتذر عن تحذلقه غير المتوقع. كان يجبرنى على تعلم آيات من الإنجيل وأشعار لكيبيدو.

«ما بين العاشرة إلى العاشرة والنصف يخرج لتناول القهوة باللبن مع الكرواسون فى كافيتريا مونتيرى، التى تبعد مائة متر عن قسم الشرطة، على الجانب الآخر من الميدان. لها مخرج خلفى على حارة. كثير من رجال الشرطة يتناولون الفطور هناك ويشربون البيرة يوميًا عند الانتهاء من الخدمة. يتناول الفطور واقفًا على البار ووجهه يتركز على باب الدخول. يقابل رجال شرطة آخرين لا يحيونه بثقة كبيرة، يبدو أنه هنا أيضًا لا يستلطفه أحد. فى كثير من المرات يتناول الطبيب الشرعى الفطور معه. حتى الآن ليس له علاقات حقيقية عدا العلاقات المهنية».

ولكن من يمكنه أن يتحقق من أى شىء من الأحياء؟ من سيكتشف ما هو موجود فى عمق العين، خلف قناع ملامح الوجه؟، من يمكنه معرفة ما يوجد بداخل النفس، وما هو موجود فى الغور أو حتى فى العمق؟، الشىء المدفون، العميق، ما يخفيه ولا يعرفه حتى هو، الفيروس الذى بدأ يسمم دمه أو الخلية السرطانية التى ما زالت تتكاثر بشكل لا نهائى بداخل أحد الأنسجة، غريزة القسوة أو القتل التى تستيقظ فيه مثل آلية ذاتية عنيفة، مثل العمى أمام بريق الألوان الحمراء التى تستيقظ فيه لحظة متأخرة لتكشف عن عالم تحوَّل إلى عالم غير معروف له، تسمم أدرينالين أو كحول تحوله إلى مخلوق يشعر هو نفسه بالرعب تجاهه إذا استطاع أن يرى هذا المخلوق فى المرآة.

قتل أحد الأشخاص طفلة، وربما يرى أخبار الجريمة فى التلفاز، أثناء العشاء العائلى، ولم يتعرف لتوه على وجه ضحيته فى الصور التى تنشرها الصحيفة، فى صور الفيديو البدائية التى التقطت يوم حفل التناول، شخص يرفع صوته وهو غاضب بين مجموعة من النساء التى تعلق على الشائعات

فى السوق، تطالب بالانتقام، بعقوبة الإعدام، بعقاب رادع. شخص يمشى على الرصيف يسند يده على كتف الطفلة التى تسير بجواره، ولا يدرك أحد أن هذه اليد لا تسند فقط ولكنها فى الحقيقة تضغط، تغرس بكل قوة أصابعها القصيرة والعصبية فى الجلد، الموجود، تحت قماش اللباس الرياضى، حيث تترك بعد ذلك فى الكتف والقفا ورمًا دمويًا يشبه علامات الدم التى لم يلاحظها أيضًا أحد فى المصعد. «لديهم عيون ولا يرون»، يهمس الأب أوردونيا فى غرفته فى الدير، «لديهم آذان ولا يسمعون»، يقول بصوت مرتفع ولا يوجد أحد تقريبًا فى الكنيسة، فى السابعة والنصف صباحًا. شخص يتذكر الأعوام البعيدة التى كان فيها جاسوسًا بين الآخرين، طالب فقير حصل على منحة، عنيد، متحفظ لكنه يقظ وفىٌّ بلا شك، قناع يتقولب مع خطوط الوجه ومادة الجلد نفسها، صوت مزيف مصنوع من معدن الصوت الحقيقى، مدرب لتكرار الأسماء، المحادثات، أرقام التليفونات، وحروف السلم وشقة كسر بابها رجال شرطة يرتدون المعاطف أو الزى الرمادى فى الرابعة صباحًا: من كان سيشك؟، من كان سيعرف؟، من يمكنه أن يكتشف ما وراء هذا الوجه العريض النصف ناضج، وما زال يحتفظ بآثار المراهقة، يحتفظ بلون سيئ ما زال به شحوب المدرسة الداخلية وظلام حجرة الاعتراف؟. شخص يرى بالصدفة نفس هذا الوجه بعد مرور ثلاثين عامًا فقط لمدة ثوان، الصور غير المتزنة لآلة تصوير تليفزيونية مستندة بالكاد بين حشد من الناس، بين الآلات، وتسليط الإضاءة، والميكروفونات التى تحاصر باب قسم الشرطة: يظهر شخص، بوجهه، ذو شعر خفيف أشيب، أشعث، يرتدى سترة غليظة لونها أخضر داكن، ويكتشف أنهم يصورونه، وفى الوقت الذى يمد فيه اليد لتبعد الآلة أو لتدفع بمن يمسكها ويستدير الوجه إلى الجانب ولكن يكون قد تأخر الوقت، فى أغلب الأحيان الأفعال المحددة لا تتأخر حتى عُشر الثانية لكى تحدث، فقبل الموعد بدقيقة، أو بعدها بدقيقة، ما كانت فاطيما ستتقابل مع قاتلها، فلحظة أو إشارة وما كان قد رأى أحدًا، أو تّعرف

على هذا الوجه فى نشرة الأخبار، ويقرر شيئًا أخذ يفى به ببطء، فى حتمية وسرية، مثل تقدم المرض أو السقوط التدريجى فى الجنون.

شخص يقرر، يدون، ويتصل بالتليفون، يقول كلمات ذات مغزى لا يمكن أن تورطه، لا تعطى مجالاً للشك؛ لأن الكلمات أيضًا تعرف أن تكون مستترة مثل الوجوه، شخص يفتح موسوعة أطلس ويبحث عن الدائرة الصغيرة واسم مدينة على الخريطة، شخص يطلب كتيبات سياحية ويبحث فى دليل الفنادق، ولا شىء من هذا يدعو للشك، تدوين أسماء ومشاهدة كتيبات ملونة فى مكتب سياحة، ليس جريمةً التحدث مع موظف الشركة حول أكثر الطرق المناسبة للسفر، عن مواعيد الأوتوبيسات والقطارات وتعريفة إيجار السيارات. الوجه هو مرآة الروح، قال الأب أوردونيا، بإيمانه الذى لا يتزعزع فى رحمة الله وفى الأسى أو الشفقة التى يستحقها كل البشر: ولكن الوجه ليس مرآة أى شىء، إذ ربما تكون إحدى هذه المرايا لأفلام الرعب التى لا تنعكس فيها مصاصو الدماء. شخص يستخرج صورة لبطاقة الهوية وهو يرتدى نظارة ولديه شارب مستعار، يختار اسمًا آخر ولديه الآن وجه شخص آخر، شخص يسافر فى قطار وعلى رصيف محطة "شامارتين" بمدريد يختلط بالمسافرين الآخرين ويقول وجهه القليل حول من يكون حقًا مثل اسمه الموجود الآن فى بطاقته وفى رخصة قيادته. شخص يؤجر سيارة بطبيعية شديدة من مكتب به أثاث أبيض وموظفات شابات يرتدين مثل المضيفات زيًا رسميًا وطواقى برغندية اللون، يملأ بيانات بحروف كبيرة، كل حرف فى الخانة المخصصة له، يدون رقم بطاقته الشخصية وبطاقته الائتمانية، يرسم أسفل النموذج إمضاء بسيطًا، رغم ذلك، أمضى ساعات طويلة ليتدرب عليه، وهو يملأ أوراقًا وأوراقًا يمزقها بعد ذلك إلى قصاصات صغيرة جدًا، بمهارة دقيقة، بنفس الدقة التى حفظ بها فى حقيبة سفره بعض الملابس للتغيير، بعض الكتب، مسجلاً صغيرًا، وأيضًا، شرائط موسيقى، كراسات، أقلام رصاص، منظارًا، وآلة تصوير ماركة بولارويد، أكثر

الماركات سرعة وسهولة فى الاستعمال، تشغل فراغ يده ويمكنه أن يطلقها دون أن يدرك أحد شيئًا.

شخص يصل فى المساء إلى مدينة لم يزرها أبدًا من قبل، ولكن لديه خريطة شديدة التفصيل للمدينة ولديه بعض الأدلة السياحية، ينزل نافذة السيارة فى أحد المفترقات ليسأل عن عنوان الفندق الذى حجز فيه بنفس الاسم الموجود فى رخصة القيادة والبطاقات الائتمانية، ويقدم الشكر بابتسامة كاملة الظرف، بعد أن نجح تمامًا فى إخفاء لكنته الحقيقية، حيث تلفت النظر هنا لأنها غير معتادة، ينزل فى الفندق، الذى يكرر فيه عند ملء بطاقة الدخول نفس الإمضاء الموجود فى البطاقة، وعلى ظهر بطاقة الائتمان، وفى رخصة القيادة، وذلك ليس شيئًا سهلاً، يعطى بقشيشًا معقولاً للعامل الذى يحمل له الأمتعة، التى ليست شديدة الصغر، ولكنها أيضًا ليست كبيرة بزيادة كى يتجنب قدر الإمكان أن يتذكره فيما بعد، ولكن فى الحقيقة ليس هناك خطر، لا أحد يتذكر، لا أحد يركز ولا أحد يريد أن يعرف، وذلك لتوخى الحذر أو عدم الرغبة، أو ببساطة بسبب فقدان الوعى، لديهم عيون ولا يبصرون، آذان ولا يسمعون.

شخص يتصل بالتليفون ينبئ بوصوله، لكن دون أن يتفوه بأى اسم، شخص يستحم على مهل ثم يتمدد فوق الفراش يغلب عيه الوسن من تعب السفر ويقرر أنه ليس هناك وجه للسرعة وأنه حتى صباح اليوم التالى ليس ضروريًا أن يبدأ مهمته، حيث وفق العينات التى يحملها فى الحافظة السوداء ذات السوستة المذهبة هى لممثل أحد مصانع الدهانات العريقة فى "بيبيا بيردى"، فى التو لمقاطعة مدريد. يختار أحد المطاعم من الدليل، ويقرر أن يقوم بجولة هذه الليلة فى الجزء القديم من المدينة، حيث طبقًا لما قرأه توجد مبان مهمة جدًا، وكنائس وقصور ترجع لعصر النهضة. بعد مرور خمسة أيام ينتقل إلى شقة مفروشة بالإيجار بها بعض الأثاث القديم. كل ليلة، بعد أن

يتناول عشاء عبارة عن ساندويتش وعلبة بيرة من الصفيح، يفتح جهاز كمبيوتر محمول صغير ويكتب بإصبعين، بسرعة جدًا، يخطئ ويمحو بنفس العجلة، وهو ينحنى كثيرًا فوق الشاشة، لدرجة أنه عندما يطفئ الكمبيوتر يؤلمه ظهره ورقبته.

«... مساء العاشر والثالث والعشرين من أكتوبر، بدلاً من أن يعود إلى البيت بعد انتهاء العمل يأخذ اتجاهًا جديدًا ويذهب إلى مبنى دينى يقع تقريبًا على حدود المدينة، يسهل الدخول إليه والخروج منه فى سيارة، وله شوارع جانبية عريضة. زيارة لثلاث ساعات، لا يُعرف إذا كان لها علاقة بالتحقيقات التى تشغله. يغير الرصيف بشكل متكرر. يتوقف عند واجهات المحال ويلتفت بسرعة. مثل كل يوم بين الثانية والنصف والثالثة والنصف يذهب إلى كافيتريا مونتيرى، دائمًا على نفس المائدة المعدة لشخص واحد: يراقب الميدان عبر النافذة ويكون مواجهًا للباب الوحيد للمطعم، الموجود عند نهاية سلم الصعود من الطابق السفلى للكافيتريا. لم يعد يتناول الكحول ولا يدخن. مع كل وجبة يتناول بعض زجاجات من الكوكاكولا. يظل ضوء الصالون فى المنزل مضاء حتى الثانية عشرة من منتصف الليل. لا يتناول العشاء خارج المنزل. يذهب للشراء كل يوم جمعة من سوبر ماركت فى الحى، سوبر دانى ــ ٤، الذى يوجد به كنترول أمن عند باب الدخول والخروج، والجزء الخلفى مدخل إلى المخزن ورصيف التحميل والتفريغ. يطفئ ضوء غرفة النوم فى الواحدة صباحًا. فى بعض الأيام يعود ويضيئه بعد مرور بضع ساعات. لا يخرج بالليل إلاّ إذا كان للعمل. فى الخامس عشر من أكتوبر حملته سيارة شرطة دون علامات محددة فى الواحدة إلاّ الربع صباحًا. ليس له رقم تليفون مسجل فى الدليل. عندما لا يكون لديه عمل يقضى معظم الوقت وحيدًا. لا يزوره أحد. يفعل نفس الشىء كل يوم، ولكن لا يفعله أبدًا بنفس الطريقة. فى الرابع من نوفمبر فى العاشرة والربع صباحًا

فى كافيتريا مونتيرى اقترب منه بينما كان يتناول الإفطار صحفى ومصور من القلائل الذين لا يزالون ينتظرون أى جديد عن قضية الطفلة. حياهما بجدية شديدة وهو ينظر بارتياب إلى آلة التصوير. لم يتركهما يلتقطان له صورًا. أراد المصور والصحفى أن يدفعا له القهوة، ولكنه رفض، ودعهما ورحل. بالنسبة للآخرين ينقصهم الوقت ليتحدثوا عنه بشكل سيئ، ليس من الضرورى الاقتراب كثيرًا لسماع ما يقولون. يقول المصور: إذا كان قد تمكن تلك المرة من أن يلقى بالآلة لكنت قدمت بلاغًا ضده. تعليق الصحفى، يصدق بشكل جيد، حتى يعطى مخرجًا للحكاية: "لقد حكوا لى أن هذا النذل بدأ اشتراكيًا فى الجامعة، فترة حكم فرانكو، كان يوشى بالناس"».

١٥

يشعر به الآن، لقد بدأ يشعر به ولا يدركه بعد. شعر مع أول رشفة، النار العذبة فى الحلق والمعدة، الضربة الأولى لذهاب العقل، ثم الطعم فى سقف الفم الممتزج بالريق والذائب فيه، ولكن هذا التأثير الأول للأنيس تنتشر حلاوته الآن فى الجسم كله مثلما ينتشر الدم فى العروق، ليس هذا أكثر ما يهمه ولا ما يشعر به بقوة. إنه شعور بالدوار، بالخطر، ولكن أيضًا بالأمان، ينمو شيء دافئ فى معدته ويصعد إلى الحلق بينما ينظر ما حوله، المشهد اليومى الصاخب والرتيب، البائعون فى أماكنهم، خلف أكوام الخضروات أو الفاكهة، ينظر إلى الوفرة القذرة للأسماك واللحوم، ضوضاء أصوات النساء، صراخ الذين يفرغون البضائع، الصراخ العنيف لبائعات السمك. إنها قوة الوعى الدقيق والسرى لما يحمله مخبأ فى الجيب الأيمن لسروال الجينز، مخبأ ولكنه يبرز قليلاً لأن السروال كان ضيقًا جدًا. يكفيه، وهو يجلس على البار متكئًا على كوعه أمام كأس أنيس بلا إضافات الذى طلبه لتوه والذى يجب أن يتناوله على رشفتين، فى أقل من دقيقة، قبل أن يلاحظوا غيابه، مع انزلاق يده اليمنى على جانبه ولمس الشيء الصلب، رؤية بريق المعدن الذى يقفز بسرعة وسرية من قطعة الفولاذ الزائدة، بريق فى اليد اليمنى، فى الأصابع المتسخة، المبللة، المشبعة جدًا بالرائحة حيث تفوح نفس الرائحة من زجاج الكأس، كل شيء يتلوث، سرعان ما يأخذ العدوى، يفسد، فقط رائحة الأنيس قوية بدرجة كافية كى تمحو الرائحة الكريهة حتى ولو كان لمدة ثوان، أثناء حركة من النشوة والسعادة لتناول الكأس يميل برأسه إلى الخلف. يتعرف بإصبع السبابة على شكل المطواة المغلقة الموجودة فى جيبه، يلاحظ الآن أن القلب بدأ يدق بقوة وأن فمه أصبح جافًا، ذاب فيه اللعاب والأنيس،

يشبه مذاق الكحول مذاق الدم فى شراسته، الجرح بحافة السكين فى راحة اليد، جرح خفيف، لا يرى فى البداية، يتحول بعد ذلك إلى خط أحمر واضح ينبثق منه الدم بتدفق غير متوقع، دون أن يشعر هو بالألم ولا بعمق القطع: كانت نفس الرعشة، نفس الضرورة الملحة، المطواة مفتوحة فى اليد وتقبض الراحة عليها بقوة وكان من السهل الانسياق، مثل تأثير الرشفة الأولى الشرسة للأنيس أو الويسكى أو لدافع الخروج إلى الشارع للمشاهدة والبحث والإغراء والضرورة التى لا يعاقب عليها عند التوقف بجوار بوابة، بجوار لوحة البوابات الأوتوماتيكية، التوقف واختيار جرس بشكل عشوائى والضغط عليه بإصبع السبابة، القلب يدق، ويستند الظهر على الباب الزجاجى، بمظهر عارض تمامًا، يدق إصبع السبابة لأحد اليدين أجراس الشقق وتتحسس أنامل اليد الأخرى البروز المختبئ فى الجيب، يسيطر على رغبته فى الانزلاق إلى اللباس الداخلى المتوتر لسروال الجينز، رغبة ملحة، لا يمكن علاجها، قوية جدًا حتى تحولت إلى ضغط على صدغى الرأس وفى بداية تعرق، عندما يشرب فى درجة حرارة مرتفعة عند خروجه من العمل، فى الظهيرة المتأججة للصيف. تتجسس عيناه يمينًا ويسارًا، بينما يعاود الدق وينتظر إلى أن يجيبه أحد، ليس هناك خطر، هناك دائمًا مَن يدق على البوابات الآلية، سعاة بريد، موظفون فى متاجر، جيران نسوا المفاتيح. رغم ذلك، يشكل الخطر جزءًا من الإغراء، إنه الخطر الذى شعر به بمجرد أن تناول الرشفة الأولى من الأنيس فى وقت الظهيرة، فى بار السوق. يتجه وجه النادل إلى التلفاز، وتمتزج ضوضاء البرنامج الصباحى الذى ينغمس فيه مع أصوات الخطوات وصياح الناس الذى يصبح أكثر علوًا فى الأقباء الكبيرة ذات الدعامات المعدنية. رشفة، مشروب، فى أقل من دقيقة، لا أحد يعلم، وإذا علموا ماذا فى ذلك؟!، كفى ما يقوم به من عمل بينما يثرى الآخرون. الآن، ودائمًا عندما يشاهد تلفازًا مفتوحًا، يتذكر عندما رأى وجه الطفلة فى الأخبار، ورغم أنه يعرف أنه من المستحيل تخيل أنه يمكن أن يرى وجهه ذات يوم،

وعند مروره بجوار محال الأجهزة الكهربائية فى شارع نوبيا دائمًا ينظر بريبة إلى أجهزة التلفاز المفتوحة التى فى واجهة المحل، الواحد تلو الآخر، تتحرك الصور فى صمت، متطابقة أو متضاعفة، لمذيعة إحدى نشرات الأخبار، مشهد طبيعى أفريقى به حيوانات متوحشة، إحدى المسلسلات التى تعرض بعد الغذاء ودائمًا يشاهدها أبواه. وفجأة تظهر الطفلة، لا يعرفها، بتصفيف شعر آخر، بوجه مبتسم، لم يكن متأكدًا من أنه كان قد عرف من تكون، لو لم يكونوا قد قالوا اسمها، لو لم يكن قد عرضوا بعد ذلك صور المنخفض، والأخدود، وأوراق شجر الصنوبر، لوح الكرتون الأزرق المربوط بحلقة من المطاط الذى لم تتركه الطفلة طوال الطريق حيث عبرت به المدينة كلها، ويده اليمنى تضغط على كتفها وتشعر بشكل العظام الضعيفة أسفل أنامل الأصابع، والرعشة فى الأصداغ، النار فى المعدة، مثل أول رشفة ويسكى ثم الأنيس بعد ساعات طويلة من الصيام، هذا المساء قد تناول كأسين منهما. كان قد تناول كأس ويسكى، كأسًا مزدوجًا مع ثلج وهو يجلس على كرسى البار الطويل، يضغط البروز على فخذه، فى الجيب الأيمن للسروال شديد الضيق، لكن لا يتمكن أى أحد من معرفة ما الذى يحمله هناك، وحتى لو عرف، بماذا يفيده، من حق أى شخص أن يحمل مطواة، كما له الحق فى تناول ويسكى بالثلج وطلب ويسكى آخر، أو أن يمشى فى الشارع يبحث عن شيء لا يعلمه أحد غيره، لا أحد سيقول له شيئًا لأنه يدق على البوابة الأوتوماتيكية أو لأنه يدخل من بوابة وينظر إلى أسماء صناديق البريد، لا أحد يمكنه أن يلاحظ رعشة الأيدى، الضغط فى الأصداغ، النار فى المعدة، الضغط العنيف فيما بين الأرجل، أسفل النسيج الخشن والضيق لسروال الجينز، لحظة الدوار التى تدخل فيها طفلة أو امرأة المصعد ويمسك بباب المصعد ويدخل هو أيضًا مسرعًا، مبتسمًا، صامتًا، بمظهر من الغياب والاعتذار الذى اعتاد أن يتقمصهما فى المصاعد، عندما يكون بالقرب من الآخرين، من الغرباء، فى الصندوق المغلق، فى الزنزانة التى تصعد بلا

مخرج، التى يمكن أن تتوقف بحركة بسيطة من إصبع السبابة، ثانية قبل أن يخرج اشخص الآخر من تقوقعه على ذاته وينظر بطريقة مختلفة، دون انزعاج، دون خوف، ينظر بغرابة فحسب، أثناء عُشر من الثانية، قبل أن يرى بقعة الدم فى راحة يده، قبل أن يسمع صوت المطواة عند خروجها من الجيب لأيمن للسروال الضيق جدًا الذى على الأصابع أن تغوص فيه بصعوبة لتمسك بالمطواة. يبلع ريقه، لقد ضغط كثيرًا على أسنانه والآن يمتزج دلعم الدم مع طعم الريق والأنيس المذاب، مثلما تمتزج كثافة الذكرى وكثافة افأل، الدافع الذى لا يريد أو لا يعرف أن يحتويه، الإغراء بالوصول إلى الحد، وألاّ يتجاوزه، أن يتبع امرأة شابة أو طفلة حتى المصعد وفى آخر لحظة يفعل كأنه يبدأ فى المشى صوب السلم، شهوانية أن يوقف الأشياء فى أقصى لحظات الضغط بالتحديد، من أن يتقرب منهن وألاّ يصل أبدًا، عفو سرى، اتوقف فى اللحظة الأخيرة عن عقاب غير قابل للاستئناف رغم ذلك كان غير معروف لمن هو تقريبًا وصل إلى المعاناة منه.

لكن لا أحد يعرف، شىء لا يُصدق، شىء مضحك، الجميع يبحث، الصحفيون ورجال الشرطة، كل هؤلاء القذرة الذين أتوا من مدريد وأشبيلية ويقولون حتى أتوا من الخارج، معسكرين فى الميدان، تحت التمثال، بآلاتهم وحاملاتها وأسلاكهم الهوائية، يهرولون إلى باب قسم الشرطة عندما يخرج منه أحد، أحد رجال الشرطة أو المفتش ذو الشعر الأشيب الذى ظهر بعد ذلك لمدة دقيقة فى نشرة الأخبار، وسرعان ما أبعد وجهه ودفع الشخص الذى يحمل الآلة، سمع صراخًا واهتزت الصور. على كل حال كان هذا هو المُخبر، ولكن فى إسبانيا لا يلقبونهم بالمُخبرين، على الرغم من أنهم أغبياء مثل المُخبرين، فالرجل منهم لا يسافر ويقول فى الصحيفة أن لديه دليلاً، لا، قال: صورة جانبية، يقترب هو من الميدان بهدوء، يتحسس فى تخفٍ بروز المطواة فى السروال، وعندما يمر بين الصحفيين يفكر، أنذال، لو كنتم

تعلمون، لو أحكى لكم ما لا يعرفه أحد غيرى، لا أحد فى العالم، أذكياء جدًا جميعكم، حاسمين جدًا، يلاحظ أنهم يأتون من العاصمة، يزحفون، بطرق سيئة، خاصة النساء، حتى الشقراء التى قدمت برنامجًا ليليًا قدمته مباشرة من الميدان، تتكلم من أسفل برج الساعة، نصف المدينة كانت تشاهده فى التلفاز، والنصف الآخر كان قد قدم ليرى الشقراء بشخصها بشكل جماهيرى كما يحدث فى مواكب الجمعة المقدسة، يسحق بعضهم البعض خلف الحواجز التى تحميها الشرطة. كانت ساعة متأخرة من الليل وكان قد بدأ يسقط رذاذ وكانت مصابيح الإضاءة كأنها تبعث دخانًا وتتسبب فى ضوء أبيض لا يسمح به، والمذيعة الشقراء التى تضع مكياجا أكثر من مكياج عاهرة، الوجه الأبيض بفعل البودرة والكريمات، وتتحدث أسفل مظلة. تقول: «فى هذه المدينة التاريخية، فى هذه الجوهرة من عصر النهضة»، وفى اليوم التالى أخذت النسوة يتحدثن فى السوق كالمجانين، منفعلات، فى صياح أكثر من الأيام العادية، حتى أنهن نسين الطفلة الميتة. كن يتحدثن عن الأخرى، عن المذيعة الشقراء، الشقراء بالصبغة، بالطبع، صبغة وعمليات تجميل، التى تخطت، فيما بعد، أشرطة الشرطة وكانت تنقل من نفس المكان الذى ظهرت فيه الفتاة الميتة. كان يمكن رؤية كلْ شىء، كانت تقول النساء، تحكى بعضهن لبعض نفس الشىء الذى رأينه جميعًا، حدائق الكابا، سور السينما المهجور، أشجار الصنوبر والحفرة، أيضًا كان قد رآه هو، بجانب أبويه، شىء لم يكن يتجنبه، يجلس الثلاثة حول المائدة المزودة بجمرة للتدفئة، تبكى العجوز، ويهمس أبوه بصوت خفيض كأنه يمضغ أو يعض، يقول: «ذلك الشخص لا يدفع الثمن ولا حتى بالموت. يجب قطع خصيتيه، وينزف ويموت ويقتل ويدفن فى مزبلة، لا أريد أن أكون بجانبه عندما يحملونى إلى القبر».

يمضغ أو يعض، ينزع طاقم الأسنان ويتركه فوق المائدة، اللثة الوردية والأسنان المتسخة من بقايا الطعام فوق القماش القديم الذى يراه هو منذ أن أدرك الحياة، قذر جدًا، لا يناسبه طاقم الأسنان جيدًا ودائمًا يتركه هناك، فى أى مكان ويترك أيضًا الكوب البلاستيك الذى يغمس فيه الطاقم بالماء، الذى لم يكن حتى كوبًا وإنما زجاجة مياه معدنية مقطوعة من منتصفها، قذرة جدًا، تسلى هو بنفسه بقطعها بالمقص، وهو يصدر هذا الصوت الذى يصدره من الشعب الهوائية أو الرئة. لم يكن يريد أن ينفق شيئًا، ولا يثق بأحد، دائمًا ينظر ويراجع بطاقة التوفير وفواتير الكهرباء، المياه والتليفون، ويا لها من طريقة عندما يأكل، ضوضاء الفم، والحنجرة أو الشعب الهوائية، أو ما يوجد عنده بالداخل، من يعلم، لعله مصاب بالسرطان، مثل ذلك الجار الذى كان فى الحارة منذ سنوات طويلة مضت. أجروا له عملية وأخرجوا منه شيئًا، قذارة، كما يقول عنها هؤلاء البهائم، يتحدثون عن الناس كما لو كانوا يتحدثون عن الحيوانات، أخرجوا منه شيئًا من الحلق، ولم يعد يتكلم طبيعيًا، وبقى له ثقب فوق آخر زرار فى القميص. كان يتكلم وهو يحمل ميكروفونًا إلى هذا الثقب، يحرك شفتيه ولكن الكلمات لا تخرج من الفم، والصوت المعدنى يثير الخوف أكثر من الثقب الأسود الذى يقع فوق الحلق، كان يثير القرف ومن المستحيل إبعاد النظر عنه، عن هذا الفراغ الذى يتحرك بين الجلد المجعد. لم يعد يتذكر اسم ذلك الجار، الذى توفى منذ سنوات طويلة، وليس مثل هذين، اللذين سيعمران، لأن كبار السن الآن لا يموتون، ولا حتى عندما يبلغون المائة عام، يمكنهم أن يعيشوا عشرين أو ثلاثين عامًا، يتبرزون ويتبولون بشكل غير إرادى، أى شخص آخر كان قد أدخل هؤلاء دار للمسنين. دائمًا ما يقول ذلك أبوه العجوز، إنه سيموت فى بيته وفى فراشه، لا شىء إذن، يموت كما يشاء، ولكن لا يقرفنا أكثر من ذلك. هما إلى الآن لا بأس بهما، ولكن بعد أربع أو خمس سنوات من يعرف، رغم أنهما ليسا شديدى العجز. ولكن كانا دائمًا عجوزين، على الأقل هو لم يتذكرهما شبابًا أبدًا، هى دائمًا

ترتدى الأسود وشعرها أشيب قذر، وهو يرتدى القبعة والسترة القطيفة، وقمصان مزررة حتى تفاحة آدم بالدائرة السوداء فوق الرقبة، لأنه يستحم فقط عندما يشاء الله، لذا عندما يجلس إلى المائدة لا يجب فقط رؤيته وسماع طاقم أسنانه ورئتيه أو شعبه الهوائية المتعفنة، وإنما أيضًا شم رائحته، رائحة نتنة لسنوات كثيرة من العمل القذر والرائحة الأخرى، الحديثة، رائحة عجوز لا يستحم، كأنه فى الوقت الحالى لا يوجد أدشاش أو حمامات أو ماء ساخن، كأنه يجب عليه أن يستحم إلى الآن بالصفعات فى الحظيرة. لكنه أيضا لا يريد أن ينفق فى أنابيب الغاز، هناك فضيحة فى كل مرة يشعل فيها السخان، يبدو أن الشعلة الزرقاء للغاز كأنها تحرق يد العجوز، تشعل النار فى دفتر التوفير. يقول هكذا وهو يمضغ: ها هو دش آخر، بالإضافة إلى أنه يمكث فى المرحاض ساعتين. دائمًا يقول المرحاض ولا يقول الحمام، يقول الأموال ولا يقول المال، وعظام الفم بدلاً من الأسنان، ويقول يتبرز بدلاً من يقضى حاجته ويتجشأ، وحيط بدلاً من حائط، يا له من فظ!، يبدو أنه تربى فى مزرعة، فى كهف جبلى. كان ينظر إلى المذيعة الشقراء ويكرر نفس الشىء «هذا يموت ويقتل شنقًا فى منتصف الميدان مثلما كان يحدث قديمًا». هو صامت، لو يعرفان، ووجهه فوق الطبق، ينظر من طرف عينيه إلى التلفاز، لم يكن يريد النظر صوب طاقم الأسنان القريب منه، الذى يوجد فوق القماش المثقوب، والأم تبكى، بينما ليس يوم خميس، تبكى وهى ترى صورة الطفلة مثلما تبكى مع مسلسلات أمريكا الجنوبية التى تبث بعد الطعام، لم يكن من الممكن مشاهدة التلفاز معهما، لا يفهمان شيئًا، يحتجان على كل شىء، ولكنهما لا يغلقانه أبدًا، منذ الصباح وحتى منتصف الليل مع الباحث الذاتى عن القنوات فوق المائدة المزودة بالمجمرة أو فى حجر العجوز كما كانت المسبحة مع النساء من قبل. عندما يريدان تغيير القناة يخطئان وما يفعلانه هو رفع الصوت كثيرًا أو حذف ألوان الصور، كارثة تلو الأخرى. كى يشعلا السخان يتركان الغاز يتسرب لفترة؛ لأنهما لا يتمكنان من إشعال

الكبريت، وفى بعض الأحيان يطفئان مدفأة الغاز عن طريق النفخ لإطفاء الشعلة، كأن الأمر يتعلق بإطفاء شمعدان فى تلك الضيعة حيث تربيا، بطريقة همجية وفى الظلام مثلما تُربَّى الخنازير فى الزريبة والدواب فى الحظائر. خنزير، هذه كلمة أخرى لا يقولها أبوه، دائمًا يقول: قذر، يقول: هناك ضرورة بدلاً من أن يقول: هناك حاجة، وأجزاخانة بدلاً من صيدلية، ويسمى الكونياك بكونيا، ياله من همجى كبير!، يمكنهما فى أى ليلة النفخ فى شعلة المدفأة بدلاً من إطفائها مثل الآدميين ويتسمم الاثنان، كما يقولان هما يختنقان، نائمان ثم يموتان فوق الأريكة، أمام التلفاز المفتوح، الاثنان وفمهما مفتوحان ورأساهما مائلتان إلى الخلف. ميتان ومقتولان، فالعجائز فى هذا العالم هم فائض، يعمل المرء حتى ينكسر ظهره ويعمل أكثر من عدد ساعات اليوم وتجمع الحكومة كل هذا كى تدفع معاشات إلى العجائز الذين لا يموتون أبدًا، وتدفعه للمعاقين، وللطلاب من أجل أن يذهب المدللون إلى الجامعات ويأكلون وأيديهم نظيفة ودون أن تتسخ، لا يجب عليهم أن ينفروا عندما يشمونها وأن يغسلوها عشرين مرة فى اليوم، بدلاً من كسب عيشهم ويكون عليهم أن يقولوا نعم على أى شىء، نعم سيدى، نعم سيدتى، ويكونون أول من يستيقظ. ألا يقول العجوز، شديد الهمجية، «مهنة فى اليد خير من الشهادة الجامعية، لقد رأيت أطباء ومهندسين يقدمون طلبات ليعملوا فى كنس الشوارع». هذه حقارة، والآن ما هو أكثر قيمة ما كان أكثر قيمة من قبل، وظيفة، توقيع بالحضور فى الساعة الثامنة والإياب فى الثالثة إذا رأيناه، ويذهب لتناول بيرة بأيد نظيفة وإلى الغد، وإجازات لا حصر لها، مثل المعلمين، وعلاوات للعمل ساعات إضافية، مع عدم الاستيقاظ مبكرًا أبدًا، دون المعاناة من برد الشتاء فى الثالثة أو الرابعة فجرًا، عندما تتجمد الأيدى من الماء البارد وتخدش مع أقل لمسة ويبدو أنه لا شىء، وفجأة يظهر على الجلد الطرى خط أحمر ثم فى الحال يصبح فورانًا فى الدم. أصبح الأمر سيان بالنسبة له، بالطبع، بالنسبة للعجوز، كان ذكيًا، رغم علامات الغباء

عليه، معاش مبكر بسبب إعاقة، بسبب مرض تضخم الرئة أو الربو أو السرطان أو هذا الذى يعانى منه عمال المناجم، التسمم السليكى، إحالة إلى التعاقد قبل بلوغ السن ولكنه كان يبدو حينذاك عجوزًا جدًا، متدهورًا، مثلها، كانا دائمًا عجوزين، مثل المنزل والحى بأكمله الذى يعيشون فيه، منازل قديمة متهدمة، لهما نفس وجوه أبويهما أو أجدادهما فى الصورة المعلقة فوق الخزانة فى غرفة نومهما، ورغم أنهما كانا عجوزين دائمًا سوف يعيشان (الله أعلم إلى متى)، أكثر مما تعيش حلة القطيفة المعلقة على المشجب، يقول العجوز، إنهما غير قابلين للهدم، إلا إذا انفجر فيهما السخان أو أن يخنقهما ذات ليلة غاز المصباح ويفقدهما الوعى شيئًا فشيئًا بينما يشاهدان فيلمًا ولا يفهمان شيئًا ويقولان تعليقات غاضبة أو أسئلة حمقاء، ولكن وقت مشاهدتهم للأخبار يتساءلان من هو القاتل؟، ألن يكون الرجل ذا الشارب، والد الطفلة؟، لماذا يظهر شابًا إذا كان قد ظهر عجوزًا من قبل؟.

ولم يتبق أى حل، ليس هناك حل سوى التحمل، والذهاب لمشاهدة التلفاز الآخر الموجود بغرفته، إعادة مشاهدة فيلم فيديو، والباب مغلق جيدًا بالمزلاج، والصوت منخفض، ورغم تأخر الوقت فإن هذين العجوزين لا ينامان مطلقًا أو يكونان شبه نائمين دائمًا.

فى تلك الليلة فتح الباب بعناية شديدة عند وصوله ولم يضئ نور البوابة ولا نور السلم، صعد ببطء وهو يتحسس الجدار، ومكان وضع اليد للدربزين غير الآمن، عندما وصل لأعلى سمع التنفس السرطانى، أو الربوى أو التسمم السليكى للعجوز، وبعد أن أخذ ملابس نظيفة وكيس قمامة ليحفظ فيه الملابس المتسخة والمبقعة ودفع باب الحمام سمع صوت أمه وربما كان سيغشى عليه ولكن ليس من الخوف، وإنما من شدة الغيظ، ماذا كان سيفعل لو خرجت ورأته؟!. نادت عليه بالصوت الغريب والطرى عندما لا تكون مرتدية طاقم الأسنان، كما لو لم تكن متأكدة من أنه هو من دخل، يخاف

العجوزان كثيرًا من اللصوص، قالت، «تحضر متأخرًا جدًا، لقد شغلت كثيرًا بالنا». لم يكن أحدهما نائمًا؛ لأن الأب قال، كأنه يمضغ الكلمات التى يختلط فيها اللعاب الكثيف، «تأتى فى هذه الساعة سنرى من يوقظك بعد ذلك لتصل إلى العمل فى الميعاد»؛ كأنهما كان عليهما أن ينا ديا عليه، كأنه لا يستيقظ فى ميعاده كل يوم، ليفى بواجبه دون أن يخلف ذلك مطلقًا. أجابهما بأى شىء، دون أن يخفى ضيقه، الاحتقار البسيط الذى يسببه له كلاهما، دخل الحمام وتأكد من إحكام إغلاقه بالمزلاج الذى كان قد وضعه هو، خلع ملابسه وهو يتفقد بعناية كل قطعة منها وبدأ يحفظها فى كيس من البلاستيك، أخفاه بالمفتاح فى خزانة ملابسه حتى استطاع أن يشغل الغسالة فى المساء التالى. بالطبع هو من يقوم بالغسيل، الواحد يقضى حياته يعمل أكثر من عدد ساعات اليوم ثم يجب عليه العودة إلى منزله ليغسل؛ لأن العجوز لا تعرف القيام به، ومن الأسوأ أن تحاول، نصف هذه المحاولات تسببت فى مصائب. كان يمكنه إلقاء الملابس المبقعة، أى شخص يمكن أن يفعل ذلك، لكن سرعان ما ستشعر العجوز بفقدها، وستبدأ فى أسئلة ماحقة، تبدو كأنها غير مقصودة، تتصنع الرقة، وتترك الأسئلة تسقط بطريقة غير مباشرة، أرى أنك لا ترتدى السترة الصوفية التى أهديتها لك منذ وقت طويل فى يوم عيدك. وهكذا يجب غسل كل شىء، يُغسل ويُلبس كأنه جديد، كما يقول الإعلان، يغسل الواحد يديه أسفل تيار مياه تغلى وبالصابون بقوة حتى لا تتبقى أى رائحة، يدخل الواحد تحت الدش فى الثانية فجرًا وهو لا يزال فزعًا، متوترًا، سكران شيئًا ما، يتذكر أشياء تبدو له كالحلم، وعندما يخرج أحمر وعاريًا أمام المرآة المضببة بالبخار كأنه شخص آخر، كأنه لم يفعل شيئًا، ولا كأنه متعب إلى حد الإغماء، ثم دون أن ينام ينزل إلى الشارع ليجد الحياة مثل كل يوم، الأفضل القول مثل كل الليالى وساعات الفجر، الشوارع خاوية، جامعو القمامة فى الميدان القريب، يتفانون فى عملهم المقزز تحت الضوء الأحمر الذى يتحرك فوق كابينة القاطرة، بين ضوضاء الماكينات التى تسحق

وتطحن المهملات. من المؤكد أنه لا أحد من هؤلاء جامعى القمامة لديه دراسة جامعية، رغم كل ما يقوله العجوز، ولكن نعم لديهم مرتب ثابت جيد، حوافز للساعات الإضافية وإجازات، والرائحة ليست أكثر من أن تشعر بالغثيان، ولديهم نقابات تدافع عنهم وتدفعهم للإضراب، سنرى إذا قام هو ذات يوم بإضراب ماذا سيحدث، على أى شيء يحصل، سيفصلونه مثل الكلب، هذه هى الحقيقة فى هذه الحياة، بسبب العجوز الذى فى الرابعة فجرًا، فى ليالى ممطرة باردة وبها رياح يظل مرتاحًا على الفراش، بمعاشه المبكر، يختنق بين غازاته الساخنة والفاسدة بينما الواحد ينهض قبل أن ينسحب السكارى والعاهرات بوقت كبير. استحم لتوه، ولديه شيء من الضغط القوى فى القفا، ومع شيء من الدوار، بعقل مشرق ودوار فى نفس الوقت، الملابس نظيفة والوجه حليق لتوه، تفوح منه رائحة الغسول، الأيدى نظيفة، التى سرعان ما ستتسخ، بهذه القذارة وهذه الرائحة التى يمحوها فقط وسريعًا الأنيس ولكنه يترك بقعة على زجاج الكأس، الشعر ما زال مبللاً، ومحرك القاطرة يتسلق الشارع، أعمدة الإضاءة التى تنير وجبس الحوائط، والعيون الفسفورية لقط. ولكن هذه الليلة لم تكن تماثل الليالى الأخرى ليس فقط بسبب ما يعرفه هو ولا يعرفه شخص آخر فى العالم: كم ساعة، كم يومًا سيستغرقون حتى يعرفوا، حتى يجدوا ما لا يعرفه شخص غيره مكانه. يصعد بالقاطرة حتى ميدان الجنرال، الميدان المعتم والخاوى دائمًا فى هذه الساعات ويفهم أن شيئًا بدأ يقع، وسرعان ما ينقبض قلبه فى الحال، يرى من طرف عينيه أنوار قسم الشرطة مضاءة، ويوجد حراس ورجال يلبسون الزى الملكى على الباب وبعض سيارات الدورية تدور محركاتها، مع الأنوار الزرقاء للسرينة التى تومض فى صمت، فى الهدوء البارد لليلة مقمرة.

١٦

يندم الآن فى سرية لأنه وافق، ولكن لم يعد هناك فائدة، فسيارة المعلمة تسير فى شمال أحد شوارع المدينة القميئة المظلمة، الذى لا يعرفه، وسرعان ما يصب فى مفترق طريق تضيئه أنوار بيضاء وحمراء لمحطة الوقود. فجأة يحس أن الوقت قد تأخر وأنه ابتعد جدًا. كانت هناك علامات وإشارات كثيرة للمرور فاشرأبت سوسانا بوجهها على المقود لتحدد وجهتها من تلك الإشارات، فيما تبحث عن محطة إذاعية فى الراديو، ثم عن شريط موسيقى فى صندوق السيارة حيث تعم فوضى من الأوراق والشرائط المبعثرة، وعلب فارغة لشرائط المسجل، وقطع قماش تستخدم فى تنظيف الزجاج. كانت تبتسم فى عصبية وتعاود النظر إلى المفتش بضع ثوان معتذرة، وقالت له، إنها ليست ماهرة عند تحركها وسط المرور ولا فى ترتيب أشيائها، وخاصة الآن بعد مرور شهور دون أن يركب معها أحد فى السيارة. أوقعت بعض الشرائط التى امتزجت بالعلب فارغة وعند استعادتها لإحداها أسندت يدها اليمنى، التى كانت تتحسس بها، دون قصد على ركبة المفتش، ولاحظت فى الحال التقلص العضلى، والصلابة التلقائية أسفل قماش السروال، وفى عنق الرجل الذى لم يكن يستند بالكامل على ظهر الكرسى ويحافظ على نفس سلوك الزيارة الرسمية الذى كان فيها منذ لحظات، فى بيت أهل فاطيما. أخيرًا وضعت شريطًا فى المسجل وفى هذه اللحظة عندما كانا يتوقفان تغير ضوء الإشارة إلى الأخضر، بحيث بدأت الموسيقى فى الانطلاق فى الوقت الذى تقدمت فيه السيارة بسرعة. تتقدم الآن فى طريق بين بيداء، ويُرى منها على بعد بروز بعض الأبراج المضيئة للمدينة فى مقابلة مع زرقة السماء. لم يخطر لها على بال أن تسأل المفتش عن نوع الموسيقى الذى يفضله، ربما

متخيلة أنه ليس له مظهر الشخص الذى تعجبه أى منها. زادت من سرعة السيارة براحة بال فى الطريق الخالى وهى ممتنة، مع صعوبة حالة الصمت، صوت "إلا فيتزجيرالد[1]" الناعم فى إحدى أغنيات البوب الشعبى التى تعجبها كثيرًا، والتى تبدو ملائمة لهدوء الليلة المقمرة، أغنية ضوء *القمر فى فيرمونت*[2]. لم تفقد بعد ذلك الاستعداد فى سنوات شبابها الأولى فى أن تجد مطابقة بين لحظات حياتها والأغانى التى تعجبها: الموسيقى الهادئة تمامًا، فى سرعة السيارة، تجلب لها نفس ما كانت تراه بعينيها، القمر المرتفع الأبيض والذى يحيط به دائرة شفافة فى الهواء النظيف بعد المطر، لمعان من طلاء الهواء الأزرق الداكن.

- قالت. لا أفهم لماذا يستمر فى الاتصال تليفونيًا، ألا يكفيه أنه قتل الطفلة؟!.
- لا أعتقد أنه هو- قال المفتش وهو ينظر أمامه إلى أضواء الأعمدة.
- كيف يمكن أن يكون هناك شخص بهذه القسوة؟ كيف يمكن لأحد أن يتصل بالتليفون ببرود وهو يعرف أنه سيعذب أشخاصًا محطمين بالفعل؟
- يعجبهم التليفون. لا يحيط بهم أى خطر، ويمكنهم التلذذ بالخوف الذى يسببونه للآخرين.

تذكر حجرة طعام أخرى، مكالمات تتكرر يوميًا، فى أى ساعة، وفى منتصف الليل، عند الفجر. فى الأيام الأخيرة فى بلباو، تبدأ زوجته فى الارتعاد فى كل مرة يدق فيها جرس التليفون. فاجأها جرس التليفون ذات

---

(١) **إلا فيتزجيرالد** (١٩١٧ - ١٩٩٦)، مغنية جاز أمريكية، تعرف أيضًا بالليدى إلا أو السيدة الأولى للأغنية، كانت تعتبر أحد أكثر مغنيى الجاز تأثيرًا فى القرن العشرين. فازت بثلاث عشرة جائزة جرامي وحصلت على ميدالية جورج بيبودي عام ١٩٨٣. (المراجعة)

(٢) إحدى الأغنيات التى غنتها إلا مع فرانك سيناترا وتعد إحدى الأغانى الثنائية الكلاسكية. (ت).

يوم وهى تحمل صينية عليها فناجين وأكواب، وطنطن الزجاج والبورسلين والملاعق المرتعشة كأنها اهتزت من جراء زلزال خلال الوقت الأبدى الذى رن فيه الجرس. عبر هو الغرفة ومد يده صوب الصينية بالتحديد فى الوقت الذى سقطت فيه على الأرض بين قدميهما وتهشمت الأكواب والفناجين بعد فرقعة حادة، بينما ظلت هى ترتعش وتنظر إلى الأرض وتغطى فمها دون أن تدرك أن التليفون توقف عن الرن.

عندما يتذكرها يزيد الضيق من حدة الندم بداخله وعدم الراحة ليجد نفسه فى موقف غير عادى يربكه كثيرًا، والذى لن يخرج منه على الأقل إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات. افتقد إلى الحزم ليرفض دعوة المعلمة، رغم أنه كان متعبًا جدًا ويريد الذهاب إلى الفراش بعد أخذ قرص فاليوم لينام طوال الليل. الآن بداخله تمامًا، بعيدًا عن عدم مهارته الكلية ليقيم محادثة بطلاقة ليس لها علاقة بعمله، كان يلاحظ الغيظ الأنانى لمن اعتاد على المواعيد الصارمة وعدم التعامل مع أحد ونفاد صبره للتصنع الاجتماعى، وعدم تقبل أقل تغيير فى عاداته النمطية. قالت سوسانا:

- كنت أعتقد أنك لن توافق.

- كيف تقولين ذلك؟ ظل منغمسًا ينظر إلى أنوار السيارات الآتية أمامه، عاد يسمع الصوت الذى ينطق باسم فاطيما فى التليفون، والأصوات الأخرى التى تهمس بالتهديد بالموت فى الرابعة فجرًا.

- كنت سترفض عندما دعوتك على العشاء.

نظر إليها المفتش برهة وسرعان ما أبعد عينيه، وركزها من جديد على الطريق. كان يمكنه أن يرفض إذا كانت قد أمهلته وقتًا، ولكنها تصرفت بسرعة وفاجأته، وهى تعلم جيدًا إلى حد ما أنها تجبره على الموافقة. كانا قد نزلا صامتين فى المصعد، وأصيب المفتش بالدهشة عندما فكر فى أن جزءًا

من الأحداث التى حقق فيها وسأل نفسه عنها بإلحاح فى الفترة الأخيرة كانت قد بدأت وكان مسرحها بالتحديد هناك، فى نفس الكابينة ذات الجدران المعدنية التى صعدت فيها فاطيما مرات كثيرة. كانت بقعة الدم لأصابع القاتل فى نفس المكان الذى يسند فيه الآن يده بجانب لوحة أرقام الشقق، هناك بالتحديد كان قد أخرج لفاطيما المطواة، لعله غطى فمها بيده، ليكتم أنفاسها. «الأشياء التى يفكر فيها الشخص تنتهى كثيرًا بأن تبدو له مختلقة»، قال بعد ذلك لسوسانا، وأجابته هى: «الأشياء والأشخاص. عندما أقع فى حب شخص أتذكره كثيرًا وأعيد الخيال مرات ومرات وكنت أراه مرة أخرى ويشق علىّ التعرف عليه».

ولكن لم يكونا بعد قادرين على التحدث عن أنفسهما بشىء من المكاشفة. فى المصعد، سبب التقارب والصمت اضطرابًا لكليهما، وبالكاد لم يكن بينهما شىء مشترك سوى الراحة لخروجهما من منزل فاطيما، منزل كئيب لعمال فقراء، به أثاث وأشياء زائدة، غريب من أثر الحداد، وقليل التهوية بسبب النوافذ المغلقة، معاناة دون عزاء، تقطير بطىء للحقد. خرجا من البوابة وكانت مظلمة، توحى بالهجران والخطر الذى يبدو أنهما تبقيا هناك قبل أن تعبرها فاطيما يدفعها أو يسوقها القاتل، الذى كان يطوق كتفها بيده ويضغط على رقبتها.

تأخرا فى إضاءة نور البوابة، وعند إنارته وجد كل منهما عينى الآخر، بمبالغة من التركيز غير إرادية سببت الحرج للاثنين. ليس هناك أصعب من تعلم النظر إلى شخص، وأن ينظر إليك شخص من قريب. قبل الخروج إلى الشارع زررت سوسانا السترة حتى الرقبة، وارتدت قفازًا من الصوف وخبأت يديها فى الجيوب الكبيرة، اعتادت على الشتاء وبرودة تلك المدينة المرتفعة والداخلية، وعلى استعداد لمقاومة الشتاء. على الرصيف،

حاول المفتش أن يفكر بسرعة فى طريقة ملائمة للوداع عندما قالت له سوسانا: ماذا لو ذهبنا لنتناول شرابًا معًا، بشىء من المفاجأة، مثل من استغرق برهة ليفكر فيما قالته توًا.

«يمكننا الذهاب إلى أى بار بالقرب من هنا»، قال المفتش بقليل من الاضطراب. كان يعرف الشارع جيدًا، حتى فى الظلام، يحفظ من الذاكرة شكل كل بوابة من بواباته وكل متاجره، الآن والأقفال مغلقة، مؤمنة بأجهزة إنذار وأقفال ضد الخوف، عدائية أمام ليلة شتوية. أمامهما وأنوار الواجهات مطفأة، كانت المكتبة التى اشترت منها فاطيما لوح الكرتون وعلبة ألوان الشمع. مكتبة متواضعة لا شىء بها فاخر، بلا رونق كبير، مثل باقى المحال فى الحى، أبواب لورش صغيرة وأعمال متواضعة. الشارع يمرضه، يزيد من يأسه من نفسه لكونه لم يقم بشىء مفيد حتى الآن، وربما لم يقترب حتى خطوة واحدة من الحقيقة. قالت سوسانا، وهى تشير إلى البار الصغير الذى يوجد على الناصية، كان به ضوء عليل وينبعث منه عبر أنبوبة التهوية رائحة كرية مكثفة لأطعمة مقلية، ثم أضافت بسرعة مثلما حدث قبل ذلك كى لا تعطى وقتًا للرفض:

– البارات هنا كئيبة، سيارتى بالقرب من هنا، إذا أردت أدعوك لتناول العشاء فى مكان اكتشفته منذ وقت قصير. سيعجبك، إنه منزل قديم لمزرعة على ضفة النهر.

بدأت فى السير، تدثرت بسترتها، ومضت نشيطة بين السيارات المتوقفة. تبعها المفتش وإن كان عن عدم رضاء واقتناع كامل بعد أن نظر خفية من طرف عينه إلى ساعته. لم يكن الوقت قد تأخر كثيرًا، الثامنة فحسب ولكن كانت قد مرت ساعات كثيرة فى منزل فاطيما وجاء الليل سريعًا حيث انتابه إحساس بأن الليل قدم منذ وقت طويل، مثلما الحال فى بلد

شمالى. فى بعض الليالى عند حوالى الثامنة والنصف بعد العشاء فى مطعم المصحة، تأخذ زوجته تصريحًا لتهاتفه من حجرتها. قالت سوسانا:

- يا لها من أحياء! عندما قدمت إلى هنا لم يكن هناك أى من هذه المبانى. كان كل هذا خلاء وبساتين. كنت أشاهد هذه الأحياء من نافذة الفصل. عجبًا كيف تمكنوا من جعل كل شىء مريعًا!

- كان هذا حقيقة، رغم أن المفتش لم يكن قد فكر فى هذا قبل هذه اللحظة. يمكنهما اللقاء فى حى على أطراف بلباو أو حى فى أى مدينة أخرى، له حوائط من الطوب المتسخ وملابس منشورة فى الشرفات الصغيرة، جراجات وأرصفة محطمة، بارات ذات ضوء زيتى، رسومات رسمت بالإسبراى. لكنه كان المكان الذى تعيش فيه فاطيما، الجنة الممكنة لمشوارها إلى المدرسة، للعبها مع البنات الأخريات على سلالم البوابة وزيارتها إلى المكتبة والمحال وهى تقبض بيديها بقوة على النقود وهى تحمل قائمة مطولة من الأشياء المكتوبة والتى كتبتها هى بنفسها. كانت هناك، الآن تعطلت بسبب الموت، الطرق الغامضة التى ترسم النظرة الطفولية فى نفس الأماكن التى يرى فيها الكبار رتابة وقبح حياتهم فقط. قالت سوسانا، بينما تبحث فى الحقيبة عن مفاتيح السيارة:

- مطعم بحق، به مفارش من القماش وقائمة نبيذ، لا يمكنك أن تتخيل!

فى أوقات الضعف كانت قد تعلمت شيئًا عن نفسها: أن قدرتها على العيش وإنقاذ نفسها من الألم يعتمد كثيرًا على أحاسيس فسيولوجية وخبرات مادية، وليس كثيرًا على أفكار أو أهداف، أو على أشياء مجردة أكثر من اللازم كى توحى لها دائمًا بالثقة. لا يمكنها العناية بروحها إذا لم تعتن بيديها أو بجلدها، وأحيانًا كان لمس نسيج يعجبها يعيد لها الرغبة فى الحياة، أو لمس كوب زجاجى، أو الحصول على كرسى هزاز من الخشب المصقول

من محل بيع تحف وأثاث قديم. كانت تعتمد من أجل حالتها المعنوية على فناجين البورسلين فى الإفطار، على نوعية الخبز والزيت اللذين يُصنع منهما التوست ومن طعم عصير البرتقال. دائمًا كانت الكآبة المعنوية بالنسبة لها دليلاً عضويًا. مثلما كانت حبلى وكانت وظائفها الحيوية تستلزم منها على عجل أكل شيء حلو كى لا يغمى عليها، قطعة حلوى أو بعض الملبس، فى هذه الليلة شعرت بالحاجة إلى عشاء جيد كى تنقذ نفسها من الذكرى الخانقة للشقة ولوالدى فاطيما، كى تشفى من التقزز الذى تركه الصوت الغامض الذى كان يكرر اسم الطفلة فى التليفون.

قالت إنها دائمًا تفقد مفاتيح السيارة: أخرجت أشياء من الحقيبة وتركتها فوق سقف العربة الأوبل كورسا البيضاء، عنقودًا به مفاتيح لمنزلها وللمدرسة، أكياس مناديل ورقية وعلب سجائر، علبة كبريت مطبخ، دفتر توفير، بطاقة ائتمانية، حافظة النظارة، إيصالات قديمة لماكينة الصرف الآلى. وأخيرًا وجدتها، فتحت السيارة وأعادت كل الأشياء إلى الحقيبة مرة أخرى، خلعت السترة قبل أن تجلس، وفجأة بدت أقل قوة وأكثر شبابًا بكنزتها المصنوعة من الصوف السميك والسروال القطيفة وحذائها الشتوى طويل الرقبة. وضعت النظارة لتقود السيارة واكتسبت فى الحال، من الصورة الجانبية، الذقن القوى البارز بالضبط فوق الرقبة الطويلة للكنزة، كان يؤكد على الصرامة الفورية العملية، الكفاءة النهائية ليديها عند فك صمام الآمان للمقود وبداية التحكم فيه.

- سرعان ما لاحظت سترتك هذه. قالت بينما ترجع بالسيارة للوراء كى تخرج إلى الطريق.
- حقًا؟

شعر المفتش بقليل من الثقة بالنفس كأن السخف أو الضعف يحومان حوله مما هو خفى، جالسًا فى سيارة لا يقودها، بجوار امرأة ليست زوجته وليست واحدة من غزواته الغرامية الكحولية التى كانت قد أمدته ببعض الليالى التى ليست ببعيدة وليس من السهل محوها كما أراد هو. بالإضافة إلى أن مقعده كان قريبًا جدًا من صندوق السيارة وكان يبقى رجليه مضمومتين ولم ينجح فى أن يلتمس آلية تجعله يرجع للوراء. «توجد الرافعة على يمينك، أسفل المقعد». قالت سوسانا، وهى تنظر إليه لحظة: تنبؤها بتفكيره جعله يشعر بالسخف أكثر. وجد الرافعة وبراحة مكثفة عرف كيف يديرها. تنفس بعمق، رغم ذلك مد رجليه بحذر دون أن يحدث جلبة ولكن لم يسند رأسه على المسند.

أكملت سوسانا. لا يرتديه أحد هنا هذا النوع من الملابس، إنها سترة غليظة جدًا وشتوية جدًا لمناخ أفريقى جدًا ومستوى حياة مرتفع جدًا. وهكذا بمجرد أن رأيتك فى فناء المدرسة فكرت: قادم من الشمال، من البايس باسكو أو من سانتاندير.

- عشت سنوات طويلة فى بلباو. جاءت الموافقة على نقلى فى بداية الصيف.

- أتعجبك؟

- يا له من سؤال!، قال المفتش. بالنسبة لرجل شرطة أُرسل إلى هناك لم يكن معتادًا أن يسألوه ذلك، ربما لأنه لا أحد يعتبره سؤالاً ضروريًا. ولكن هو نفسه ظل لفترة مندهشًا من اقتناعه بالإجابة: نعم كانت تعجبنى رغم أنه لا يبدو هذا حقيقيًا.

الآن لم يعد موجودًا فى الشمال؛ يفهم أنه قد اعتاد بعمق بعض الأشياء، اعتاد الرتابة، الفروق بين المنظر الطبيعى والمناخ، القرب من البحر

الكانتبرى، وعلى الألوان الهادئة للضباب التى تغسله الرطوبة، والتى تعد حاسمة هناك عن الجنوب، حيث كل شىء عندما وصل كان وضوحًا جارحًا، أعمى، دون درجات وتدرج للألوان ولا للظلال: اللون الرمادى أو الكلسى للأرض العارية، الألوان الزرقاء والبيضاء الزائدة فى السماء عند الظهيرة مثل الجبس على الحوائط، الفظاظة التى ظهرت بها فجأة الأشياء فى تلك المناظر الطبيعية التى ليست بعيدة كلية عن الصحراء، شجرة، بيت ريفى، صخرة، حتى النهر، ليست الأنهار الرغوية للشمال، ذات الضفاف تتلاشى منها النباتات، وإنما تيارات قليلة لسنوات من الجفاف وتسير بين جوانب عارية معدنية.

- هل عانيت من الخوف الشديد؟ كانت امرأة لا تتوقف أمام أى سؤال. كانت تظهر مزيجًا مشوشًا من منتهى الذوق والفضول، ولا مبالاة فطرية تجاه تجارب وحياة من يتعاملون معها. كانت تدرك أن كل البشر تقريبًا يتشككون إذا أبدى أحد علامات من الفضول ناحيتهم، وأن القليل من الناس لديه الكرم الضرورى للإصغاء إلى حياة الآخرين.
- عانيت الخوف الشديد. كنت أتوقع دائمًا من أنه سيصيبنى مكروه. أخرج من البيت فى الصباح وأفكر فى أنه ربما لا أعود تلك الليلة.
- ألم تعتد هذا؟
- بالطبع اعتدت. الناس تعتاد الأسوأ. تعتاد على العيش مع مرض أو مع أرجل مبتورة، تتعود على ألا تخشى الموت دائمًا. حتى والدى فاطيما سيتعودان.
- وزوجتك؟
- ماذا؟

- زوجتك – أشارت سوسانا إلى خاتم الزواج الذى فى يد المفتش اليسرى
- هل اعتادت ذلك؟

احمر وجه المفتش خجلاً رغم أن سوسانا لم تلحظ ذلك: كانت تقود منتبهة إلى الطريق، لكنها كانت تدير وجهها صوبه باستمرار لتتفحص بشكل سريع تعبيراته وحركاته، التى بدت لها محايدة ومكشوفة جدًا فى الوقت نفسه، وتحت تأثير توتر زائد يُخترق، دون حل، أكثر مما يرغب أو يدركه هو نفسه.

كان التحدث عن زوجته يزعجه كثيرًا؛ لأنه، من جهة، لا يعرف كيف يقوم بذلك وما هى اللكنة الملائمة ليعبر عن نفسه أمام امرأة غريبة عليه تقريبًا تقله فى سيارتها ودعته إلى العشاء؛ ومن جهة أخرى، شعر بالحمق وعدم الوفاء. ندم بمرارة على موافقته، وكان يشتاق للأمان الهادئ، والوحدة وسقف بيته. ورد قائلاً:

- تعرضت لأزمة عصبية شديدة عندما قدمنا إلى هنا. الآن هى تعالج فى مصحة. يقولون لى إنها ستخرج قريبًا. فى الواقع يقولون ذلك منذ أن دخلت المصحة.

- تشتاق إليها كثيرًا.

لم تكن تسأل، بل تتأكد. ولكن المفتش إذا واتته الجرأة ليقول الحقيقة، لم يكن ليجيب بنعم. كان يريد أن تعود، ليس فقط من المصحة وإنما من نفق الكآبة والصمت التى ظلت تحتهما منذ زمن طويل. لكنه لم يستطع القول بأنه يشتاق لوجودها بجانبه، وإنه يشعر بافتقادها فى البيت عند عودته من العمل. لا يستطيع أن يقول لأحد إنه فكر أحيانًا كثيرة أن يتركها، ليس لأنه يرغب فى امرأة أخرى، ولكن ببساطة لأنه لا يحبها، لأنه يفضل البقاء بمفرده، دون الإحساس بالضيق المستمر فى التفكير فى أنها تنتظره عندما يتأخر، فى أنها

تعانى من كل حركة جفاء وبرود: لم يكن حقيقيًا أن يعتاد الشخص على كل شيء، لم تكن هى تستطيع ذلك بعد سنوات كثيرة.

- انظر إلى القمر - قالت سوسانا، صمت الاثنان. أمامهما، من فوق الوادى المموج من أشجار الزيتون والظل الأسود لسلسلة الجبال، ظل الهلال الأبيض منحنيًا وبلا حراك كمنطاد، يحيط به كوكبة باردة تطفئ لمعان النجوم من حوله. كم هو عال! أتعرف أغنية: كم هو *عال القمر!*؟ أعتقد أنها ستعزف بين لحظة وأخرى. اعتقد مارسل بروست منذ صغره أن كل الكتب تتكلم عن القمر. حدث لى الشى نفسه مع الأغانى. فمعظم الأغانى التى تعجبنى لها علاقة بالقمر.

- إن القمر فى طور الاكتمال.

- أنا لا أعرف ذلك أبدًا. كيف يمكنك أن تتأكد؟

- شرحه لى قس منذ سنوات بعيدة ولم أنسه أبدًا. كان يقول إن القمر مخادع: عندما يكون على شكل حرف "C" لا يكون فى طور الاكتمال، بل يكون كذلك عندما يكون على شكل حرف "D" كبير. كل مرة أنظر إليه أتذكر ذلك.

كان يبدو لسوسانا أن صوت إلا فيتزجيرالد حزينٌ أكثر من اللازم، بحثت عن موسيقى أخرى تحيى فيها الروح، بحثت عن شريط كاسيت لبول سيمون[1] وأغنية "*Graceland*" الذى كان له عليها تأثير مؤكد دائمًا. لم يتكلم الاثنان، سحرهما وضوح المشهد الليلى وظلاله، الأرض الشاحبة التى بللها منذ قليل ماء المطر، ورؤوس شجر الزيتون تتكرر بنفس دقة بندول الإيقاع للأعمدة التليفونية. كان ضوء القمر يزداد وتصبح الأحجام الزرقاء لسلسلة

---

(١) - **بول فريديريك سيمون** (١٩٤١- ؟): مغنى وموسيقى أمريكى شهير. (ت)

الجبال أكثر قربًا، ويبرز مع ومضات الأنوار الصفراء البقع البيضاء للقرى فى الجبال الملاصقة لسلسة الجبال. لم يكونا يتكلمان، يصغى كل منهما للآخر ويرتاب فيه، يبحث عن كلمات ويترك نفسه لدفع السيارة ولمغناطيسية الموسيقى فى المكان الصامت. لاحظت سوسانا أن المفتش أراح رأسه أخيرًا على مسند المقعد. لاحظت أيضًا أنه كان يطرق بيده اليسرى طرقات صامته على ركبته، متماشيًا مع الإيقاع، دون مهارة محددة.

- أتعجبك هذه الموسيقى؟

- يعجبنى كثيرًا سماعها هكذا، ليلاً، فى طريق خال.

- أنا أهرب مع الموسيقى. عندما تستنفذنى المدينة بشدة ولم يعد يواسينى قراءة الكتب ولا سماع الأغانى، أنطلق بالسيارة ليلاً وأذهب إلى أى مكان، أهرب، أتخيل أننى أسافر بعيدًا. أشاهد أضواء إحدى هذه القرى وأقود باتجاهها، وصوت الموسيقى عال وعندما أصل يكون الشريط قد انتهى وأرى القرية ويقع قلبى فى قدمى وأعود من حيث قدمت، وأنا أفكر فى أن حياتى كانت يمكن أن تكون أسوأ إذا كانوا قد أرسلونى إلى ذلك المكان. ولكن هكذا أكتشف بعض الأماكن التى تعجبنى كثيرًا: وجدت الصيف الماضى مطعم المزرعة. دعوت نفسى على العشاء ولم أشرب زجاجة النبيذ كلها لأنه أخجلنى أن أخرج بمفردى وتزل قدمى.

كانا قد وصلا إلى جسر يعلو نهر عريض بطىء مع أنوار فوسفورية تحت ضوء القمر، زاد منه ماء المطر الذى سقط لتوه. كانت تأتى سيارة أمامهم واضطرت سوسانا إلى أن تنتظر حتى تمر، قالت: «لقد وصلنا»، أشارت إلى مبنى يقع بالضبط على الجانب الآخر، به أسقف غير متساوية وأسوار مرتفعة تسقط من أعلى على هوة.

أسفل النهر يسير خط سكة حديد. فى هذا المكان البعيد، فى منتصف الليل، فى الأعلى، فوق الجانب الكثيف من أشجار القصب والرتام، كان يوحى المكان فى خيال سوسانا بقلعة مغلقة يتم الوصول إليها بعد سفر طويل، فى بلد آخر، على مسافة لا تقاس بالكيلومترات. قالت له إنه مطعم وفندق بينما كانت توقف السيارة على حافة غابة صغيرة من أشجار اللوز، أمام بوابة المدخل فى المكان المبلط. كان هناك بعض السيارات الأخرى وبينما يسيران باتجاه المطعم كان يأتيهما من الداخل أصوات ناعمة محفزة لأصوات أدوات المائدة.

- انظر ما اسمه. قالت سوسانا وهى تتوقف أمام قوس الباب، مستثارة باقتراب العشاء، وأصوات الكؤوس الزجاجية وأدوات المائدة المصنوعة من الفضة، من لذة أول رشفة نبيذ أحمر - «جزيرة كوبا». أعتقد أن هذا أكثر شىء أعجبنى أول مرة قدمت فيها إلى هنا. سألت الندلاء عن سبب الاسم لكن لا أحد يعرف. انظر إلى المدينة كيف تبدو من هنا. تبدو مثل الجزيرة.

قبل الدخول إلى المطعم اتبع المفتش الاتجاه الذى تشير إليه اليد الممتدة لسوسانا وشاركها وقتها، دون أن يعرف، الإحساس بأنه هرب بعيدًا فى مدة ليست أكثر من نصف ساعة، فى الوقت الذى استغرقته بعض الأغنيات. شاهد التل المظلم، خط السور، الأضواء البعيدة للشرفات، وبدا له فى لحظة أنه يشاهد مدينة لم يذهب إليها أبدًا، أو مدينة لن يعود إليها أبدًا. ولكنه لم ينس، حتى فى هذه اللحظة، كما لا ينسى مريض بمرض مزمن الألم الذى يعذبه، أو مهووس بسخافة، لا ينسى أنه فى هذا المكان المجرد جدًا مثل رسم دون اسم لمدينة ليلية، فى أى جزء، ماشيًا فى شارع أو مختبئًا فى غرفة يضيئها ضوء نفس القمر وهو ينظر إلى مباراة كرة القدم من على طاولة البار، كان ينتظره شخص لم يره حتى الآن، شخص سيعرفه عندما يوضع أمام عينيه.

١٧

تعتريه الإثارة بمجرد التفكير فى ذلك، مثل الضربة بشىء فى العروق وفوق الرأس، ضربة القهوة المركزة جدًا مع قليل من الكونياك فى وسط الصدر، مثل الرشفة الأولى من الأنيس دون إضافات أو من شراب الرون، أو الدوار الناتج عن تدخين أول سيجارة، إحدى سجائر التبغ الفاتح، سجائر تلك المرات الأولى التى لها مذاق النعناع، ليالى الصيف التى كان يذهب فيها ليدخن مع أصدقاء الحى عند حدائق الكابا، على بعد خطوة، هناك بالضبط، ربما كان على أحد المقاعد التى توجد على حافة السور، بالقرب من أشجار الصبار، برائحة الراتينج فى الهواء الساخن لليالى شهر يولية، مع هذه الضوضاء التى تنتج عن الوطء فوق الأوراق الجافة التى تطقطق رغم الحذر الذى يتبعه الشخص، لذا كان يجب الترقب مع كثير من الحذر، فى الظلام، زاحفًا تقريبًا مثل الأفلام للاقتراب بأكبر قدر ممكن دون أن يُكتشف، يغرز الكوعين على الأرض، على الأوراق الجافة لشجر الصبار، ليتجسس على العشاق الذين ما زالوا ينزلون ليتبادلوا المداعبات واللمسات فوق مقاعد المتنزه. كانت إثارة مشابهة، نبض القلب فى الحلق، الدقات الأليمة والسريعة فى الصدر، مثل قبضة اليد التى تضرب أحد الأبواب مرات كثيرة، قبضة يد شخص يطرق بيأس بيتًا مغلقًا. هو وأصدقاؤه، أو الأفضل هو بمفرده يتمدد فوق السور، فى عتمة المتنزه الذى تكون فيه أعمدة النور دائمًا مكسورة أو معطلة، ربما كان تحت حماية جذع شجرة صبار، أو ممددًا فى إحدى الفتحات، من يعرف إذا كانت هى نفس الفتحة، يفكر فجأة، ممددًا على بطنه فوق الأرض والقلب ينبض، يريد أن يرى ويسمع، يميز شيئًا بين الظلال، أذرع المحبين الذين ليس لهم مكان آخر يذهبون إليه، التأوهات، الكلمات،

احتكاك الملابس، الصرخات القصيرة مثل صرخات الألم، البقعة الباهتة لمنديل يلم أو ينظف شيئًا، ولكنه لم يسمع أبدًا بشكل جيد والأكثر من ذلك لم ير أبدًا بوضوح، كان يتخيل أنه يرى أشياء، أنه يميز كلمات بذيئة ومحددة، ولكنه استطاع فقط أن يرى ظلالاً تهتز، وأحيانًا يرى وجهًا مضاء لمدة ثانية عند إشعال الكبريت، أو جذوة سيجارة. كان يتحرك دون رغبة منه، يخشى أن يكون قد قام بضوضاء تفضح وجوده ويلتصق بالأرض بقوة، يدق قلبه كأنه يوجد تحت الأرض، الخوف من أن يكتشف، أن يعميه ضوء فانوس: إنها نفس الإثارة، دوار قوى، ارتفاع تقريبًا دَوار، يأخذ نفسًا من سيجارة التبغ الأبيض الذى له مذاق النعناع وفى الوقت نفسه يلاحظ الحلاوة والشعور بالغثيان، مثلما يحدث له مع الرون أو الأنيس دون إضافات، دون ثلج، أو مع قليل من الكوكاكولا أو التونيك، رشفة ويشتعل الحلق وتصل إلى ذروة الرأس، تدور، كأن بالرقبة جهازًا دوارًا، ولكن لا أحد يعرف شيئًا، وهذا هو أقوى شيء، لا يصدق، يشرب رشفة من الرون، ويعود يحتفظ بالزجاجة فى دولابه بعد غلقه بالمفتاح، ويبلع قرص نعناع أو حبة قهوة ولا أحد يكتشفه، يخرج من غرفته، ويعبر إلى غرفة الطعام حيث ينام العجوزان يضىء وجوههما نور التلفاز؛ لأنهما لا يشعلان الضوء الكهربى إلى أن يدخل الليل تمامًا، دون أن ينظر إليهما، ودون أن يودعهما ينزل إلى بهو البوابة المظلم ويصل إلى باب الشارع، يهرب سريعًا، قوة الرون فى قفاه وفى كعبيه حتى لا يعطى للعجوز وقتًا لتكرار ترنيمتها، إلى أين تذهب؟، اعتن بنفسك، لا تتأخر، يخرج إلى الشارع المبلط يغلق الباب بعنف ثم تزل قدمه، يلعن البلدية التى لا تسفلت الشارع حيث تقول إن هذا حى قديم وله قيمة كبيرة، به منازل متهدمة وأطلال كنائس، لكنهم لا يصلحون أيضًا البلاط، لذا لا يوجد أكثر من الحفر، إذا لم يسر السائق بحرص تفرقع عجلة سيارته، أو يعود ثملاً فى الليل ولأنه، بالإضافة إلى هذا، ليس هناك أى إضاءة تتعثر وتسقط على الأرض وتكسر دماغك أو ذراعك ثم سنرى كيف تعمل، ومن يبدأ يومه قبل

الشروق وينهيه ليلاً، دائمًا على عجل يذهب من مكان إلى آخر، بين ضوضاء عربات النقل وتجار الجملة، وحوارات السيدات الصاخبة، دائمًا يرى أعينًا وأفواه سيدات تصرخ وأعينًا مفتوحة وأفواه السمك مفتوحة، أعينًا مستديرة تنظر كالأموات وأفواهًا معوجة بصفوف أسنان صغيرة تمزق جلد الأيدى، يبتسم دائمًا رغم أنه من الداخل لديه الرغبة فى القيء أو أن يغرز هلبًا فى هذا الفم المفتوح الذى يضع أحمر شفاه ويطلب شيئًا كأنه يقضم خياشيم سمك الميرو، ورغم أن المرء حرارته مرتفعة أو لم ينم على مدار عدة ليال ويشعر أنه سيسقط على الأرض، فوق المياه اللزجة ورخو الحراشيف والأمعاء. بالطبع لا، لا يمكنه أن يمرض، لن يعطوه إجازة مرضية وليس له نقابة تدافع عنه، يمكن أن يموت من داخله والأمر سيان، لن يلاحظ أحد شيئًا ولا أحد يهتم بأمره مطلقًا. هذا أيضًا لا يصدق، شيء خيالى، لا أحد يعلم شيئًا، لا أحد يمكن أن يرى خلف الوجه ولا خلف العينين، يخرج الواحد إلى الشارع ولا تزال أرجله ترتعش مع دق الرون الفظ ولا أحد يلحظ. تحييه جارة عجوز تكنس الرصيف أمام بيتها وهى تناديه باسم التدليل المقرف الذى كانت تناديه به فى صغره، لا يقتنعون أبدًا، لا يرون أن الأبناء يكبرون، دائمًا نفس النغمة «بالنسبة لى ستظل دائمًا صغيرًا، ألا ترى أننى من أحضرتك إلى العالم؟!». يقول للجارة فى وداعة، وهو يبتسم، يبدأ يبتسم بالتحديد عندما يخرج من بيته، يا له من ابن طيب!، ذات مرة سمع الجارة تقول هذا لأمه، يا له من مجتهد، عاقل!، كم أنت فخورة به!، طيب جد بالنسبة لما نراه من شباب اليوم، كيف بدأ العمل عندما وقعت لأبيه الكارثة، يا له من شجاع! بأى ذنب كان عليه أن يعمل، ولم يكن سوى صبى صغير؟!. يجب أن يتضايق، يقولون: مجرد صبى. ينظرون إلى شاب أدى الجندية تطوعًا فى ريجولاريس، قادر على العمل أكثر من عدد ساعات اليوم وينام مع شابة ويشرب ثلاثة كؤوس من الأنيس دون إضافات ودون أن تخذله القوة بعد ذلك ودون أن ترتعش يداه، وما يرونه إلا صبيًا،

كل الأمهات والجارات، والعمات، والخالات، الجدات، والزبائن من السيدات. كان يتجسس عليهن من خلف حصير نافذة الدور السفلى ولم يستطع تصديق ما تقوله أمه، كاد يموت من الضحك: «بالطبع نعم، ما يحدث لابنى المسكين أنه شديد السكوت، يبدو أنه يعيه أمر الحصول على خطيبة». انفجرت الجارة بالضحك بشعرها القذر المعقوص على شكل كحكة، وطرحتها، وحذائها القديم المصنوع من القماش، والمكنسة فى يدها، ساحرة شريرة بالكامل: «هنا يكون صامتًا ولكنه يغازل سيدات الزبائن غزلاً صريحًا عندما يبيع لهن السمك. صحيح بمنتهى الأدب، هو دائمًا يلتزم الحدود». «سنرى، ما تعلمه. لم أستطع أن أوفر له شهادة جامعية ولكن على الأقل منحته عملاً جيدًا كى يكسب عيشه فى نفس الشيء مثل والده. أفضل ممن يحملون الشهادات، حيث يوجد فى كل مكان أطباء ومدرسون يقدمون طلبات ليعملوا كناسين».

دائمًا نفس الترهات، كلمة بكلمة، كأنها حدثت للتو، متى شاهدوا طبيبًا يعمل كناسًا؟، ماذا يعرفون عن الشهادة؟، لا يعرفون شيئًا، إنهما لا يعرفان تشغيل غسالة ولا فيديو ولا يعرفان إشعال السخان. ولكن لا بد وأن يتضايق، لا بد وأن يتقدم ويقول مساء الخير للجارة التى قضت طوال حياتها تكنس نفس الجزء من الرصيف والطريق المرصوف، لا يمكن أن يكون مرصوفًا، رصيف به بلاط مكسر، وهى بالطرحة نفسها على الكتف والحذاء الأسود نفسه وحتى المكنسة نفسها، تكنس كأن لم تكن نصف المنازل مهدمة وجزء كبير من الجيران توفى. على الأقل تكنس بمقشة حديثة، فرشة شعر كثيفة من البلاستيك، وليس بالمقشات المصنوعة من أفرع الشجر التى كان يشتريها أبوه حتى وقت قريب مضى، حتى توقفا عن فعل هذا، مقشات لكنس الإسطبلات والزرائب، يا له من فظ! كان يقول إنها الأفضل وأفضل من الفرشات الحديثة لأن بالنسبة له كل ما هو قديم هو الأفضل، إناء النار هو أفضل من مدفأة الغاز، التيار الكهربى عند مائة وخمسة وعشرين هو أقوى

من مائتين وعشرين، لحم الخنزير أطيب عندما يقطع بالسكين وليس بالآلة، تزرع الأرض بالمجرفة أفضل من الحفارات الآلية، الثلاجات القديمة ذات الأرفف من الثلج تحتفظ بالسمك أفضل من ثلاجات اليوم، أحمق، يكرر دائمًا، لا يتعب أبدًا، يمضغ الكلمات ويتنفس من رئتيه المسممتين بالقطران أو السرطان، نفس الأمثال الشعبية، نفس التحذيرات أو الآراء الفظة والتى لا تتغير، نفس الذكريات، حتى نفس الأمراض واللعنات، وهو صامت، يقول نعم على كل شىء، صامت أمام طبق الحساء، أو أمام الطبيخ كثير الدهن، لا يرفع عينيه ولا يبعدهما عن الطعام أو عن التلفاز حتى لا يرى طقم أسنان العجوز فوق المفرش، مطيع، يشتاط غيظًا من الداخل، بينما فى التلفاز تعود وتظهر صورة وجه طفولى لا تتطابق مع الوجه الذى يتذكره لا فى طريقة تصفيف الشعر ولا فى الملابس، فى الصورة لها ضفيرتان، ترتدى تنورة على شكل مربعات، وجوربًا أبيض، وحذاء من جلد لامع. «ملاك» تقول العجوز، «ليتغمدها الرب برحمته»، وهو يشعر أنه مستحيل، لا يمكن ألاّ يعرف أحدًا، لا يعرف أحدًا فى العالم، لا الشرطى الذكى ذا الشعر الذى يغزوه الشيب الذى أبعد وجهه عن آلة التصوير كأنه مجرم، ولا رئيس المباحث ولا الطبيب الشرعى، لا أحدًا، ولا أيًّا من الصحفيين الذين مر بجوارهم كأنه لا شىء عندما وصل إلى الميدان، كل مساء بعد أن يستحم ويتناول الرون من الزجاجة الموجودة فى خزانة ملابسه، دون أى هدف ما، يتحسس بروز المطواة فى جيب السروال، يذهب لمجرد أن يلقى نظرة، ليحيى شخصًا أو ليحكى أو يسمع إشاعة جديدة، ليقترب ويشعر بإثارة الشعور بالخطر المتخيل، بحرية تامة، مثلما كان يتجسس وهو طفل على المنخفض، ويتحرك بالقرب من آلات التصوير ومن المصورين أو بالكاد بجوار باب قسم الشرطة دون أى خطر، دون أن يثير الاشتباه، كما كان يخرج إلى الشارع وتتوقف الجارة عن الكنس وتناديه باسم التدليل المقرف

وتقول له «ماذا؟ أستقوم بجولة؟» بابتسامة خبيثة حمقاء، باستحواذ أمومى ناعم، نفس الابتسامة التى تقول بها للأم «يخرج الآن وهو مهندم جدًا ويخرج هكذا كل مساء، أكيد وضع عينيه الآن على فتاة».

يبتعد بسرعة، وهو يضرب بالكعب بحيوية على الرصيف بينما تتوقف الجارة عن الكنس لتراه كيف يبدو من الظهر مرتديًا السترة الجلدية، والسروال الجينز الضيق، البروز فى الجيب، رنة مفاتيح عربة البضائع. يهرب من الحى كل مساء صوب الشمال، صوب ميدان الجنرال وإلى أبعد منه، إلى المكان الصخب والأضواء، والمحال المزدهرة بالموضة وبالأجهزة المنزلية بواجهاتها البراقة، مبان من الشقق ذات البوابات الأوتوماتيكية والتدفئة المركزية، الشوارع الواسعة والممهدة جيدًا بالأسفلت، المقاهى، ورش الميكانيكا، أندية الفيديو، بارات تعمل بها نساء نصفهن الأعلى عار، الحياة بحق، المتاجر الكبيرة التى وفقًا لأبيه العجوز تجعل سوق الجملة يفلس سريعًا، الذى كلما مر الوقت يصبح أقدم وأقذر، مع قليل من الجمهور وروائح غير لطيفة. يصعد وهو منفعل، متحررًا من كآبة الحوارى، من الميادين الصغيرة المحاطة بأسوار من الأديرة وأبراج الكنائس، يا ليت كل هذا يحترق أو يأتى عليه زلزال ليعاد البناء من جديد لهذا الجزء من المدينة الذى يقولون عنه إنه يستحق الكثير، ولكن لا يريد أحد العيش فيه، الذى يتأثر به كل هؤلاء السائحين المرفهين أمام مكان مغطى بالزرع البرى تأكله الأعشاب المضرة يجب أن يراهم وهم يقضون هناك إحدى الأشتية.

عندما وصل إلى الميدان كانت قد أمست، وعندما نظر ناحية الشرفة الوحيدة المضاءة فى الطابق الأول من قسم البوليس حيث تعلق الراية، شعر بشىء من وخز إثارة فى المعدة، ربما أشد من هذا، مغص، القلب يدق بعنف ولا أحد يسمعه، حتى وإن مر بالقرب منه، يدق ويصدر صوتًا فى صدره مثل العمق فى الأرض والظلام بينما يتجسس على العشاق متخيلاً أنه يرى

بحق ما كان قد رآه فى الأفلام والمجلات، إنه يسمع الكلمات التى يقولها النساء والرجال واضحة وقذرة، خاصة النساء، هن دائمًا أكثر قذارة، يتصنعن، وهو ما يفكرن فيه فحسب. فى الشرفة المضاءة يتحرك ظل بالقرب من الزجاج: هو لا يرفع عينيه، رغم أنه لن يحدث شىء إذا رفعهما، جرأة أكبر وما يزيد فقط فهو الإثارة، وليس الخطر: يقترب من الحارس الذى عند الباب، ويقول له مساء الخير، بأدب خانع وهو ما يتذكره من الخدمة العسكرية. يرفع الحارس يديه إلى القبعة، حارس عجوز سمين، ومن المؤكد أنه لا يصلح إلا لهذا. يسأله إذا كان يعرف شيئًا، إذا كان هناك شىء جديد، مدركًا تمامًا نبرة صوته الناعمة، أرق من المعتاد، نبرته عندما يكون منفعلاً أو غاضبًا، وكلما ازداد بداخله كم الحنق ازداد صوته رقة ونعومة، وحينما يسمعه يشعر بضربات الدم فى الأصداغ. «امش» يقول الحارس، بفظاظة وغضب، دون أن ينظر إليه إلا بالكاد، دون أن يأخذ فى الاعتبار حتى سؤاله وذوقه واهتمامه، «لسنا موجودين هنا لعقد مؤتمر صحفى». أنت لا، ولكن أنا نعم، يفكر، وهو يبتسم للحارس، أنا نعم يمكننى أن أعقد مؤتمرًا صحفيًا، وسترون، «آسف حضرتك، لا أريد إزعاجك» يقول، الصوت الناعم جدًا الذى يشتاق إليه هو فجأة لكونه صوتًا نسائيًا قليلاً، ولكثير من المذلة والغيظ يلاحظ أنه سيحمر خجلاً، يسيطر على نفسه، يتنفس بعمق ولا يحمر وجهه، وتتلمس أنامل الأصابع حجم المطواة فى السروال. يجب أخذ نفس عميق جدًا، ببطء، ينصحون بذلك فى مجلة الأبراج، كى لا يخجل ولا يجرى قبل أن يحين الوقت. يتخيل الآن أنه إرهابى يخرج مسدسًا من جيب سترته الجلدية ويصوبه فى وجه الحارس ويفجر دماغه صوب الحائط. إذا أراد هو، إذا رغب فى ذلك، إذا خطر على باله، أى شىء يجول بخاطره يمكن أن يفعله ولن يحدث شىء، سيبدو له بعد ذلك أنه حلم رغم أنه سيكون حقيقة، سيظهر فى الصحف وفى نشرة أخبار الساعة الثالثة. إذا أراد هو، إذا رغب فى ذلك، الآن يمكنه أن يعبر منطقة الحدائق فى منتصف الميدان ويدخل فى

الكابينة الموجودة بجانب التمثال ويتصل برقم قسم البوليس، يسأل عن المفتش، عن رئيس المباحث، بالصوت الناعم ولكن ليس شديد النعومة، من الواضح أنه إذا تحدث بشكل مهذب لن يعيره أحد اهتمامًا، الصوت ناعم لكنه آمر، لدىّ شىء مهم جدًا أقوله لك: من نفس هذه الكابينة كان يرى الظل يبتعد عن زجاج النافذة ليجيب على مكالمة. يمكنه أن يتصل ويغلق الخط عندما يرفع أحد السماعة، يمكنه أن يقول ويغلق الخط فى الحال، أو يقيم محادثة مع المفتش، مثل قاتل فيلم "*صمت الحملان*" الذى رآه مرات كثيرة، رغم أنه بدا له مزينًا وفنتازيًا أكثر من اللازم. يمكنه أن يقول للمفتش الرئيس من يكون هو وماذا فعل وماذا يمكنه أن يفعل وقتما وحيثما يرغب فى ذلك ثم يغلق الخط بعد ذلك ويخرج من الكابينة ولن يصيبه شىء، يمكنه أن يتصل ببرنامج الفجر الذى تحب الناس أن تكون غامضة فيه لتحكى تفاهات وتحكى للمذيعة العاهرة شيئًا يجعلها بالفعل تقطع النفس.

ولكن هناك شيئًا آخر، شيئًا لا يزال مثيرًا، شيئًا مغريًا لا يعرف إذا كان يمكن أو يريد مقاومته. يفكر فيه عندما يرى قسًا عجوزًا يسير أمامه صوب شارع "ميسونيس" وشارع "نويبا"، بعد أن يترك مدخل كافيتريا مونتيرى. لا يرتدى ثوب القس ولكنه يعرف أنه قس، يعرفه دائمًا، قس عجوز، يمشى ببطء شديد ومعه صليب صغير من الخشب معلق على صدر القميص الصوف الفظ الأزرق الداكن، ويرتدى حذاء أسود نعله من الكاوتش، يمد ذقنه كثيرًا كأنه يترك نفسه يحملها دافع من الإرادة أكثر فاعلية من قوة رئتيه أو رجليه. بدأ يتتبعه ودون أن يدرك كثيرًا بدأ يخطو بخطوات بطيئة لكى توائم خطوة القس الذى لا بد من أنه يعيش هناك فيما وراء شارع نويبا حيث كانت من قبل مدرسة اليسوعيين. يمضى بطيئًا النذل، لا بد وأنه يبلغ أكثر من ثمانين عامًا ولكن عجائز هذا الزمان لا يموتون ولا يُضرَبون بالنار ولا حتى تقتلهم القنابل. يتبعه فى بطء فى شارع نويبا الذى يعج بالناس فى

هذا الوقت، شارع أرصفته واسعة وبوابته مبطنة بالرخام وبه واجهات محال واسعة تكفى أضواؤها لإنارة كل شيء. به محال من الرفاهية، وتجارة بحق، وحتى به محال مجوهرات وجلود خلف زجاج مصفح، به تماثيل عرض ملابس عارية من البلاستيك الأبيض لا يغطيها شيء سوى شال من الفيزون. يا لها من أسعار، ومن حركة!، ثمن لباس داخلى لامرأة أغلى ثمنًا من كيلو سمك قاروص، وهكذا يعيش أصحاب المحال الأنذال: يحصلون على المال، أيديهم نظيفة، لا يستيقظون مبكرًا ويبتلون ولا يموتون من البرد أثناء الشتاء، ودون أن يشعروا بالدوار بسبب الروائح الكريهة فى فصل الصيف. محال أحذية وحقائب، أجهزة كهربائية منزلية، أجهزة صوت، كل شيء جديد وبراق وثمين خلف واجهات المحال، وليس هناك سوى رائحة جلود الأحذية وعطور النساء؛ لأن المال هنا ليس له الملمس الزيتى للمال فى السوق، لا تبقعه الأصابع المتسخة، وليس من المفترض عده ثم الاحتفاظ به فى صناديق متسخة، فى صناديق مسجلة ذات مفاتيح لزجة مثل باقى الأشياء: هنا المال خفى ولا تسمع صوت العملات الفضية، إنما يسمع فقط ضوضاء مرور البطاقات الائتمانية على الماكينة، مال نظيف، سحرى، فورى، وليست نقودًا فضية ساخنة فى الأيدى المرتعشة لإحدى العجائز وليست مثل الأوراق المالية المبللة بالعرق، مال إليكترونى. يقول العجوز إن كل هذا خداع، بالنسبة له أن يعطوه لفة من الأوراق المالية المربوطة بحلقة مطاطية، مثل اللفات التى كان يحملها من قبل بائعو الفاكهة بالجملة وتجار الماشية فى حافظات منتفخة ومربوطة بحلقات مطاطية تصدر صوت فرقعة زائدة. كأنه لا يثق فى الأوراق ولا فى البطاقات ولا فى المخاطبات التى يرسلها البنك، بالإضافة إلى أنه لا يفهم شيئًا، الساذج، أول ما يفعله فى اليوم الأول من كل شهر هو الوقوف فى طابور السابعة صباحًا على باب صندوق التوفير، مثل باقى العجائز، هل العالم ينقصه العجائز؟! كلهم فى الطابور، متوترين، فى أصبحة الشتاء يرتدون الطواقى والكوفيات، يمسكون ببطاقات الادخار فى يد

وبطاقة الهوية وبطاقة المعاش فى اليد الأخرى، فى أهبة كى يظهروها أمام الشباك، خوفًا من أن يسرقهم أو يخدعهم الموظفون، أو أن يعلن صندوق الادخار الإفلاس، أو أن يُسطى عليهم عند خروجهم. يسحب كل أموال المعاش ويعد النقود ويحملها إلى المنزل ويحفظها فى صندوق من الصفيح ثم يخبئها بدوره تحت بلاطة فى حفرة فى حجرة نومه، معتقدًا أن الآخرين حمقى.

لا بد وأن يكون هكذا القس العجوز، يمشى فى الشارع دون أن يحملق فى شيء، دون أن ينظر إلى الفتيات اللاتى يدخلن ويخرجن من المحال وهن يضعن أحمر شفاه، ويرتدين الكعوب العالية، ويمسكن بحقائب الشراء، تاركات أثرًا من الكولونيا والتبغ الخفيف. يمر مذهولاً من الواجهات ودون أن يحملق ولو لمرة واحدة ولا حتى فى ملابس النساء ولا فى أجهزة التلفاز وآلات الفيديو، والفساتين الفارهة ومعاطف الجلد، يمشى وهو يسبح بالمسبحة، ولكنه بالتأكيد ليس كذلك، يقولون إنه قس ملحد، يمشى دون أن يرتدى ثوب الكاهن، دون حتى أن يرتدى الرقبة البيضاء، ولكنه قس مثله مثل أى قس آخر، مثل الأسقف أو الكردينال أو من ذهب ليقوم بالقداس فى جنازة لطفلة. كان هناك خمسة أو ستة قسوس فى المذبح، أحدهم يرتدى تلك الطاقية المرتفعة التى يرتديها الأساقفة، ولم تتسع كنيسة ترينداد فكان الناس يملؤون الدرج ويشغل الحشد كل الميدان، كان موثرًا رؤية هذه الليلة فى آخر نشرة أخبار. كانوا قد وضعوا مكبرات صوت على أعمدة البوابات فى برج الساعة وفى شرفة قسم البوليس وفوق أرصفة كبيرة أو سقالات لآلات التصوير وأضواء التلفاز التى تبعث أضواء أقوى من ضوء الظهيرة فى الصيف. ذكّره هذا عندما كان صغيرًا وينقلون على الهواء مواكب أسبوع الآلام، كل الناس فى المدينة يعتريهم رغبة الزهو، يسجلونه فيديو، يقومون بحركات ويحركون أيديهم أمام آلات التصوير بينما يمر المتبتلون والعرش. بدأت تمطر وقد مُلئ كل الميدان ودرجات الكنيسة بالمظلات السوداء، كانت

الأضواء تبعث دخاناً كثيفاً وتجعل خطوط المطر تلمع، المطر الذى عاد حينها بعد سنوات وسنوات من الجفاف.

وهو هناك، بين الجمع، مظلة بين بحر المظلات، التى تبرق تحت المطر والأضواء كبريق الورنيش، فى الميدان الذى يعج بأصوات ترانيم الكنيسة وتراتيل القسوس. هو من يعرف فقط رغم أنه لا يتذكر، وهو متأثر، برىء تقريبًا، مثله مثل الجميع، منغمس فى نفس موجة الغم الكونية، فى الحداد والغيظ الانتقامى التى تعبر الحشد مثل سيل المطر العنيف فوق البحر، هو غير معروف ووحيد بين المظلات والناس، مجهول، خجول، يردد بصعوبة كلمات القداس، ومطأطئ الرأس، سجين بين الآخرين، متطابق معهم، ينفرد بسره، بكبريائه الخاص، يضغط على يد امرأة تبكى بجانبه عندما قال القس "السلام كإخوة". كانت المرأة تحمل فى عروة السترة صورة للطفلة التى توزع فى المدينة كأنها طوابع رحمة، ولكن الوجه لم يجلب له الذنب ولا حتى ذكريات، لم يكن يشبه وجه شخص كان قد عرفه. هو فقط ولا أحد يعرف، لا أحد فى الدنيا، فى ذلك الحشد بطيئًا الذى يصعد ببطء طريق المقابر عندما أمست. الكثيرون، وخاصة النساء، كانوا يمسكون بشموع ضعيفة اللهب، ألهبة تهزها أو تطفئها الرياح مثلما يحدث فى المواكب. هو فقط كان يعرف، هادئًا وبطيئًا أسفل مظلته، على خطوات الآخرين، وأيضًا طليقًا وضعيفًا مثل الآن، عندما يتتبع القس فى شارع نوبيا بعد أن ترك مصحة سانتياجو فى اتجاهه إلى الكنيسة ومقر اليسوعيين، المنعزلة فى طرف المدينة ناحية الغرب حتى أن القسوس باعوا الجزء الأكبر من الأرض إلى شركة بناء، كيف حقق هؤلاء الأنذال الثراء رغم كثرة الصلاة والتوبة!

يتبعه الآن عن بعد، فعلى هذه الأرصفة توجد واجهات محال أقل ولا أحد يمر تقريبًا، هنا أكثر ظلمة كأن الليل وصل قبل أن تمسى فى شارع نوبيا. يبقى عدة أمتار فى الخلف رغم أنه يعرف أن المتابعة غير ضرورية

لكونها قبل كل شيء شيئًا جديدًا، ليتفاخر بدهائه الشخصي لأن القس لن يراه، لن يعرف ولن يتخيل أن أحدًا يتبعه، يكلفه الكثير من العناء أن يظل ماشيًا وذقنه مرفوع والصليب الخشبي معلق على السترة. وحتى لو التف ورأى وجهه لن يسيء الظن به، إذا لم يكن ضعيف البصر حيث لا يستطيع أن يميز ملامح ولا نظرات الوجه. «يرى في وجهه النبل» تقول الجارة، لقد سمعها من خلف حصيرة النافذة المرتخية. توقف القس بجوار عمود إشارة مرور، إنها حمراء رغم ذلك سيعبر الشارع، ربما لا يميز الضوء أو لا يفهم العلامات، أو أنه يمشي مشتت الذهن جدًا لدرجة أنه لا يدرك عدد السيارات والزحمة الموجودة. تنتابه رغبة مفاجئة للاقتراب منه، والإمساك بذراعه ومساعدته على عبور الشارع، اسمح لي يا أبانا، بصوت رقيق جدًا، بالنسبة للعجائز يعجبهم في الحال ابتسامة بلهاء، دائمًا يريدون فتى طيبًا وخدومًا يعيرهم المساعدة بشبابه، الابن المثالي الذي أنجبوه أو فقدوه أو لم يكن لديهم أبدًا، آباء أو أجداد أو أعمام بالنيابة، بالبلاهة. ولكنه يظل في الخلف والقس يعبر إلى الطرف الآخر من الطريق بتهور، في انتحار، مسببًا صوتًا عاليًا من الصفير الذي أصدرته عربة نقل بسبب العجلة، ورغم ذلك، فالعجائز...، يبدو أنه ليس لديهم إحساس بالزمن، لا بد من الخوف منهم عندما يبدؤون في عبور الشارع وإذا لم تهتم، وتصدم أحدهم، تكون هكذا قد سببت لنفسك الدمار، وكأن العالم لا يعج بالعجائز، الذين في الشمس في المتنزهات أو بين أدخنة التبغ في بيوت المسنين، يتقاضون مالاً حتى يبلغوا مائة عام، يتبرزون ويتبولون دون أي إحساس بالخجل، يأكلون كالأسود ودون أن يصيبهم أية نزلة برد.

هو أيضًا يعبر الشارع وصفير آخر عنيف قوي يجعله يرتعش كأنه يوقظه من حلم لا يعرف فيه أنه سقط، نعسان دون أن يدرك ذلك، بسبب ليال طويلة نام فيها قليلاً أو لم ينم فيها نهائيًا، بسبب كأس الرون والإثارة التي لا

تخفف أبدًا من السر الذى لا يخترق. تنهره سائقة إحدى العربات من النافذة المفتوحة، وهي تهز الأساور فى يدها وأظافرها المطلية باللون الأحمر. مندهشاً، مبهوتاً يقول لها: «أليس لك عينان؟»، ويحمر خجلاً حتى جذور شعره، نعم هذه المرة، احمر خجلاً مثل شخص أبلة، يشعر بحكة فى الجسم كله، فى الظهر، فى باطن الأفخاذ، يغرز أظافره فى كفيه بيديه المقبوضتين، يفكر، لا بد وأن تكون امرأة، يقول بصوت خفيض بينما يصل للرصيف الآخر، يلتفت ليسبها وتكون العربة قد مرت، ولكنه يرى من الخلف المرأة التى لا تزال حانقة وتحرك يديها وطفلين لهما ست أو سبع سنوات ينظران إليه بمظهر متواز من اللا مبالاة والسخرية، الأوجه الملتصقة بالزجاج الخلفى، طفلاً وطفلة يرتديان الزى المدرسى لمدرسة راهبات، ولم لا؟، إنهما طفلان مرفهان، أبناء لأب من المؤكد أنه طبيب، أو مدير صندوق توفير، السيارة فولفو، من المؤكد أن النذل الذى اشتراها لا يضطر إلى النهوض فى الرابعة وأن يعمل أكثر من ساعات اليوم كى يدفع الأقساط: كيف ستشعر المرأة المزهوة بأساورها وأظافرها الحمراء، إذا نزل الطفل أو الطفلة إلى الشارع وتأخرا فى العودة، إذا لم يعودا أبدًا؟!.

ولكن لم يعد يرى القس، يغتاظ، يميزه من بعيد، تائهًا ومحنيًا أسفل آخر أعمدة إضاءة فى المدينة، بجوار السور الحديدى للكنيسة. يسرع الخطا، ما زال أشقر، بنمش فى الوجه، آثار الأظافر فى الكفين، انقبض القلب مرة ثانية، دخل القس الكنيسة من باب جانبى وإذا استمر فى متابعته ماذا يحدث؟، أى شخص يمكنه أن يدخل الكنيسة، شاب مسيحى، يعبر الردهة الرئيسية وينحنى أمام المذبح الرئيسى وبينما يجلس القس بداخل غرفة الاعترافات، من ينتظره فى الكنيسة الفارغة. لا يستطيع أن يراه، هناك ستارة ومشربية، ورائحة شموع وقماش مخملى ورائحة بخور: وإذا اقترب الآن، إذا ركع بجانب غرفة الاعترافات، بجوار المشربية، إذا قال تسبيح مريم العذراء النقية

بصوت ناعم جدًا وبعد ذلك يحكى له كل شىء، كلمة كلمة، مع كل التفاصيل، التفاصيل التى لا يعرفها أحد لأن الشرطة لم تنشرها، ليس ليطلب العفو بل ليعرِّفه إلى شخص آخر لا يستطيع أن يقول شيئًا ولا أن يعمل شيئًا، حيث يُحرَم على القسوس إذاعة ما يسمعونه فى الاعتراف. علاوة على ذلك، عندما يزيح الستار أو يخرج من الجانب الآخر من المشربية، لن يجد أحدًا فى الكنيسة كلها، الصوت الذى يكون قد استمع إليه سيكون صوت شبح أو صوتًا قادمًا من حلم. يدخل فى الكنيسة، قليلة الإضاءة، فارغة، يسبقه خياله ويحيره ويبدو له أن الخطوات التى لم يخطها بعد يتذكرها الآن ولا يمكن إصلاحها، يعبر الردهة الرئيسية، يركع لحظة، يرفع يده إلى جبهته وإلى شفتيه، رغم أنه لا يتذكر جيدًا علامة الصليب، ثم يجوب واحدة تلو الأخرى غرف الاعترافات الفارغة. القس موجود فى آخر غرفة، سمعه يسعل، مثلما كان يحدث عندما كان يذهب وهو طفل إلى الاعتراف، ربما رآه يدخل الكنيسة ويسمع الآن خطواته، ولكنه لا يستطيع أن يسمع دقات قلبه، ودفقات الدم على جانبى الرأس. سيقترب، حركة أخرى، كلمة، وشىء لم يكن موجودًا، بدأ فى الحدوث دون أن يحتويه، ولكنه توقف، بالضبط عند الحد، مثل من أوشك على لمس سلك كهربائى عالى الضغط، أن يغوص ملليمترًا حد المطواة أو سنها أكثر، أو الأظافر فى الجلد، يتراجع، يخرج إلى الشارع من جديد ومرة أخرى بدأ هطول المطر بشكل متزايد، رياح الغرب تدفع صوب رجليه مجموعة من الأوراق الرمادية والمبتلة التى بدأت ذلك المساء فى السقوط من كل أشجار الموز فى المدينة.

١٨

بعد ذلك لم تكن تستطيع تصديق ذلك، حتى إنها شعرت بالخجل، رغم أنها لم تشعر بكثير من الخجل بداخلها، لم تكن تستطيع تصديق مـ تؤكده ذاكرتها، كانت قد تكلمت كثيرًا، شجعها النبيذ، بلا شك، ولكن أيضًا شجعها العشاء، ثملة بعض الشيء من الأشياء التى تراها وتلمسها من حولها، الكؤوس الزجاجية العالية والشموع فوق الموائد، صوت النهر على الجانب الآخر من قضبان النافذة الصغيرة حيث يتناولان العشاء بجوارها، لطف الندلاء الخفى، الذين يظهرون ويختفون وفقًا للرغبات غير المعبر عنها بعد من جانبها ليغيروا طبقًا أو أحد أدوات المائدة أو ليقدموا المزيد من النبيذ. الذنب ذنب النبيذ، بالطبع، قالت ذلك فيما بعد لتعلل أمام نفسها أو من أجل التخلص من شك أن يعتبرها هو إحدى هؤلاء النساء المتفاخرات اللائى لا يصمتن أبدًا. مع مظهر من تعجبه المتع أدهشها هى نفسها، أشار المفتش على النادل بأنه هو سيتولى مهمة معاودة ملء الكؤوس بالنبيذ: منتبهًا إليها، مركزًا ببصره عليها، كان يتحدث قليلاً، ورغم أنه بدا أنه لا يأخذ باله سكب مزيدًا من النبيذ عندما أصبح كأسه على وشك أن يفرغ. هو أيضًا شرب نبيذًا، لأول مرة خلال أشهر كثيرة، جرعات حذرة تسبب له تأثيرًا سريعًا شبه حذر من عذوبته، توقظ فيه جزءًا مخدرًا من روحه، بداية سعادة كان يعاللها فى الحال بشرب كثير من الماء، يمنحه بينما يستمع إلى سوسانا، استسلامًا سريًا للذنب، فى عدم الراحة عند التفكير أن مساعديه لن يستطيعوا أن يجدوه إذا احتاجوه لشيء عاجل، إذا حدث أى جديد أو إذا اتصلوا به من المصحة.

مرت سنوات دون أن تتكلم بهذا الشكل، استرجعت سوسانا فيما بعد، فى اليوم التالى، فى المدرسة، لا تزال تلاحظ أثرًا من دوار النبيذ، مضطربة

وغائبة بين أصوات الأطفال، فى استعادة قبح استراحة المعلمين، ولكن دون اقتناع حقيقى، راضية بداخلها، أو على الأقل مرتاحة بشكل نهائى، آسفة فقط على الدموع الأخيرة، الاعتراف غير الضرورى بالندم. كانت قد تكلمت كما لم يحدث قط فى حياتها كامرأة ناضجة، كما كانت تتحاور مع صديقات المراهقة أو ريعان الشباب، تسلم نفسها بالكامل عبر الكلمات، معبرة عن نفسها أمام نفسها بنفس الدرجة أمام رجل محترم وصامت يستمع إليها وهو يأكل القليل، ويشرب الماء، منتبهًا ليصب لها النبيذ. كان قد مر جزء كبير فى السنوات العشر الأخيرة وهى تكرس حياتها تترهبن لتربية ابنها بمفردها، ولقراءة الروايات وكتب الشعر والتاريخ، وبشكل خاص، لتدرس دون مساعدة أحد أكثر لغتين أجنبيتين يعجبانها، تتغلب كل يوم على تعب العودة من المدرسة، والوهن من أن تترك نفسها تنساق للرتابة القدرية وغير المريحة لحياة تبدو أنها وصلت لشكلها النهائى. تتمركز حول نفسها وحول الطفل، غير مبالية بالمدينة ولكن دون حماس لمحاولة الخروج منها، بالكاد وجدت من شاركها فصول تعلمها الشخصى، الذى تحول بالنسبة لها هكذا عديم الجدوى ومرغوبًا فيه عن أى شىء آخر. ولم تحاسب أحدًا على الكتب التى تقرؤها، التى كانت تحضر جزءًا كبيرًا منها عبر البريد، ولا الأغانى التى تسمعها أو الأشعار التى تحفظها عن ظهر قلب. بهذه الطريقة فلاديمير نوبوكوف، أنطونيو ماتشادو، بول سيمون، إلا فيتزجيرالد، بنيتو بيرث جالدوس، سول بلو أو مارسيل بروست كانوا بعضًا من صحبتها المعتادة، غدوا بالنسبة لها ملكًا بشكل مطلق مثل وجود ابنها أو التأملات السرية عن خصوصيتها. عندما ترك ابنها مرحلة الطفولة ليتحول إلى مراهق بمنتهى السرعة وباقتناع يضايق، كانت قد كفت أيضًا عن الكلام بطلاقة معه، جزء من السبب أنها لم تكن تعرف فى مرات كثيرة ماذا تقول له، وبصفة خاصة لأن الولد الذى خط شاربه بشكل خفيف والذى أصبح أطول منها عند بلوغه الرابعة عشرة غير المرتب فى حركاته، فزع منها، غاص فى صمتها ما بين

شعور بالإهانة وشعور بالعداء فى حالة من التخبط المضطرب، من الغضب والندم بشكل متساو، فيما بعد شرحت للمفتش، المشاعر المشتركة للآباء المعاصرين. كانت قد تكلمت كثيرًا مع الفتى حتى بلغ الحادية أو الثانية عشرة، ولكن التحاور مع طفل، قالت، هو دائمًا الاحتباس فى لغة أخرى، تقريبًا فى بلد آخر، وتكون المحادثة ليست متبادلة حقًا أو تعبر بسوء فهم لا يحذر منه أى منهما. كانت تتحدث إليه كثيرًا عندما كان صغيرًا، كانت تذهب لتصطحبه من الحضانة وتعود وهى تتحدث إليه، الطفل الذى كان يبلغ سنتين أو ثلاثًا ويمسك بيدها ويرفع رأسه كثيرًا نحوها بينما يسير، كان سمينًا وبطيئًا، كأنه رسم كاريكاتيرى بعد عناية وتأمل. لكنها كانت قد بدأت تتحدث إليه قبل ذلك بكثير، فى الشهر الرابع أو الخامس من الحمل، من أول مرة شعرت به يتحرك بداخلها، بين الخوف والحنان، عندما كانت راقدة على ظهرها فى الظلام وهى تضع كلتا يديها على بطنها لتشعر بالحركات السريعة لكائن بشرى تحت سطح البحر، منغمس بشكل لا يمكن فهمه فى ذلك البحر البدائى بداخلها، يشكل جزءًا من جسمها مثل تدفق الدماء فى عروقها. كانت تتحدث إليه بصوت خفيض بينما كانت ترضعه، كانت تغنى له أغنيات غنيت لها عندما كانت طفلة وكان لهذه الأغانى قدرة آنية على تهدئته وجعله ينام، بدأت تعلمه كلمات وتقول له اسم الأشياء التى يشير إليها بإصبعه، بنفس الورع والصبر علمته بعد ذلك الكلمات المكتوبة التى تعلمها الطفل مبكرًا، دون أى جهد، يقرأ المقاطع وهو منحن فوق الأوراق العريضة للقصص أو يتوقف فى الشارع ليقرأ بصعوبة وببطء كل لافتة يجدها.

ولكن فى تلك الليلة كان من شجعها النبيذ عن التحدث عنه كثيرًا لم يكن ابنها، إلا فى نهاية الليلة، عندما شعرت أنها اقتربت من البكاء، إنها لن تستطيع السيطرة على نفسها. تحدثت عن الآخر، عن والد طفلها، عن زوجها السابق، الذى لا تعيش معه منذ اثنتى عشرة سنة مضت، تحدثت عمّن لم تكن

تعرف أنها تُكِنّ له كثيرًا من الحقد الدفين، وذكريات محددة لم تُمح، وإهانات لم يتمكن الزمن من محوها، ربما كان ذلك بسبب صمتها، وكبريائها العنيد، الذى دفعها لتخبئ الجروح الخطيرة كى لا تخضع نفسها للإهانة المكملة للشفقة. فقط يمكن أن تقول الحقيقة لشخص غريب تقريبًا: فقط فى هذا المكان كأنه يقع فى أرض لا أحد، خارج المدينة، بعيدًا عن الحياة اليومية، على ضفة نهر كانت ترى القمر يضيئها بينما تتكلم، فى زمن دون عواقب، دون تسلسل راوبط الزمن الذى ستستيقظ فيه فى اليوم التالى.

«كان من نوعية الأشخاص الملتزمين المعذبين» قالت، «لم يدرك أن الأشخاص، عندما نعتقد أننا مميزين نكون دائمًا تكرارًا لنمط ما، أو لنموذج بالأحرى يظهر فى كل عصر ويتغير، أو أنه يضيع نهائيًا بعد بضع سنوات؟ أنا، مثلاً. يمكن أن تستنتج كل كينونتى دون صعوبة كبيرة تقريبًا لنموذج: المعلمة التقدمية، المنفصلة عن زوجها ولها ابن، المنهكة من العمل مع الأطفال، وقد فقدت الرغبة فى التعليم، اقتربت كثيرًا من سن الأربعين لدرجة يبدو لى مناسبًا تقريبًا القول بأننى بلغت الأربعين فعلاً. حتى سيارتى والشقة التى أعيش فيها لا بد وأن تنتمى إلى إحدى الإحصائيات. أما من كان زوجى فكان ينتمى لنموذج آخر أو بالأحرى حتى نكون دقيقين كان خليطًا من نموذجين، من التقاء نموذجين: نموذج ملتزم، ونموذج معذب. الملتزمون حينذاك لم يكونوا يتعذبون؛ لأنه كان يبدو لهم من التفاهة ومن الصغائر الخاصة بالطبقات الوسطى سيطرة الآلام الشخصية، أمام أهمية التاريخ والصراع بين الطبقات. أما المعذبون فلم يكونوا ملتزمين، يحلو لهم الكحول والمخدرات أو التحليل النفسى لويليم ريتش أو تحلو لهم الأشياء الثلاثة فى آن واحد، وخاصة إذا كانوا فنانين، وبالتالى يمكنك أن تتخيل الحالة التى تظل

عليها أذهانهم[١]. بالنسبة لزوجي السابق لم تكن هناك فروق برجوازية بين الخاص والعام، كل شيء كان يُشكل جزءًا من التزامنا، والذى كان بصفة خاصة التزامه: عملى فى المدرسة، وورشة صناعة الخزف الخاصة به، اتحاد الجيران، أصدقاؤنا، الذين كانوا أصدقاءه ولم يكونوا أصدقائى، ما عدا المسكين فيريراس؛ لأنهم اختفوا وقت اختفائه. كان الطفل يمثل التزامًا وعذابًا فى الوقت نفسه: التزامًا عند منحه تعليمًا غير قمعيّ، وعذابًا من أن يمرض، أو ألا تكون اتجاهاتنا كآباء صحيحة وتسبب للأبناء عقدة نفسية. أولاً باسم الالتزام، أو باسم العذاب، لم يرد للطفل الاستمرار. لقد أصررت على المضى قدمًا فى الحمل، ولكن عندما جاء الطفل إلى العالم سرعان ما تحول هو إلى أكثر الآباء اضطرابًا وعصبية. لأى سبب كان يحمله إلى الطوارئ. كان يستيقظ ليلاً ليتأكد من أنه يتنفس خوفًا من أن يكون قد اختنق، كان يتشاجر بصوت عال مع الأطباء؛ لأنه لم يكن يثق فى أحد، أفترض، أنه لم يكن يثق، علاوة على ذلك، كانت لديه أفكار ثابتة عن كل شيء، أفكار ثابتة عن سقوط حائط برلين، عن عدم استخدام المضادات الحيوية. كان ضد الاثنين، أريد أن أقول ضد استخدام المضادات الحيوية وسقوط حائط برلين. قبل أن نتزوج كان مُصرًا على أن نكون نموذجًا للزوجين جان بول سارتر وسيمون دى بيفوار في: الإخلاص، الزمالة، الحياة المنفصلة... إلخ. لم أكن أقول شيئًا لأننى كنت شابة صغيرة وكنت مقتنعة بأنه دائمًا على صواب، بحيث إنه إذا لم يعجبنى أحد أرائه أو أفعاله كان هذا تحديدًا يتحول إلى دليل على خطئى».

---

(١) **ويليم ريتش** (١٨٩٧ـ ١٩٥٧): طبيب ومحلل نفسى من أصل نمساوى، عاش ومات فى الولايات المتحدة الأمريكية. (ت)

«عندما تعرفت عليه كان عمرى ثمانية عشر عامًا، لم أكن أعرف تقريبًا أى شىء، كنت أدرس دبلوم المعلمات لأنه مريح أو لأننى كسولة؛ لأنها كانت مرحلة دراسية قصيرة ولم تبد صعبة. وفى كل مساء عندما كان يأتى ليصطحبنى كان يضع راية الالتزام والعذاب الذى كان بالنسبة لى بصفة خاصة روتينًا لطيفًا من الملاحظات والمحاضرات، ورؤية للعمل. كيف كان يمكننى أن أخالف رجلاً كان يلتزم ويتعذب كثيرًا؟ كيف أقول له إننى كنت أترك قراءة الكتب حول التعليم التربوى الثائر الذى كان يكلف هو نفسه بالبحث عنها من أجلى، أو أن الزوجين المشهورين سارتر وبيفوار يشعراننى بالاشمئزاز، اشمئزاز فسيولوجى حرج جدًا بالنسبة لى، هى بغطاء الرأس ذلك حتى لا تغسل شعرها أبدًا، وهو بمظهر ذلك العجوز الشهوانى، بشفاهه المتدلية الرطبة وأسنانه المتعفنة؟»

«قواعد لكل شىء» قالت، وهى تتذوق النبيذ بمتعة شبه انتقامية، «كنا قد انفصلنا عن حياة آبائنا وعن قناعاتنا البرجوازية وكانت النتيجة العملية أنه كان لدينا قواعد أكثر من ذى قبل، أكثر تفصيلاً، وأكثر براجماتية، قاعدة لكل حركة ولكل لحظة فى اليوم مثل اليهود الأكثر تشددًا. مثلاً، الأبناء لا يجب أن ينادوا آباءهم ببابا وماما، يجب تلقينهم بأن ينادوهم بأسمائهم، ليعتادوا الصداقة ولتحريرهم من التسلط. لا أصدق ما بقى من كل ذلك، كأنى أكلمك عن العصر الحجرى. كان جميعنا مكبلاً بالقواعد، البعض بالكثير والبعض الآخر بالقليل، وكان لدى الملتزمين قواعد مختلفة عن قواعد المعذبين، ولكنه جمع بين النوعين، كأنه مثل القانون المدنى والقانون الجنائى، وحش فى التشريع، قاض، ووكيل النيابة وشاهد الإثبات فى الوقت نفسه، الملتزم والمعذب، الذى لا يترك نفسه للخداع، مثل الجميع، الخداع بحيل الديمقراطية الشكلية، أو بالانتقادات ضد كوبا أو فيتنام الشمالية. كنت أزداد عدم ثقة يومًا بعد يوم، أما هو فأكثر حزمًا، أكثر هدوءًا، مع تلك الابتسامة التى تشعر

بالخوف الشديد ممّن لا يخطئ أبدًا وكان يرى أخطاء الآخرين، وخاصةً، أخطائى، الأخطاء التى كانت تخصه هو حلها بصفة شخصية، كما كان يقال من ذى قبل، كان ذلك من نصيبه. أنا أميل بالفطرة إلى إعطاء الصواب لمن يتكلم معى، هو لم يكن قادرًا على التحاور دون مجادلة. وإذا جادل مع أحد لم يكن يرأف به. مع هذا الصوت العذب والمقنع الذى كان له، ومع لحية الملتزم وشحوب من هو معذب، أولاً يُحقر ثم ينزع السلاح بعد ذلك ويهين من يمكن أن يكون قد قال فى المحادثة أية تفاهة أو أن يكون قد سفّه به أحدًا من معتقداته الراسخة. كيف يمكن مخالفته أو الشك فى مبادئه إذا كان يتحدث بعذوبة دون أن يرفع صوته أبدًا، وهو هادئ وواثق بالقدر الذى يفقد فيه مخالفة السيطرة على نفسه لأنه كان يعبر فقط عن غضبه عن طريق ثبات مميز لابتسامته، عن طريق لكنة لا تزال عذبة وناعمة كأنه مجروح ورغم ذلك لا يفقد توازنه، لا يفقد هدوء المنصفين. أعتقد أنه لم يكن يقنع الناس، وإنما كان ينومهم مغناطيسيًا أو على الأقل كان يدهشنى، وأبقانى منومة جزءًا كبيرًا من شبابى، وحتى إلى وقت كبير بعد أن طُلِقنا. ودون أن أدرك كنت أرى نفسى فى عينيه، كان يحكم علىّ وفقًا لمبادئه، دون ضرورة من أن يشير علىّ بخطأ أو عيب أو أن يملى علىّ مرسومًا. كنت أضع أحمر شفاه شديد الحمرة وأرتدى بلوزة عارية الصدر وفى نفس المرآة التى كنت أنظر فيها إلى نفسى كان يظهر هو ليؤنبنى فى صمت».

«كنت برجوازية، آه كما كنت مسكينة؛ لأن والدى كان يعمل إداريًا فى بنك» كانت تبتسم، تترحم على نفسها فى تأمل، ببريق عذب وثمل بطىء فى عينيها وهى تتذكر ما كانت عليه بسخرية وعدم تصديق، دون حسرة، فقط الرغبة فى العودة إلى ما كانت عليه من ذى قبل ولن تفى بها الآن. «هو، على العكس، كان له ماض نظيف مثل ماضى مسيحى متأصل فى المسيحية: أبوه وأجداده صناع خزف، أصحاب حرف يدوية، وذلك كان الضمان الذى ينجّى من الضعف أو التفاهات الخاصة تقريبًا بالجميع وخاصة الجامعيين.

عندما كان يسأله أحد فى ماذا يعمل كان يجيب معلنًا عن مهنته كأنها اتهام قوى ضد أى أحد، أو كأنها حجة لا يمكن دحضها: صانع فخار. لم يكن انتهازيًا، ولا إنسانًا نظريًا، كان يعمل بيديه؛ ليتولى هو مسئولية ورشة أبيه طلبت أنا وظيفة هنا عندما نجحت فى المسابقة. وهكذا تركت مدريد وحياتى التى عشتها من قبل دون أن أتوقف كثيرًا عند التفكير فى الأمر، إما لأننى كنت أفكر من خلاله لأن هذا مريح أو كنت منومة، أو لأننى كنت أحبه أكثر مما يعجبنى أن أعترف أو أتذكر الآن. وصلنا هنا ليس مثل حديثى الزواج بل قليلاً مثل الرواد، مثل هؤلاء الرواد الصارمين والريفيين فى أفلام الغرب الأمريكى، أنا رائدة فى المدرسة ضد التسلط وضد الإدارة، وهو رائد صناعة الفخار الشعبى لأرضه، لعلامات هويته الثقافية، أتخيل أن القصة معروفة. أعتقد أنه فى الواقع أحضرنى هنا ليعيد تربيتى، مثل أولئك المدرسين أو العلماء الصينيين الذين يعاقبونهم بالذهاب إلى محافظات ريفية ليعملوا عمالاً. أفهم الآن أنه لم يكن هناك مهرب: كنت برجوازية وكنت من مدريد، وكان هو من قرية من الطبقة العاملة، صانع فخار، ليس أكثر، كان قمة العمل اليدوى والثقافة المتصلة به».

«ولكن عندما ولد الطفل كان قد وصل الالتزام والعذاب والقواعد لكل شىء إلى الذروة». لم تكن تستطيع الكلام عن مولد طفلها أو سنوات طفولته الأولى دون نوع من الابتسامة الداخلية تضىء عينيها. «الترمومتر دائمًا، الضيق من أن يصاب بمرض خطير، من أن يكون ولدًا كفيفًا. والقواعد: لا يجب أن ينام على ظهره فى المهد لأنه إذا تقيّأ يمكن أن يختنق، إذا بكى كثيرًا عندما لا يكون موعد الرضعة لا يجب أن أهدهده ولا أن أحمله بين ذراعى حتى لا يعتاد ذلك. قبل وضعه للاستحمام يجب التأكد من أن درجة حرارة الماء معتدلة. قبل أن يولد الطفل لم يكن أحد معذبًا إلا هو بسبب عدم مناسبة وصوله. ولكنه ولد وحدث أن تحول هو لأكثر الآباء انتباهًا

ووسوسة، كأن هناك بطولة فى حب الطفل وفى السهر بسبب مرضه وسيحصل هو دائمًا على أعلى الدرجات. أما أنا فقد جعلنى أشعر بمنتهى السهولة بذنب الإهمال: كنت أنام جيدًا، لم يجافنى النوم لأفكر فى أنه من الممكن أن يكون الطفل قد أصيب بأزمة قلبية، لم أكن أكلم الطوارئ بصوت متقطع إذا ارتفعت درجة حرارته إلى تسع وثلاثين. وإذا أهمنى شىء بدرجة كبيرة أبذل ما هو ممكن لأخفيه. كان لا يمكن تجاوزه فى عرض وظهور عذاباته الأبوية ولأنه لم يكن يثق فى أحد وكان غير قادر على أن يرى من يخالفه فى الرأى على صواب، كان يجادل طبيب الأطفال الذى يقول له إن الطفل لا يعانى من شىء، أو كان يطلب فى الحال كتاب الشكاوى، بالطبع كان مهذبًا دومًا، لا يرفع صوته، وجهًا شاحبًا لأب مضطرب، لمواطن يطالب بحقوقه بصرامة. كان يعرف كل اللوائح، كان يفحص المواد الحافظة للعلب، كان يقرأ بالكامل نشرات الأدوية وإرشادات الأجهزة؛ لأنه لم يكن يثق لا فى الأطباء ولا فى العمال. ولم يكف أبدًا عن الالتزام ولا عن العذاب، كان البطل والشهيد فى آن واحد، لينين وجان دارك، القبضة المرفوعة وتاج الشوك. كنت أخرج مساء من المدرسة وأذهب لأساعده فى الورشة. بدأ يأتى أيضًا اثنان من أصدقائه حيث كانا يعيشان معًا منذ وقت قصير: فيريراس وباكا، كانا يتناولان العشاء معنا، كانا يأتيان إلى منزلنا ليستمعا إلى الأسطوانات لأنه لم يكن لديهما جهاز لسماع الأسطوانات. عرف فيريراس فى المدرسة الثانوية. كانا يتجادلان كثيرًا لأن فيريراس كان وقتها ليبراليًا بل ماكرًا عندما تراه الآن لا يمكنك أن تتخيل، كيف أصبح جادًا، كان شعره طويلاً وكان يسير دائمًا وهو يدخن الحشيش. إذا قالوا لى حينئذ إنه كان سيصبح طبيبًا شرعيًا كان سيبدو لى مستحيلاً ولكن تقريبًا كل الأشياء التى حدثت بعد ذلك بدت لى مستحيلة. كانت باكا تختلف عنه، فتاة عاقلة وكأنها مذعورة، كانت تعمل إدارية فى التأمين الاجتماعى، مما سمح لها بدعم الليبرالية الفارغة لخطيبها، الذى لم يكن ينهى أبدًا دراسة الطب. كانت قد

ساعدتنى فى استخراج الأوراق لولادة طفلى، وعندما ولد ابنى كانت تأتى كثيرًا لرؤيتى، كانت تتطوع أن تبقى معه كى نتمكن أنا وزوجى من الخروج ذات ليلة. أحببتها كثيرًا، لم أكن أستطيع أن أكف عن حب أى شخص كان لطيفًا معى، بالإضافة، بعيدًا عنها، لم أكن أعرف تقريبًا أى امرأة أخرى فى المدينة، استبعدت زميلاتى فى المدرسة؛ حيث كان كلهن أكبر منى سنًا. عندما كان يتحدث زوجى كانت الوحيدة التى لا تخالفه فى الرأى حتى لو أخذت جانبه فى جداله مع فيريراس، وكانت هذه المناقشات دائمًا سخيفة مثل مباريات التنس تلك التى كانوا يبثونها فى التلفاز. لم أشك فى شىء. لو كنت قد شككت فيهما لحظة لكنت قد خجلت بشكل كبير من نفسى. كنت أصل مساء إلى الورشة وأراها وقد وصلت قبلى، لم تكن تذهب مع فيريراس، ولم يخطر على بالى التفكير فى أى شىء سيئ».

«أتعرف أسوأ ما فى الأمر، أسوأ شىء لا يمحى مع مرور السنوات؟ الإحساس بالسخف، الإحساس بالمهانة من أننى خُدعت بسهولة كبيرة، بسبب غبائى، ليس حتى بسبب براءتى، مثل الريفى الذى يخدعونه لدى وصوله إلى العاصمة. كنت قد لاحظت أن زوجى كلما مر الوقت أصبح غريبًا، كنت أعتقد أن كل هذا بسبب الالتزام والعذاب، كعادته، الضيق بسبب الطفل ومشاكل الورشة التى لم تكن تسير بشكل جيد، دائمًا بسبب آخرين، بسبب الزبائن أو الموردين. قائمة الخائنين والأعداء والأغبياء لا تتوقف عن الازدياد. هو من هؤلاء الأشخاص الذين يشكون دائمًا من هذا البلد، كما يقولون هم، هذا البلد سلة مهملات، فى هذا البلد لا يوجد جدية، هذا البلد ليس له مخرج: كان هو بمفرده فى مواجهة البلد بأكمله، ضد هذا البلد، وأيضًا ضد مافيا التوزيع، ضد تجار الجملة، ضد موردى الصلصال ومحال المشغولات اليدوية، أو أن يكونوا كلهم ضده، كل ماكينة رأس المال العالمى ضده. عندما كان الطفل صغيرًا كنت أنا لا أذهب كل الأمسيات إلى الورشة

ولم أتوقف عند كونه لم يعد يطلب منى ذلك مثل ذى قبل عندما كنت أذهب لأساعده. كان يصل متأخرًا، وهو شديد التعب، خامد الهمة، ينام بشكل سيئ، كان يمكث فى السرير مستيقظًا، معذبًا، يبدو معذبًا بحيث سيعد الاقتراب منه بنية إقامة علاقة حميمية تفاهة، لم يكن ليشعر بالإهانة أو بمطاردة رجولته، أو معذبًا بعذاب إضافى لعدم وفائه بواجباته كزوج. كل يوم يبدو أكثر شحوبًا، وجهه من الشمع، حتى صوته من الشمع، صامتًا على الطعام بينما أنا أقدم له العشاء، أصبح أكثر حساسية بحيث لا يأكل أبدًا، أكثر صرامة، وأيضًا مكبلاً بالقواعد، وبالخبث ليدخر، وكلها تعتمد دائمًا على مبدأ أن لا أحد يخدعه: كان يجب شراء لحم بقرى بدلاً من لحم العجول، لحم بقرى وشرائح كبد، وكنت أموت من القرف، وهو يبتسم لى ويقول: إن هذا يُظهر تعليمى البرجوازى وميلى للاستهلاك لأن الكبد رغم أنها رخيصة تغذى أكثر من شرائح لحم وأن اللحم البقرى أفضل كثيرًا من لحم العجول، وأن ما يحدث هو أنه فى هذا البلد لا أحد يعرف كيف يأكل. إنه خبيث، خبث هؤلاء الذين يجدون العيوب فى هذا البلد، غريب أنهم لا يذهبون إلى جرونلانديا أو كاليفورنيا أو كوريا الشمالية ولا يرجعون. لحم كبد مشوى، دجاج بدلاً من سمك موسى، سمك القرش بدلاً من سمك الطيار، لحم خنزير اليوركشيرى الرخيص: كان الذهاب معه للشراء فقرة فنية، دائمًا نشترى أسعارًا ونركز على تاريخ الصلاحية وعلى الألوان والمواد الحافظة، لم يكن يخدعه البائع، إذا طلب مائة جرام من شىء ووضعوا له مائة وعشرة كان يطلب بصوته العذب أن ينقص الوزن وأنه يعرف بالضبط ما طُلب وكان يقول ذلك بابتسامة مهينة كأنه يريد أن يُعرف البائع أنه لا تنفع معه هذه الألاعيب. لم يكن الأب المثالى فقط وصانع الفخار المثالى إنما كان أيضًا المستهلك المثالى، مشترى لحم خنزير اليوركشيرى وهو واع تمامًا، حيث إنه لم يكلفه شيئًا أن يتحول بعد ذلك بقليل إلى الزوج الخائن المجادل، إلى الشهيد المثالى عند صراعاته الشخصية جدًا. بعد أن مر عام على خيانته لى ولصديقه مع

تلك الفتاة التى فتحت لها بيتى، ظهر ذات يوم بوجه معذب جدًا وذات التزام أكثر شحوبًا عن أى وقت آخر، وبصوت أكثر عذوبة، ووجه شمعى بدرجة كبيرة، أخبرنى أنه لا يشعر بالانسجام مع نفسه وعليه أن يتركنى ويترك الطفل».

كانوا قد قدموا لهما طبق الحلو، ولكن كان لا يزال بالزجاجة قليل من النبيذ. قسمه المفتش على كأسين وعندما أخرجت سوسانا سيجارة أسرع ليشعلها لها. لأول مرة يشعر خلال الشهور الأخيرة بإغراء حقيقى فى التدخين. ولكنه سرعان ما تغلب عليه، كان يفضل أن يراها تدخن، وهى تتمتع بسيجـــارتها مدركة ذلك تمـــامًا مثل الاستمتـــاع بارتشاف القطرات الأخيرة من النبيذ.

«ولكن بعد أن مرت الشهور الأولى من المهانة والوحدة، ما فعلته، دون أن أخطط له، كان أن بدأت الاستمتاع بالحياة التى تركته يخطفها منى، لم يكن فى قناعاتى، التى هى فى النهاية مجردة إلى حد كبير حتى أهتم بها فعلاً، بل الاستمتاع بعاداتى، بذوقى وهواياتى الشخصية. عدت أضع أحمر الشفاه وأطيل أظافرى وأطليهما باللون الأحمر، قصصت شعرى بشكل صادم وصبغته بلون أسود قاتم، عدت لأشترى بلوزات من الحرير، وتنانير قصيرة وصندلاً ذات كعب وفساتين ضيقة، ليس لأغزو أحدًا ولا حتى لأغريه، حيث لديه أو كان لديه ذوق بلا طعم تمامًا فى هذه الأشياء مثل ذوقه فى الطعام، وإنما لأنقذ نفسى حيث كنت قد نسيت نفسى، لكى أرى نفسى فى المرآة مثلما كنت أفعل عندما بدأت أضع أحمر الشفاه وأرتدى ملابس جديدة وكان عمرى سبعة عشر عامًا. وهكذا أنقذت نفسى، أعيد بناء نفسى بمفردى، وهذا يعنى، مع ابنى، أننا الاثنان فى هذه المدينة التى ليست مدينتنا. كنت أتركه مع فتاة، ثم فى دار حضانة بعد ذلك وكنت أخرج من المدرسة مهرولة كى أصل فى الميعاد لأقله، لم أكن أفكر فى شىء سواه، لم أكن أريد التفكير فى شخص أو فى شىء آخر. الآن أفكر؛ كان يمكن أن تكون حياة نموذجية، ولكن تبقّى

هو، والد ابني بالتزامه وعذابه الذى كان قد رحل مع أعز صديقة لى ولكنه كان يعود أحيانًا بوجه الشهيد، أو كان يتصل بالتليفون ليتكلم مع الطفل، ليسأله إذا كان يريد أن يعود أبوه وأمه معًا، إذا كان يريد أن يصبح الثلاثة معًا مثل ذى قبل. يعود ويذهب من جديد بصليبه المعلق لخائن متماسك، يسارى مزواج، كان يقول لى بتلك الفظاظة التى كان يسميها صراحة إنه لم يعد يحبنى؛ لأنه وجد مع باكا الإشباع الذى لم تزوده به علاقتى معه، وبعد أن يهيننى بذلك الصوت العذب ويجعلنى أفهم أننى كنت تقريبًا شيئًا تافهًا، بلا قيمة وأن علاقتنا كزوجين فشلت بسببى ــ كانوا يستخدمون هذه الكلمة كثيرًا، الزوجين، وأنا كنت أفكر دائمًا فى زوج من الثور أو فى زوج من الشرطة المدنية ــ، عاد واتصل بى بعد مرور أسبوع وقال لى وهو معذب إنه يمر بوقت سيئ أسوأ بكثير من معاناتى، بالطبع، قد أدرك حينئذ أن حياته كانت نحن، أنا والطفل. كنت أنا متعبة لحد ما، وإذا لم أجبه أو إذا جعلته يفهم أننى أشك، بعد التجربة التى عشتها معه، كان سرعان ما يغضب منى، وبهذه القدرة التى لديه فى التحول ويشعر بالإهانة فى لحظة: "ماذا بك، ألا تثقين بى، أتعتقدين أننى أتلاعب بك أو أن هذا الموقف لا يؤلمنى كثيرًا بقدر ما يؤلمك؟". هذا نعم، ما لا يسامح عليه أحد، أن يحاول أحد أن يخلع عنه ميزة أنه أكثر المعذبين، أن ينزع عنه قائمة تاج الشوك. وأنا، مثل الحمقاء، منومة من جديد، بلا كرامة، لأن من تكون له كرامة عندما يُخدع، أسمح له أن يعود لأن قلبى كان يتمزق عندما يبدأ من سيكمل عامه الثالث فى البكاء ويسأل عن أبيه، كل ليلة، عندما يحين وقت النوم».

«عاد وفى الحال يفحص وينظم كل شيء، خزانة ملابسى وعملى فى المدرسة، غذاء الطفل، صحة الطفل، اللعب التعليمية التى تلائمه لتطور جهازه الحركى أو النفسى أو ذكائه، واللعب غير المقبولة. على الجانب الآخر، حتى كان له فى الفراش، فى ليلة أو ليلتين، عشق، لم يكن معهودًا عنده. لكن ظهر أن الفترة لم تدم كثيرًا وبدلاً من أنه كان يعانى من غياب

ابنه وزوجته بدأ يعانى من غياب حبيبته، أو صاحبته وفى بعض الليالى كان ينزل إلى الشارع تحت علة بلا معنى. كان متعاليًا بشكل أكثر من اللازم ليجيد الكذب. وأفترض أنه كان ينتهز الفرصة ليهاتف صاحبته من كابينة تليفون مثلما فعل فى ليال آخر معى. دائمًا مغتم، معذب، شاحب، ملتزم مع تماسكه، دائمًا يكذب ويصبح عنيفًا عندما لا تُقبل أكاذيبه، يكذب فى الوقت نفسه على زوجه، على حبيبته، على ابنه، يُحمِّل الثلاثة حمل معاناته وفى الوقت نفسه يستمتع بمميزات الزواج والخيانة، بالصراحة التقدمية وخداع الحياة بأكملها، يستمتع بالأبوة وبالعزوبية. وصلت أوراق الطلاق الذى كان قد اجتهد كثيرًا ليعجل به، وعندما حضر إلى البيت كى أوقعها كان شاحبًا أكثر من المعتاد وما زال صوته أكثر عذوبة وفى عينيه نظرة عذاب شديدة بينما يرى الطفل يلعب على الأرض. قلت له "هيا" متمنية أن يرحل فى أسرع وقت "قل لى أين أوقع؟" وظل هو حينذاك ينظر إلىّ بأفضل وجه ضحية على الإطلاق، ضحية متهمة، بالطبع: "لم أتخيل أن تكونى قادرة على كل هذه اللا مبالاة". لم تكن هناك فائدة، لم أكن أعرف كيف أدافع عن نفسى أمامه، دائمًا كان يرتب الأمر ليتركنى منهكة من الندم».

«إذا كان قد ذهب حقًا، إذا كان قد مات حينذاك، إذا كان على الأقل قد اختفى من حياتنا» لم يكن النبيذ فقط، ولا الإحساس الآنى بالهروب والحرية اللذين استوليا عليها بمجرد أن أدارت السيارة وبدأت القيادة صوب ضواحى المدينة وهى تستمع إلى بول سيمون: كان سلوكه أيضًا هو ما حفزها على الكلام، الصمت فى صبر والاحترام الذى كان يستمع به إليها وهو هادئ أمامها، أبوى بشكل محير رغم أنه لا يكبرها إلا بعشر أو اثنتى عشرة سنة، بشعره الأشيب ووجه كأن الزمن عاقبه أو خاض تجربة طويلة جدًا من العزلة والألم، وجه أبوى وليس به حماية فى الوقت نفسه، ينظر إليها بعينيه

الرماديتين والمنتبهتين، اللتين من حين لآخر يكتسبان تعبيرًا غائبًا، من القلق المفاجئ، من التوتر لسبب ما.

«لأنه رغم كل شيء، أقسم لك، لا أعتقد أنه لم تكن توجد امرأة أكثر سعادة منى مع طفلى فى تلك السنوات. لم يكن معى مال تقريبًا؛ لأن الجزء الأكبر من راتبى كان يذهب فى تسديد قرض الشقة التى كان قد ورطنا فيها زوجى بوقت قليل قبل أن يقرر أنه لا يمكننا أن نظل نعيش معًا. لم يخدعنى فحسب بل نصب علىّ أيضًا، بصوته العذب مثل أصوات العسكريين المتشددين وبوجهه المعذب، استبقى السيارة، لأنه طبقًا له يحتاجها أكثر منى، ولكن ظلت الأوراق تأتى على حسابى، واستمررت فى تسديدها مثل الحمقاء، لأتجنب ملل مناقشة أخرى منهكة معه، كى لا ينتهى بى الأمر بالشعور بالذنب، مثل المعتاد، زوجة سابقة انتقامية تطارد زوجها الذى يعانى من مشاكل اقتصادية. كان معذبًا بسبب ابنه وملتزمًا بتعليمه، ولكنه كان ينسى دائمًا أن يدع لى المصروفات الشهرية، ولم يكن لدىّ جهد كى أطالبه بها. لكننى لم أكن أريد ماله. ما كنت أريده هو أن يتركنا لحالنا، ألا يعود يربك ابنى ويعطيه وعودًا كاذبة، ألا يستمر فى استخدام كل منا كشاهدين على حياته المعذبة. رغمًا عنه وعن نقص المال، فجأة أصبحت سعيدة، كأننى شعرت فجأة بأننى قوية وشابة مع ابنى، هو يغذينى، وجوده يقوينى، كنت أكتشف الأشياء فى الوقت نفسه الذى يكتشفها هو بجانبى، بعينيه الكبيرتين والعميقتين، كان ينظر إلى كل شىء بثبات وهو صغير بحيث لا يرمش. كان يذهب معى يمسك بيدى والسكاتة فى فمه، كان يزيلها ليشير إلى الأشياء ويسألنى: "ما هذا؟". كنت أذهب لأصطحبه من الحضانة وعندما يرانى كان يأتى إلىّ مهرولاً من فوق السجادة، متعثرًا بحذائه الذى اشتريته له. إذا كان يعجبنى جدًا شراء ملابس لى تخيل كم كان يعجبنى شراء ملابس له!. كان يحتضننى وهو يتنفس بقوة من أنفه بخديه الساخنين المستديرين الملتصقين بوجهى. كل ليلة كنت مضطرة أن أقرأ له أو أحكى له قصة وأظل بجانبه

حتى ينام، يجعلنى أعده بذلك. دون أن أدرك، فى أحيان كثيرة، بعد أن أطفئ الضوء، كان ينهض بينما أنا أقرأ أو أشاهد فيلمًا فى حجرة المعيشة، وعندما أذهب لأرقد كنت أجده نائمًا فى سريرى».

كانت تقود السيارة فى طريق العودة إلى المدينة، من جديد مع مظهر عملى وقليل من الصرامة التى تمنحها النظارة، الآن دون موسيقى، أقل انغماسًا فى الخطوط البيضاء للطريق وفى ضوء أعمدة الإنارة التى بعد تذكر تدريجى كفت عن أن تكون سعيدة، أكتسبت بداية من فقدان الهمة الذى ربما يكون له علاقة بتقليل تأثير النبيذ وبخمود بسيط بسبب العودة. بجانبها، لاحظ المفتش أن شيئًا يصيبها، تحولاً سريعًا ومطفئًا فى حالتها النفسية، لكن ينقصه التألق الضرورى كى يبحث ماذا كان، وعلى كل حال يعرف أنه أحمق كى يعطى أى نوع من العزاء. كان ينظر إليها فحسب، كان يسمعها تتنفس، والآن ليس عليه أن يبعد عينيه لأنها لا تلتفت نحوه، كانت تركز عينيها على الطريق، الذى يهبط نحو البيوت الأولى للمدينة. عند الخروج إلى منحنى أزاغت عينيهما سيارة كانت آتية أمامها، وسوسانا، كانت فى هذه اللحظة تتحسس بحثًا عن منديل ورقى فى صندوق السيارة، كان عليها أن تدير المقود دائرة سريعة وكبحت فجأة عند حجر الرصيف، عند حافة جانب من زراعات الزيتون. توقف الموتور، وهى، التى كانت ستشغله من جديد، تركت يديها تسقط ورجعت للخلف وهى تتنفس بعمق، فى سلوك مفاجئ من التأمل. «والآن بعد أن بلغ ١٤ سنة قرر أننى لا أفهمه وأن الحياة التى أوفرها له لا تعجبه، وأننى متسلطة، ألزمه بالكثير، وأنه من الآن وصاعدًا يريد أن يعيش مع أبيه. يجب أن يكون بطله، زميله العظيم، أتخيل، النذل الحقير، لم يكن مضطرًا أن يأمره بشىء ولا أن يكرر له عشر مرات أن يعمل الفروض المنزلية، الأب الصديق، الملتزم، المعذب، انتظر عشر سنوات حتى ينتزع منى ابنى أيضًا».

١٩

نهض مبكرًا، شجعه الإحساس بصباح بارد ومشرق تأكد له بمجرد أن أزاح جزءًا من ستار غرفة النوم وهو ينظر بشكل غريزى إلى الرصيف الآخر من الشارع حيث لم يكن هناك أحد وكانت البوابات مغلقة والستائر المعدنية للمحال مسدولة. صباح مشرق من أصبحة نوفمبر، أكثر إشراقاً خاصة فى تلك الساعة، التاسعة من صباح يوم الأحد، دون مرور، ودون سرعة، دون عجلة على شىء، لأن لديه فائضًا من الوقت، يكفى ليخرج من المدينة فى العاشرة ليكون على باب المصحة أو الدار كما يسمونه الآن فى الحادية عشرة، رغم أنه كان نفس المكان الذى يتذكر أنهم كانوا يسمونه مصحة للمجانين. كانت الكلمات تبعث على الخوف وكى يتجنبوه بحثوا عن كلمات أخرى ولكن سرعان ما عاد الخوف يتسرب إليها، وكان لا بد من تركها مرة أخرى واستبدالها بكلمات أخرى، بكلمات غير مستعملة يمكن معها المتاجرة بسهولة جدًا بالجبن أو الكذب، والخوف، والتخفى. فى الشمال، يسمون جرائم القتل من قبل المأجورين التى تمارس ضد أشخاص يستحقون كل الاحترام صراعًا مسلحًا، ويسمون الإرهاب، بشكل مجرد، عنفاً، ويسمون إطلاق النار على رأس شخص ما مهمة. على نفس الشاكلة، لم تكن زوجته محجوزة فى مصحة للمختلين عقليًا، ولا حتى فى مصحة، وإنما محتجزة فى دار، ولكن الدار كانت فى نفس المكان وتحمل اسم مصحة المجانين القديمة، الذى وفقاً للأب أوردونيا سينتهى إليها تلاميذ المدرسة الداخلية إذا لم تكبح غرائزهم القبيحة:

- في مدرسة "نويسترا سنيورا دى لوس برادوس" ستنتهون أنتم بأن ترتدوا قميص المجانين.

وكان هو يتخيل وقتها، يحمسه فقط اسم المكان، مبنى أبيض، ما بين مصحة ومبنى كنسى، يحيط به حشائش شديدة الخضرة وأشجار كبيرة يمشى تحتها المجانين مربوطين فيما بينهم عن طريق ذراع قميص المجانين. لقد حملوا قسًا بنفس هذا الشكل من المدرسة: قسًا ضخم الجسم عملاقًا ولكن جلده طرى، وعينيه جاحظتان، ألبسوه قميص المجانين فوق عباءته وكان يزمجر مثل العجل عبر الردهات بينما يجرجرونه مربوط اليدين، كانت التنانير السوداء تبرز بشكل غير متجانس أسفل قماش قميص المجانين بينما ظل كل تلاميذ الداخلية محتجزين فى غرف النوم بأمر واضح من رئيس المدرسة. لم يكونوا يريدون أن يرى أحدًا ذلك القس الذى جن، ولكن هناك من استطاع أن يراه، أحد التلاميذ الكبار، من لديهم الجرأة، الذين لا يطيعون ويتجرؤون مغامرين بتعرضهم للجَلد، أحد هؤلاء الطلبة خرق الممنوع ونظر من أحد فتحات الأبواب شبه المغلقة، أو عبر شباك عال رأى فى الصحن أجساد رجال الدين الذين يرتدون الأسود ويرتدون الأرواب وتجمعت طواقى المجانين البيضاء بجانب عربة النقل أمام حواجز يدفعون باتجاهها القس الذى كان أضخمهم وأقواهم، يصبح وديعًا فجأة، ثم يزمجر مثل الحيوان، مثل الثور يضرب برأسه فى الأبواب المعدنية شديدة الصمت أمام ألواح الحاجز أو حواجز الحظيرة.

- الأب ألونسو - تذكره الأب أوردونيا دون صعوبة، بعد وقت طويل، لا يزال غير مرتاح؛ لأنه كان يفضل ألا يتذكره المفتش - حُفظَ سرًا الاختلال العقلى، حتى نحن كنا ممنوعين من الكلام عنه. مات فى "لوس برادوس" دون أن يسترد عقله مطلقًا. لعل الله يرحمه. لا أحد يحتاج رحمة الله أكثر من الأب ألونسو.

- ولكن ماذا فعل، لماذا حملوه؟

تأخر الأب أوردونيا قليلاً فى الإجابة: بعد سنوات كثيرة لا يزال يعنيه كسر الصمت الذى يحمى به بعض الموتى فحسب.

- خطف طفلاً واغتصبه، أحد أطفال الفقراء غير أطفال الداخلية الذين كانوا يتعلمون الدين. كان يتحدث وهو مطأطئ الرأس، يتجنب، عكس عادته، نظرة المفتش. سحق رأسه. كان لأسرته نفوذ قوى، وأصل. وافقوا على أن يدخلوه المصحة حيًا ليمنعوا فضيحة إصدار حكم ضده. ذلك الطفل سيكون الآن فى مثل عمرك تقريبًا. لا أزال أقابل والده بعض المرات فى الشارع. لعله تجاوز الآن السبعين بكثير، لكنه أكثر شيخوخة منى، يمكن قول هذا. أنظر إليه وأفكر فى أنه ربما لا يزال يتذكر ابنه.

أعد لنفسه إفطارًا سريعًا فى المطبخ الذى لا يمس، لأنه لا يستعمله تقريبًا أبدًا إلا إذا أعد قهوة أو سخن فى الميكروويف طبقًا شبه معد آنفًا، يتناول العشاء بعد ذلك وهو سرحان أمام التلفاز ومعه كوكاكولا أو كوب ماء. بينما يتناول الإفطار وهو واقف، بعد أن يستحم لتوه، وقد حلق ذقنه وارتدى ملابسه، بلا ربطة عنق، وقد ارتدى بنطلونًا من قماش غليظ وسترة صوفية كبيرة، كان يستمع إلى الراديو بهدف واضح: معرفة أخبار الطقس. عند هبوط المساء ستعود وتمطر. عند خروجه رأى نفسه فى مرآة حجرة الاستقبال، وتذكر بشىء من الإعجاب ما كانت قد قالته له سوسانا جراى: عن أن ملابسه تعطى انطباعًا بأنه قادم من الشمال. كانت قد سألته سؤالاً تسبب فى تشتته والآن يسأله لنفسه: قد سألته كيف هو منزله؟ ولم يعرف كيف يجيب. منزل عادى، قال، مثل كل البيوت، ولكن الحقيقة هى أنه لم يمعن النظر أبدًا فى المنزل، لا فى الأثاث، ولا الستائر ولا فى اللوحات التى اختارتها زوجته منذ سنوات ونقلت الآن من بلباو. بعدم استعداد للرفض والخجل فكر بشكل خاطف فى إمكانية أن ترى سوسانا وتحكم على منزله.

رأى ما كان ممكنًا أن تراه هى، نوعًا من السوقية الغامضة التى لم يكن قد توقف عندها حتى الآن، منزلاً لا يوجد فيه حتى صور لها إطار فوق خوان السرير أو فوق قطعة أثاث توحى بملمح شخصى واحد، مثل تلك الصور المألوفة بشكل خيالى الموجودة فى محلات الأثاث. كان يحافظ عليها نظيفة جدًا، دائمًا كان يدخل بيته ليلاً وكان يبدو له أنه يجهل بيتًا لم يعش فيه أحد حتى الآن.

فى الجراج، بمساعدة فانوس، كان يفحص أسفل السيارة، ثم أسلاك نظام الحرائق، الأقفال، أسفل مقعد القيادة. على ناصية الشارع كان هناك سيارة متوقفة فوق الرصيف حيث يتذكر أنه لم يرها من قبل: سجل ماركة ورقم السيارة، ونسى فى الحال السيارة. اشترى من أحد الأكشاك باقة الزهور التى يشتريها كل أحد دون أن يمعن النظر فيها كثيرًا. كان للشوارع المحيطة بالمدينة فى هذه الساعة مظهر شبحى، ظلام رطب من مبانٍ عالية أكثر من اللازم وقريبة من بعضها لدرجة أنها لا تسمح بدخول الضوء المعطر لصباح الأحد. كان هناك براميل كبيرة من القمامة فوق الأرصفة، وكلها تقريبًا فارغة، يسقط من بعضها أكياس البلاستيك وقمامة مبعثرة حولها، بقايا معتادة من جلبة ليلة السبت، مثل حفر القيئ وسلات القمامة المنتزعة والمحروقة. كان يرى نفس المشهد كل أصبحة الأحد، فى الساعة نفسها، عندما يخرج بالسيارة ويتذكر أحد تصريحات فيريراس الأليمة: "لا أفهم معاصرىَّ. لا أفهم من هم يشبهوننى".

ولكن عدم الفهم يؤثر عليه بدرجة أقل من فيريراس أو من الأب أوردونيا، حتى أقل من سوسانا جراى. بالنسبة للأب أوردونيا بدلاً من أن تحل به الشكوك التى تعتريه يجعلها الدين أكثر ظلامًا: لا يفهم الخوف والانفجار والقسوة فحسب، بالإضافة إلى ذلك لا يرضى فى داخله أن يسمح الله بها. بالنسبة لفيريراس، فهو يسارى ملحد، تربى ونشأ على قناعة الطيبة

المتأصلة فى البشر، وكان الشر يظهر فى النفس الأكثر فزعًا والبعيدة عن التأمل وعن الإرادة مثل تكاثر السرطان فى خلية حية صحيحة. كان يبحث فى الوقت نفسه عن تفسيرات بيئية ووراثية، ولكن كل لغز مفسر بشكل جزئى كان يقود فقط إلى لغز آخر قبله أو صوب خطأ محض للقدر: مجموعة محددة من الرجال ليست بالكبيرة، بمرور الوقت سيصاب أحدهم بالسرطان أو بتليف الكبد، أحدهم سيرتكب جريمة، سيقتل زوجته فى موجة غضب، سيغتصب طفلاً، سيخنق طفلة عمرها تسع سنوات بعد أن يغرس سروالها الداخلى الممزق فى حنجرتها.

يسيطر على سوسانا جراى فهم لماذا ابنها الذى ربته وعلمته هى بمفردها طوال سنوات كثيرة يختار أن يرحل الآن ليعيش مع أبيه. ما هى الأخطاء التى ارتكبتها؟، ما هو الذنب الذى لا تدركه والذى تكفر به هذا الهجران؟، بدا لها بعد وقت كبير تتويجًا تهكميًا لعدم الوفاء للآخر، الزوج السابق، الأب النموذجى الآن، المحاور من جديد، المتورط مع مراهقة ابنه والمعذب بشكل مناسب بسببها.

دون أن يتوقف ليفكر فى ذلك طويلاً استنتج المفتش أن جميعهم يذهب للبحث عن أشباح. ربما لا يكون الفهم ضروريًا، ولا حتى يكون ممكنًا جدًا، أو أنه فى الحقيقة لا يوجد الكثير الذى يمكن فهمه، أبعد كثيرًا من الدليل الجلى عما كان يحدث، ليس فى الخيال ولا فى لا وعى أحد، وإنما فى الخارج المرئى للأشياء وللأعمال، فى وضوح الشمس، تحت بؤرة قوية، أو ميكروسكوب. لا يحتاج طفل للفهم حتى يقبل: هو لم يفهم لماذا كان قد اختفى والده فجأة، ولماذا كانت أمه تمضى الليل تحيك وقد احمرت عيناها من ضوء القنديل، أو لماذا ذات ليلة شتوية وضعوا له فوطة وحلقوا رأسه وجعلوه يركب قطارًا كان يبعث أعمدة من البخار فى محطة أتوتشا!.

كان ممكنًا لو أن زوجته، فى الفترة الطويلة التى خضعت فيها لاختلال الوظائف العقلية والصمت، قبل الأزمة الأخيرة، الانتقال إلى المصحة، كانت قد قررت سرًا أنها لن تفهم كثيرًا، ولن تحاول أن تفهم، ولا أن توجه المزيد من الأسئلة، ولا أن ترغب فى أى شىء سوى أن تظل هادئة فى حجرتها ذات الستائر المزهرة التى تخفى نافذة من الحديد - تمد ذراعها عندما يحين موعد الحقنة، تبلع بطاعة الأقراص التى تحضرها لها الراهبة، ثم زمت شفتيها بعد ذلك وتطأطئ رأسها، كما كانت تفعل بعد التناول.

خرج من المدينة عبر الطريق الغربى، الذى يبتعد عن الأسوار وعن ملاعب مدرسة اليسوعيين الداخلية، التى تحولت الآن إلى مساكن عمرانية مكثفة. عندما كان صغيرًا، لم تكن تمر تقريبًا أى سيارات من هذا الطريق، وكانت محاصرة من صفين لأشجار الداردار التى كانت تطول حتى تضيع فى المسافة لأول تلال بها أشجار للزيتون. المتوازية عبارة عن خطين مهما طالا لا يتقابلان أبدًا: الأب أوردونيا والعصا فى يده يحدد بوصلة التكرار فى جماعة، ثم هو بعد ذلك، فى أمسيات التنزه يتمشى فى صف من اثنين أسفل ظلال شجر الداردار، كان يرى أغصانها وأوراقها تبتعد وتتجمع فى نقطة بعيدة وكان يفكر بضيق مبهم فى سخافة خطى الطباشير فوق السبورة، وفى طرق السكة الحديد وفى صف أشجار الزيتون التى تتجمع أيضًا من بعيد.

الطرق تهبط صوب الوادى وعند عبور النهر تبدأ فى الارتفاع شيئًا فشيئًا صوب تلال الجنوب الغربى ومجموعة الجبال الجانبية الأولى الموازية لسلسلة الجبال. نهارًا، فى الهواء الأكثر شفافية وأسفل إشراقة تبرز وتقرب بدقة كل شىء، لا يبدو المشهد هو نفسه بالنسبة له الذى كان قد مر به منذ ساعات كثيرة مع سوسانا جراى، على ضوء القمر بدرًا، عشية اكتمال القمر. الآن كل شىء، الأرض، أشجار الزيتون، تعكير النهر، زرقة السماء

فوق الصخور الكثيرة لسلسلة الجبال، بياض الجص لمجموع حجرات الفلاحين، كان له بريق عالم بزغ توًا من الماء، صخور من الطمى قوية، حمراء مظللة من المطر ومن النباتات الخضراء على الجوانب والتى حتى أسابيع من قبل بدت أنها جافة مثل مجرى ماء فى الصحراء.

مخالفًا لعادته، أدار المفتش الراديو للبحث عن موسيقى ولكنه لم يجد أى شيء يشبه ما وضعته سوسانا جراى ذلك اليوم. تذكر صوتًا رجاليًا كان يغنى كأنه يهمس بأشياء بالإنجليزية وفى الخلفية طبول وأصوات أفريقية. كأنه لم يكن قد سمع عندئذ هذه الموسيقى، الآن يربط بينها وبين المعلمة بصفة خاصة، بلكنة أهل مدريد وبرائحة الكولونيا التى تضعها، حيث لها نكهة التبغ الفاتح والطباشير.

ولكنها الآن الحادية عشرة إلا الربع، ومثل كل أيام الآحاد فى نفس هذه الساعة يكون قد اقترب من المنحرف صوب المصحة، مصحة المجانين سابقًا، المصحة القديمة. كان يلاحظ، بشكل قوى عن مرات أخرى، مصحة صامته داخلية عند الوصول. بعد مرور عدة دقائق لم يتبق له مقدمات أخرى ولا تأخير، ولا حتى، مثلما كان فى وقت آخر، هدنة صغيرة ليدخن سيجارة قبل أن يفعل فى النهاية شيئًا يقاومه. لن يكون هناك بعد ذلك أبدًا هذا النوع من التأخير، من الهدنات الخاصة، من أقواس من المنفعة الوقتية التى كان يمنحها لنفسه فى الماضى عند طلب كأس أخير أو قبل الأخير، جرعة زائدة من الضباب والندم قبل أن يعود للبيت: سيجارة وهو جالس فى السيارة، أمام البوابة فى الظلام، مزيد من دقائق الهدنة بينما يرى أعلى النافذة الوحيدة المضاءة فى كل المبنى، عند الثانية أو الثالثة فجرًا، عند أى فجر ممطر من فجر الشمال. وعندما تسمع هى المفتاح يدور فى القفل تطفئ النور وتتكمش فى الفراش مصطنعة النوم دون أن تسمح أبدًا بتكرار البكاء أو اللوم.

لن توجد مناطق ضبابية نهائيًا، أقواس من النيكوتين والكحول بعد أن ينسحب بخبث فى الخفاء، يتنفس مثل من يغوص فى جو ثقيل من الغم والذنب، أكثر كثافة من الذى يتنفسه الآخرون. بداخل السيارة، الموتور مطفأ، فى جراج المصحة، أسفلت فاتح بين أشجار الأوكالبتوس وأشجار السرو، مكث المفتش برهة دون حراك، دون أى حركة عصبية إلاّ من نقرات سريعة وخفيفة من أصابع اليد اليمنى فوق المقود، منتظرًا أن تأتى الحادية عشرة فى ساعة السيارة ليصعد السلم صوب البوابة المعدنية للمصحة التى تفتح له من الداخل بصوت زنبرك بدائى، تفتح ببطء بوابة الكنيسة بينما هو يدفعها.

وهو ينتظر أمامها شعر للحظة بالسخف الطفيف من مظهره، يد تمسك بباقة الزهور الرخيصة والملفوفة بورق فضى واليد الأخرى تمر بشكل آلى فوق شعره، أو أنه يبحث بحركة تلقائية عن ربطة العنق التى لا يرتديها أيام الأحد: أثناء لحظة رأى نفسه من الخارج، عجوزًا وسيمًا، مع إحساس حاد من عدم التماسك، الخطيب الكاذب الذى لا يدق على باب الفتاة العاقلة أيضًا التى يغازلها، وإنما يدق باب مصحة عقلية، الزوج التقى الذى لم يقع إلى الآن فى الخيانة، حتى الآن، يحمل الزهور مثل الزوج المذنب، وهو يتذكر دون ندم كبير المرأة التى احتضنها ليلة أمس دون أن يجرؤ أن يحتضنها بقوة، بسبب الحمق أكثر منه بسبب الخجل؛ لأنه كان قد فقد بالكامل ما لم يحصل عليه أبدًا بحق فى شبابه، الاعتياد على قوة الحنان، على الرغبة الجريئة.

كان قد أحاطها بذراعيه بينما هى تبكى، وكلاهما غير مرتاح فى السيارة المتوقفة بجانب الساقية، أمام الوادى المنغمس فى ضباب وضوء القمر. لم يعرف كم من الوقت ظلت تبكى سوسانا، ووجهها مخبأ فى صدره، يبلل النفس والدموع قميص المفتش. بين الحين والآخر تضىء بعض الأعمدة للحظات داخل السيارة، وتتركه فى الحال فى ظلمة عميقة، تحوله شيئًا فشيئًا

مضيئة من ضوء القمر، عندما تعتادها المآقى مرة أخرى. سمع المخاط يسيل من أنفها وقدم لها منديلاً من الورق. ابتعدت سوسانا عنه ونظفت أنفها والدموع وهى تبحث متحسسة النظارة، التى كانت قد انزلقت من فوق وجهها. طلبت منه المغفرة، وقالت إنه لم يكن يجب عليها أن تشرب الكثير من النبيذ، وأنها تشعر بالخجل من أنها ضايقته.

ولكنه كان نوعًا آخر من البكاء، ليس نفس البكاء الذى يعرفه منذ سنوات كثيرة ولا الذى ربما يشاهده الآن، عندما يصل إلى الردهة وإلى الغرفة التى تنتظره فيها زوجته. كان بكاء متقطعًا يكشف ويؤكد على شىء، كان قد دفع سوسانا إلى البحث عن الحماية العاجلة لذراعيه، الراحة البسيطة لمنديل من الورق وتتميق الشفاه والعينين، عودة آنية إلى النشاط، إلى المهام الصغيرة والمحددة التى كسرت سلبية الألم، إغراء من إيقاظ الحسرة: تنظيف النظارة، إدارة محرك السيارة، وضع الموسيقى من جديد. «أنت لا تستطيع أن تتخيل الصحبة التى أمدنى بها بول سيمون». قالت. فى لحظة ما من العشاء كانا قد بدأا فى استخدام ضمير المخاطب.

هو كان يعرف بكاء آخر: البكاء الذى لم يسمعه أبدًا، المكتوم فوق المخدة أو على الجانب الآخر من الباب المغلق للحمام والصنابير المفتوحة، البكاء الذى يستمر مع رتابة مطر الشمال والذى يبدو أنه لم يحتفظ بعزاء ولا بنهاية، البكاء الجاف فى الظلام، كأنه شكوى من ألم جسدى لن يتلقى تخفيفًا ولا مساعدة ولا حتى سيطلبهما.

فى الحديقة الصغيرة التى أمام بوابة المدخل، كان هناك تمثال أبيض وبلا شك من الجص للبتول كونثبثيون. كانت أسرتها قد اختارت الطبيب النفسى والمصحة وكانت تدفع الشيئين. بمجرد أن يعبر البوابة يدخل فى مكان به إيحاءات دينية: فى النهاية، وراء مائدة الاستقبال تفحص ممرضة من الرأس وحتى أخمص القدم من وصلوا لتوهم، وأضفى زيها الأبيض

وغطاء الرأس، مثل وجهها الكبير والذى بلا مساحيق، مظهرًا ما بين طبى ورهبانى شيئًا من الصرامة التكفيرية. فى كل مكان، حتى فى غرف المرضى وفى الحمامات، كانت تسمع خلفية ضعيفة من موسيقى الكورس أو البيانو مثل خط موسيقى ممنوح خاصة لأهداف دينية. رئيس الأطباء النفسيين الذى لا تنقصه إشارات القس أو نعومته كان قد قال للمفتش إن هذه الموسيقى تريح المرضى، مثل دهانات الحوائط الخفيفة بلون الزهر ومثل لوحات الوديان أو الجبال ذات المشاهد الدينية المعلقة على الحوائط على مسافات متساوية.

لم يكن هناك مكان مخصص للزيارات. فإذا كان الجو جميلاً تتجول المريضات فى الردهات أو فى جنبات الحديقة الخلفية، أو يجلسن على الكراسى البلاستيكية بنية اللون فى القاعة المسماة قاعة الأنشطة الترفيهية، حيث توجد ماكينة للقهوة، بعض الموائد لألعاب الحظ، لعبة لشطرنج ولعب الورق وتلفاز تشاهده العجائز فى صمت طوال ساعات، بشعرهن الأشعث، وهن يرتدين الروب وخف البيت، يدخن بعضهن فى شفطات سريعة رطبة ويستخدمن الأكواب البلاستيكية للقهوة باللبن على أنها منفضة سجائر.

فى مرات أخرى كانت امرأته تنتظره هناك. بحث عنها بين الوجوه العجوزة ودخان السجائر وتأكد دون راحة أنها ليست هناك. حينئذ صعد إلى غرفتها ودق على الباب بأصابعه وهو ينادى اسمها ولكنه أيضًا لم يجدها. مرت بجانبه نساء وحيدات مكثن ينظرن إليه. كانت غرفة صغيرة شبه طفولية فى تصميمها وفى أثاثها، مثل غرفة الفتاة وهى آنسة وتُركت دون أن يمسها والداها بعد ذهاب ابنتهم. ينتظر أحدهم أن يجد الدب اللعبة القديمة الطفولية فوق المرتبة، أو دمية ترتدى أحدث موضة من خمس عشرة أو عشرين سنة مضت. فوق رأس السرير كان هناك صليب يتدلى منه مسبحة. الأثر الوحيد على وجود زوجته، أو على وجود شخص، كان نعل من القماش أسفل السرير ومجلة قديمة من المجلات الاجتماعية فوق خوان السرير.

خرج فى الحال من الغرفة متضايقًا من تطفله، ورآها تأتى من آخر الممر، بين نساء أخريات يسرن على خطا تشبه خطاها، كأنهن يسرن فى شارع يمشى فيه فقط ناس شبه نائمين، يتقابلون دون أن يروا بعضهم، دون أن يصنعوا ضوضاء أثناء وطئهم، كلهن يرتدين الأحذية الرياضية أو أحذية من القماش أو نعالاً من الخيوط، يرتدين أرواب البيت أو اللباس الرياضى، بعضهن غير ممشط الرأس كأنهن استيقظن توًا فى البيت مع كسل وفوضى أحد أيام الأحد، ينسدل شعر بعضهن فوق الجبهة وعلى الجانبين، أو لدى بعضهن شعر شديد القصر كأنه تساوى بالمقص على أى حال. يذهبن ويجئن على طول الردهة، وحيدات، وجميعهن تقريبًا يدخنّ، ولهن أوجه حمقاء، أو دراماتيكية أو مرعوبة أو أوجه بلا أى تعبير. كانت امرأته بينهن، التعرف عليها يسبب الألم وأيضًا بعيدة عن كل شىء، غريبة بدرجة رهيبة مثل الشخص الذى تركوا له نفس الجسم وبدلوا روحه، زرعوا له عقل شخص آخر، تقريبًا مثل الأخريات اللائى كن هكذا قبل أن يدخلن هناك، رغم أنه لا يزال يصعب تمييزها، تخطو خطوات قصيرة، مربعة الأذرع، وقبضة يدها اليمنى أسفل الذقن، تسلك سلوك من يركز بيأس، وعدم جدوى، لم تمشط شعرها بالقدر الكافى مما يوحى بعدم انتظام عند تلك المرأة ذات المظهر شديد الرسمية، الذى يميزها عن الأخريات، كانت ترتدى تنورة وبلوزة منسجمتين، عقدًا من اللؤلؤ الصناعى، حذاء ذا كعب منخفض. كان قد سمع الكعب قبل أن يراها، كان الكعب يصدر صوتًا فى الردهة بين صوت النعال التى من القماش والكاوتش. كانت تأتى ببطء، منحنية الرأس قليلاً كأنها تنظر فقط إلى الأرض، فقط لتتجنب بشكل غريزى الخطر من النظر إلى الأمام لترى شيئًا غير متوقع أو غير لطيف، لترى وجهًا ما أو حضورًا ما لشىء يهددها.

يكتشف كل منا فى وجه الآخرين تقدم العمر الذى لا يعرفه أو لا يريد أن يراه فى وجهه. كان يرى امرأته كل سبعة أيام، كان لدى المفتش إحساس بأنه عندما يقابلها لم يكن يمر أسبوع منذ أن رآها وإنما مر عام. عندما كان ينظر إلى نفسه فى المرآة يعدد لنفسه علامات تقدم السن، التجاعيد الجديدة، الترهل الذى ظهر أكثر على جلد الذقن، أو الانتفاخات أسفل العينين، ازدياد الشيب، الشعر الذى علق بين أسنان المشط أو الذى اختفى فى الرغوة المتسخة لمصفاة الدش. (الأب أوردونيا من فوق لوح خشبى فى القاعة أو من فوق منبر الوعظ، يرفع إصبع السبابة. «لا تسقط ورقة من شجرة ولا شعرة من رؤوسكم دون أن يعرفها الله رب السماوات»).

ولكن عند رؤية زوجته سيطر عليه حقًا مفهوم محدد ومدمر لتأثير الزمن. ما يهلكه ببطء يدمرها. إلى جانب مرض الخوف وسموم الحقد والموت، كان هو قد تجاوز العيش كما تجاوز الكحول، استسلم ولكن لم ينكسر. ما زال صلبًا. ولكن هى ليست كذلك. لم تستطع أن تتحمل الوقت ولا الوحدة ولا الخوف دون أذى طوال سنوات كثيرة. تعيش الآن فى متاهة من العلاج النفسى الكاثوليكى وحقن تتركها عرجاء طوال أيام وتمسح ذاكرتها حتى تنسى اسمها وبين صلوات وتسابيح تسترد وهى منومة تدينًا قديمًا بدائيًا ومرعبًا. بنفس التقوى التى يخدرها بها الراهبات أو الممرضات اللائى يعطينها منومًا يتركن فوق خوان السرير صور صلوات بها رسومات تقليدية وصبيانية عن الرحمة، منذ كانت طفلة صغيرة، تحيط بالعذراء رؤوس الملائكة وتطأ وهى حافية رأس ثعبان، الروح تعبر جسرًا ضعيفة فوق ربوة والملاك الحارس يطير فوقها ليحميها.

تأخرت حتى رأته لأنها لم ترفع عينيها كثيرًا، لكنها كانت تعرف أنه يبحث عنها، كانت قد سمعت استدعاء الممرضة فى مكبر الصوت. كانت تقترب بخوف كأنها تكتشفه، وعندما رفعت عينيها للحظة ورأته قريبًا جدًا، عادت وأبعدتها، ومكثت صامتة، عيناها غائرتان وزجاجتان إلى حد ما، مستسلمة مثل الحيوان الذى يثق فقط فى الاستعراض غير المشروط لضعفه حتى لا يعتدى عليه المالك الغاضب. كانت بلا حراك، فى منتصف الردهة، بينما النساء الأخريات يذهبن ويجئن ويحتككن بها، بمظهر السرعة عديمة الفائدة والخوف من الأماكن المغلقة السريعة، السرعة دون قصد إلتى يسير بها المسجونون فى ردهة السجن. ذهب ليحتضنها ولاحظ أن عضلاته تتقلص عند ملامسة يديها، ولكنه ضمها بقوة إلى صدره، رغم أنها ضمة دون حنان، بمزيج من البرود غير النبيل والتعاطف. لم تفعل هى شيئًا، تركت ذراعيها يسقطان على جانبيها فحسب، وعندما رآها قريبة جدًا رأى فى عمق عينيها الفارغتين الغائمتين تأثير الأقراص والحقن، هدوءًا أعمى لا يمكن أن يهزه شيء، ولكنها تتكسر مع رعشة خوف وخيالات المطاردة عندما يقل تأثير الدواء.

- كيف حالك؟

- بخير، كالمعتاد.

- أعطوك الحقنة هذا الصباح؟

- جاءوا فى السادسة، ولكننى كنت مستيقظة.

- هل شعرت بألم كبير؟

- رقدت على السرير ولم أتذكر أى شيء. كانت الممرضة تقول اسمًا ولم أكن أعرف أنه اسمى.

لم يكن النظر إلى تلك العينين اللتين لم يبد فيهما أنها موجودة أصعب شيء على الإطلاق، وإنما كان الحفاظ على تصنع مقبول أثناء المحادثة، على تسلسل طلق من الأسئلة والإجابات. كان يجب أن يكرر عليها نفس الأشياء التى يسألها عنها فى كل مرة، لأنها كانت تنسى الأشياء بمجرد أن تسمعها، ولم تظهر اهتمامًا كبيرًا فى المحادثة، ربما كان ينقصها الذاكرة الكافية لتربط جملة بأخرى، الإجابة والسؤال. يخفف الدواء من الغم، يمسح عنها وقتيًا الذاكرة، يبتر جزءًا كبيرًا من وعيها ومن هويتها.

- هل أتت والدتك وأخوك لزيارتك؟

- لا أعتقد. خفضت رأسها، ومسحت وجهها بيديها. انتظر. يهيأ لى أنهما جاءا بالأمس أو أول أمس.

أعطاها الزهور، نظرت إليها لحظة، ابتسمت لتشكره، فزمّت شفتيها بشكل شبه طفولى فى وجهها العجوز المتورم، وسرعان ما نسيت أمر الزهور، يبدو أنها لا تعرف ما الهدف الذى تنسبه إليها، يستحوذ عليها التحكم فى آلة غير معروفة. أمسكها من ذراعها وقادها ببطء إلى غرفتها، ودون أن يستطيع أن يتجنب أن يحيى بانحناءة من رأسه السيدات اللائى يحملقن فيه، كاذب ومتناقض مرة أخرى، مثلما كان منذ ثلاثين عامًا مضت، عندما كانا مخطوبين ويقومان بنزهة صباحية يوم الأحد بعد قداس الساعة الثانية عشرة قبل تناول مشروب كحولى فاتح للشهية وصينية الحلوى التى يشتريها من محل الحلوى، فى عاصمة المحافظة التى ربما هى لم تكن قد خرجت منها أبدًا إذا لم تقابله، عندما كان طالبًا فقيرًا يدرس الحقوق لم تثق فيه أسرتها رغم أنه كان يعتمد على حماية اليسوعيين الموجودين بالمكان وكان له هو نفسه مظهر الطالب الذى يدرس الرهبنة. الآن يزورونها ويقولون لها، الأم أرملة موظف بالأرشيف والأخ موثق عقود وهو أرمل أيضًا، جاءوا مرتدين السواد من محافظاتهم البعيدة، يذكرونها بإهانات محفوظة طوال عقود مثل

كنوز الجشع، تحذيرات قديمة لم تكن هى تحب سماعها والآن توافق عليها بوداعة دون حتى أن تسمعها. «أترين يا ابنتى، مع الخُطاب الجيدين الذين تقدموا لك، انظرى من اخترتِ، انظرى الحياة التى قدمها لك.»

٢٠

الأيدى نظيفة، الأيدى طرية من كثرة الرطوبة، الأيدى حمراء من العمل والبرد، الأيدى ذات الأصابع الكبيرة بأظافر مكسورة ذات النهايات الفظة الجافة، الأظافر دائمًا بها حافة سوداء، رغم غسلها بالصابون والماء الساخن، تتورم وتفرك الأيدى شديدة الاحمرار تحت تدفق الماء المغلى أو المثلج، بهما رطوبة اللحم النيئ، وشحوب يدين مريضتين لا تتفق مع حجمهما ولا مع القوة الحديدية للأصابع التى تعودت على الضغط وانتزاع أشياء، على اللصق مثل الجرافيت فى جلد البطن المفتوح لإخراج الأحشاء بحركة واحدة وسريعة: أيد سريعة، خبيرة، ماهرة وقاسية، أيد ترفع الصناديق التى تنزلق من الرطوبة والدهون وقذارة السمك، أيد تلتوى عندما تتشابك ببعضها فى أوقات عدم النشاط، تختبئ أسفل المفرش القذر، عصبية، مشوهة، عجوزة من كثرة العمل، ومن الاحتكاك مع الأسطح الخشنة والأشياء المبللة والباردة، المزودة بالشوك، جفت من برد البرادات، أيد عجوزة وأكثر تشققًا من الوجه بكثير، كأنها زرعت فى جسد أكثر شبابًا وذى مظهر أكثر ضعفًا، أيد لا تستطيع أن تخبئ عقاب العمل اليومى ولا الرائحة أيضًا، وخاصة الرائحة، التى تبقى فى كل شيء، فوق زجاج كأس، على النقود وعلى العملة الورقية التى ترد للزبون، على زر مصعد، على سطح مطواة أوتوماتيكية، تلوث الهواء، الرائحة التى لا يمكن أن تنفصل أبدًا وكلية عن الملابس، والجلد، والشعر رغم الصابون والكولونيا وعادات النظافة المتشددة، الأيدى المنغمسة فى الماء، الحمراء والطرية فى الحوض، الخارجة من البخار والدخان، التى تقطر ماء عند رفعها مثل الحيوانات المتشابهة الخارجة من الماء، كائنات بحرية لحمية مثل السبيط، الأخطبوط، سمك

الشفنين البحرى، سمك الراهب والسمك الطيار، أيد متشابكة كالعنقود فى صناديق السمك، مقطعة ومعروضة ومبتورة، وما زال جانب منها يدمى مثل ظهر سمكة كبيرة قطعت لتوها من المنتصف بفأس، أيد تتحرك بنفسها، أيد تبحث وتسحب من يشعر أنه مخيط بها جراحيًا، ساكنة وحذرة، شاحبة فى ظلام القلق، ترقد على السرير، تطالب بشىء، تشد، تنثنى فوق الوجه أمام المرآة، الأصابع مفتوحة تطل من بينها الأعين مثلما تطل من شبكية، أيد لها مظهر سوقى، مشابه لأياد كثيرة تعامل بشكل سيئ وجفت من العمل، أيد مجهولة كأنها مطربشة بداخل الجيوب تنسحب على نفسها كما تنغلق أرجل الكابوريا المضمومة والمسنونة، لها بصمات ستبقى فى كل مكان، مثلما تظل الرائحة، وسيكون أيضًا من الصعب محوها، لذا سيكون ضروريًا حمايتها أسفل قفاز من البلاستيك، حتى تترك العلامات الحمراء فحسب التى فوق الأصابع، صورة الأصابع المفتوحة فوق جلد يسهل الانغماس فيه مثل الصلصال، التى تحك الأظافر بحوافها الجافة والمكسورة دائمًا وشديدة الجفاف، بهذه الرائحة التى ما زالت تلاحظ إذا اقتربت كثيرًا من الأنف رغم الصابون والدعك المتعصب: أيد تقبض بقوة، أيد تنتزع، أيد تخترق وتبحث فى الظلام، أيد تخرج مبللة ولزجة مثل سمكة مفتوحة، أيد تفصل شفاهًا وأسنانًا مضمومة، تكتم فمًا عندما يخرج منه صرخة ثم يظل مفتوحًا ولا يُسمع شىء، مثل العيون المفتوحة التى لا ترى شيئًا وبها بريق الزجاج تحت ضوء القمر البدر، أيد لا تحتفظ بعد ذلك بأى علامة على ما قامت به، أيد هادئة، ساكنة فوق طاولة البارات، تضغط عليها أيد أخرى جاهلة، أيد عادية يمكن أن تكون لأى شخص، أيد لا تترك بصمات تقريبًا، أيد غير مرئية، أيد آلية تكرر حركات ومهارات ودون شك تحتفظ بذاكرة قوية جدًا أكثر من النظرة، من المحتمل أن يكون لديها مناعة ضد الندم، إحساس خاص نحو الحنان، نحو الجسد الضعيف، سرعان ما يضعف، من اللعاب، من الدم، من المادة الحية المخترقة والممزقة، مثل اختراق الخياشيم التى تنغرس فيها

حواف أظافر اليدين وتنغمس وتثقب وتنتزع، أيد مجهولة، خطيرة، متهمة، بها بقع، مخبأة فى الجيوب، غير صابرة حتى تصل إلى مأمنها المتحرر، حتى تتشابك معًا أسفل ماء الصنبور، الساخن جدًا حتى تتحرر من كل شيء، ماء ساخن جدًا لدرجة ألاّ تستطيع تحمله أية أيد أخرى، أيد تحك وتستخدم الصابون وتفرد الرغوة ثم تزيلها بالماء وتعود لتدعكها بالصابون وتخضعها لتدفق الماء الذى يخرج منه بخار كثيف عندها تتورم وتحمر، لها لون الجمبرى المطهو تتدعك بقوة أكثر وأكثر بقطعة قماش من منشفة خشنة، ويبدو أنها لن تحتفظ بأثر أى رائحة ولكن لا يزال يتبقى شيء، لا يمكن محوه، ليست رائحة الدم، ولا رائحة الجلد المعرق ولا اللعاب ولا الملابس الطفولية، إنما الرائحة الأخرى الدائمة، رائحة السمك، الذى يمكن إدراكه فى الأظافر، فى الدائرة السوداء التى تظل دائمًا فى زوايا الأظافر، فى فتحات الجلد المشقق.

ينظر إلى اليدين القابعتين فوق الطاولة، فوق علبة سجائر فورتونا والقداحة، المجهولتين، البعيدتين عنه، اللتين تتحركان حركة ذاتية داخلية، مثل حركة الجمبرى أو الكابوريا داخل صناديق السمك، مبكرًا جدًا، حتى قبل أن يفتح السوق للجمهور بوقت كبير، ربما وما زال الوقت ليلاً، عندما يسمع فى القباب المصنوعة من أسياخ الحديد صياح الحمالين وأصوات صفير عربات النقل، تختلط أرجل كثيرة فيما بينها، تريد أن تنغرس فى التروس المدببة الفظة، التى يمكنها انتزاع الجلد إذا لمسها دون حذر، تتحرك بنفس طريقة قرون الاستشعار التى لدى الحشرات، ومثل وبر الخلايا تحت عدسة الميكروسكوب، منذ سنوات كثيرة عندما كان يدرس فى المدرسة الثانوية لم تكن اليدان هكذا، كانتا أكثر نعومة حينئذ، دون علامات ولا خشونة، ولكنهما مختبئتان، حانقتان وانتقاميتان، الأظافر مغروسة فى كف اليد أسفل خشب السُلم، تتلمس فى السروال، فى ظلام السينما أسفل المعطف المطوى على

الحجر. ينظر إلى اليدين، بعيدًا عنهما، بامتعاض، مثلما ينظر إلى النادل أو إلى الناس فى البار، بامتعاض وشك، شىء يشبه التقزز، ورغم أنه يشبه أيضًا الزهو، إنهما أقوى من أيدى أى من هؤلاء المخنثين الذين لهم رواتب ثابتة ولا يبكرون ويمكن أن يسمحوا لأنفسهم بترف المرض أو الإضراب عن العمل، ما بين السبابة والإبهام يمكنه أن يسحق دون أى صعوبة غطاء علبة المشروبات الغازية أو أن يُقسم قشرة عين الجمل، قادر بكلتا يديه والضغط على الأسنان على ثنى طاولة من الحديد، من كان سيقول له، بهذا الوجه الذى لديه، قد تقول الجارة إنه ذات يوم كان غاضبًا أكثر من المعتاد من أبويه وضرب بقبضته أحد الأبواب المبطنة واخترقها بالكامل. يحمل القوة فى يديه مثلما يحمل المطواة فى جيبه وأثر الرون فى أسفل الرأس، الآن مضاعف، ليس الرون المخبأ فى خزانته، إنما الموجود على طاولة البار حيث دخل دون أن يفكر مليًا، دون أن يتذكر.أنه كان هنا من قبل، ولكن حينئذ لم يكن على الحائط بين أرفف الزجاجات وملصقات فرق كرة القدم تلك الصورة الملونة المقصوصة من مجلة، داخل الإطار الرخيص، وفى أحد زواياها شريط أسود صغير كدليل على الحداد، متسخة، مضببة من الدخان وزيوت المطبخ، ابتسامة الطفلة الضعيفة الخفيفة أو المتلاشية بمرور الوقت، رغم أنه لم يمر وقت طويل، لا يذكر، شهران كاملان دون أن يمر بهذه الشوارع ويداه مختبئتان جيدًا فى جيب السترة، التى هى سترة شتوية، هذه المرة شتوية؛ لأنه فى هذا الوقت لم تكف عن المطر. توجه إلى هذا الحى البعيد جدًا دون أن يخطط لذلك، كان يمكنه أن يكون قد سار تجاه وجهة أخرى مشتت الانتباه، متوترًا، مع ثمالة سريعة تسبب فيها الناس، وأضواء المحال، وضوضاء المرور فى الشوارع، يتحدث إلى نفسه، رغم أنه لم يحرك أبدًا شفاهه، قابضًا على المفاتيح أو المطواة فى جيب السترة. قد ترك وراءه ميدان التمثال دون أن ينظر حتى صوب شرفات قسم الشرطة، سار فى شارع ترينداد، وعند مروره بجوار درجات الكنيسة تذكر تلك المرة،

تذكر ذلك الحشد أسفل المظلات، وانعكاسات آلات التلفاز مبللة تحت المطر، صدى الصلوات والأدعية فى مكبرات الصوت، ولكنه نسى كل شىء سريعًا، كل شىء يمر بسرعة، مثلما يمر الناس بجانبه، مثل المظهر الخارجى للحارات أو إشارات المرور عندما يقود أحد فجرًا ويسرع ليتخيل أنه لا يذهب فى عربة توزيع السمك، وإنما فى سيارة رياضية، فى سيارة سباق فرارى تستا روسا، أو فى أحد العربات المريعة المخصصة للتجول فى المناطق الوعرة التى تسير فى الشارع تهدد أنها ستسحل كل شىء. كل شىء يمر بسرعة فائقة، بداخلة وخارجه، فى ضميره، فى الشارع حيث أمست لتوها وأضيئت أنوار المحال، ومن بعيد أضيئت أضواء الأعمدة فى الجزء الجديد، فى الطرق الحديثة التى تجعل الحسد ينتابه لأبنيتها ذات الشقق ذات البوابات الأوتوماتيكية والتكييف المركزى ذات مطابخ مثل التى تظهر فى الإعلانات وليس ذلك المطبخ المخيف والمظلم الذى تعد فيه الطعام والدته حيث طبخها الفظيع كأنه ليس لتغذية أشخاص عاديين وإنما لتغذية ريفيين، ساكنى الكهوف، وهو حال كل من والدته ووالده المحتبسين فى منزلهما مثل الحيوان الذى يضر بالآخرين والمحبوس داخل كهف، فى أطلال الحى الذى يقل سكانه كلما مر الوقت، الحى التاريخى ليس إلا، كان يمكنهم إرسال التاريخ والأحجار والكنائس إلى الجحيم. سار صوب ما يطلقون عليه البرج الجديد، حيث توجد أبنية من ثمانية أو عشرة طوابق تصيب بالدوار من ينظر إليها وحيث يوجد تمثال ذلك الجزار الصغير، مصارع الثيران الذى يعجب أباه كثيرًا، الذى كان يعمل فى السوق أيضًا، وها هو قد أثرى، يكرر، تحول من جزار إلى نجم حفلات، اشترى سيارة مثل السيارة التى كانت من قبل لدى الأثرياء، من المؤكد أنه لم يكن يشعر بالخجل أنه كان يمتهن نفس مهنة والده، كأن الجزار يتساوى مع بائع السمك، الجزارون لا تشم لهم رائحة، لا يسيرون ويتركون رائحتهم الكريهة فى كل شىء يلمسونه، مثلما يترك الحيوان البحرى لعابه. أصبح التمثال قزمًا وضائعًا بين الأبنية فى بداية

طريق مستقيم يتجه صوب الشمال، طريق مستقيم وواسع به أبنية من الشقق على جانبيه، وبه رافعات وحفارات على الرصيف، ليست أطلالاً ولا أسوارًا تآكلت بسبب السمارة المخزنية، كنائس قديمة ونوافذ منزوعة المصاريع. حياة، حركة، تجارة، وكلاء سيارات، بارات صاخبة، محال بيع الأدوات الصلبة، واجهات محال عريضة لماكينات زراعية، وآلات حصاد وجرارات، محال مطابخ وحمامات، امتداد لعارضة لامعة من القيشانى، ومرايا وصنابير مذهبة، وحتى بانيوهات مستديرة، وليس الحمام المقزز الذى يستحم فيه، ذا الستار البلاستيكى القذر المتسخ بالفطريات، والذى لم يصب بعدوى من ميكروبات أبيه؛ لأن هذا لا يستحم أبدًا، صنابير يتدفق منها ماء غزير ومصفاة من ماء مغلى يبدأ فجأة فى الخروج باردًا لأن أنبوبة الغاز نفدت. مكث مثل الأحمق ينظر إلى الواجهات، يضيئه نورها فى الليل المبكر لنهاية شهر نوفمبر، ويداه فى جيب السترة التى ارتفعت رقبتها لأن الجو أصبح باردًا، تأتى الرياح الآن من الشمال، فى مواجهته، وهو فى طريق العودة وعند نهاية الشارع، بعيدًا، على المسافة المستقيمة، والقمر ساكن فوق الأسقف الخارجية للحوائط يبدو أنه يتحرك فى غاية السرعة بين السحب التى تدفعها الرياح يتحرك بخفة ويكون ساكنًا، مثل البالون، كبيرًا، أصفر، وجهًا كبيرًا منفوخًا لملامح ضبابية، يطل من فوق الأسقف، يرى كل شىء، هو أيضًا يراه، لا يرى أحدًا سواه يسير فى اتجاه القمر فى الطريق المستقيم يغيب القمر عن بصره عندما يدلف من ناصية، وما زال لا يعرف إلى أين هو ذاهب، دون أن يفكر فى هذا الأمر، الآن يسير فى شارع مرتفع، ومظلم أكثر حيث تضيئه فقط ورشة سيارات واحدة أو اثنتان، ورش صغيرة بائسة بها زيت كثير وصدأ، ملصق على جدرانها ملصقات لفتيات عاريات، كل شىء مزيت، مبقع بالدخان، ملطخ، أيضًا تكون الأيدى فى هذه المهنة دائمًا لزجة ومتسخة. لا يعرف جيدًا هذا الجزء من المدينة، لذا تأخر فى التحرك فيها، شوارع متشابهة بها أبنية وشقق وملابس منشورة فى الشرفات، محال

وورش صغيرة، بارات من القيشانى وبها طاولات من الزنك، كل شيء مربك، صنع بأى شكل، أرصفة ضيقة ومحطمة تغزوها سيارات وصناديق قمامة، ستائر معدنية مسدلة، بارات أخرى، كلها متشابهة، وجميعها ينبعث منها رائحة متشابهة قوية من الدخان والقلى، قلى السمك.

هو لا يفكر ولا يريد أن يفكر إلى أين يقترب، إلى المكان الذى لم يرجع إليه منذ ثمانية أسابيع بالتحديد، يمكن ألا يعرف، ألا يكون قد حسب الوقت، فى البداية لم يكن يعرف الشارع، بوابة رقم سبعة من الرخام المقلد والرخيص، لوحة أجراس البوابة الأوتوماتيكية، فى النهاية كلها متشابهة، الشخص يمكنه أن يضغط على أى من هذه الأزرار مثل الإناء الزجاجى الذى يوضع فيه أرقام ورق اليانصيب، ليقذف بأى كرة، الشخص لا يمكن أن يدلف من هذه الناصية، وإنما من الناصية التالية لأنه شعر فجأة بتأثر، بدوار، تقريبًا ببداية غثيان، لم يكن الندم، وإنما الانجذاب للخطر، الثمالة من السرية، الشعور أكثر قوة هنا من أى وقت آخر، الآن يمكنه أن يقترب من البوابة ويتحدث إلى الشقة التى كانت تعيش فيها الطفلة، ولكنه لا يعرف أى بوابة كانت، أيضًا لم يكن يعرف اسمها حتى جاء اليوم التالى. سار فى الشارع، عندما كان على وشك أن يدخل الشارع كان يمكن أن يقابل الآن فى الحال أبا الطفلة أو أمها، يضغط على أظافره فى راحة يده بداخل جيوب السترة، يداه مطمئنتان ودافئتان تتقلبان فى مأمنهما الضيق مثل أرجل الجمبرى والكابوريا وأطراف سمك الأخطبوط فى الصناديق. يغرس الأظافر بقوة أكثر وستدمى، يبحث عن مقبض المطواة، يهدئه أن يلمسها بأنامله، ولكن ما يعوزه هو مشروب كحولى عاجل، يعوزه وجود ريق فى الفم، يبتعد عن هذا الشارع وهو ينظر إلى واجهة مكتبة وهو يسير ويدفع باب أول بار يقابله دون أن يهتم بالهواء الثقيل والمضبب، ورائحة السمك المقلى والدخان؛ لذلك يعجبه محال الويسكى لأنه ليس بها رائحة زيت زَنِخ ولا دخان أسود، وإنما رائحة

معطر جو وعطور النساء ومكياجهن والدخان الفاتح المهرب، رائحة أجساد جريئة للعرض، التى وإن تجرأ بلمسها بشراهة وجبن تبدو حقيقية مطلقًا، دائمًا كأنه يمكث ناظرًا فيلمًا أو مجلة، كل شىء بالتفصيل ومرئى، حتى العلامات التى على الجلد والحشو الذى فى الأفواه المفتوحة لتلقّى الحيوان المنوى، أو البول أو الشيئين معًا ورغم ذلك لا يوجد شىء، لا يوجد شىء أكثر من صقل لامع للورق أو لشاشة التلفاز.

دخل وهو ينظر إلى الأرض، ويطأ النشارة المبللة، قشور الجمبرى، أكياسًا ممزقة وخالية من السكر، يرتاح فوق مقعد ويدرك فحسب أنه دخل هذا البار ليتناول مشروب الرون مع الكوكاكولا، نفس الشىء كما فى المرة السابقة بدأ يفهم تكرار الأشياء، ازدواجية فى كل شىء، تطابق لكنه يختلف قليلاً، اليدان بنفس الطريقة، ازدواجية الوجه أمام الحوض وعلى الجانب الآخر من المرآة، موسى الحلاقة يتحرك بتواز متقن من جانب لآخر، العينان مستطيلتان وقريبتان أكثر من اللازم، هو نفسه فى البار، خلف الطاولة وفى المرآة الموجودة أمامه، يرى نفسه بين صفوف الزجاجات، المرآة مكدرة من الزيوت حيث عُلقت صورة الطفلة بداخل إطار رخيص بدأ يتفكك: يشعل سيجارة، ينظر يده اليمنى الغليظة بأظافرها المتسخة والمكسورة التى تمتد إلى علبة السجائر، أظافر إصبعى السبابة والإبهام تمسك بفلتر السيجارة، تخرج السيجارة ببطء، وتحملها إلى فمه ثم تحيط الأصابع بهيكل القداحة وتشعلها وتقربها، فى مكانين فى نفس الوقت، هنا وعلى الجانب الآخر من المرآة، الآن ومنذ شهرين، لأن كل شىء يتكشف له مطابقًا، كأنه فهم فجأة شكل رسم هندسى، كل تفصيلة تتفق مع المربع المطابق للازدواجية: نفس المساء، إنه أكثر ظلامًا فحسب، والشارع الذى يراه خلف الزجاج، النادل يرى برنامجًا فى التلفاز، منغمسًا جدًا لدرجة أنه تأخر فى تلبية طلبه، رغم أنه لا يوجد أحد آخر تقريبًا فى البار، مثلما كان الحال فى المرة السابقة، لقد

دخل بدافع طارئ والآن هو متأكد من أنه ذهب وجلس فى نفس مقعد المرة السابقة، قام بإشارة والنادل لم ينظر إليه، صوت التلفاز عال أكثر من اللازم وصوته هو ناعم جدًا، لا أحد يقول إن الصوت والعينين ينتميان لنفس الشخص، عاد يقول "من فضلك"، الآن بصوت أقوى، وخبط الطاولة بالقداحة، فقط حينئذ استدار النادل بزهق لينظر إليه وقد عرفه، شاب أبيض ليس حليق الذقن يرتدى قميصًا متسخًا وله وجه يقول إنه ليس هناك دم فى عروقه ويجب أن يقضى ساعات كاملة ينظر صوب التلفاز فى البار حيث من المحتمل أنه لا يوجد فيه كثير من الزبائن، أحب أن يرى هذا الميت أحد أيام السبت فى الحادية عشرة صباحًا فى مكانه فى السوق يلبى الأشياء التى تطلبها النساء فى صياح وهن يتعدين دورهن، وهو يعطى الباقى ولا يخطئ عند تقديم خدمة لأحد، يبتسم لجميعهن ويتحدث إليهن يقول: حضرتك أجل، عندما يمسكون بهذا سيقطعون رقبته، وليس قتله يدفع ثمن الضرر الذى اقترفه، ولكن بالتأكيد إذا ضبطوه سيتركونه فى الحال، أو أن يعلنوا أنه مجنون، اللصوص والقتلة يدخلون القسم من الباب ويخرجون طلقاء من الباب الآخر، ما أقوله لك يا بنى، أعطنى كيلو إلا ربعًا من سمك الطيار، مخدومًا بشكل جيد، حتى أعده مع الأرز.

وهكذا الحياة كلها، الأيام كلها، من الاثنين للسبت، نفس أوجه النساء وأفواههن المفتوحة تختلط عند الشعور بالنوم والتعب مع فتحات، وأفواه وأعين السمك، أفواه ذات أسنان صغيرة وخياشيم حمراء وأعين مستديرة متوحشة، الأعين الجاحظة الكبيرة لسمك الأخطبوط الميت، الذى يبدو أنها تنظر من داخل غطاء رأس، من قناع لحم رطب. ليست أعين النادل – الذى قدم له مشروب الرون مع الكوكاكولا ثم عاد فى الحال ليتابع فى التلفاز المسلسل الذى به ضحكات آلية أو مسابقة يمكن أن يكون والداه يشاهدانها الآن –، ليست أقل موتًا. وبجانب ضوضاء التلفاز هناك ضوضاء صوت ماكينة القهوة، بالإضافة إلى صوت ماكينة الألعاب التى تحاكى صوت الطائر

وتصدر موسيقى معروفة وحادة، وبعد ذلك بلحظات ضوضاء ماكينة السجائر حيث الصوت الآلى يقول له: *دخانك، شكرًا.*

كل شيء مزدوج، الآن يفهم، يعدد، يهدئ من الضيق المتنامى برشفة كبيرة من الرون، عندما يترك الكوب على الطاولة وكان قد شرب أكثر من النصف يرى نفسه هنا وعلى الجانب الآخر، فى الزجاج حيث يرى أيضًا إشعال سيجارة ماركة فورتونا شعلتين من القداحة، وحريقين مشتعلين، الضرب فى القفا وفى المعدة، فى أحد جيوب السترة مفاتيح سيارة النقل وفى الجيب الآخر المطواة، بابا البار يطل كل واحد منهما على شارعين متوازيين، إذا كان قد خرج المرة السابقة من الباب الذى على اليسار وليس من الباب الأيمن لما كان كل شيء مشابهًا هكذا، ولكن قد تأخر الوقت على هذا التفكير، هو لم يكن يعرف، ولا يعرف الآن، وإنما يشعر بازدواجية الإثارة وقتها، بداية الجرأة والإقدام، أقوى من المرات السابقة، حتى أقوى منه عندما كان فى المتنزه يساعد الطفلة على صعود السور يدفعها بيده القوية والمفرودة التى تتسع تقريبًا لموخرتها بالكامل، دون أن يضغط نهائيًا وهو يلاحظ فقط نعومة الجلد أسفل قماش التنورة أو اللباس الرياضى بينما العيون الحذرة تنظر من ناحية إلى أخرى باحثة عن أم حارسة.

أقوى، مثل الآن، الرون الذى نفد مع الرشفة الثانية والسيجارة التى تنتهى بعد شفطات قليلة، كل شيء مزدوج، يطلب كأسًا أخرى من الرون بالكوكاكولا، عليه أن يطلب مرتين ويحمر خجلاً، لأن النادل مع ارتفاع صوت التلفاز لم يسمعه جيدًا، إنه مبهوت، الآن ينظر ورأسه مرفوعة وعيناه اللتان تنظران إلى أعلى، صوب الرف المرتفع حيث يوجد التلفاز، ينظر إلى بعض الفتيات اللاتى يرتدين لباس البحر ويقلن أشياء لبعض المتسابقين بينما ينفجر الجمهور فى الضحك، فتيات شقراوات وطويلات، يرتدين كعوبًا رفيعة جدًا، ويرتدين السراويل الداخلية الضيقة جدًا والتى تغطى بالكاد بينما تشف

عن كل شيء، ما ينقصهن فحسب هو ملامسة المتسابقين، بالتأكيد الآن والدته العجوز تريد أن تغير القناة، وخبأ العجوز فى سرية الريموت فى حجره، تحت مفرش المائدة، يتنفس مثل من هو مصاب بالتهاب رئوى بينما ينظر إلى الفتيات. يشرب مرة أخرى، الآن بشكل بطيء أكثر، ينغمس اللسان والحلق فى سائل مسكر، الدق الآنى على جانبى الجبهة، الاثنان يدقان فى نفس الوقت، يتسع القلب والمعدة وينقبضان فى انقباضات متطابقة، والآن ليس لديه صبر ليبقى وقتًا أكبر فى البار يتعجل فى تجرع كأسه ويرمى بالسيجارة التى كان قد أشعلها لتوه على الأرض ويسحقها، يدق الطاولة بعملة معدنية قيمة خمسمائة بيزيتا، ولكن النادل النذل يقول له إن المشروبين بسبعمائة بيزيتا، قال له وهو ينظر إليه بشيء من التهكم كأنه يهزأ منه وصعد الدم إلى رأسه واعترته الرغبة فى أن يمسكه من الصدرية المتسخة للقميص وأن يدفعه بيد واحدة قوية إلى الحائط، إلى المرآة وصفوف الزجاجات والصورة التى تبرزت عليها الحشرات الطائرة وقد أصفر لونها من الدخان مع إطارها الرخيص، وأن يخرج من جيب السترة المطواة باليد الأخرى ويجعلها تقفز أمام تلك الأعين، أعين الميت، وحافتها على بعد سنتيمتر واحد من الوجه الذى بدون حلاقة، من جلد الرقبة: رأى كل شيء فى لحظة، يسمع ضوضاء الزجاجات المكسرة والتنفس الجبان للنادل بينما يبحث عن عملات أخرى فى جيبه، فى البداية لم يجد، وفجأة خشى أن يكون قد خرج دون أى شيء سوى الخمسمائة بيزيتا، وبدايةً احمر وجهه من الحرج، ولكن لحسن الحظ وجد عملة ورقية من فئة الألف بيزيتا، عملة ورقية مكرمشة ومتسخة تفوح منها رائحة السمك، اعتذر وأراد أن يبتسم، ولكن الآخر لم يهتم بأن يقول شيئًا ولا فى أن يغير التعبير، ينظر إلى العملة الورقية ثم ينظر إليه كأنه يظن فى احتمال أن تكون مزورة ثم يخرج من الماكينة الكاشير ثلاث عملات فئة مائة وتركها على الطاولة دون أن ينظر إليه، وفى الحال عاد صوب التلفاز. يقول وداعًا، مساء سعيدًا، وكان يعرف

أنه لن يجيبه، وضع كلاً من الدخان والقداحة فى جيب من جيوب السترة، وعند خروجه لم يكن يعرف إذا كان يخرج من باب المرة السابقة أو من الباب الآخر، ولكن الأمر سيان بالنسبة له، الشارعان اللذان يمكن أن يخرج إليهما متطابقان، سيارات متكومة فوق الأرصفة وبنيات عليها ملابس منشورة وأنابيب غاز فى الشرفات، محال صغيرة مضاءة، نساء عائدات من التسوق بنعال من القماش ومعاطف فوق الأكتاف، كل شيء كما هو، البوابة حيث يقترب، اللوحة الإلكترونية بأرقام الشقق التى يتوقف عندها كأنه مهتم بشيء، كأنه بائع أو ساعى بريد تائه لم يجد العنوان بعد، كل شيء مطابق جدًا ومثلما حدث أو كما يتذكر، حتى نفس الساعة، السابعة إلا الثلث مساء، اكتشف لتوه وهو ينظر إلى الساعة، ولأنها نفس الساعة والبوابة تعبر الطفلة الشارع من الرصيف الآخر وتمر بجانبه دون أن تنظر إليه تدفع الباب، الذى لم يكن مغلقًا، وتسير صوب المصعد وهى تغنى شيئًا تدندن بأغنية وشفتاها مغلقتان، تهتز قليلاً، كأنها تتخيل أنها تقفز أو ترقص مع إيقاع الموسيقى التى تسمعها هى فقط.

دخل يتبعها، يغلق الباب ببطء خلفه ولكن الطفلة لم تلتفت، كل شيء يبدو له مشابهًا، كل تفصيلة، رغم أنها الآن لا ترتدى اللباس الرياضى وإنما بنطلون جينز، ولكنها نعم ترتدى حذاء رياضيًا، يقترب منها ولم تر وجهه بعد، واقفة، تتمتم بموسيقى أمام المصعد، ينطفئ نور البوابة ويعود هو ليضيئُه وحينئذ تلتفت الطفلة لحظة، لكن ليست التفاتة كبيرة، لا شيء تقريبًا بالكاد تراه من الجانب، الآن يمكنها أن تلتفت نصف التفاتة ولن يحدث شيء، فى عُشر من الثانية يرى نفسه من الخارج ومن بعيد، يسير فى اتجاه الحى الجنوبى، من الظهر والرأس مطأطئ ورقبة السترة مرفوعة ولكن هذا ليس هو، لقد تأخر الوقت أكثر من اللازم ليفعل ذلك، لحظة واحدة فقط ولكن تأخر أكثر من اللازم وليس هناك حل، وصل المصعد للدور الأرضى والتفتت

الطفلة لتسأله إذا كان سيصعد، قال هو: نعم، بانحناءة من رأسه، ليس نفس الوجه، ليس وجهًا طفوليًا بالكامل تحت الضوء السخيف لكابينة المصعد، المطابق ولكنه ليس نفس الضوء، بنفس الأوامر ونفس الرسم البدائى لامرأة وطفل ولافتة: ***لا يصعد الأطفال بمفردهم***، وقد شطب أحدهم هنا بحافة مطواة الكلمة الأولى "***لا***" لتصبح اللافتة: ***يصعد الأطفال بمفردهم***. الطفلة بمفردها قريبة جدًا منه، ولكنه يرى أنها الآن أطول، لم يكن قد لاحظ، صامتة تنظر الأرقام التى تضىء، سألته: إلى أين تصعد، قال: الدور الأخير، كل شىء بنفس الطريقة، لم يكن عليه أن يفكر فى شىء، لم يكن عليه أن يقرر أو يختار شيئًا، فقط يترك أن تكون الأشياء مشابهة تمامًا، تفصيلة بتفصيلة، ثانية بثانية ولأن كل شىء متطابق الآن؛ الأيدى التى كانت تضغط حول المطواة المفتوحة بالفعل فى جيب السترة ترتفع فوق رأس الفتاة وتتقدم حتى لوحة الأرقام وتتحول فى الحال إلى قبضة وتضغط بعنف على زر التوقف الأحمر *Stop*.

٢١

تنتظر جالسة على الفراش، بدأت تتحول الغرفة التى كانت قد رأتها لأول مرة منذ عشرين دقيقة مضت إلى غرفة مألوفة، رغم أنها ما زالت ترتدى كل ملابسها، حافية تنظر إلى قدميها معًا، إلى مقدمة قدميها النحيفتين أسفل الجورب الشفاف ذى اللون الداكن، مع الإحساس بالخواء أو القلق فى المعدة التى سببت لها السجائر ضررًا والآن تحصل على راحة محددة بسبب مشروب التونيك الذى قدم لها بمجرد وصولها، بعد أن مكثت بمفردها وأغلقت الباب فى حاجة طارئة إلى الوحدة والملجأ، بعد عدة مقدمات لا تنتهى أبدًا، التى لا تكف عن أن تكون مهينةً أو على الأقل بائسة، فى جزء منها لأنها لم تكن معتادة، لأنها لم تواعد رجلاً من قبل أبدًا فى فندق.

كل خطوة دليل، إغراء على الندم، منذ أن خرج الأطفال فى الخامسة وعادت هى إلى استراحة المعلمينِ حيث تركت بلوزتها السوداء للسفر، رغم أنها تعرف أنها لن تمر دون أن تُلاحَظ، وأن أحدًا سيسألها بلكنة غير محددة من المزاح أو الفضول إلى أين تذهب بهذه البلوزة: كانت قد أعدت إجابة لهذا السؤال، بالنسبة لمحل التنظيف، قالت، ملابس متسخة، وعندما خرجت صوب السيارة والبلوزة فى يدها زاد الانهماك بسبب ساعات العمل مع القلق كى يوحى لها بأنه ربما لا يجب أن تتقدم للأمام وأنه ما زال هناك وقت لتقوم بعمل مكالمتين وتلغى الموعد وحجز الغرفة فى فندق لا إيسلا دى كوبا. ولكن فى الوقت نفسه كان يثيرها إحساس الترقب والمقدمات التى استردته، كانت قد غذته مثل العصارة السرية طوال اليوم، كان يقويها عندما يشعرها الأطفال بالدوار أو عندما تؤلمها حنجرتها مهددة إياها بعودة التهاب اللوزتين عندما كانت تنظر إلى حوائط القيشانى الكئيبة والمقاعد المكسورة، اللوحات والملصقات الشاحبة لاستراحة المعلمين. كانت تحسب الساعات مثلما كانت

وهى شابة تعد الأيام الباقية حتى يحدث لها شىء ترغبه كثيرًا، في حلم ليس كله عاطفيًا ولا حميميًا، وإنما مثلما كانت تنتظر فى طفولتها، يتوِّجها تقريبًا نفس الانتظار، بخوف كبير أيضًا وليست متأكدة من أنها لن تندم، تخاف مكالمة وفى نفس الوقت تترك نفسها تنجذب بالراحة الممكنة من ألا يأتى هو وليس فقط لأنه خائف أيضًا ويمكن أن يخترع حجة، وإنما لأى سبب حقيقى؛ لأنه يكتشف فجأة شيئًا حول مقتل فاطيما، أو إن هاجمت زوجته الأزمة فى تلك المصحة الموجودة فيها.

تركت البلوزة فى المقعد الخلفى، ومكثت لحظة ساكنة جالسة أمام المقود كأنها تراجع سلسلة من القرارات الضرورية والعملية، رأت نفسها شاحبة فى المرآة والهالات السوداء واضحة جدًا، مع درجة من ذبول الجلد من التعب، هذا أقل شىء، بعد ساعات كثيرة مع الأطفال، ثلاثين طفلاً وطفلة فى عمر التاسعة أو العاشرة مزعجين، يصبحون أكثر عصبية عندما يتقدم اليوم، يقبعون فى قاعة أصغر من اللازم، حيث مقعد فاطيما عاد وانشغل رغم أن صورتها ما زالت معلقة على الحائط بين رسومات زملائها، بالقرب من ألواح الكارتون الزرقاء التى قام الآخرون ونفذوا عليها أعمالهم اليدوية. كانت تنظر دائمًا إلى الصورة، كانت تجد العينين منكسرتين وابتسامة الطفلة كأنها تطلب منها بهدوء أن تظل تتذكرها وألاّ تنساها أبدًا، وفى هذا المساء، فى الخامسة عندما يخلو الفصل تأخرت أكثر من المعتاد فى جمع أشيائها ولأنه لم يكن هناك أحد تكثف لديها حضور فاطيما فى الصورة التى أيقظت فيها دون أن تدرك ذلك، غريزة التواطؤ والامتنان.

هناك فيما يحدث لها الآن شىء يرتبط بفاطيما، وليس فقط الصدفة المروعة التى بدونها هى، سوسانا جراى، لم تكن قد عرفت بوجود ذلك الرجل التى تواعدت معه بعد ساعة ونصف من الآن. ولعها بفاطيما، بموهبتها الطفولية عند العمل والسعادة، كانت قد أنقذتها أكثر من مرة من

الخيبة وفقدان الرغبة فى العمل، كانت قد قدمت لها تعويضًا حقيقيًا رائعًا عن خيانات أخرى. بعد أن ماتت الطفلة فهمت بحق كم غذتها رغبتها فى المعرفة، السرعة فى إنجاز الأشياء التى كانت تبديها فاطيما أظهرت لها أن صبرها على العمل لم يكن عقيمًا بالكامل: كانت تفهم كل شىء بسرعة فائقة وما كانت قد تعلمته سرعان ما كان يثمر فى ذكائها، كأنه غذاء له نتائج آنية فى قوة الطفل الجسدية.

فى المرآة التى تنظر فيها لتضع أحمر الشفاه رأت أن العينين المشوهتين دون النظارة، تكتسبان لمعة الدموع، ولكن لا يمكن أن تسمح لنفسها الآن بخماد الهمة ولا بعزاء البكاء الذى اعتراها مؤخرًا هكذا دون إنذار، حتى عندما تقرأ أو تسمع موسيقى، عندما تقرأ قصيدة لأنطونيو ماتشادو أو لثيسار باييخو[1] أو تستمع إلى أغنيات محددة ليست بالضرورة عاطفية. وضعت النظارة واختارت شريطًا من بين فوضى درج صندوق السيارة التى كانت قد امتدت أيضًا إلى الأرض، ولكنها لن تختر مجددًا شريطًا لبول سيمون وإنما شيئًا أكثر مرحًا، أكثر ملائمة كى تقوّى عندها الجرأة والإقدام. اختارت شريطًا لـــ The Pretenders [2] وفى الحال فكرت فيما إذا كان هو معها فى السيارة فلن تجرؤ على أن تسمعه هذه الموسيقى. كانت تنظر إلى عينيه الرماديتين المنتبهتين ولم تتمكن من تخيل فى ماذا يفكر، وكيف سيراها. أفزعها فجأة الاقتناع بأنها وقعت فى حب شخص لا تعرفه. أسرعت بقوة بمجرد خروجها إلى الطريق، رفعت صوت الكاسيت وهى تكرر بصوت خفيض كلمات الأغنية، وفقط عندما تركت خلفها آخر

---

(١) **ثيسر باييخو**: شاعر وكاتب بيروفى (١٨٩٢ ــ ١٩٣٨) من أعظم المجددين فى الشعر فى القرن العشرين واتسم شعره بالإنسانيات. وكتب فى جميع الفنون الأدبية من مسرح ورواية وقصة قصيرة. (ت).

(٢) فريق موسيقى الروك أمريكى إنجليزى كانت بداية ظهوره فى ١٩٧٨. (ت)

الأبنية شعرت أنها منطلقة وحرة، أصابتها قوة الموسيقى واهتزاز السيارة بالعدوى، حرة من الحرص المهلك والدقيق على القرارات بسبب السرعة الرهيبة التى تحملها صوب الوادى بينما بدأت تمسى وكان القمر البدر والأصفر يظهر فى مرآة السيارة العاكسة، من فوق صورة جانبية للأبراج وللأسقف التى تترك فى الخلف وفقًا لمرورها بسرعة مطابقة بين الكيلومترات والدقائق.

كان قد قال لها إنه سيصل بين السادسة والنصف والسابعة: تفضل أن تنتظره بوقت كاف، أن تصل قبله إلى الغرفة، أن تفحص كل شىء، حتى أنها كانت قد فكرت فى أن تستحم وتغير ملابسها حتى لا يبقى معها رائحة التعب والطباشير والعرق الطفولى للمدرسة، ولكن قررت ألا تفعل، إنها لا تريد أن تعطى انطباعًا زائدًا بالبرهان، وهكذا مشطت شعرها فقط ووضعت ظلالاً فوق العينين وأحمر شفاه، لم تكن الحبيبة التى تستعد لاستقبال حبيبها المتعجل والخائن.

تغلبت قدر استطاعتها على الخجل الخفيف، على نبض الخجل، بينما توقع بطاقة الدخول فى الاستقبال وأظهرت رخصة القيادة وبطاقة الائتمان وهى خائفة من أن تقابل وجه أى شخص تعرفه من بين طاقم موظفى الفندق، وجه أحد الجيران، أو وجه ولى أمر أحد التلاميذ: فجأة كل شىء صعب، محرج، بطىء، غير ممكن، تفاصيل الاستمارة، العامل الذى تأخر فى حمل حقيبتها، باب الحجرة التى استغرق فتحه وقتًا، العملات المعدنية للبقشيش التى لم تكن تظهر فى الحقيبة، المقلوبة فوق الفراش، وفرة فى كل شىء ما عدا عملات فئة المائة، المناديل الورقية، علبة البودرة، قلم الشفاه، السجائر، علبة الكبريت الكبيرة، فى النهاية جمعت ثلاثمائة بيزيتا وأعطتها للعامل بشىء من شك غير منطقى بالخسة كأنها تعطيه رشوة ليفعل لها شيئًا، لتشترى صمته.

عندما أصبحت بمفردها هدأت فى الحال. لم يكن يبدو أنها فى غرفة فندق وإنما فى بيت ريفى دعاها إليه أحد. الحوائط بيضاء، السقف مائل، بألواح خشبية بدائية مطلية بالورنيش، الأرض من البلاط الأحمر، تطل نافذة لها مصاريع فظة على منحدر لنهر: فى المدينة، من بعيد، أضيئت الأنوار فجأة رغم أن الليل لم يسدل ستائره بالكامل، كان لا يزال هناك ضوء للنهار فى الضباب الخفيف فوق النهر فى الأرض الجيرية لمزارع الزيتون. فكرت، بعيدة جدًا، وقريبة جدًا، وهى محمية وضعيفة جدًا، غريبة قليلاً أمام نفسها أمام غرابة الأشياء العامة، وغرابة المكان، والساعة، السادسة مساء يوم عمل وهى ليست بالبيت، ولا حتى تعرف إذا كانت ستعود هذه الليلة، أو أنها ستعود إلى المدينة فى صباح اليوم التالى، فى التاسعة إلا الربع، مثل كل صباح، متأثرة أو مخدوعة، ولا هذا أيضًا، تشعر بالخسة، بالإحساس بالخداع، بسبب الندم الحميمى غير الواضح.

فحصت البار الصغير فى حيرة بين الويسكى والشراب المسكر وفى النهاية جهزت لنفسها مشروبًا من شراب الجن المسكر وماء التونيك وفتحت كيس لوز مملح معه. المزج بين مرارة التونيك والدوار العذب للجن سبب لها درجة من الإحساس بالخفة تتميز بالمذاق المالح للوز الذى يزيد من الرغبة فى تذوق الشراب. سيأتى، كانت تفكر، جالسة على الفراش حافية ورجلاها مستقيمتان والقدمان بجوار بعضهما فوق المرتبة، الجن تونيك البارد فى الحجر، بضوضاء رغوته المحفزة والرائحة المرة لقشر الليمون، السيجارة على المنفضة، بجوار المصباح الموجود فوق خوان السرير ما زال مطفأ، تنظر إلى نفسها فى المرآة ذات الإطار القديم التى كانت أمام الفراش بالضبط، إنه فى الطريق، سيأتى لأننى كلمته بالتليفون، لأننى خجلت وخفت وتشجعت لأقول له إننى أنتظره هنا، إنه ليس لدىّ وقت، ولا رغبة ولا صبر لأخفى أكثر شىء أرغب فيه ولا لأظل أفقد أفضل ما فى حياتى، لا أعرف الآن أن أتصنع، أو أنتظر أو أستسلم ولا أن أقول تصبح على خير لرجل

يعجبنى كثيرًا وأراه يمشى كأن الأمر سيان بالنسبة لى، مثلما حدث تلك الليلة، عندما ودعا بعضهما بعد العشاء وبعد الانغماس فى النبيذ والبكاء الذى لم يمكنها التغلب عليه. كم وقت مضى دون أن تحتضن أحدًا هكذا!، ودون أن تشعر برغبة بهذا الشكل نحو رجل، بضرورة كبيرة وحنان كبير وبثقة ليس لها أسباب ولكنها أيضًا قوية بحيث إذا قام هو بالخطوات الضرورية لن يهزمها الندم فيما بعد.

تلك الليلة، بعد العشاء وبعد أن أطلقت هى عليه مشهد البكاء، كانا قد دخلا المدينة صامتين، غير قادر أى منهما على النظر إلى الآخر، مع هذا البرود من الغرابة التى استردت بعد ود وحنان مبكر، وخلف الشك فى الخطأ، فى خطوة غير حقيقية على الأقل. اصطحبته فى السيارة حتى باب منزله رغم أنه كان قد قال لها إنه غير ضرورى، ولم يعرف كلاهما كيف يودع الآخر، نظر كلاهما للآخر بشكل عابر وشكرها على العشاء بأدب رسمى أكثر من اللازم، ظل ساكنًا ويده تفتح الباب، تمنى لها مساء خير، فى لكنة كررتها هى عندما أجابته، وخرج يغلق الباب بينما لاحظت سوسانا أنه كان ينظر الشارع يمينًا ويسارًا. أشار إليها بيده مودعًا بينما هى تنطلق بالسيارة، كان وداعًا غير شخصى، انحناءة خفيفة من الرأس وبالكاد حركة باليد التى تمسك بالمفاتيح. فى المرآة بينما تبتعد رأته يدخل من الباب وشعرت بانطباع من الوحدة المطلقة مثل أولئك الأشخاص الذين بمجرد أن يقولوا وداعًا يكونون قد ابتعدوا، وتكون قد ألغيت كل صلة كانت مع الشخص الذى تودعه، محت وجوده بآلية سريعة، بإشارة وكلمة واحدة.

لم تنم جيدًا بسبب القهوة غير الضرورية الذى تناولتها بعد العشاء، حانقة على نفسها وعليه، بسبب البرود والغباء المتبادل للوداع. فى اليوم التالى، الجمعة، الغثيان والدوار وألم الحلق لأنها دخنت أكثر من اللازم وأضيف إليها تعب العمل لخمسة أيام متواصلة فى المدرسة: ظلت غائبة عن

المحادثات فى الفناء وفى استراحة المعلمين، لم يكن لديها صبر مع الأطفال، كان يعييها كثيرًا أن ترفع صوتها. عادت إلى المنزل عندما كانت قد أمست وبمجرد أن أضاءت نور غرفة الاستقبال بدأ جرس التليفون يدق. قالت لنفسها، إنها أم سيئة، عندما عرفت فيما بعد أنها عانت من نوع من خيبة الأمل عندما سمعت صوت ابنها وهو يتحدث إليها بحنان غير معتاد فيه، بذلك الصوت الفظ لمراهق والذى كان قد اكتسبه فى السنوات الأخيرة، قال لها إنه يرغب فى رؤيتها وإنه سيمضى معها عطلة نهاية الأسبوع المقبل.

بعد أن أغلقت الهاتف شعرت بالندم لأنها ربما كانت باردة أو فظة أكثر من اللازم مع ابنها عندما قالت له وداعًا، حيث كانت ترغب أن تتجنب خطر أن يأخذ أبوه التليفون، وأن يكون مستعدًا أن يحكى لها مرحلة جديدة من عذابه أو التزامه وأن يستشيرها فى الحالة النفسية للابن. بينما كانت ترتب المنزل كانت تستمع إلى أسطوانة خفيفة وشبابية لإيلا فيتزيجرالد التى تبث فيها حماسًا كبيرًا، راجعت المحادثة كلمة كلمة مثل وكيل النيابة الذى يبحث عن أدلة ضدها هى نفسها، فى تحقيق دقيق وفظ كان يسيطر عليها فى مواظبة محددة. كانت أكثر استعدادًا لتتهم نفسها أو ترك نفسها تجرحها اتهامات الآخرين أكثر من كونها تدافع عن نفسها، والآن تفهم متأخرًا ودون شك ولكن بالفعل لم يعد هناك حل، إن الانتهازية العاطفية لزوجها السابق كانت قد تغذت على ضعفها هذا طوال عشرين عامًا تقريبًا، من موهبته التى لا تخطئ أبدًا كى يوقظ فيها الشك والإحساس بالذنب.

«لن يحدث هذا مرة أخرى» قالت بصوت عال، وهى تشرب النخب مع نفسها فوق السرير، أمام المرآة، عصبية وثملة قليلاً، قلقة، لا تريد أن تنظر إلى الساعة كثيرًا، السابعة إلا الربع، فى الغرفة المضاءة الآن بمصباح خوان السرير. عندما يصل هو لا يجب أن يجد ضوءًا كثيرًا ولا ظلامًا

مبالغًا فيه، لا يزال لديها وقت لتفرغ المنفضة وتفتح النافذة كى يخرج الدخان. الأشخاص الذين لا يدخنون حساسون جدًا من رائحة الدخان، بصفة خاصة من أقلع منهم عن التدخين، الذين تحولوا حديثًا إلى غير مدخنين، مثله هو بلا شك. لا يُرى الكوبرى ولا الطريق من النافذة ولكن عندما فتحتها سمعت موتور سيارة يقترب يعانى فى صعود التل وشعرت بقشعريرة وأغلقتها فى الحال. فى دقائق الانتظار كل شىء أصبح بالنسبة لها غير حقيقى إلى حد ما.

ولكنها لم تكن دقائق وإنما أيامًا كاملة كانت قد مرت، فى البداية كانت تنتظر أن يحدث شىء ثم قررت أن تتحرك هى بنفسها، وهى تفكر فى وحدتها، تتخيل كلمات ممكنة، صدفًا، تحل لها كل شىء، لقاء فى الشارع، مثلاً، يوم السبت، عندما تذهب إلى السوق تتذكر أنها كانت قد قالت له إنها تقوم بالمشتريات صباح السبت: لن يكون سيئًا أن يكون هو من يبحث عن هذا اللقاء ولكن لم يبد ممكنًا، فى السيارة وأثناء الأسبوع كانت سوسانا قد فكرت فى شىء جرؤت فقط أن تقوله له فيما بعد، أن يكون هو، كما يقول "نابوكوف دى بروست[1]"، بطل آخر من الاحتراق الداخلى.

كى تصل إلى السوق كان عليها أن تمر من الميدان الذى يقع فيه قسم الشرطة. رأت حراسًا يرتدون الزى على الباب وسيارة دورية تبعث أنوارها ومضات ضوئية رغم أن السرينة لا تسمع. شعرت بقليل من السخف وهى تتذكر شيئًا كان قد قاله هو بجدية شديدة دون أى تأكيد كأنه أدرك شيئًا طبيعيًا: ما أفكر فيه فقط، ما أعيش من أجله فحسب هو أن أجد الرجل الذى قتل فاطيما. ألم تكن طريقة لطيفة أو ببساطة جبانة كى يحذرها من عدم

---

(١) **نابوكوف دى بروست** (١٨٩٩ ـ ١٩٧٧): كاتب روسى حصل على الجنسية الأمريكية.(ت)

الاستمرار فى التقرب منه؟ ولكنها كانت تذهب إلى السوق بغرض ليس محددًا كلية فى ضميرها بأن تشترى شيئًا خاصًا كى تدعوه عليه إذا تجرأت أو قررت أن تهاتفه.

فى الميدان، على الضوء المظلم للشروق، فوق الأسفلت المبلل، تفرض الحركة الصامتة لأضواء سيارة الشرطة الإحساس المسبق بالإنذار، بضرورة بلا معنى إلى حد ما، حيث لا توافق أى نشاط مرئى، مع هدوء حرس الباب الذين يدخنون أو سائقى التاكسى الذين ينتظرون أسفل الأوراق المستديرة لأشجار الليغسطرؤم.

لو كان فى مكتبه، لو كان قد اقترب من زجاج الشرفة لأمكنه أن يراها تمر بعربة المشتريات وهى ترتدى بنطلون القطيفة والحذاء ذا الرقبة الشتوى والسترة الشتوية الزرقاء الداكنة. لم ترد أن ترفع رأسها ولا أن توجه نظرها صوب مبنى قسم الشرطة. مع خيبة الأمل والراحة فى الوقت نفسه ابتعدت تحت أسقف أبنية الشارع التى تفضى إلى السوق، مزدحمة بالناس فى هذه الساعة، بالسيارات وبالنساء مع عربات شراء مثل عربتها، وكلما مر الوقت تصبح أكثر ازدحامًا وتتكاثف الأصوات والروائح. كان يعجب ابنها كثيرًا الذهاب معها إلى السوق عندما كان عمره ثلاث سنوات أو أربع. الآن تمر بمفردها بجوار أماكن بيع اللعب الرخيصة وحلوى الأطفال وترى نفس حركات ابنها ونظراته فى أطفال آخرين متدثرين من برد الشتاء مرتدين السترات الشتوية والأحذية ذات الرقبة المصنوعة من الكاوتش، أصابع السبابة القصيرة التى تشير أو تختار أشياء، الأعين المفتوحة عن آخرها، احمرار الخدود الناعمة من الهواء، الوجوه الملتصقة بالزجاج، مندهشة بسبب رؤيتها عربة بلاستيكية، أو لرؤيتها عصا مليئة بكرات من الأنيس أو بطل خارق غير حقيقى.

لا تعتقد أنها ستدعوه، ولكنها على كل حال قررت أنها ستدلل نفسها وتعد وجبة لائقة لتخفف من وحدة السبت المضبب وملله. وربما تقرر فى النهاية أو يهاتفها هو، أو أن يتقابلا فى الشارع، اشترت سمكتين من سمك الأسبور من محل السمك الذى تشترى منه دائمًا، من عند ذلك الشاب الذى يثير فيها قليلاً من الشفقة لأنه ليس له هيئة بائع السمك، صحيح أن جسده مفرود وممتلئ، ويداه كبيرتان، تفكر، يداه حمراوان قويتان عندما تتحكمان فى فأس أو تأخذان حفنة مبللة من سمك الكالامار أو سمك الأنشوجة، مبللتان عندما تحتكان بشكل خفيف بيديها عندما يرد لها الباقى. ولكن الوجه لا، يبدو الوجه غير متناسق بالمرة مع باقى الجسم وفى موضع السمك هذا وكذلك صوته مهذب جدًا وناعم، يجعلها تتذكر بضيق بعيد صوت زوجها السابق. كان وجه شاب، رغم أنه ليس شابًا حديث السن، مثل الوجوه القديمة، العيون كبيرة مستطيلة قريبة جدًا من بعضها، علاوة على ذلك قريبة بسبب قوس الحاجبين الطويل، وجهًا بيزنطيًا، غريبًا، دائمًا غريبًا شيئًا ما عن فعل اليدين الحاسم.

بعد عودتها إلى المنزل غسلت يديها بعد أن نظفت السمك. وعندما وصلت إلى حالة فعالة من التألق الذهنى عرفت أنها لن تهاتف المفتش، وأنه أيضًا يبدو لها غير محتمل أن تعد الطعام لنفسها فقط. هاتفت فيريراس، دون أن تفكر مليًا، ربما دون اقتناع كامل بأنها ستجده، أو أنه سيقبل: ولكن بالكاد أعطى التليفون إشارة الاتصال حتى التقط هو التليفون ورغم أنه ظل فى البداية مرتبكًا قليلاً لأنه لم يكن معتادًا أن يتواعد هو وسوسانا، وافق فى الحال، بسعادة من هو أنقذ لتوه من شىء.

اعتاد أن يتقابلا بالصدفة، ويدخلا فى أقرب بار يجدانه ليتناولا قهوة أو بيرة، وهما يتحدثان بحماس يتذكران أوقاتًا ماضية، خاصة فيريراس، رغم عدم تذكر الجروح القديمة، حتى ينظر أحدهما فى الساعة ويكتشف أنه تأخر

به الوقت كثيرًا عن فعل شيء، ظلا يريان بعضهما طوال وقت طويل، يتواعدان على الغذاء ذات يوم، وفقط يتقابلان مرة ثانية بعد مرور أسابيع أو أشهر، بالصدفة مرة أخرى.

وصل فى الثانية تمامًا، ملفحًا بسمرة ومتحمسًا، مرتديًا سترته الواسعة، والخوذة فى يد وفى اليد الأخرى زجاجة نبيذ، وهو لا يزال متفاجئًا وممتنًا للدعوة، بشىء من الفضول أيضًا، بابتسامة عريضة تظهر أسنانه الرائعة فى وجهه البرونزى كأنه من شمس أفريقية، شعره مبلل، تفوح منه الكولونيا بشكل خفيف، سريع الحركة، بمجرد أن أسلم الزجاجة، احتضن سوسانا من خصرها بينما يُقبلها فى شفتيها، فقط يلامسها بشفتيه، بشاربه الكبير الذى غزاه الشيب، مثلما غزا شعره الغزير غير الممشط، أشعث دائمًا من جراء رياح الخريف، مثل الوجه، ذلك الوجه، وذلك الوجود الحاسم لمصور حرب ومكتشف الأمازون الذى يعيش مع والدته وخالة غير متزوجة، تخاف من ركوب الطائرة ولم تسافر أبدًا أبعد من البلد الذى ولدت فيه.

قال لها بعد ذلك، وهو ينظر إليها وهى تطبخ بينما يشرب من علبة البيرة، ربما كان بسبب وفائه الفظ لاستخدام الموتوسيكل والسترة:

- سوسانا جراى. سوسانيتا، مع أنك كنت تعجبيننى حينذاك، بينما كنا وفيين جدًا لذلكما الاثنين اللذين كانا يخونان ثقتنا، كان يجب أن نكون معًا، أنا وأنت.

- الآن أتذكر، كنت أنت منحازًا للأسرة المستديرة.

- كنت ليبراليًا متحمسًا، ولكن خيالى محض، تقريبًا مثل الآن – انفجر فيريراس فى الضحك، وحجم وبياض أسنانه فى وجهه شديد السمرة تزيد من ضحكته. زوجك السابق وخطيبتى السابقة يدافعان عن مبادئ الزهد

الثورى وعندما أدرنا لهما ظهرينا انطلقا ليمارسا الحب الحر، الجماع الخائن، حتى أقولها بطريقة لطيفة.

- انظر كيف كنا اثنين من الأغبياء، أنت وأنا، بعد مرور سنوات وما زلنا نتذكر.

- سوسانا، سوسانيتا. – كان فيريراس يكرر الاسم بحنان يفتقد تقريبًا إلى الحياء –. إذا قلت لك الحقيقة كنت تعجبيننى أكثر من خطيبتى، كنت تعجبيننى وأنت مرتدية النظارة أو بدونها، بشعرك ملمومًا أو منسدلاً، تعجبنى الكولونيا أو الشامبو الذى كنت تستعملينه ورائحة المدرسة التى كانت لديك وتلك الرائحة التى اكتسبتها فيما بعد، بعد الولادة، رائحة الأطفال الصغار جدًا التى تبقى مع الأمهات. يا لها من رائحة جميلة، سوسانا!، رائحة لبن لاذع قليلاً، رائحة كولونيا الأطفال وبودرة التلك. إذا كنت عرفت أنه ذات يوم عندما وصلت لأبحث عن زوجك السابق ولم يكن موجودًا بالفعل لأنه كان يقيم علاقة مع خطيبتى فى ورشة الفخار الأسطورية الشعبية الأندلسية، الاثنان متلبسان، ليس هناك أفضل من هذا القول، حسنًا وصلت وكنت بمفردك فى تلك الشقة الخاوية جدًا، فى هذه الشقة، أنت بمفردك مع الطفل الذى كان عمره شهورًا حينذاك، تحدثنا عن شىء ثم بدأ الطفل يبكى، فقلت لى: إنه موعد تناول الرضعة، بكثير من الكتمان رغم التلقائية التى لا يشوبها شىء، ففككت زرارين من القميص وبدأت ترضعينه، دون أن تكشفى الثدى كله، طبعًا، ولكن دون أن تخفيه عنى أيضًا، ووقع لى شىء قوى، شىء من المرارة والحنان فى الوقت نفسه، شعرت بالخجل حتى من النظر إلى وجهك، لا يذهب بك التفكير فى أننى كنت أريد أن أرى ثدييك...

- أنت أيضًا كنت تبدو لى أكثر وسامة من زوجى. كانت سوسانا قد أطفأت الفرن وكانت تشرب كوبًا من النبيذ الأبيض وهى مستندة على طاولة المطبخ. لم تكن المرة الأولى التى يتبادلان فيها مثل هذه المحادثة مع التنوع لما يمليه تغير الذكرى والحالة المعنوية: ترتكز صداقتهما بصفة خاصة على المساحة البيضاء عما لم يحدث لهما وفى تذكر رابط غير إرادى يبتعد كلما مر الوقت، رابط الخيانة المتوازية التى ارتكبها الآخرون. ولكن إذا كنت أطيل النظر إليك سرعان ما كنت أشعر بالذنب. إنه الخجل، كنت أفكر، هو معذب جدًا بورشة الفخار الخاصة به يتأخر كثيرًا فى العودة كل ليلة، متضايق من العمل والديون، وأنا أقارنه بشىء ليس فى صالحه بصديق روحه... هل فعلاً بدأت أرضع ابنى أمامك، وأنا وأنت بمفردنا؟

- بالطبع نعم. أتذكر كأنه كان بالأمس.

- ولكن كيف تكون ليبراليًا وتدخن المخدرات ولا تشعر بالذنب من الحملقة فيمن لا يجب عليك أن تحملق فيها؟!.

- زوجة صديق. - قال فيريراس بشجن وسخرية، ربما بشفقة صوب من لم تكن مختلفة كثيرًا عن الشفقة التى كانت تشعر بها سوسانا نحو نفسها أم ابنه -. سوسانا سوسانيتا. كم كانت الرغبة التى اعترتنى ذلك المساء لأقبل حلمتيك اللتين يرضع منهما ابنك بسعادة غامرة. كان يجب أن نكون معًا أنا وأنت ونترك الاثنين بدلاً من أن يتركانا هما. إذا أصادقك القول، من حين لآخر كان يعود إلى الأمل، رغم أنى لا أنتهى إلى تصديق ذلك الأمل، كأنه أثر لشىء شبابى، مثلاً عندما يبدأ أكتوبر ولا يزال يبدو أن العام الدراسى سيبدأ فى المدرسة الثانوية. كما تقول أمى أنا فتى عجوز، جرى بى العمر. ولكن اليوم عندما هاتفتنى رأيت فجأة السماء مفتوحة. دائمًا عندما أقابلك أشعر بذلك الشىء الناعم، مثل فتى

فى المعهد الثانوى، كأننى أشعر "أنظر إذا ما...". جئت بأفضل زجاجة من نادى النبيذ الخاص بى، فتحت لى الباب وفى نفس الوقت سمعت الموسيقى التى تعجبك كثيرًا وشعرت برائحة ما تطهينه فى الفرن ولكن الأمل لم يستمر معى ولا حتى خمس دقائق.

- لأننى أكبر من ذلك الحين باثنتى عشرة سنة.

- بالطبع لا، سيدتى، السبب ليس هذا، الآن أنت أكثر جمالاً مما كنت فى أواخر العشرينيات. الآن أنت أكثر نضجًا، أكثر رسمًا، أنت أيضًا فى أوجك، كما تقول أمى. أنا ضد من يعشق الشباب الأول للنساء، لا تعرفين كيف تتعبنى تلك العارضات المراهقات لإعلانات السراويل الجينز التى تثير جدًا أصدقائى المتزوجين أرباب الأسر. ما حدث هو أننى رأيتك وشعرت بشىء غريب، لا أعرف كيف، لأننى فظ بصفة عامة بشكل كاف لأدرك الأشياء، استغرقت وقتًا قليلاً لأفهم. لقد رأيتك ونظرت إلى عينيك وسمعت هذه الموسيقى، رأيت الأطباق وأدوات المائدة والمفرش الذى وضعته على المائدة، وفكرت فى أنه فى الواقع لا شىء من هذا من أجلى. ربما لا يمكننا أن نكون أنا وأنت بمفردنا أبدًا دون أن يكون بيننا أشخاص غير مرئية.

«سوسانا، سوسانيتا»: يعجبها تذكر الطريقة التى كان يكرر بها فيريراس اسمها. الآن تنتظر أن تسمعها من شخص فى الحقيقة لم تسمعها منه بعد. تفكر فى ظلم الصداقة بين النساء والرجال، فى عدم التناغم الدفين، والذى سرعان ما يسبب الإهانة: ربما كانت أكبر من إهانة الرفض الجاف لطلب الرغبة، كان سلوكًا هادئًا للصداقة، كانت تستبعدها مقدمًا، دون أن تتوقف كثيرًا أمامها.

Just friends, lovers no more كانت تقول إيلا فيتزيرالد فى إحدى الأغنيات التى تدور بينما هى وفيريراس يتحدثان فى المطبخ، يستندان على الطاولة يشربان شيئًا، محافظين على مسافة جسدية غريزية، كان هناك حرص لدى فيريراس، شىء من التأمل تجاه الآخر، لا يعرف ولا يشك فى أحد، كانت إحدى الموجودات غير المرئية تشغل المكان الفارغ بينه وبين سوسانا. ولكن كان قد أسعدها كثيرًا ذلك الاعتراف بالرغبة والحنان التى لا تبادله إياه، وقد أعاده لها فى الوقت الذى يعوزها فيها كثيرًا، مثل المرآة الإيجابية، صورة ليست محبِطة عن نفسها، عن جاذبيتها وعن جسدها، الذى يساورها كثير من الشك حوله. بهذا الشكل، كانت تفكر بعد ذلك، عندما كان قد رحل فيريراس ومال المساء الحزين للسبت صوب ليل من المطر، قوة الرغبة فى رجل لا تبادله المشاعر تتصرف بشكل ذاتى ضده، لأنه بدلاً من أن تقربه إلى المرأة المرغوب فيها يشجع عندها الإرادة الدفينة فى أن تصبح جذابة أمام أعين الرجل الآخر.

صباح الأحد هاتفت المفتش مرتين: بينما تسمع الإشارة الملحة وعديمة الفائدة تذكرت أنه كان قد قال لها إنه يذهب أيام الأحد ليزور زوجته فى المصحة الموجودة فيها. أمضت اليوم كله بمفردها، محبوسة، دون أن تتحدث مع أحد، مفضلة الهدوء والقراءة على الموسيقى، دون أن تخرج إلا لشراء الصحيفة، التى خصصت لها وقتًا طويلاً من مساء قصير وكسول، مع وقفات شجن خفيفة. بعد أن تناولت العشاء شربت كوبًا أخيرًا من النبيذ الممتاز الذى أحضره لها فيريراس وهى تشاهد فى التلفاز *ذكريات أفريقيا*، فى جزء كبير من السبب وفاؤها القديم لروبرت ردفورد[١].

---

(١) العنوان الإنجليزى لهذا الفيلم هو: خارج أفريقيا Out of Africa. (ت).

في الساعة الثانية عشرة مساء دق جرس التليفون وانقبض قلبها: كان من اتصل قد أغلق الخط بعد سماع صوتها تسأل من المتكلم. فجأة أصبحت الوحدة بالنسبة لها شيئًا عدائيًا وغير لطيف، باب منزلها ضعيف، والليل خلف الزجاج يهدد بالكثير مثل التليفون الموجود بجوار فراشها. يعجبها التليفونات، كان قد قال المفتش: أى شخص يمكن أن يرتعب بشكل تلقائى ودون أى مجهود من اتصال بسيط. على غير عادتها أغلقت الباب بالمزلاج قبل أن تنام. أطفأت المصباح وأخافها ظلام منزلها الخاوى، الردهة خلف الباب شبه المغلق لغرفة النوم. إذا لم تأخذ فى الحال منومًا سترى وصول الإشراق الحزين ليوم الاثنين، يوم عمل بعينيها المفتوحتين جدًا.

رأته فجأة، دون أن يراها، عند عودتها من المدرسة فى المساء التالى، فى مكان غير متوقع، متنزه بائس للأطفال لم يكن مستبعدًا أن تكون فاطميا قد لعبت فيه ذات مرة، لأنه لم يكن بعيدًا عن منزلها، مساحة من الأرض ممهدة مستوية بين عمارات بها شقق، به مقاعد قليلة، به سلات قمامة مكسورة، وبه نافورة بلا ماء على شكل فنجان، وبعض الزحاليق والمراجيح التى صدئت حيث يلعب عليها أطفال خرجوا توًا من المدرسة، الأطفال الصغار تحرسهم الأمهات الشابات اللاتى يتحدثن مع بعضهن فى مجموعات ويدخنّ. فى زاوية بعيدة كان هناك بعض المراهقين جالسين على الأرض يمررون بينهم كارتون من النبيذ، يتناقشون حول شىء بحركات فظة وكلمات نابية جدًا، مع إدراكهم للسوقية وحرصهم عليها. خمنت سوسانا أنهم تقريبًا فى عمر ابنها. أعطت واحدًا منهم درسًا عندما كانت قامتهم مثل قامة الأطفال الذين يتأرجحون ويتزحلقون. كان مساء شتاء غائم غابت فيه الشمس، إحساس التدهور، مثل تدهور أعمدة الإنارة ومصابيحها البلاستيكية المهشمة، والأرض العارية المتسخة بالأكياس الفارغة وأوراق الشجر التى أحضرتها الريح من أماكن أخرى، لأنه لم تكن هناك شجرة واحدة فى المتنزه.

هناك كان هو واقفًا، فى وضع غريب، مراقبًا ودخيلاً لا يمر دون أن يلاحظ، يرتدى سترته الخضراء الداكنة وحذاءه الفظ لجوال بين أراضى الشمال الوعرة، شبه منتبه إلى شىء وفى الوقت نفسه منغلقًا، كأنه ليس موجودًا بالكامل فى المكان الذى يشغله، مشوشًا وغير متأكد فى عدم إمكانياته. وفقًا لاتجاه عينيه لم يكن من المستطاع معرفة ما كان ينظر إليه، ما إذا كان يتأمل شيئًا أو إذا كان واقفًا فحسب وسط الأشياء، بين أصوات النساء وصراخ الأطفال، فى وسط مساء شتوى لشهر نوفمبر.

بينما بدأ تأثير المفاجأة يخف، انتهزت سوسانا عن عمد ميزة أنها تراه عن قرب دون أن يلحظها: بدا لها تأمل شخص معروف بينما يعتقد هو أنه بمفرده، هو بمثابة استغلال غير مقبول، كقراءة بريده، كما أنه فى الوقت ذاته شىء مُغر. كانت سترته مفتوحة، ويداه فى جيبيه ورقبة السترة مرفوعة. أضفى البرد على جلد وجنتيه النحيفتين وأسفل عينيه لونًا أحمر كالأنجلوسكسونيين. كان قاطب الجبين وعيناه شبه مفتوحتين، ينظر إلى الأرض ويرفع بصره صوب الزحاليق ومجموعة النساء، ولكن يجب أن يكون قد مكث سرحانًا فى شىء لا يراه فى الحقيقة، لم ير سوسانا عندما تقدمت نحوه تحرك يدها. نظرت إليه الآن إحدى النسوة، دون انتباه كبير، رغم أنه انتباه مصحوب بالشك. سقطت كرة من الكاوتش عند قدميه، انحنى هو ليعيدها لطفل يبلغ أربع أو خمس سنوات، مرر يده بخفة على شعره. غريب أنه لم ينجب أولادًا.

عندما رأى أخيرًا سوسانا استغرق بعض ثوان لرد الفعل: ظل واقفًا، بطيئًا كى يبتسم أو يقول شيئًا، ولكنها قبلته قبلتين بتلقائية محسوبة، مستعدة ألا تهزم وقوية هذه المرة بسلبية الرسميات. يا لها من مفاجأة!، قالت له، وكأنك لا تبحث عنى، نفى هو فى الحال بحركة من رأسه، كأنه منجذب

لشيء غير لائق، وفهم في الحال أن الرفض بذلك العنف الشديد هو شيء غير لائق، وليعوض حماقته أو ليخرج من هذا الموقف تجرأ على أن يقترح عليها أن يتناولا قهوة معًا، كان بالقرب من هناك محل حلويات مناسب، قالت سوسانا، وإذا لم يكن مشغولاً جدًا يمكنهما تناول وجبة خفيفة كما كانا يفعلان قديمًا، قهوة مع حلويات أو كعكة بالقشدة.

وهي تجلس أمامه، على المائدة الصغيرة لمحل الحلويات، انتابها إحساس مفاجئ بأن مقابلته بالصدفة اكتسبت أهمية حاسمة. لأول مرة تراه خامد الهمة متشككًا، لا يحميه التخفي خلف المسافة المهنية، وكأنها عندما فاجأته في ذلك المتنزه لم يكن يستطيع أو يريد أن ينسحب إلى هذا النوع من الملاحظة الداخلية التي يبدو أنه يعيش فيها. الآن ينظر إليها بطريقة أخرى، لا ينظر فقط إلى عينيها، ظل ينظر إلى فمها أو إلى يديها، إلى فتحة القميص الذي ترتديه، عند سماعها ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم يكن واعيًا لها، لم يكن واعيًا بالإعجاب الذي اختلفت كثافته والموجود الآن في حدقتيه. قالت، ماذا كنت تفعل في المتنزه؟ وجاءت الإجابة بنفس اللكنة غير الشخصية واللا إرادية التي كانت في السؤال، تحولت إلى اعتراف مهزوم.

- تسألين ماذا كنت أفعل؟ أبحث عنه. هذا ما أفعله دائمًا. حوالي شهرين أبحث عنه وما زلت تقريبًا كما بدأت. قال لي أحد الأصدقاء: ابحث عن عينيه. الرجل الذي قد قام بهذه الفعلة لا يمكن أن تكون له نظرة الآخرين. ولكنني أسير في الشارع وشيئًا فشيئًا يبدو لي أن العيون التي أحملق فيها يمكن أن تكون لقاتل أو أن لا أحد له هذه العيون، غادر المدينة ولن أقبض عليه أبدًا. أحفظ في ذاكرتي وجوه كل المسجلين الذين عرضتهم عليك في القسم. ذهبت إلى كل نوادي الترفيه وتحدثت مع العاهرات اللاتي يقفن في الطرق خارج المدينة لعلهن يتذكرن زبونًا غريبًا، أو كان به شيء مختلف عن الآخرين؛ العجز مثلاً. تمكنا أن

نخفى هذا عن الصحف. يقول فيريراس إنه لم يصل إلى الولوج داخل الطفلة، وحتى إنه لم يحتلم. ولكن تسألين العاهرات عما إذا كانوا قد تعاملوا مع شخص غريب الأطوار فينفجرن فى الضحك، ويقلن لك إنهم لم يروا أبدًا رجلاً عاديًا. الآن ما أفعله هو الذهاب إلى المحيط لقريب من المدارس فى وقت الفسحة أو أن أبدأ فى ملاحظة الرجال الذين ينظرون من سور الفناء الحديدى. البعض منهم مغتصب أطفال، أعرف وجوههم من الصحيفة الجنائية، رغم أنهم حتى الآن لا يعرفوننى. أعتقد أنهم يفكرون فى أننى واحد منهم. لا يفعلون شيئًا تقريبًا ينظرون فحسب، إذا لم أكن أعرفهم من الصحيفة الجنائية لما قلت أبدًا إنهم مشتبه فيهم، يرتدون بشكل جيد كما اعتادوا، كبار فى السن، حتى أن أحدهم يبلغ من العمر تسعًا وسبعين عامًا. ولكن هؤلاء لا يتجرؤون إلى هذا الحد، ليس لديهم تلك القوة فى أيديهم. أذهب إلى حدائق الأطفال، في الظهيرة أو عند موعد الخروج من المدرسة مساء، ولكن لا أقول شيئًا فى القسم عما أفعله، يعتقدون أننى أحمق. بدلاً من أن آكل فى مطعم مونتيرى أشترى ساندويتشًا وعلبة كوكاكولا وأذهب إلى حديقة إذا لم تمطر، لدىّ خريطة للمدينة عليها كل أماكن الحدائق، أظل ساعات أنظر إلى وجوه الناس وأحيانًا أرى الشخص الذى يمكن أن يكون من أبحث عنه، شابًا ينظر بشكل محدد، يقترب أكثر من اللازم من الأطفال الذكور والإناث، ويساعدهم فى الصعود إلى الزحاليق، أو يهديهم شيئًا، حلوى أو لبًا، أيضًا هناك رجال محترمون جدًا يفعلون ذلك وليسوا من مغتصبى الأطفال ولا ممن يستعرضون أعضاءهم الذكورية. تمر علىّ الساعات وأفكر فى أنه يجب علىّ الذهاب، تتجمد قدمىّ، إحدى الأمهات بدأت تنظر إلىّ أكثر من اللازم، ولكننى لا أذهب، أبقى وقتًا قليلاً أكثر حتى تمسى ولا يتبقى ولا طفل فى الشارع، وعندما أمشى أظل أبحث ويأتى إلى الحد الذى لا أرى عنده شيئًا حقيقيًا، ليس إلا وجوهًا ووجوهًا

مكررة، أظل أراها ليلاً عندما أغلق عينىّ قبل أن أنام ثم أحلم بهذه الوجوه، وفى بعض الأحيان تجعلنى أحدها أستيقظ لأننى حلمت أن هذا الوجه هو الذى أبحث عنه ولا أريد أن أنساه، أراه واضحًا تمامًا، لا أصدق أننى لم أتوقف عنده من قبل، يجب أن أكون متأكدًا من أننى سأعرفه ولا أستطيع أن أنتظر حتى صباح اليوم التالى حتى أذهب إلى المكتب، وهكذا أستيقظ فى الخامسة فجرًا ولا يعاودنى النوم مرة ثانية. كنت أفكر فيه من قبل، عندما وصلت لذلك لم أرك فى البداية، كنت أفكر فى أننى لن أجده أبدًا وإن مر على دفن الطفلة شهران. فى أى تحرٍّ أسوأ عدو دائمًا هو الوقت، كلما مر يوم يكون من الصعب التحقق من شىء، تندثر الآثار، تضيع الشهود، تتشتت الأدلة، ينسى الناس الأشياء، نحن أنفسنا نصبح أكثر إهمالاً، نهتم بأشياء أخرى، يبدأ محو كل شىء ويأتى وقت لا يكون هناك جدوى. ولكننى لن أنسى، لست مستعدًا أن أسمح بحدوث ذلك، ليس لى حق فى ذلك. كل يوم عندما أصحو أفرض على نفسى مهمة أن أظل أذكّر نفسى وأشعر بنفس الغيظ مثل اليوم الأول، الليلة الأولى، عندما وجدنا فاطيما، لكن لدىّ إحساسًا بأنه كلما مر الوقت أصبح مثل أبيها، عاجزًا مثله، دون أن أفعل شيئًا سوى النظر إلى يدى، كما كان ينظر هو إلى يديه فى تلك الليلة، أتتذكرين؟

كانت يده اليمنى راكدة فوق المائدة ترتعش أصابعه بشكل خفيف بينما يتكلم، وهى حركة تعكس عصبية كانت قد لاحظتها هى فى مرات أخرى. بهدوء وحسم وحذر وضعت سوسانا يديها فوق يد المفتش وضغطت عليها برفق حتى توقفت الرعشة.

- أن ترتكب جريمة وتظل حرًا هو شىء سهل نسبيًا - قال المفتش، الآن يداه ساكنتان أسفل يد سوسانا، النظرة غائرة، بصفة خاصة، من الخجل، وأكثر سهولة إذا لم يكن يوجد دافع واضح، علاوة على ذلك، من يرتكب

الجريمة لا ينتمى لعالم الإجرام. نحن، رجال الشرطة والمجرمين المعتادين، نعرف بعضنا، كما يعرف المعلمون بعضهم، أفترض. انسى كل التقدم العلمى الذى يعجب فيريراس. طريقتنا المعتادة لحل جريمة هى بفضل عملية بدائية جدًا عند الجميع، الإبلاغ عنه. ولكن إذا تصرف المجرم بمفرده، إذا لم يكن هناك شهود ولم يكن مسجلاً، هناك احتمالات كثيرة بأن يظل حرًا طليقًا.

- أنا أتخيل دائمًا هؤلاء القتلة الذين يلعنون كل شىء ورغم ذلك ارتكبوا خطأ واحدًا فقط...

- الأفلام. ابتسم المفتش. الأفلام دمرت عقول الناس. فى الواقع قتل شخص هو شىء سهل جدًا، ليس به أى جدارة أو أى جاذبية، ولا حتى شىء مرضىّ. ما يشعرنى بالقرف من السينما هو الطريقة التى تجعل الجريمة فيها تبدو لافتة للنظر، بينما هى فى الواقع ليست إلا قسوة وعملاً تافهًا، مثل المصارعة عندما لم ينته الحال بموت الثور ويستمرون بوخزه بأى طريقة، لأنهم يتعجلون الوصول إلى منازلهم أو لأن الوقت أوشك على الظلام. ما عدا الإرهابيين أو القتلى المأجورين لتجار المخدرات لا أحد يخطط لشىء. وفى مرات كثيرة لا يهم حتى أن يكون هناك شهود؛ لأن الشهود لا يتكلمون. الأشخاص العاديون يخافون، ومن السهل إفزاعهم. بمسدس أو بمطواة يمكن أن يكون قادرًا على أى شىء، إخافة أو قتل شخص ليست جدارة. ولا حتى يلزم مطواة: حركة، صرخة وتكون الضحية مستسلمة. قوة اليد. أنت لم ترى علامات الأصابع على عنق فاطيما.

- ربما لا تبحث كما ينبغى أن تفعل.

قالت سوسانا، وهى مشتتة قليلاً، وفى الحال ندمت على تأكيدها: ماذا تعرف هى كى تحكم على عمل شخص آخر؟. ولكن كان هناك فى نظرة المفتش دعوة إلى أن تُكمل كلامها. وأردفت:

- ربما لا تحملق بما يكفى فى الأشياء ــ ربما تعتقد أنك تنظر ولكن فى الواقع لا تنظر، تنغلق كثيرًا داخل هواجسك وفى بحثك الذى تنهيه بعدم رؤية شىء مما حولك. حكيت لى أن هذا الشخص عبر الشارع وهو يمسك بفاطيما ويمص الدم من يده، رأته فقط تلك المرأة ولا أحد آخر بين أناس كثيرين. الأشخاص لا يمعنون النظر كثيرًا فيما يفعله أو يقوله الآخرون.

- «لك أعين لا ترى» ــ تذكر المفتش الأب أوردونيا ــ «آذان لا تسمع».

- الرجال بصفة خاصة، لا يمعنون النظر كثيرًا فى الأشياء مثل النساء.

- لقد أمعنت النظر فيك.

- حقًا؟ - ابتسمت سوسانا وشعرت بالمديح، غير مصدقة -. لا أعتقد ذلك. تنظر بتمعن ولكن يبدو أنك ترى دائمًا أو تتذكر أشياء أخرى.

كانت ركبتاها قد تقابلتا مع ركبتيه أسفل المائدة. لم يبعداها أى منهما. فجأة ضايقهما صعوبة الاستمرار فى الكلام، والاقتناع بأن الصمت سيضيع كل شىء إذا طال ثانية أخرى. قال المفتش إنه يجب أن يعود إلى مكتبه. استدعى النادل بحركة من يده اليسرى حتى لا يحرك اليد التى لا تزال ساكنة أسفل يد سوسانا. كانت سوسانا تفكر، يمسكان بأيدى بعضهما، مع تزايد الخوف والسخف، تتلامس ركبتاهما أسفل مائدة من البلاستيك داخل محل حلويات، مثل اثنين مخطوبين مؤخرًا، مثل مخطوبين قديمين من قبل. أعذبان أو أرملان يصلان إلى الزواج بضيق ملاحظ. قالت سوسانا:

- يمكن أن أقلك بالسيارة، لقد أوقفتها بالقرب من هنا.

- لا تشغلى بالك، الأمر لا يستغرق حتى عشر دقائق. - أخيرًا كانت اليدان قد انفصلتا، تبقى فقط الآن أن يعطوهما الباقى. التمشية ستفيدنى.

- كيف حال زوجتك؟

احمر وجهه خجلاً شيئًا ما، ولكنه لم يحد عنها بصره:

- كما هى، يبدو لى ذلك. أعتقد أنها فقدت الاتصال مع الواقع.

كانا على الرصيف وقد أمست بالفعل، على ضوء واجهة محل الحلويات، مرة أخرى غير قادرين على أن يقولا وداعًا بطلاقة أو أن يرفضا الوداع بصراحة، كل منهما كان قد استسلم لسخفه الشخصى الصغير، للندم على انفراد بعد مرور دقائق، عندما يودعان بعضهما حقًا ويصبح من المستحيل علاج الصمت، وتصحيح العذاب، التردد المهين. قال المفتش:

- مدين أنا لكِ بدعوة عشاء.

- لن يكون لديك وقت ولا رغبة مع كثرة العمل. فى كلمات سوسانا كان يمكن إدراك شىء من السخرية.

- أتريدين أن تقولى إنك لا توافقين؟

- إلى الآن لم تدعُنى.

- اختارى أنت اليوم والمكان.

رفعت سوسانا أكتافها وغمست يديها فى جيوب السترة الكبيرة بحركة من خماد الهمة أو التنازل، من نفاد الصبر. ودون أن يدركا وصلا قرب باب منزلها. قالت:

- هذا يقال عندما يراد تأجيل الأشياء. عندما لا يراد فى الحقيقة أن تحدث، أو لا يهتم كثيرًا بحدوثها. ألا تشعر أبدًا بالوحدة فى هذه المدينة؟ أتفعل شيئًا بجانب عملك، تصل إلى منزلك ولا تعتريك رغبة فى أن تخرج فى الحال وتقابل أى شخص، أو فى أن تتناول مشروبًا وتبقى تتحدث حتى ساعة متأخرة؟

من جديد توقفا على الرصيف، يجذبهما السكون، مثل الليلة الأولى وخافت هى، من أن يكون الأمر هكذا دائمًا، غير قادرين على كسر تعويذة الوداع، شلل الوداعات التى تنتهى دون إشارة حنان صغيرة، أو قرب جسدى. لكنها لم يعد لديها وقت ولا تبقى لها همة لتتخلى مقدمًا عما ترغب فيه، ولن تستطيع أن تسمح لنفسها برفاهية أو عدم المخاطرة بالكرامة أو التحفظ، أو الجبن الذى يأخذ أحيانًا هذه الأسماء. دون أن تعرض نفسها للذل لتنظر من طرف خفى إذا كانت هناك جارة تراها، تقدمت نحوه وقبلته فى فمه، دون أن تضمه إلى صدرها، ولكنها جذبته بيديها من رأسه، كانت أنامل أصابعها فوق الجلد الجاف، تعبر الشعر القصير الأشيب، كانت ضرورة أكثر منها لمسة.

- أتريدين أن أصعد معك؟

سمع صوت المفتش أكثر ترددًا عندما ابتعدا عن بعضهما. كان قد بلع ريقه قبل أن يتكلم ولا يزال مندهشًا، مرعوبًا بسبب جرأته الشخصية. قالت سوسانا، هى الآن خائفة وهادئة، متألقة، متأكدة، متحررة:

- سنفعل شيئًا؟. إذا كنت لا تريد أخبرنى ولن يحدث شىء. لا أرغب فى أن ترى اليوم منزلى، ليس مرتبًا تمامًا وليس شديد النظافة. علاوة على ذلك أشعر أننى متعبة جدًا، إنه يوم الاثنين وقد أمضيت ليلة سيئة. ليس لك أنت أيضًا وجه جيد ويبدو أنك مشغول جدًا، من يعرف إذا كنت قد تطوعت أن تصعد معى خجلاً أو هو فى الواقع ما ترغب فيه؟، أم تريد

العودة إلى مكتبك أو أن تتحبس فى منزلك؟. منذ وقت طويل لم يعجبنى رجلٌ فعلاً. أعرف كم تعجبنى ولكن لا أعرف كم أعجبك. إذا أردت أنتظرك غدًا فى المساء. وليس هنا، لأن الجارات ثرثارات جدًا علاوة على ذلك بعضهن أمهات لتلاميذى. سأحجز غرفة فى لا «جزيرة كوبا» وعندما تصل سأكون قد وصلت قبلك. إذا كنت لا تريد أخبرنى الآن. سأتفهم وليس هناك مشكلة. إذا رفضت سأقبل التفسير الذى ستخبرنى به. لا أعتقد أننى سأعانى كثيرًا؛ لأننى حتى الآن لم أغرم بك كثيرًا. كم الساعة الآن؟

- أوشكت على السابعة.
- سأنتظرك غدًا فى مثل هذه الساعة.
- يمكننا أن نذهب معًا.
- أفضل أن أذهب بمفردى. أرغب فى انتظارك.

عادت وقبلته قبلة سريعة فى فمه ودفعت الباب واختفت دون أن تنظر ولا مرة واحدة للخلف.

الآن تقريبًا السابعة والنصف وما زالت تنتظر. الجن – تونيك، المتوسط، أصبح دافئًا، ذابت مكعبات الثلج فى السائل الذى أصبح بلا رغوة. ربما، بعد كل شىء، لا يأتى. لم يعدها فى أى وقت سيأتى. من النافذة كان القمر بدرًا، استدارة قمر من الكارتون المقصوص أمام ديكور من السماء الزرقاء بزرقة البحر. صوت البحر من قريب كأنه يسحب حجارة وغصون أشجار فى مجراه المتزايد بفعل الأمطار. هُيئ لها أنها تسمع خلف ضوضاء الماء صوت موتور سيارة، والصفير البعيد لقطار. فجأة خامدة الهمة كمن نام قيلولة طويلة أكثر من اللازم واستيقظ، وقد دخل الليل وفمها مر ولديها

مفهوم مشوش عن الوقت، ذهبت إلى الحمام لتغسل أسنانها لتتخلص من طعم الكحول ونظرت إلى المرآة بنية موضوعية وسخرية سرعان ما فشلت بسبب خماد الهمة. ستطلب أن يحضروا لها العشاء إلى الغرفة، سيصيبها الدوار اللطيف مع النبيذ الأحمر، ستستيقظ فى الصباح التالى وستتصل بالمدرسة لتخبرهم أنها مريضة. الثامنة إلاّ الثلث. على الأقل كان يمكنه أن يخترع حجة حتى لا يأتى، كذبة منطقية، قابلة للتصديق. أيكون فى مكتبه ينظر إلى التليفون غير قادر على أن يتصل وفى نفس الوقت يخاف أن تهاتفه هى؟ كانت قد بدأت فى إصلاح أحمر الشفاه عندما سمعت دقات خفيضة على الباب. لم تسأل من، فتحت دون أن تخاف من أن تُخدع بوجه عامل أو نادلة. عرفت أنه هو من طريقة طرق الباب دون أى ريبة على الإطلاق كأنها قد سمعت صوته.

٢٢

كل شىء يتطابق، يتماثل، يتناسخ، تتكرر كل الأشياء وتتتابع، مثلما يستيقظ كل فجر مع الأرقام الحمراء فى الظلام المزدوج للغرفة وللمرآة، مع الصوت الذى يهمس فى الراديو، أو مثل الحلم الذى يتذكر أنه يتكرر بينما يحلم به الآن. مثلما يحدث فى الحلم يبدو أن كل شىء يحدث داخل الرأس، دون تدخل أى شىء خارجى، دون أن يعرف أحد أو ينظر أو يعترض الإرشادات التى يمليها نفس الحلم، بإرادة أو رغبة من يحلم بكل شىء الآن. العينان مفتوحتان جدًا تنظران إلى أعلى، ليس صوب الوجه، وإنما صوب المطواة التى تفتح بشكل آلى والتى خرجت مثل البرق فى ضوء المصعد، ناحية اليد التى أوقفته بين طابقين بضربة من قبضتها، تنفس الاثنين القوى فى المساحة الضيقة والمغلقة، المعدنية، لمعدن مطلى ليحاكى الخشب، بطبقة رخيصة، دوى من الفراغ مع ضربة قبضة اليد. إنه أحد المصاعد القديمة الذى ليس له باب أمان، لذا فإن أحد جوانبه هو جص حائط، مما ولد عنده إحساسًا غير عقلانى ولكنه فى الوقت ذاته قوى بالحماية والأمان، كأنه موجود فى بئر أو فى نفق مصفح، وليس فى منزل به جيران يمكن أن يفاجئوه فى أية لحظة. لم يفاجئه أحد فى المرة السابقة، لم يوقفه أحد، والآن يتطابق كل شىء حيث ينظر إلى وجه الطفلة ويرى وجه الطفلة الأخرى، ليست الطفلة التى ظهرت فى الصور التى بثها التلفاز والتى ظهرت فى الصحف وإنما الوجه الحقيقى، الوجه الذى لم يكن قد تذكره حتى الآن، الوجه الذى كان يرنو نحوه فى المصعد الآخر المتطابق لهذا، فى البداية لم تخف شيئًا، طوال عدة ثوان كان قد بدا أنها شغوفة أكثر منها فزعة بسبب المطواة وتوقف المصعد، بدأت تفزع حقًا عندما رأت الدم يسيل من يده.

كل شيء مشابه، المطواة التى تهبط إلى الرقبة، ولكن الآن لا يجب أن تهبط كثيرًا مثل المرة السابقة، وفجأة يُعد هذا شيئًا شاذًا، غير قياسى، يضايقه، ولكنه ليس شيئًا خطيرًا، يبدو أكثر أنه نتيجة عيب فى الرؤية. الطفلة أطول، حتى لا يمكن القول إنها طفلة فعلاً، يا له من شيء غريب لم يلاحظه حتى هذه اللحظة! مثلما اقتربت منه امرأة عارية الصدر، مثيرة فى ظلمة بار الويسكى وبعدها بثانية بدت امرأة عجوز تملأ التجاعيد رقبتها، وشعرها مصبوغ باللون الأصفر. إنها أطول من الطفلة الأخرى، هو ليس أطول منها إلاّ برأسه، يبرز نهداها تحت القميص، كانت ترتدى قميصًا وسترة مفتوحة وليس لباسًا رياضيًا منقوشًا، يبرز نهداها ولكن ليس بدرجة كبيرة، بالكاد بدأا يكبران، لسبب ما، يقول هو دائمًا إن نواهد البنات تبرز الآن قبل أن تظهر أسنانهن. شعرها أسود، مثل الأخرى، رغم أنه أطول كثيرًا، وقوى جدًا عندما جذبها منه ليجبرها على الركوع، قفاها ناعم مثل الأخرى، كل الأشياء تعود وتتكرر بشكل أكبر من الأشياء المختلفة، المصعد المتوقف بين طابقين، والمطواة، وتوقف الوقت حسب إرادته مثلما أوقف المصعد، وأيضًا يتدفق الدم، فى يده اليمنى، من حافة جرح عميق فى راحة اليد، رغم أنه لا يتدفق بغزارة شديدة مثل المرة السابقة، جرح نفسه بحافة المطواة ولم يدرك، يلعق الدم وطعمه مشابه تمامًا للمرة السابقة، وبينما يجبرها بالقوة على الركوع يشم فى راحة اليد رائحة الدم والسمك، وأيضًا رائحة عرق الإثارة، نتيجة الاحتباس فى ذلك القفص شديد الضيق، قال لها افتحى لى السروال الداخلى، بسرعة، يا لها من قوة!، ستنفجر سوستة السروال الجينز، تجثو على ركبتيها ووجهها على مستوى فخذيه ولكن لا تفعل شيئًا، ترفع عينيها المفتوحتين وتنظر إلى المطواة، وإلى الدم الذى يندفع من يده، اضطر إلى أن يضربها على قفاها، الآن، الآن بالتحديد، لا يستطيع الانتظار، سينفجر من الإثارة مثل الرجال الذين يصابون بانتصاب كبير الحجم فى المجلات وفى الأفلام، الذين يجذبون المرأة إلى أى مكان، وعلى

أى وضع، فى مصعد أو فى مواجهة حائط، يلصق وجهها فى السروال، يسمعها تتنفس مثل من يتنفس خلف لاصق على الفم، ولكنها ما زالت لا تفعل شيئًا، لا تحرك يدها، ولا حتى بدأت تجر السوستة، وحينئذ سُمعت دقات، دقات عنيفة على الأبواب المعدنية، دقات وأصوات قادمة من أسفل، من المؤكد أنها آتية من المدخل، نفد صبر أحدهم وهو ينتظر المصعد. الآن فقط تلاقت العيون ودون أن يقول هو شيئًا جذبها من شعرها كى يجبرها على أن تنهض، يستثيره الخطر وليس الخوف، آمن ضد أى شىء مثل داخل حُلم، ينظف الدم فى الشعرِ الأسود الناعم، وحافة المطواة على الرقبة، ضغط على زر الطابق الأخير، تسمع الدقات بشكل أعنف من أسفل والآن لا يعرف إذا كان قد سمعها فى المرة السابقة. يتذكر ويتصرف فى نفس الوقت، يرى أمام عينيه ما كان قد رآه بالضبط من شهرين، قبوًا مظلمًا به أبواب شقق مغلقة مثل المقابر وبها أعين سحرية لن يطل منها أحد. يهبط المصعد إلى الجار الذى كان قد استدعاه والذى كانٍ يدق بحنق والآن ظلام مطبق، فى البداية، فيما بعد بدأت تُرى الأشياء شيئًا فشيئًا مثلما تُسمع أصوات فيما كان حتى الآن صمت يشغله صوت الأنفاس العالية، كانت تسمع ضوضاء منزلية على الجانب الآخر من الأبواب المغلقة، أصوات صرخات ضعيفة لأطفال، أصوات فى المطبخ، صوت إعلانات التلفاز، ولكن كل شىء بعيد وفقًا لنزولهما السلم شديد الظلمة مثل سلم برج أو قبو قلعة. لا أحد يصعد أو ينزل سلمًا مرتفعًا لبناية من الشقق إلاّ إذا تعطل المصعد. لا أحد يعرف ما يحدث فى تلك الظلمة، فيما هو أبعد من ضوء البسطة الخافت. يتقدمان يتلمسان يحتكان بالحائط، يلوى ذراع الطفلة خلف ظهرها، عظام الساعد ضعيفة جدًا مثل المرة السابقة، مثل العظام الخفيفة والمصمتة لطائر، يمكنه أن يضغط قليلاً وينكسر الذراع مثل العصا الجافة، مثل شوك السمك، يضغط ويعرف الحد بالضبط الذى يجب أن يخفف عنده الضغط حتى لا ينكسر العظم، مثلما يعرف حتى أين يمكن أن يضغط بحافة المطواة على رقبتها دون أن يخدش

الجلد. ولكنه فى الحقيقة ليس مضطرًا لأن يقوم بعنف شديد، الجسم ليس تمامًا جسم طفلة، يبدو طريًا طيعًا، كأنه مكون من خرقة، قال لها فى أذنها إنها إذا صرخت سيكلفها هذا قطع رقبتها، وهى حركت رأسها بعنف، نظرت إليه بعينين مفتوحتين جدًا تحجر الدمع فيهما، يجعلها الآن تتوقف عند البسطة الموجودة فى المنتصف حيث يوجد فقط نافذة من الزجاج المعشق ولا بد أنها تطل على صحن داخلى يدخل منها ضوء ضعيف ستعتاده الحدقات فى الحال، ضوء يسمح له أن يرى عن قريب الوجه الصارم من الخوف، المندهش، الخاضع، ذا الملامح المشلولة، الفم مفتوحًا يتنفس بصبوت عال ولكنه غير قادر على النطق بالكلمات أو على إصدار الصرخات، بريق المطواة التى يمررها الآن برفق على خدها كأنه يختار شكل رسم جرح أو علامة مستقبلية. يُسمع المصعد عن قرب ولكنه هو لا يسمعه، لا يعيره انتباهًا، يضاء نور السلم بصوت تك تك لساعة رقمية، تُسمع أصوات عن قرب، أصوات خطوات، صوت مفاتيح، من طابق أو طابقين أسفل، يسمع الاثنان، المطواة أمام الوجه، عين كليهما فى عين الآخر، التنفس متوازٍ، الضغط التدريجى على الساعد، حافة الفولاذ كادت أن تغرس فى الجلد، بينما على بعد خطوات خرج أحد من المصعد وفتح باب شقته تستقبله أصوات ورائحة الحياة اليومية، الوعد براحة سريعة، بالعشاء ثم بالنوم أمام التلفاز: من يمكن أن يعرف ما يحدث أبعد قليلاً عن شقته، فى الظلام حيث لا تصل الإضاءة، خلف باب مغلق، في فراغ السلم الذى لا يصعد ولا يهبط منه أحد أبدًا؟. أُغلق الباب وخفف قليلاً الضغط على الساعد وأبعد المطواة، هيا، يقول من جديد وهو يدفعها صوب الأرض بيده اليمنى الكبيرة والقوية، افتحى لى السوستة وفى هذه اللحظة عاد لينطفئ ضوء البسطة وخلال بضع ثوان لم يُر شيئًا: سمعها تنتحب، لا تفهم أو لا تعرف، ولكن كيف لا تعرف؟!، إنهن يولدن الآن ساقطات، تعلمهن الأمهات، أكثر عهرًا منهن، يد غير ماهرة تتلمس السروال ولا تجد السوستة، وهو، بنافد صبر، يفتحها، ويُخرج

بصعوبة وضرورة ما قد انتفخ كثيرًا فى الداخل، لن يتسع له فمك، يفكر أو يقول، يضغط بقوة كبيرة بأصابعه على قفاها، ويقول لها نفس الكلمات التى كان قد قرأها فى المجلات وسمعها فى الأفلام، الكلمات التى لا يجرؤ أن يقولها بصوت عال ولا حتى عندما يذهب مع ساقطات، يأمرها، يجبرها، هو نفسه يفتح فمها، فى الظلام، مثلما يفتح فم سمكة ليخرج أحشاءها، يبلل لعابها ودموعها يده، يبلل يدم اللعاب والمخاط، يدفع هو بإيقاع ولكنها لا تعرف جيدًا ما يجب أن تفعله، تختنق وهى تتنفس عن طريق الأنف الذى ملأه المخاط، يرشدها بيديه ولكنها حمقاء ليس هناك طريقة، ويعود ويُضاء نور السلم، تسمع خطوات ثانية ولكن لا تسمع أصوات، ولا ضوضاء فى المصعد، يشعر أنه ينقبض، وبدأ ينكمش الانتفاخ الكبير، يضعف أو يبرد، كل شيء متطابق، يمكنه أن يظل بلا حركة وتستمر الأشياء تحدث، مثلما يقولون إن الطائرات تطير مع طيار آلى لذلك يعرف أنهم لن يكتشفوه، وأن الطفلة لن تصرخ ولن يصعد أحد السُلم. يدفعها إلى الحائط بضربة من يده، ينطفئ النور، يغلق السوستة ويزرر الحزام، يقول، سيرى، وحذار سأقطع لسانك.

بكل هدوء حفظ المطواة، أخرج سيجارة ثم أشعلها مستخدمًا يدًا واحدة، دون أن يترك الطفلة، مرر يده على شعره، هندم ملابسه وتنفس بعمق، ركز حتى يسيطر على دقات القلب، وفقًا لما تقوله تلك المجلة، سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، لم يعد يسيل الدم من اليد اليمنى، ليس مثل المرة الأخرى التى لم يتوقف فيها الدم عن التدفق، كان يلعقه ويختفى، وبعدها بلحظة كان يتكون من جديد الخط الأحمر الذى يعبر راحة اليد. السيجارة فى اليد اليمنى واليد اليسرى على كتف الطفلة، فوق قفاها تضغط فوق الجلد، وعلى عضلات الرقبة، باحثًا عن شكل الفقرات، صف آخر من درجات السلم، منبسط آخر بين أبواب الشقق المغلقة، عليها لوحات مذهبة مكتوب عليها الاسم أو أشكال للقلب المقدس فوق العيون السحرية، ودائمًا أصوات أطفال وأصوات أجهزة

التلفاز، وصلا إلى الدور الثانى، يعد درجات السلم، ثمانى عشرة درجة بين الطابق والآخر، تبقت ست وثلاثون درجة للوصول للطابق الأرضى إلى باب البناية، ولكنه لا يشعر بالخوف وإنما بالإثارة، بالإحساس بالدوار من الاقتراب من شيء، من الاقتراب من حد، من الاقتراب من النقطة التى تكسر فيها اليد العظم أو أن تنغرس المطواة فى الجلد، ملليمتر واحد فحسب أو عُشر من الثانية، على هذا يعتمد كل شيء، كما كان صغيرًا وكان يرى لافتة تحذير عند البوابة المعدنية للتركيبات الكهربائية القريبة من منزله: ممنوع *اللمس، خطر يؤدى إلى الموت.* كان هناك رسم لجسم بشرى فوق الحروف الحمراء يخترقه شعاع ينغرس فى وسط الصدر مثل حافة رمح، وكان عندما يمر يتوقف دائمًا بعض اللحظات ويشعر بإغراء لمس الباب المعدنى المطلى باللون الرمادى كأنه مغناطيس قوى جدًا يجذبه إليه، ولكنه كان يقاوم، يُقرب اليد ثم يُبعدها عندما لا يتبق إلا بعض الملليمترات حتى تلمس الأنامل المعدن، مسببة له شحنة ربما تجعله يرتعش مثلما يحدث لصورة الشخص الموجود بالرسم. اثنان وعشرون درجة سلم، وعشرون منبسطًا، الدور الأول، بكاء طفل صغير السن جدًا وصرخات امرأة، هيستيرية، وسماع صوت إذاعة برنامج للأطفال، آخر صفين للسلم قبل الوصول إلى الباب، اليد اليسرى التى تضغط أكثر، الآن ليس بأعلى الأصابع وإنما بالأظافر رغم أنه لم يغرسها، ملليمتر آخر وستخترق الجلد أطراف أظافره الغليظة المكسورة. مثلما الحال والسير أثناء النوم، كأنما يطفو فوق الأرض قليلاً، دون أى جهد يذكر، كأنه ينزل على سلم متحرك، الآن ضوء الباب أبيض وبارد مثل الغرف المثلجة، يده فوق قفا الطفلة، تحت شعرها، سحبة عميقة من السيجارة، لا شيء، ولا رعشة فى الأرجل، ولا لمحة خوف، لأنه لا أحد عند الباب والآن يعرف أنه لن يظهر أحد، يرى كل شيء واضحًا، المستقبل مثل الماضى، هذه المرة والمرة السابقة، المرة الأولى، الآن لا يشعر بتأثير الرون على رأسه ولا على رجليه، لقد انتعش فجأة، كما يحدث بعد أخذ حمام

بارد، الإثارة فحسب، التى تتكثف مع كل خطوة، ولكنها لا تجعله يشعر بالاضطراب، وإنما تقويه، إحساس رائع بالقوة والخطر، بالحرية والجرأة. عندما اقتربا من الباب أجبرها على أن تقترب منه أكثر، يحتضنها للحظة إلى جانبه، يميل نحوها، إذا قلت شيئًا أو حاولت الهرب سأقطع رقبتك، وأشار لها بالسبابة على حركة تدل على الذبح مما جعل الطفلة ترتعش، ظلت ساكنة، كان عليه أن يدفعها، مثلما حدث مع الأخرى، إذا لم يمسك بها يمكن أن تسقط على الأرض، افتحى، يأمرها، وتطيع هى، مخدرة، الآن هما عند درج البوابة، على الرصيف الضيق، الذى تغزوه السيارات وتضيئه أعمدة الإنارة وأضواء المحال، يبدو أنه نفس الشارع ولكنه ليس هو، أصوات الناس وضوضاء المرور، أوجه تأتى فى اتجاه معاكس، كأنها أعمدة إضاءة خرجت من الظلام عندما يقود ليلاً، الرصيف ضيق جدًا حيث وجب عليهما أن يبتعدا حتى تمر امرأة معها عربة أطفال، وعجوز تحمل أكياس مشتروات، ينظر إلى الطفلة بطرف خفى بينما يدفعها للأمام والطفلة تسير وهى تنظر للأمام، منومة، دون أن تلتفت إطلاقًا لتنظر إليه. تبحث عن أعين الناس الآتية نحوهما، للبحث عن أى تعبير يتعرف عليها، تعبير فيه شك، أو تعبير به خطر، ولكن لا أحد ينظر، لا أحد يلتفت إليه ولا إلى الطفلة، ربما ينظرون لحظة ولكن يبعدون أعينهم فى الحال، غارقين فى شؤونهم، فى تعب نهاية اليوم. صيدلية، محل منتجات غذائية، بار على الناصية، كان فيه منذ شهرين ومنذ عشر دقائق، البار الخاوى، دائمًا، بإضاءته الفظة التى تظهر القذارة الزيتية، نادل ليس حليق الذقن بشكل جيد يرفع رأسه صوب التلفاز، من المؤكد أنه أيضًا لا ينظر، لا يلتفت إلى شىء، ثم لن يتذكر شيئًا. يشعر فى الوقت نفسه أنه يتقدم دون حاجة إلى أن يتحرك، وأن خطواته لا تتقدم، مثلما يحدث فى الأحلام، لن يلتفت أبدًا إلى الناصية، يرى كل شىء كأنه من وراء زجاج، من داخل فقاعة يوجد هو والطفلة بداخلها، مثل مكتشفى أعماق البحار فى الأفلام الوثائقية الذين يتحركون، بحلة الغوص والزعانف، بين

الأسماك وأعشاب قاع البحر ويأخذون فى إبعادها بحركات بسيطة من أيديهم، دون أن تنظر إليهم الأسماك، الأعين الكبيرة المفتوحة جدًا والكفيفة مثل أعين الناس التى تقترب منهما وتعبرهما ولا تنظر إليهما أبدًا.

أصبح غير مرئى، منصهرًا بين الناس فى الشارع، ممحوًا الآن فى منطقة من الظل، دون الحاجة إلى اختيار اتجاه الخطوات، لأن قدميه تحملانه بمفرده، بساطة تكرار طريق يأخذ فى تذكره بمجرد فقط التقدم فيه، يجد آثارًا منسية، مثلما يحدث فى قصص الغابات، محل أفلام فيديو، عمود إشارات مرور، الحديقة من جديد الموجود بها تمثال مصارع الثيران، لقد خرجا الآن إلى الطرق الشمالية الواسعة للمدينة، ويبدو أنه مضت ساعات وهو يسير غير مرئى، هادئًا، اليد اليسرى فوق القفا، على الرقبة، على الكتف، ترتاح بلطف، تنغلق محنية ومدببة أسفل الشعر مثل أرجل الكابوريا، وهى تلمس بمداعبة، تجذبه فجأة، تستخدم الشعر كأنه فرملة أمام النور الأحمر لعمود مرور، لا تتحركى، يقول لها، وهو يلتفت نحوها، يجذبها، لا تتحركى، تعرفين الآن ما يمكن أن يحدث لك، يعبر الاثنان الطريق عبر ممر المشاة، أمام صف من السيارات وأعمدة الإنارة المضاءة، ووجوه سائقين لا ينظرون إليهما ولو مرة واحدة فقط، والآن رغم أنه كان قد فكر فى الاستمرار فى السير عبر حَوارٍ جانبية، قرر ألا يفعل، سيسير من الطريق المختصر والمضاء جيدًا، رغم أنه أيضًا أكثر خطورة، شارع ترينداد. الأكثر من ذلك أنه لم يقرر وإنما يكرر، لا يمكن أن يذهب إلى المكان الذى ذهب إليه المرة السابقة، عند بداية الشارع المرتفع رأى ظله وظل الطفلة ينعكسان على الرصيف بسبب ضوء عمود إنارة، ظلين محددين مثل الذى يرسمهما نور القمر البدر، رجلين طويلتين مثل أرجل عمالقة القصص، وبجانبه يحتك بهما، يحبسها ويغطيها الظل الآخر، يتقدم الظل الآخر بنفس الإيقاع، تقريبًا بنفس الخطوة مثلما الحال فى الخدمة الجندية، حذاؤه المصطف مع الحذاء

الرياضى للطفلة، المطابق لحذاء الطفلة الأخرى، أبيض اللون، يبدو إلى حد ما جديدًا، يظهر الظلان ويختفيان على الرصيف يسبقهما، يتأخران ويختلطان بالظلال الأخرى التى تدخل وتخرج من المحال، التى أوشكت على الغلق، محل بيع طيور الزينة، محل بيع ماكينات الخياطة، الواجهة الكبيرة والقديمة للنظام المترى، الحصير المعدنى، البائعون الذين يودعون آخر زبائنهم وهم يحنون كثيرًا، رؤوسهم المصففة بشكل متقن وهم يفركون أيديهم البيضاء كأنهم يشعرون بالبرد دائمًا، وفى المقابل كنيسة، سُلّم حيث كان قد تجمهر عليه فى المرة السابقة حشد حُجِبَ عن النظر أسفل مظلات المطر بسبب الكشافات العاكسة. حياه أحد بتحية الوداع ولكنه لم ينتبه لأنه كان يسير شاردًا جدًا، إنها زبونة من السوق، تعرّف على الوجه بعد مرور لحظات، عندما كان قد اختفى، يضغط بقوة أكبر بأنامله على قفا الطفلة، الجلد معرق، العضلات، فقرات الرقبة، لقد وصلا للميدان الذى توجد به الساعة والتمثال، الآن يمكنه أن يرى البرج، التاكسيات، مبنى قسم الشرطة، لو يعرفون، إذا أمعن أحدهم النظر، يخرج سيجارة مباهاة أكثر منها عصبية، يرفعها إلى فمه، يشعلها مستخدمًا فقط يده اليمنى، يحفظ القداحة ويدخن ويضغط على الفلتر بين أسنانه، يحول عينيه، ويده فى جيب السترة تمسك بيد المطواة الآلية. كل شىء يسير للغاية، طيع جدًا له مثل جسم الطفلة الذى يسير بجواره، مثل ضوء العمود الآخر الذى يتغير للأخضر حتى يعبر الاثنان صوب الناحية الوسطى للميدان بين الحدائق، بالقرب من النافورة، حيث تعود المصورون أن يقفوا مع كاميرات التلفاز، إذا أراد يمكنه أن يمر بجانب باب القسم نفسه ويقول وداعًا للحارس الذى عامله بطريقة سيئة ذلك المساء، كان يمكنه أن يدخل كابينة التليفون دون أن يحرر الطفلة ويطلب رقم تليفون رئيس المباحث ويقول له، أيها النذل، انظر يا لك من ذكى، هيا لنر كل القرائن التى لديك، هؤلاء الشهود الذين اخترعت وجودهم ولوحات سيارات مشتبه فيها: ليس هناك سيارة ولا شىء، مثلما حدث فى المرة السابقة، يمشى

ويعبر المدينة بأكملها، أعلنت أجراس البرج السابعة ولكن يبدو له أنه مرت ساعات وهما يسيران، بدأ نفاد الصبر وليست السرعة ولا الخوف، إنها الرغبة فى الوصول إلى حيث لم يكن عليه أن يفكر ولو للحظة واحدة فى الذهاب إليه، الإثارة عندما يشعر بنعومة شعر القفا، ضعف العظام، الرائحة الحارة للجسم، يمكن أن تكون قد تبولت، يفكر، كما تبولت المرة السابقة، كل شيء مبلل من البول، السروال الداخلى وسروال اللباس الرياضى، الجورب الأبيض الذى لم يخلعه هو. من جديد الضغط بين الفخذين، والآن حيث يبتعدان عن الميدان ويستمران فى الهبوط إلى حدائق "كابا"، كلما تقدما قَلّ عدد الناس والمرور، وقلت أضواء المحلات التجارية أو البارات، كلما عبرا تقاطع الشارع الواسع فمن الممكن جدًا ألاّ يقابلا أحدًا، لا أحد يتنزه فى هذه الحدائق بجوار السور عندما تمسى، وخاصة فى الشتاء، لا أحد سوى مدمن هو من يتجرأ على التنزه فى المتنزه الصغير الواقع فى نهاية المدينة، على حافة السور الذى تقطن فيه أشجار الصنوبر التى تهبط صوب البساتين، المهجورة أيضًا، تأكلها كلها تقريبًا النباتات الخبيثة، مثل حظائر منازل الحى شبه المتهدمة. ولكن يعجبه الآن هذا الظلام، يشعر بالانجذاب نحوه والاحتماء به، كأنه يعود من بلد غريب إلى حيث مسقط رأسه، إلى حيه ذى الحارات والبيوت القديمة الخالية، يُسرع الحركة، يرمى بالسيجارة، يبصق بها، يلمس ما بين رجليه، منتفخة بالفعل، يدفع بالطفلة، الآن يحيط كل رقبتها بين حركة إصبعيه السبابة والإبهام، لا يوجد أحد، لن يظهر أحد مثلما حدث على السلم وعند باب البناية، يصبحان غير مرئيين أكثر مع كل خطوة يخطوانها، أكثر اختلاطاً بالظلال فى الشارع الذى ضَعُفت إضاءته كلما تقدما فيه. وبالتحديد حينئذ يتوقف لمدة ثانية، لا يزال لا يرى ما يحدث، ولكنه لاحظ التصلب فى جسد الطفلة بأكمله، أوقف حركته خطر لاحظه بغريزة الحيوان الأعمى، ولكنه يستمر فى السير، دون أن تلمس الأقدام الأرض، يجذبه مغناطيس مثل عندما تنزل يده على اللوح المعدنى الخاص بلافتة خطر مميت: على بعد

خطوات، أمامهما، كانت موجودة على الرصيف الآخر، سيارة شرطة للمناوبة لونها أبيض وأزرق، قريبة جدًا حيث الرجوع ليس ممكنًا، وحتى لو كان ممكنًا فلن يفعل، أدرك أنه لا يستطيع أو أنه لا يريد التوقف، سيستمر فى التقدم ويضغط فوق القفا بأنامله، بأظافره، وهو يسير متصنعًا الهدوء بإتقان، يقول، ورأسه منخفض ومولّيًا وجهه ناحيتها، سأقتلك إذا نطقت بشيء، سأذبحك هنا فى هذا المكان. أنوار السيارة الداخلية مضاءة ويتحدث السائق مع الشرطى أو أنهما يستمعان إلى الراديو، الآن هو يستطيع سماعه رغم أنه لا يميز إذا كانت إذاعة الشرطة أو إذاعة مباراة كرة قدم. يسمع صوت أنفاسه ويشعر بالدق المضاعف على جانبى الرأس، يبلع ريقه، تنغرس أظافر اليد اليسرى فى الجزء الخلفى لرقبة الطفلة وتنغرس اليد اليمنى فى راحة اليد نفسها بداخل جيب السترة، يلاحظ بشكل متواز الجرح فى جلد الطفلة وفى جلده، الجرح المزدوج الذى يطول ثوانى لا تنتهى بينما يصلان إلى مستوى حيث تقف سيارة الشرطة، يمران بجوارها، لا تنظرى إليهما وإلاّ سأقتلع عينيك، قالها بنعومة ولكنه ينظر هو إليهما، إذا لم يفعل سيشتبهان فيه، سيصبح متهمًا وجبانًا، يسيران على الرصيف الذى على الشمال ويفصل جسده بين الطفلة والنظرات المحتملة لرجال الشرطة ولكنهما حتى لا يرفعا عينيهما ويستمران فى التحدث أو فى الاستماع إلى الراديو، يسمعان دقًا وأصواتًا معدنية لإذاعة الشرطة وفى الوقت نفسه صوت مذيع كرة القدم وفى الخلفية صرخة من بعيد، أدرك الآن أنه منذ دهر، منذ بدأا ينزلان السُّلَّم ظل يسمع على فترات قصيرة. لا تلتفتى يقول لها الآن، بصوت عال وهو يشعر بالراحة، بالحماية، يدفعها ولا يزال يضغط فى خطر على القفا، الآن لم يعد يسمع إذاعة سيارة الشرطة، لم يعد يرى أحدًا، يرى فقط بعض الأضواء داخل المنازل المغلقة، بريقًا أزرق للتلفاز، الآن نفس الضوضاء البعيدة لكرة القدم. يستمران فى التقدم كأنهما لا يتحركان، متجهين صوب الظلام العميق والقريب للمتنزه كأنهما يمران على شريط منزلق، لم

يتبق غير متسع مضىء وصحراء، وعلى الجانب الآخر توجد الأسوار المهدمة، أعمدة الإنارة المكسورة، منطقة الظل الذى كان يحتمى بها كثير من العشاق منذ سنوات طويلة، حيث كان شباب الحى الأكثر جرأة والأكثر إزعاجًا يأتون ليدخنوا وليتجسسوا على العشاق.

كل شىء الآن متطابق، أكثر من أى وقت مضى، حتى التطابق فى ضوضاء وقع الخطوات على الأحجار المكسورة، فوق زجاجات البيرة المكسورة، كل شىء لا يمكن تجنبه، قريب، لا يمكن احتواؤه، دون حاجة إلى العودة للوراء ولا إلى التخفى، حتى القمر نفسه عال فى السماء، شكله أبيض وتعكره بدرجة خفيفة سحب رقيقة مثل الغاز، الآن اليدان تبحثان وتطلبان، متعجلتين، رائحة الصنوبر ورائحة الأرض ورائحة الأوراق المبللة، نفس الحفرة الجانبية حيث دفعها بضربة واحدة، وجهها أكثر شحوبًا من وجه القمر، الذى يضيئه الآن، الذى رأى فيه فجأة خلال بضع ثوان، بوضوح كامل، الوجه المكرر: الفم المفتوح، ارتعاش الذقن، العين التى لا تصدق والتى يسكن فيها رعب الطفلة الأخرى، الوجه الذى لم يره أحد سواه فى العالم.

٢٣

كان يسمع النهر، وعيناه شبه مغمضتين، فى منطقة الظل فى الحجرة التى أضاءها القمر الذى يرسم تمامًا شكل النافذة، ذات القضبان الحديدية على هيئة صليب، على الحائط المقابل وحيث انعكس لمدة ثانية ظلها العارى عندما نهضت لتذهب إلى الحمام. فى مستطيل الضوء كان قد رأى شكل كتفيها، جانبيها، صورة وجهها وثديها من الجانب، فى الوقت الذى ينزلق فيه الجسد العارى، مع بريق من ضوء القمر فوق الجلد، فى هدوء شديد، حافية القدمين فوق البلاط، مثل الظل نفسه، بسلوك من يذهب فى سرية خجلاً من أعين الرجل. كانت قد أضاءت نور الحمام وفى الحال أغلقت الباب ثم اجتمع صوت النهر إلى صوت صنبور الماء، ثم سمعها تتبول، فاجأه إحساس بالألفة والحنان. تخيلها عارية وقد عقدت ذراعيها فوق ثدييها وضمت فخذيها، تشعر فجأة بالخوف، فى ضوء الحمام البارد، رغب أن ترجع بأسرع وقت وأن تعبر فى ضوء القمر لتبحث عن الدفء بجواره تحت الملاءة، عن دفء المرتبة والبطانية الثقيلة القديمة التى لا تنسجم بأى شكل مع الغرفة، مع البلاط الأحمر للغرفة، مع الحوائط المطلية بجص أبيض وأسياخ السقف المائلة.

الآن لا يتذكر من منهما كان قد أطفأ النور: حينئذ أغرقهما ضوء القمر البدر وبدا لهما أنهما يسمعان بكل وضوح التيار الصاخب والرتيب للنهر. كان هناك خط مستقيم يقسم منطقة الظل والنور ويمر بالتحديد عند قدمى السرير. «لا تنظر نحوى» كانت قد قالت له، وأعطته ظهرها لتخلع القميص وحمالة الصدر. فتح عينيه وكانت واقفة بجواره، أكثر رشاقة، مما كان قد

تخيلها وهى فى ملابسها، مع تماسك واكتمال جسد امرأة كانت قد أنجبت وأرضعت ابنها، مع أكتاف ضعيفة لشابة صغيرة، وعند منحنى القفا الواضح لقصر الشعر جدًا، فى شكل الثديين الممتلئين وفى الوقت نفسه شابين ولهما شكل. كان يرى امرأة أخرى، حتى الآن غامضة، أكثر رغبة فيها مما قد سمحـــت حمـــاقته بتخيله أو تخمينه، تحميها المـــلابس بقدر ما يحميها الطابع اليومى للحياة العملية والعمل، والمقاومة المتفردة ضد خمود الهمة وسوء الحظ.

عندما ضمها فاجأه بصفة خاصة نعومة جسدها غير العادية. تنقصه الذكريات والرؤية التى يُمكنه أن يحكم على أساسها بشكل جلىّ ما كان يحدث له. مثل من سينام ورغم ذلك يظل متشبثًا بضرورات الواقع التى تسبب الضيق، لاحظ أنه بدأ يتحرر فى ظلام الغرفة وفى الجلد الناعم الدافئ لسوسانا من وساوس والتزامات عمله، من تصلب جسده، من الغصة والإحساس بالذنب، كأنه بدأ يترك نفسه يحمله تيار مشابه لتيار النهر الكبير المتزايد الذى يمر بالقرب منه. منذ أن خرج من قسم الشرطة وركب السيارة كان يعذبه الخوف من خيانة مسؤوليته، أنه سيحدث شيء فى غيابه ولن يتمكنوا من إيجاده. أو مكالمة من المصحة، ويدق صوت الجرس بلا انقطاع فى الشقة الخالية، الجد نظيفة مثل واجهة محل للأثاث المنزلى. كانت العصبية، الجبن الذكورى أمام احتمال فشل جنسى، تغذى إحساس الضيق بالهروب وفى الوقت نفسه، كان الإحساس بالهروب قد تمكن منهما. كان قد نضج فى وقت كان فيه الذكور لا يزالون يدخلون إلى الغرام عبر قذارة العادة السرية لطلبة المدرسة الداخلية ومن خلال التعامل مع الساقطات. حتى تجاوز الخمسين بسنوات كثيرة لم يكن يعرف أنه يمكن أن توجد بين الرجال والنساء زمالة حميمية كالتى تقدمها له سوسانا جراى. عندما أوقف السيارة أمام «جزيرة كوبا»، عند صعوده صوب الغرفة، ما يشعر به هو مزيج

مضبب من الفزع والضيق، وكان يتعارك معهما مثل عراك جهاز مناعة لجسم لا يزال صحيًا ضد فيروس المرض، قدرة غير معتادة على الخيال، بالكاد بداية براءة آتية من زمن سحيق، فى الحقيقة كان قد عرفه بين خمسة عشر وعشرين عامًا، ولكنه كان يظهر الآن بشكل غير متوقع وفى غير آوان، أحمق وفى غير أوانه مثل حب الرجل العجوز. فى عمره الآن كان أبوه قد هزمته الشيخوخة، وقد ابتعد عن الحياة العادية بسبب التخفى والسجن والتعصب السياسى العنيد طوال سنوات كثيرة. «ليس عدلاً أن تسميه متعصبًا»، قال الأب أوردونيا بوجه من وُجهت إليه إهانة متجنبًا النظر إليه.

يا له الآن! بعيد عن كل شىء، بعيد عنهم جميعًا، عن الأموات والأحياء، الشهود والمستحقين، من يطالبون بالديون ويفرضون التزامات، من كانوا دائمًا يطالبون أو يتهمون، مع سلطة من الاستقامة، من المعاناة أو الموت. المرأة التى لن يهاتفها اليوم فى المصحة، رجال الشرطة الآخرون، من هم الآن تحت إمارته ومن كانوا قد قُتلوا فى الشمال بسبب طلق نارى، انفجار من عبوة ناسفة، الأب أوردونيا الذى يجلس فى غرفة الاعتراف، ينتظر أحدًا، ينتظره هو أحيانًا، الرجل الذى ينظر إلى نفسه ويلوى يديه فى غرفة وقد دخل الليل ولم يضئ النور بعد، العجوز الذى مات مخدوعًا ولم يُروَّض بعد، يشعر بالخزى من ابنه الوحيد، ويرفض رؤيته: يطالب الجميع بأشياء، يطالبون بحسابات حتى من على الجانب الآخر من الموت، يتجسس الجميع ويفحصون كل أفعاله، ينقلون له شكواهم ويتهمون أفكاره الخاصة.

الآن بعيدًا عنهم جميعًا، لاجئًا، مختبئًا، ناجيًا بالصدفة، منعزلاً عن كل شىء بسبب ضوء القمر البدر والصوت الرتيب لمياه النهر، عاريًا بين ملاءات فندق تفوح منها رائحة النظافة، يدفع الخجل بالظلام حتى لا يُرى، تعلم أن يرتاح على جانبه فوق ذراع امرأة تعامله برقة وحذر، تحتويه فى

الوقت نفسه الذى تحتمى وتلتصق به، تلمسه بلمسة من فخذيها العريضين الحريريَين، تبحث عن قدميه لتدفئ قدميها، الباردتين فجأة، مثل ليلة شتوية من ذلك الزمان الذى كان فيه هذا المكان ضيعة.

لم يشعر بنفاد الصبر لممارسة الجنس مثل الحال فى مرات أخرى، والذى كان يتسبب فيه دائمًا الكحول والإصرار الدفين غير المجدى على التحرر من ذنب الخيانة الزوجية. كان قد بدأ يُقبلها ويبحث أسفل الملابس بسرعة حمقاء، مشابهة للعجلة التى كانت تدفعه فى وقت آخر إلى رشف أول كأس فى الليلة. كانت قد قالت على مسامعه «انتظر»، «ليس بسرعة»، وبدأت تهدئه بنعومة أناملها مثل نعومة صوتها، كانت قد عودته على بطئها، وعلى تلقائيتها، بمهارة وصبر، كانت قد أطفأت النور (الآن يتذكر أنها هى كانت من أطفأت النور)، جعلته يتمدد وجثت على ركبتيها عند حافة السرِير حتى تخلع له الحذاء الثقيل ثم الجورب ثم السروال وهى تتحسس قدميه وتُقبل فخذيه برقة. «انتظر» قالت، وأوقفت سرعة يديه الفظة التى تتحسسها، كانت تحرره مع كل لمسة وكل تلامس من شفتيها أو جلدها شيئًا فشيئًا من حياته الخارجية، من الواقع ومن الماضى، كأنه تنويم مغناطيسى يقوده بالتدريج إلى النوم، غامسًا إياه فى وجود آخر أكثر سكينة وسكنًا من الحياة النهارية، تبدو من بعيد فى عذوبتها الحسية إلى ما تذكره فيما بعد، فى بعض الأصبحة أثناء مراهقته، دون أن يكون قد جربها نهائيًا فى الواقع.

فى الظلام لم يكتشف فقط متحسسًا جسد المرأة الممددة بجواره: ما بدا له اكتشافًا حقيقيًا كان الإحساس باللمس، لم يكن يسترد هذا الإحساس، لأنه لم يمارسه قط بهذه الدرجة من الرفق، وأيضًا لم يذق أبدًا طعم فم مثل فمها. وعندما استرد أو اكتشف ماهيته إذا لم يكن قد وجده مع سوسانا كان قد ظل ميتًا ومجهولاً بالنسبة له، كانت قد عادت إليه موجات من الأحاسيس

والذكريات المفقودة، عندما كان عمره ثلاث أو أربع عشرة سنة، ذكريات عندما كان يستيقظ عند الشروق برطوبة باردة فوق جلد البطن، مع فقرات من الأحلام التى كانت تتكرر كل ليلة والتى كانت تظهر فيها حميمية دون فظاظة مظلمة، دون ذنب ودون إثم. كان يحلم بامرأة عارية تجلس أمامه، وهو أيضًا عارٍ، يتحدثان فى كافيتريا أو صالون منزل، ربما يرقدان على سرير غرفته التى كانت يشاركه فيها آخرون، يقترب كل منهما شيئًا فشيئًا من الآخر، ببطء يتلامسان بالكاد، تلمسه هى بشعرها، بحلمة وردية، بأصابعها وحينئذ يشعر هو أنه لن يستطيع التحمل وأن اللمسة القادمة مهما كانت صغيرة، ستجعله يحتلم وينتصب فى الحال، أمامها، دون أن يصل إلى احتضانها، فى شجن ورغبة دون تبادل ممكن، بقليل من الحنان والسعادة المكثفة، الفاشلة بسبب إدراكه أن المرأة ستختفى وسيقطع الحلم نفس رعشة الانتصاب، وبلل نزول الحيوان المنوى البارد. يتذكر الحلم ويرفض دون جــدوى الاستيقاظ بالكامل، مغمض العينين، فى صباح يوم اثنين شتوى، يريد أن يحسب فى ظلام الحجرة الشاسعة والمشتركة كم تبقى من الوقت ليدق الجرس.

يفهم الآن، دون جدوى، أنه كان على وشك أن يحدث معه نفس الشىء الذى كان يحدث له فى الأحلام. ومثلما كان يحدث فى الأحلام، كان لا يريد أن يغادر، ولكن تأخر الوقت كثيرًا، ولم يكن فى حاجة إلى لمسة محسوبة، ستهزمه لمسة غير مقصودة، شعرها على وجهه، يدفع بطنها العريض والناعم الجانب بإيقاع رقيق ومستمر، اليد التى لا تضغط ولا تطلب وإنما ترتاح فقط، كانت قد تحركت كأنها ترسم أو تصوغ شكلا فى الظلام الدافئ، أسفل الملاءات.

ظل ساكنًا، مهانًا، مع خجل ذكورى وصبيانى من نفسه، فى صمت، عاجزًا عن أن يقول شيئًا، عاجزًا عن مقاومة السخف المتخيل. فجأة، بجبن، ما كان يريده فقط هو ألا يكون هناك، ألا يشعر ببرودة البلل الذى يبقع الملاءة، والذى كان قد تبقى أيضًا على يدها. الآن كل شىء غير مجد، منته، فاشل منذ البداية، ماتت الرغبة، المرأة غريبة ودون شك خاب أملها، أيضًا صامتة، تنظف ظهر يدها فى المرتبة، النهر مرة أخرى، الذى كف عن سماعه لمدة دقائق، المستطيل الأبيض الذى انتقل قليلاً ناحية اليمين، عند الحائط، طبقًا لنزول القمر إلى الوادى. الضرورة القديمة فى الذهاب، فى إلغاء الخطأ بحركة، إلغاء خيبة الأمل، يبدأ ضيق الحضور فى البرود ويصبح عدائيًا مع مرور كل دقيقة.

ولكن لم تبتعد سوسانا عنه. كانت قد تحسست وجهه وشعره، تشعر بالصمت، قررت ألا تُهزم ولا حتى تخمد همتها. لم يكن مرخصًا لها الصمت، لا يمكن أن تستسلم، وأن تقبل مقدمًا. كانت تعرف أنه عاجز عن تخيل أن رد فعلها الآنى كان مفاجئًا وحنونًا، حتى إلى حد ما نوعًا من المدح. كانت تفكر أن هناك مناطق من المخ الرجولى تمامًا ضد بعض القدرات الحادة مثل الذكاء والحساسية. قالت:

- أتذكر المرة الأولى التى نمت فيها مع شاب. المرة الأول التى تجردت فيها من ملابسى أمام رجل، لم يكن من خطبنى فيما بعد، وإنما كان شابًا آخر، شابًا من نفس الحى الذى أسكن فيه، انتقل بعد ذلك إلى مدريد، لا أعرف ماذا جرى له. كنا قد خرجنا ذلك الصيف، وقد انتهينا لتونا من شهادة المرحلة الثانوية، كنا نخرج دائمًا مع مجموعة من الأصدقاء، ولكن فى بعض الأحيان بمفردنا دون أن نخطط لذلك كثيرًا، على الأقل من جانبى. كنا نذهب سويًا إلى حمام السباحة أو نتواعد فى المساء فى مكتبة الحى. ذات مساء، آخر مساء صيفى، من شهر سبتمبر، كان الجو

قد أصبح أكثر برودة وفى اليوم التالى كانوا قد أغلقوا حمام السباحة. فى الساعة الأخيرة لم يتبق سوانا. يبدو لى أن كل البدايات والاكتشافات فى حياتى وقعت لى فى شهر سبتمبر. كنا قد تبادلنا القبلات ذات مرة، وأمسكنا بيد بعضنا فى الشارع أو مشينا متأبطين، بالطبع كان يحدث ذلك ليلاً فى الشوارع الخاوية، وكنا نبتعد عن بعضنا إذا ظهر شخص يعرفنا، ولكن ذلك اليوم فى حمام السباحة نسى كلانا الخجل، تحسسنا أجسامنا تحت الماء، تبادلنا القبلات والفم مفتوح جدًا، كنا لا نزال شديدى الحماقة، وكان للقُبل طعم الكلور. استلقينا على المناشف وأدخل يده فى خفاء تحت المايوه وكان جلد كلينا لزجًا جدًا ولم يستطع التقدم بأصابعه، علاوة على ذلك لم يكن متأكدًا صوب أين. وأخيرًا اقشعر بدنى من البرد وتجمدت يداى. كانوا قد جمعوا كل الأسرة المعلقة والمراتب، وكانوا قد أغلقوا البار وتوقفت الموسيقى. خرجنا إلى الشارع وشعرنا مبلل وأحاط كتفى بذراعه. كان أول مرة يفعل ذلك فى الضوء دون حذر من أن يرانا أحد. بالنسبة لى، فجأة، لم أعد أبالى. قرب فمه من مسامعى وقال لى بصوت أجش قليلاً إننى أعجبه كثيرًا، ولماذا لا أذهب بعض الوقت إلى بيته، والداه ليسا بالبيت ولن يعودا حتى مساء اليوم التالى. كانا قد ذهبا لزيارة مريض، أحد الأقارب، خارج مدريد. كان يمشى بصرامة شديدة بجانبى وذراعه على كتفى لا يرخيها، لم يصل إلى أن يتكئ بالفعل علىّ، الحقيقة أننا لم نكن نعرف أننا نسير محتضنين. هذا أيضًا استغرق وقتًا طويلاً فى تعلمه. علاوة على ذلك كان عنده صعوبة أخرى فى المشى وكان يحاول تغطية الجزء الأمامى من البنطلون بحقيبة الرياضة. كلانا شديدا الإثارة، ويقتلنا الخوف، كنت أعتقد أن عريه أمامى يخجله أكثر مما يخجلنى. أتذكر سريرًا كبيرًا وانعكاس المساء فى مرآة التسريحة من خلف شيش حصيرة نصف مسدل. بدأنا نتجرد من ملابسنا دون أن نتلامس أو ننظر إلى بعضنا، دون أن نتكلم حتى توقفنا عن التنفس حتى نخلع الملابس فى

صدت. ولم نزل المفرش الذى بدا لى طويلاً، مفرشًا صيفيًا أبيض فظًا بعض الشيء. رقدت أنا أولاً، على ظهرى ورجلاى متشابكتان ورقد هو بجانبى وبدأ يُقبلنى بحمق كبير ورغبة شديدة أكثر مما كانت فى حمام السباحة، سمعت صوت أنفاسه عاليًا. وفجأة أصبح كل شيء ناعمًا، عذبا، مثل بداية الحياة، كان يبدو ألاّ شيء يمكن أن يكون هو نفسه بعد أن أصبحت عارية أمام رجل ورأيته عاريًا بالكامل. لم أعد أشعر بالخوف من أن يفاجئنا أحد. كان قد رقد على جانبه يتحسسنى برقة كبيرة، أو بحذر، أو برقة وفظاظة، إذا كان يمكن قول هذا، كأنه خائف أن يؤذينى. لم تكن اليدان تنزلقان جيدًا لأن جلد كلينا كان لزجًا وطريًا قليلاً من ماء حمام السباحة. كان يخجلنى بياض ثدياى وبطنى. دون أن أدرك كثيرًا رأيتنى ألمس ذلك الشيء المنتفخ، الجامد الساخن، الضخم بعض الشيء والغير متناسق مقارنة بنحافة الشاب. لم أره أبدًا بهذا الشكل، بالتفصيل وعن قرب ولكن لم أصل إلى الإمساك به، بالكاد كنت أعرف، كيف أفعل هذا، غطيته بيدى وضغطت برفق بينما كان يُقبل ثديى، وحينئذ احتلم، دون أن أفعل شيئًا، ودون أن يتحرك، تدفق فحسب أسفل يدى، تلقيته فى راحة يدى، كان ينسكب بين أصابعى ولا يزال يتحرك ويعود ويخرج كما يخرج الهواء من زفرة طويلة. معك حدث لى نفس الشيء، كأننى عدت لتلك اللحظة. هناك أغنية "لفيوليت بارا" تعجبنى كثيرًا تقول: *العودة لسن السابعة عشرة*، أتعرفها[١]؟

- لكنى لست بعمر السابعة عشرة.

- ولا أنا كذلك. وبماذا يفيد ذلك. لقد استغرقت عشرين عامًا لأشعر بما شعرت به تلك المرة.

---

(١) **فيوليت بارا** (١٩١٧ ــ ١٩٦٧): مطربة وملحنة وفنانة تشيلية وتعد أهم رواد الفن الشعبى فى تشيلى. (ت).

- أتريدين مواساتى.

- لا تكن أحمق. ليس هناك دواء لكبرياء الرجال، وخاصة الكبرياء المجروح. لا يوجد شيء يجب أن أواسيك عليه. ربما حتى يمكننى أن أشكرك.

قبلت شفتيه، فرقت شعره بأصابعها ونهضت بخفة من السرير وهى تعبر فى أقل من الثانية المساحة المستطيلة التى يضيئها القمر، ما زالت عارية وأكثر بياضًا فى داخل ذلك الضوء، أكتافها الشابة الصغيرة وجوانبها العريضة نتيجة السن والأمومة، الظل النحيف الذى طبع فوق الحائط المقابل، والمقصوص بدقة فوق لوح من الكرتون الأسود.

يسمع تدفق النهر وهو مستلق فوق السرير وعيناه شبه مغمضتين، يعود شيئًا فشيئًا من بئر الإحباط الرجولى، كان ينتظرها بكل حواسه المتيقظة، التى تركز عليها، تركز على صبر الانتظار القليل، على إدراك كل ما يشير إليها وما يعلن عن وجودها، رائحتها فى الملاءة، مياه الصنبور ثم صوت مزلاج الحمام الذى عاد وانفتح، حذاؤها ذو الكعب، جوربها وملابسها الداخلية الملقاة على الأرض، النظارة وعلبة السجائر فوق خوان السرير، كل شيء وظله المطابق تمامًا فى ضوء القمر البدر. عندما عادت وهى تطأ فى صمت البلاط، تغطى ثدييها بيديها، فى حركة تصلب من الخجل. الآن يضيء القمر وجهها وبياض الجزء العلوى من فخذيها: فى المرآة رآها سريعًا من الظهر وبدا له من المستحيل إمكانية أن تستلقى تلك المرأة بجانبه بعد ذلك بلحظة.

«افسح لى» قالت سوسانا، وهى ترتعش تقريبًا من البرد واحتضنته ووضعت فوقهما الملاءات والبطاطين غير المرتبة. قبل ذلك بقليل، بأقل من ساعة عندما كان لا يزال ممكنًا أن ما يرغبه كلاهما لن يصل إلى الاكتمال،

كان كل منهما يقف أمام الآخر، في يد كل منهما كوب، في ملابسهما دون أن يتماسا، كأنهما لا يعرفان بعضهما، كانت قد سألته لماذا يصمت كثيرًا، لماذا كان من الصعب معرفة ما يشعر به أو ما يفكر فيه.

- ربما بسبب الكبرياء، وعزة النفس - أجابت هي بنفسها. من يخبئ يكون لديه دائمًا مكانة أكبر ممن يعرض كل شيء. ربما لتلك الترهات الشرقية التي حملوها منذ زمن، ذلك الشيء الصيني أو العقيدة الطاوية عمّن يعرف أن يصمت، أو عما إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، كل ذلك الهراء الذي كان يعجب زوجي السابق في مراحله الشرقية التي مر بها أيضًا[1] . أنتوي أن أصمت لأجعل نفسي غامضة ولكنني لا أصل أبدًا إلى ذلك. دائمًا ينتهي بي الحال إلى قول ما أفكر فيه بالضبط في اللحظة التي يخطر فيها على بالي، وهكذا فأنا ليس لي ميزة، لا أجد حلاً في هذا. على العكس أنت لا تقول شيئًا، يبدو أنك تحمل بداخلك كل ألغاز وغموض العالم.

يحتضنها، يستقبلها بعد عودتها من الحمام، كانت رائحة جسدها صابونًا وكولونيا، يفوح منها نظافة نسائية غامضة، كان يتحدث في مسامعها، بصوته الهادئ الأقل حيوية من وجهه أو حضوره، بعد ذلك حاول أن يجيبها وعندما كان يفعل ذلك كان يتحدث إلى نفسه، دون أن ينظر إليها، يحتمي في الظلام. كان يريد أن يشرح لها أنه قضى جزءًا كبيرًا من حياته مختبئًا، يخفي أصله ومشاعره، وأنه كان قد انتهى إلى ألا يعرف هو أيضًا ما كان يحتفظ به حقًا بداخله. لم يكلفه أي عناء أن يتفهم من عليهم أن يختبئوا بسبب شيء، وربما بفضل ذلك كان قد اكتسب مهارة مهنية ملحوظة ليجدهم. كان يتعرف بالغريزة على من يتصنعون، من يكذبون لضرورة، أو من أجل

---

(١) هي مجموعة مبادئ صينية راسخة تنقسم إلى فلسفة وعقيدة ودين. وهي دعوة إلى التآلف والانسجام والسلام، وتقوم على التأمل. (ت).

حبهم الشديد للكذب وكلما كان التزوير متقنًا مع الحياة أدركه هو بحذق، مثل أولئك الخبراء الذين يتعرفون بمجرد النظر على التوقيع المزور أو على الورقة المالية المزورة. يحافظ رجال آخرون متزوجون على طبيعية مزيفة مع زوجاتهم ويكون خلفها عشق أو مغامرات خفية. هو لم يكن يخفى شيئًا، تقريبًا، ولا حتى كان يخفى بروده. كان لديه الإحساس بأن الحياة كانت قد استنفدته هو وزوجته وأضفت عليهما برودًا، ليس بسبب تأثير الإرادة أو قلة الحب، وإنما بفضل مبدأ جسمانى وهو الذى طبقًا لعلماء الفضاء ينتهى بانطفاء لمعان النجوم. الفرق كان، قال، أنه فى حالته، ربما لم يكن هكذا بالضبط فى حالة زوجته، لم يكن هناك أبدًا عشق حقيقى، لم يكن هناك شىء ليستنفده الزمن أو يطفئه. سألته سوسانا:

- أكنت تحبها فى البداية؟

- لا أتذكر. نسيت كل شىء.

- ربما من السهل ألا تنسى إذا كنتما قد أنجبتما. إذا كان لديك أولاد لا تستطيع أن تمحو الماضى بالكامل. ستراه كل يوم فى وجه ابنك. إذا كان لك ابن فى الدنيا، سيكون لذلك الزمن والأخطاء التى ارتكبتها تبرير.

تقريبًا دون أن يدرك كان قد بدأ يتحسسها بينما يتحدثان بصوت خفيض، ببطء، قدماها باردتان متشابكتان مع قدميه، وعندما استمر بأصابعه التى أصبحت الآن أكثر حساسية وجرأة على لمس الجلد والمنحنيات المألوفة التى يبحث عنها وعرفتها شفتاه بعد ذلك، عاد وتذكر الآن دون خوف ولا خجل، وإنما بعذوبة، بامتنان تقريبًا، أحلامه الغرامية عندما كان عمره أربعة عشر عامًا، وبدا له أنه كان يراها هى كما هى الآن وكما كانت المرة الأولى التى تراها فيها عيون رجل عارية. ترك كل شىء، تحرر من كل شىء، عندما تجردت هى من ملابسها كانت قد تركت ملابسها الداخلية تسقط على الأرض وقد اقتربت منه كأنها تنبثق من الملابس الملقاة عديمة الفائدة، والتى

تسقط عند قدميها مع صوت القطن. لم يكن هناك سرعة ولا ريبة ولا حركات محمومة أو وحشية تواقة. رآها تتحرك مترددة، تنتصب وترتاح ببطء فوقه، يمتزج الشعر فوق وجهها بالظل، أكتافها للخلف، ويداها تمسكان بفخذيه بقوة. أُنهك كل منهما فى نفس موجة العذوبة المكثفة، الذى كان هو يدركها كأنها آتية من بعيد، معلنة، دون شك، مجهولة، مستمرة وبطيئة، لم تنطفئ بعد النهاية، عندما ظلا ساكنين وتحررت هى شيئًا فشيئًا منه بينما تركت نفسها تسقط بجواره.

لم يدرك أنه نائم. استيقظ وهو فزع قليلاً ودون أن يبتعد عن سوسانا، التى كانت تنام تحتضن وسطه، حاول أن يميز فى الظلام عقارب الساعة. خشى أن يكون قد تأخر الوقت، عاد إليه الضيق بسبب أن يكونوا يبحثون عنه فى هذه اللحظة، دون أدنى إمكانية ليجدوه. كان هناك تليفون فوق خوان السرير. حاول أن يستدير بجانبه ولكنها كانت تحتضنه بقوة وتهمس بشىء وهى نائمة. كان لكل شىء درجة من الرقة والغرابة، والطبيعية المؤجلة، مثل الأشياء المحددة والعادية التى تصبح غريبة جدًا عند ضوء القمر المحدد. أمضى أكثر من ثلاث ساعات مع امرأة مجهولة تقريبًا فى غرفة استراحة ريفية اسمها «جزيرة كوبا» وكان يشعر بارتباطه الشديد بها، بالسكن بالقرب منها، كأنه يعرفها منذ زمن.

لم يتحرك، خوفًا أن يوقظها. بحذر شديد أبعد شعرها من على وجهها وظل ينظر إلى جفونها التى لم يبدُ أنها مغلقة بشكل كامل، شفتاها شبه مفتوحتين، تتنفس وتخرج الزفير بشكل منتظم. وهى تهمس بشىء غيرت من وضعها وأعطته ظهرها والآن تحتضن الوسادة. نظر إلى الساعة من جديد، جلس على السرير واتصل برقم قسم الشرطة، أملاً ألا تعرف هى أنه اتصل. فى صوت الشرطى الذى التقط التليفون فهم فى الحال نوعًا من التعويض العقابى وأنه ستتحقق له أسوأ تنبؤات الندم.

- ولكن سيدى أين اختفيت؟ أمضينا ساعات نبحث عنك.
- أوقع شىء؟
- اختفت طفلة أخرى.

٢٤

ترتعش، متجمدة، لم تشعر أبدًا ببرد شديد هكذا، لديها رغبة شديدة فى التبول، تختنق، لا تعرف أنها ليست نائمة الآن، لا تعرف أين هى، من تكون، ما الذى يمنعها من التنفس، ما هو اللاصق الموجود على الفم الذى يخنقها، تريد أن تفتح فمها ولا تستطيع، لا تستطيع أن تفتحه أكثر، فكاها مخلخلان ولا تعرف، تريد أن تستنشق الهواء عن طريق الأنف وبالكاد تستطيع، خيط واحد حاد مثل الإبرة، خيط من الهواء المثلج البارد، تختنق، تريد أن تحرك يديها ولا تستطيع أيضًا، لا تشعر بها، لا تتذكر أين يدها، تحلم بأنها ترقد ملقاة عارية فى الهواء الطلق الثلجى لليلة شتوية وإذا لم تمسك على نفسها بقوة ستتبول، ترتعش، ترتعش لدرجة أنها تعانى من انتفاضات، وشىء شديد البلل يحك بظهرها، شىء مبلل وخشن، يوخز، مثل وخز البرد، وخز الهواء أو الثلج الذى يدخل إلى الرئتين، تريد أن تقبض على أسنانها لتتحكم فى الرعشة ولكن لا تستطيع، من المستحيل أن تغلق فمها، يستحيل بنفس القدر الذى يستحيل معه التنفس، إذا لم يكن هذا الخيط الرفيع من الهواء الذى يبدو أنه مع كل لحظة ينكسر ويتركها مكممة بشكل نهائى. كانت تحلم بأنها تختنق، بأنها أصبحت مجمدة وعارية فوق لوح من الثلج، تحلم بوجه ويد ضخمة تقترب منها، يد تنبسط وتغطى وجهها وتغرس شيئًا فى فمها، وجه ومن فوقه أغصان الأشجار ومن فوقه أيضًا ومن بعيد القمر، وللحظة بدا الوجه والقمر شيئًا واحدًا وانغمست هى إلى أسفل وكانت دائرة كل من الوجه والقمر تصغر فى كل مرة تسقط فيها إلى حافة البئر، تطفو، بخفة، دون تنفس ودون حركة، متجمدة، بلا اسم، بلا أى ذكرى، بلا أيدٍ، بلا قدمين، تتبول وهى منهكة مثل طفل نائم يحلم أنه يتبول، ثم يزيد

البلل من البرودة، الفراش العارى، شلل الذراعين والأيدى المنملة التى لا تعرف الطاعة بإرادتها ولا تبحث متحسسة عن الملاءات والبطاطين ولا تغطى الجسد الذى يشعر بالبرد، الجسد الشاحب، الأزرق، المجمد، الذى تراه هى وكأنه جسد شخص آخر أو كأنها تحلم به: لا تعرف أن هذا الجسد الملقى تحت ظلال القمر وظلال الأشجار المحددة إنما هو جسدها وأنها لا تحلم بالضبط وأن ما تعض عليه هو قماش من القطن مبلل باللعاب والريق والدم يخنقها بعد أن غزا الحلق ودخل من فتحات الأنف ومع كل محاولة للتنفس ينغمس أكثر للداخل، دفعته أصابع عريضة وقوية، تتذكر فجأة، ترى فى ومضات من الوضوح والخوف تتلاشى فى الحال، أصابع تدخل وتغرس وتمرر مادة طرية هى جسدها الذى بدأت تعرفه الآن بفضل الألم المؤكد، الجرح المخيف الذى يمر ويظلم الوعى، يطفئه كليةً، رغم القمر، ورغم الضوء الثابت الذى يسمح الآن برؤية الأغصان العالية للأشجار، غصن بعيد يسبب دوارًا ينحنى ويتمايل وفوقها كانت الدائرة البيضاء التى كانت من قبل فوق حافة البئر ووجه كان يميل عليها لترى، من جديد ومضة ذكرى لم تصل إلى الاكتمال وتغمسها مرة أخرى فى فزع الأحلام، فى شلل البرد وإحباط نقص الهواء. يعود الظلام، كأنها فى غرفة انطفأ مصباحها، ولكنها هى التى أغمضت عينيها، أغمضت الجفون بقوة حتى آلمتها الحدقات، ومع إغماض العينين يتكثف البرد أكثر وأيضًا يتكثف الإحساس بالاختناق والرغبة فى التبول: على الأقل تعرف الآن أنها تستطيع أن تفتح عينيها وتغمضهما، تدير وجهها وشىء يحك وجنتيها ويبللهما وتفوح بقوة رائحة الأرض، رائحة الأوراق المبللة والطين، ترى ظلاً طويلاً رأسيًا وترتعش عندما ترى فيه ظل إنسان، حذاء ملطخًا بالطين وفوقه سروال جينز وشيئًا مخيفًا شاحبًا معلقًا كأنه شىء مريع من اللحم وفوقه وجه أبيض، وجه القمر المستدير الذى ينحنى فوقها، يكبر ويتشوه كأنه فى مرآة مقعرة، العينان تحملقان لدرجة أنها لا تقوى على النظر، حتى لو أغمضت عينيها ستظل تراه، حتى وإن انكمش

واختبأ وكور قبضته وأغمض جفنيه حتى يخرج من الكابوس لن يتمكن من عدم استئنافه. ولكن الوجه غير موجود، تفتح عينيها ويكون قد اختفى، اجتهدت حتى تكسر الحلم وخرجت منه فى الوقت المناسب حتى لا تسحق فى منتصف الكابوس، وما تراه ليس جسدًا بشريًا وإنما جذع شجرة، والوجه الموجود أعلى هو القمر. الآن تسمع شيئًا، نفسًا قريبًا جدًا، لشىء أو لشخص يزحف ويختنق، يخنقها هى، يسحق رئتيها، يكسر لها بالفعل الضلوع وعظام القفص الصدرى، يكتم فمها وحلقها، سيكسر خط الهواء والثلج الذى يبقيها على قيد الحياة، شىء يحك ويخدش شيئًا فشيئًا وبدأ يسترد حركة بطيئة، بدأ يستيقظ من شلل عميق من التجمد والنوم، من نوم مشابه للموت ويصب فيها مثل نهر ليلى فى الظلام الشاسع للبحر: إنها يد تلمس أرضًا مبتلة، وتبدأ تنزلق ببطء كشىء لزج أو نبات يرقانة الفراشة (اليسروع) وتقترب من وجهها ومن عينيها المفتوحتين، إنها يدها ولكن لا تزال لا تطيعها، تنظر إليها وتطلب منها أن تثنى الأصابع وتظل الأصابع ساكنة، مشلولة من البرد، اليد المثنية تفحص وجهها، والآن هى يد كبيرة وأظافرها سوداء ذات حواف مكسورة، كان عليها أن تغمض عينيها حتى لا يعود الكابوس، العينان مغمضتان بقوة والجسد كله منكمش فى غرفة نوم مظلمة، ولكن ليس هناك مكان للاختباء ولا شىء تتدثر به، ولا حتى يمكنها أن تتقلب على جانبها حتى تواجه الحائط، وأن تضم ركبتيها إلى صدرها وتدثر بالبطاطين، تفهم الآن أنها عارية، وأنها لا ترقد على فراش وإنما فوق أرض مبللة لسفح جبل، لا يوجد شىء يمكنها أن تتغطى به: تريد أن تتحرك ولا تستجيب ذراعاها ولا رجلاها ولا زالت أصابع يدها متجمدة، تريد أن تتنفس وكلما تحاول تختنق أكثر، تريد أن تصرخ ولا تستطيع، مكممة، مختنقة، ربما ماتت بالفعل وتحلم بموتها، تريد أن تتذكر شيئًا وتستحيل الذكرى مثلما تستحيل الحركة والصرخة. ولكنها لا تستسلم، شجاعة، بنفس عناد من يقاوم ترك نفسه كلية للخوف من كابوس، ترتعش دون أن تصطك أسنانها لأن فكيها منفصلان

والألم غير محتمل، رغم أنه ليس أكثر إيلامًا من الألم الذى يخترق بطنها، تلاحظ رعشات البرد ولا تستطيع أن تقاوم أكثر من هذا وتتبول دون انقطاع ودون أن تشبع رغبتها فى الاستمرار فى التبول، والآن تشعر بسخونة حادة على فخذيها، وتتحول فى الحال إلى برودة ورطوبة مجمدة وحرقان دون عزاء، ولكن الحرقان والبرد يوقظانها أكثر، الألم الذى أعادها للحياة والرعشة التى تحفز سريان الدم مع التصميم العضوى الأعمى بأنها ما زالت تنبض وتحيا وتسمح بأن تنقبض أصابعها بالكامل وأن تقترب ببطء من وجهها لتمسك شيئًا، تمسك بطرف قماش مبلل باللعاب وبالنفس، ما زالت بلا قوة، دون أى تصميم أو غرض إلا الغريزة، تتمكن أطراف الأصابع من القبض على ذلك الشىء المبلل وتشده للخارج وتدرك هى أن الكمامة التى تغزو حلقها وأنفها وفمها يمكن أن تُنتزع، وأن صوت الأنفاس التى كانت تسمعها بالقرب منها كانت أنفاسها، نفسًا يقترب من الاختناق: ولكن لا تعرف الأصابع أو لا تستطيع، تضعف، تفقد الأظافر طرف القماش، الإحباط بسبب عدم التنفس يسحق من جديد الضلوع والرئتين، كأن شخصًا يجثم فوقها: تراه الآن فى ومضة أخرى من ومضات الذكرى أو الحلم، تجثم الركبتان فوق صدرها والقفص الصدرى على وشك أن ينكسر كأنه قشرة جافة، تضغط الركبتان وتنغرسان وتشعر هى أنها تسحق وتنغمس وفمها مفتوح عن آخره دون أن تتمكن من التنفس ولكن عندما كانت ستفقد الوعى مرة أخرى وربما يبتلعها النسيان أو الغيبوبة أو الموت تحيا أصابع اليد وتتحسس الوجه وتجد الأظافر طرف الشىء وتسحبه وتبدأ الكمامة أو القماش أو قطعة القماش التى كانت تخنقها فى الخروج شيئًا فشيئًا تاركة أولاً داخل الفم حَرًا وتترك اللسان الملتوى ثم الحلق وفتحات الأنف، الآن نعم تستطيع أن تتنفس، تبتلع الهواء بقوة، تسعل، يثملها الهواء الثلجى الرطب، الذى تفوح منه رائحة الأرض والنبات، غلاف جذع أشجار الصنوبر المبللة بالماء، تسمع صوت أنفاسها وهى تتنفس وتشعر بالضلوع ترتفع وتنخفض ولا تستطيع أن تبتلع الهواء

بعمق لأن الألم فى الرئتين وفى القفص الصدرى لا يمكن احتماله مثل الألم الذى يخترق بطنها، كأنه تدمير بطىء وتدريجى للحامض الذى سببه البول فى جسدها المفتوح الذى ينزف. تبتلع ريقها وطعم الدم فى المعدة يسبب لها غثيان القىء، تستدير إلى الجانب الآخر وتتدحرج عدة خطوات فوق الأرض إلى أسفل، صوب ظلمة لا يصل إليها القمر: الآن تنام على بطنها، فمها مفتوح وتوخزه أوراق الصنوبر فى اللسان المعوج ويمتزج طعم الأرض مع طعم الدم، تستند بيديها على جانبى الجسم وتتمكن من النهوض قليلاً وحينئذ تسمع شيئًا وتستغرق وقتًا كبيرًا فى اكتشاف أو تذكر ما هو هذا الشىء التى تسمعه، أجراس إحدى الساعات، ساعة أحد الأبراج، تفكر، ساعة كبيرة وصفراء اللون تلمع فى الليل لا يمكن الوصول إليها وغير مبالية مثل القمر البدر بينما تسير هى مدفوعة ويمسك بها أحد وتتنمى السيارات ووجوه الناس إلى حلم لم يعد بعد حلمًا مرعبًا وإنما حلمًا بالاندهاش والغرابة، شلل الإرادة والصوت، رغم أنه ليس شلل الأرجل، التى تتحرك طائعة، لا تتحملها بسبب ضعف الركبتين، وإنما بدفع يد فوق الكتف، فوق القفا، للأظافر المغروسة أسفل الشعر. تسمع الأجراس، تريد أن تحسب عددها ولا تستطيع، تبدو كل دقة على أنها الأخيرة وتعود ويدق جرس آخر، أعاد لها هذا الصوت الذاكرة أو رؤيتها للمدينة، رغم أنها لا تزال لا تتذكر من هى، ولا حتى لديها وعى عن هويتها، تسمع صوت أجراس ساعة البرج وترى الشوارع تتزلق فى مخيلتها كأنها تتابع فى فيلم لا يشاهده أحد: تسند راحة يديها، الركبتين، البطن، الصدر المنسحق على الأرض، خدوش فوق الجلد كله مثل خدش الأظافر، تعتدل ولكن ليس فى ذراعيها قوة، تعود وتسقط، تخدش أوراق الصنوبر شفتيها وجفونها، تمد يدًا باحثة عن شىء، تجد قشرة خارجية جافة، تحيطها بأصابعها، تجر جسدها بالكامل إلى أعلى، فى الأول كوعًا ثم الكوع الآخر ثم الركبتين، التى انتزع جلدهما، تحرقها، تتنفس بعمق، ما زال اللسان ملتويًا، بين شفتيها، الآن تمكنت اليدان من الإمساك بالجذع العريض المنقسم،

تتقدم قليلاً، سنتيمترًا، وتستطيع أن تركع، تتوقف حتى تسترد أنفاسها، تغوص الرأس بين الكتفين، ستموت من البرد، ترى عاليًا نهاية المنحدر، قريبًا جدًا وفى الوقت نفسه بعيدًا جدًا مثل الغصن البعيد للشجرة ومثل القمر أو الساعة الصفراء، تمد يدها وكأنها تحاول أن تمسك من الماء حافة قيشاني أو صخرة لزجة. لكن لن تستسلم أبدًا، لن تترك نفسها تموت أو أن يبتلعها كابوس لا تزال لا تعرف أنه حقيقة؛ لأنها لا تعرف من تكون ولا أين تكون ولا ماذا حدث لها، ما لديها فقط رؤى مكسورة عن حلم سيئ وفزع وأحاسيس بدائية عن البرد والألم والاختناق، عن الدافع الذى حملها إلى أن تنهض شيئًا فشيئًا من الأرض وأن تبتلع الهواء بشراهة، إنه شيء غير شخصي وبعيد عن الإرادة مثل القوة التى تدفع من الجذور لأعلى عصارة الأشجار. بدأت تنهض بمساعدة ركبتيها وراحة يديها فوق الأرض مع الوعى الفسيولوجى بصفة خاصة مثل حيوان نائم أو جريح، هى الغريزة نفسها التى جعلتها تجد قميصًا كان ملقى بالقرب منها دون أن تعرف أنه قميصها وأن ترتديه على أى نحو وتزحف لتصعد التل حتى تصل إلى مكان ممهد لا تجد فيه راحة اليد ولا الركبتان طينًا ولا أوراق شجر الصنوبر، وإنما حواف أحجار وزجاجًا مكسورًا. تتلاحق أنفاسها وهى لا تزال فى وضع حيوان مفزوع، تستند على شيء وتتمكن من الوقوف على قدميها، وما لمسته الآن ليس جذعًا جافًا وإنما سطحًا ناعمًا وباردًا، كان حديد عمود إنارة مكسور. انغرست الحجارة والزجاج المكسور فى أخمص قدميها ولكنها لا تشعر بشيء، ترى ظلال أشجار وأسوار ومن بعيد ترى أضواء ضعيفة من فوق منازل من الجص، وواديًا عميقًا أزرق، يغمره الضباب ونور القمر. تخطو بعض الخطوات، يصيبها الدوار، ترتعش، رجلاها ضعيفتان بحيث إذا لم تصر على الاستمرار فى الوقوف عليها ستسقط مرة أخرى على الأرض، يسيل شيء بارد بين فخذيها، وحينئذ تعتقد أنها سمعت شيئًا من خلف ظهرها تلتفت وظل شجرة، لمدة لحظة يبدو ظل رجل ذى وجه شديد الشحوب. تريد أن تهرول

ولا تستطيع، تسمع صوتًا رقيقًا ينادى عليها أو يشتمها مستخدمًا كلمات مريعة لا تعرف هى بوجودها، تخطو خطوة ثم خطوة أخرى وينغرس الزجاج فى أخمص قدميها وهى لا تشعر بالألم؛ لأن الألم الذى يخترق بطنها أكثر حدة، كأنه سيخ، لا تريد أن تلتفت حتى لا ترى الظل، الوجه الشاحب الميت، ضوء الوادى مع الضباب الكثيف والخلفية الزرقاء بزرقة البحر ويعلو الجليد قمم الجبال التى تشبه هذه الوديان فى الأحلام التى يسكنها الموتى. لا تستطيع الجرى ولكنها تحلم بأنها تجرى. بالفعل، إنها تجرى ويبدو لها أنها لا تزال لم تتمكن من الحركة، تجرى صوب عمق الظلام وتسمع حك قدميها والضرورة المكلفة لتتنفس. يدفع الهواء بشعرها للخلف ويفتح قميصها، تحلم أو تتخيل أنها تجرى فى الوقت نفسه الذى تبتعد فيه عن الوادى وعن القمر وعن ظلال الأشجار وتصل الآن إلى مكان حيث لا يوجد أحجار ولا زجاج، وإنما أسفلت وحيث لا يضيئه القمر وإنما أعمدة إنارة عالية جدًا مائلة، تجرى عارية تقريبًا فى شارع طويل وخاو كل أبوابه مغلقة ونور نوافذه مطفأ، وكأنها تجرى فى حلم لا تتقدم ولا تتعب أبدًا، لا تعرف من يرى الأشياء التى تراها هى ولا من يحدث له ما تعيشه: تجرى وفمها مفتوح ولسانها معوج، وسائل يخرج من بين فخذيها كما يسيل اللعاب على الذقن، تجرى وسط شارع لا يوجد فيه إضاءة سوى ضوء أعمدة الإنارة وحيث اختفى فيه كل ما يشير إلى وجود بشرى، ترى من بعيد، من بعيد جدًا أضواء كثيرة وبرجًا، وفى البرج كرة صفراء ليست القمر وليست وجهها، عليها أن تصل ولا تستطيع، ربما أنها تحلم وفى الحقيقة لم تتحرك من عند السور وقد تجمدت وماتت، تتعثر فى شىء، حافة رصيف تجرحها بجرح صعب فى أحد أصابع قدميها، تتعثر وتسقط بين سيارتين ولم يسعفها الوقت لتمد يدها ويصطدم وجهها ببلاط الرصيف، ولكنها تعود وتنهض، تسقط مرة أخرى، تعلو أنفاسها ويغوص رأسها بين كتفيها، إنسان وحيوان، مرعوبة، ما زالت على قيد الحياة، جسد أشعث الشعر عار ووجهها ملطخ بالطين والدم،

ترتعش فى الغيام الطبيعى للشارع الخاوى والسيارات المتوقفة، تستند على إحدى السيارات، على الغطاء الثلجى، تتنفس بقوة، وترفع شعرها من فوق وجهها، ومرة أخرى تهرول، لم تعد تحلم، ترى أضواء أخرى، تمثالاً عاليًا ومظلمًا بين الأشجار، البرج والساعة الصفراء بعيدين عن المنال، ولكنها الآن تسمع أصواتًا ولا تعرف أنهم ينادون عليها، تهرول وتسقط على الأرض يهزمها دوار الإنهاك وتشعر تقريبًا فى اللا وعى أنهم يحيطون بها ويتحدثون إليها، يرفعونها من على الأرض، يغطونها، يحملونها لمكان ما، يجعلونها تتمدد ويبدو كل شىء دافئًا، والأصوات التى تسمعها توجد بجانبها وتسمع من على بعد فى الوقت نفسه مثل بعد بث الراديو. يد دافئة، جامدة، حانية تلمس وجهها، فى النهاية يغطيها شىء دافئ جدًا، يدفئها، يغلفها، شخص يكرر بالقرب من مسامعها كلمة، وهى لم تعرف بعد أنها عادت للحياة، وأنهم ينادونها باسمها.

٢٥

«يمكنك أن ترتدى ملابسك الآن»، قال فيريراس، وهو يخلع القفاز الجلد، فى نفس نبرة الصوت التى كان قد تحدث بها إلى بَاولا، الطفلة، منذ أن رآها تدخل العيادة، كانت لا تزال شاحبة، ملفوفة فى نفس البطانية التى وضعها فوقها سائقو التاكسى عندما التقطوها، شعثاء الشعر ولديها علامات زرقاء كبيرة أسفل العينين، يرافقها أبوها الذى يرشدها، الذى يحتضنها برقة من كتفيها ويتحدث إليها بصوت خفيض، تقريبًا فى أذنها، كأنه يترجم لها الأشياء التى يقولها لها الآخرون ولا تزال هى غير قادرة على فهمها، إرشادات رجال الشرطة وممرضى الطوارئ، والرجل القوى ذى الشعر الأشيب، والوجه البرونزى والمعطف الأبيض، الطبيب الشرعى، الذى يفعل كل شىء بحركات غامضة ومحددة، الذى مرر يده دقيقة فوق شعر الطفلة الأشعث، والمتسخ من الأرض ومن أوراق الصنوبر، وفى الحال سحب يده أمام حركة الطفلة الخائفة، حركة خوف غريزية لحيوان تعرض للضرب.

«اهدئى» قال الطبيب الشرعى، «لن أفعل لك شيئًا، لا تخافى، يا حبيبتى»، واقترب أبوها من مكان جلوسها فوق السرير وأمسك بيديها، وعيناه تملؤهما الدموع وحاول الابتسام، يكرر أو يترجم لها كلمات فيريراس، «هيا، حبيبتى، هدئى من روعك، لن يصيبك شىء». ارتمت الطفلة فى أحضان أبيها وخبأت رأسها الأشعث فى صدره وبدأت ترتعش وتتأوه، بصوت حنجرى، مختنق، ليس صوتًا بشريًا بالكامل، نحيب لم يسمعه فيريراس من أحد من قبل، وقد تجمد دمه بسبب الإيحاء البدائى للمعاناة والرعب، من الفزع دون راحة ودون فهم ممكن، مثل الذى يمكن أن تشعر

به امرأة منذ عشرين أو ثلاثين عامًا يكون قد هزمها ظلام غابة بعد ضربة مخلب أو عضة حيوان من آكلى لحوم البشر.

ابتعد عن السرير حتى لا يتدخل فى الحضن بين الأب وابنته، حتى لا يراه أحدهما، ظل فى الخلف قليلاً والتقط من على الأرض البطانية التى كانوا قد أحضروا الطفلة ملفوفة بها، كان يفحصها ببطء على ضوء مصباح قوى، باحثًا عن آثار، يستخدم ملقاطه الصغير حتى يفصل أوراق الصنوبر، وأجزاء القشور الخارجية، وبعض كميات الطين أو الدم القليلة، أو الطين الملطخ بالدم. لم تفلح الطفلة بعد فى قول أى شىء، ولم يكن قد سَمح لهم أن يوجهوا لها أسئلة. كانت تفتح فمها على الآخر كأنها ستصرخ وتتكب إلى الأمام تهزها ارتعاشات عنيفة، كان أبوها يمسك برأسها ويبعد شعرها عن وجهها بينما تتقيأ قليلاً من مادة صفراء. كان قد حقنها بمهدئ خفيف، وكانت قد حاولت إحدى الممرضات أن تعطيها رشفات من تيلا دافئة، لأنها كانت زرقاء من البرد، كان يبدو أنها أنقذت من الغرق، من كارثة طبيعية مجهولة لم يكن هناك شهود عليها سواها هى نفسها: شاهد شبه أبكم، بلسان ما زال ملتويًا، ترتدى قميصًا ممزقًا بالكاد يسترها ويغطى الطين والدم بطنها وفخذيها.

العزاء الوحيد، السند الوحيد الممكن ضد الغيظ الأحمق والقرف كان، كما هو دائمًا، الوفاء بالتفاصيل الصغيرة. أوراق كان من الضرورى أن تُملأ، تواريخ وأرقام بالترتيب، ساعة الوصول للعيادة، اسم المريض واسم الأب أو الأم أو الوصى والعنوان. كان يمكن أن يَطلب من إحدى الممرضات تحمل مسئولية هذا، الإجراءات، مثلما كان يمكنه أن يأمر بحقن الطفلة، ولكن فضل أن يفعل كل شىء بنفسه، ليس لعدم الثقة، ولكن حتى يرتب نفسه من الداخل، حتى يتظاهر ببداية طبيعية حقيقية، رتابة، فاعلية. «من فضلك» قال للأب «قل لى اسم الطفلة بالكامل»، والرجل، دون أن ينفصل عن ابنته،

يجلس الاثنان فوق السرير، حيث سيطلب فيريراس بعد ذلك بقليل أن يساعد الطفلة على أن ترقد، كرر ذلك بجدية شديدة، بصوت خفيض، بوداعة وصرامة، لأنه رآه رجلاً معتادًا على الهدوء، تمنحه قوة طبيعية روحية بلا شك ستساعده الآن على ألا ينهار، على أن يقول شكرًا، ومن فضلك، وعلى أن يتحدث لابنته فى نبرة حانية دون أى ملمح للعصبية، أو الغضب أو الكره، دون أن يسمح بأن ألمه الشخصى، ومعاناة ساعات طويلة مضت منذ لم تعد الطفلة إلى المنزل، يضافان إلى معاناة الطفلة ويزيدان منها. كانوا قد أعطوا زوجته مهدئًا قويًا جدًا، شرح لفيريراس كأنه يعتذر عن عدم وجودها معه: فى اليوم التالى عندما تستيقظ ستعرف أن الطفلة أنقذت. «سأعطى حضرتك مهدئًا آخر، إذا أردت» قال الطبيب الشرعى، ولكنه رفض بحسم، وهو يحتضن ابنته، لم يكن يريد النوم، لن يتركها بمفردها ولو لمدة ثانية واحدة، وامتلأت عيناه الحمراوان مرة أخرى بالدموع، كان يبحث عن منديل ورقى وتبقى معه فقط الكيس البلاستيكى لإحدى عبوات المناديل. فتح فيريراس عبوة أخرى وقدم له منديلاً، وبعد أن نظف الرجل أنفه وتمخط، شكر فيريراس، دائمًا مهذبًا، ممتنًا، يداعب شعر ووجه ابنته، وهو يدللها كما يدللون الأطفال بصوت خفيض، يقول لها أسماء ربما لم يقلها لها منذ سنوات كثيرة؛ لأن الطفلة أصبحت مراهقة تقريبًا، وتأتيها الدورة الشهرية منذ شهور، حدد، منذ خمسة أشهر، بتلقائية بدت لفيريراس غير عادية من أب. سجل هذه المعلومة فى إحدى الاستمارات، زرر البالطو الأبيض ولبس ببطء قفازه الجلد.

- علىّ أن أخرج؟ ـــ قال الأب خائفًا.

- أُفضل أن تبقى. اقترب فيريراس من السرير، ورغم أن الطفلة لم تنظر إليه تراجعت تجاه الحائط – ساعدها على أن ترقد. قُلْ لها ألا تخاف.

- ماذا فعلوا بابنتى؟!. مال الرجل على ابنته، أراح الوسادة الصغيرة تحت رأسها، وغطى صدرها بالقميص. - من تمكن من ذلك؟!.

- لا تلمس شعرها. - قال فيريراس-، ساعدها على أن تباعد بين رجليها قليلاً، هكذا. لا بد أنها تشعر بألم كبير.

قرب الضوء أكثر، جلس عند نهاية السرير بين ركبتى الطفلة المتباعدتين والمرفوعتين. أخذ عينة من الدم، ومن الإفرازات، مشّط شعر العانة الخفيف، ووجد بعض الشعيرات الداكنة، المجعدة والقوية، حفظها فى كيس بلاستيك: كان لديه إحساس غير منطقى وقوى بأنه يعرف هذه الشعيرات، من أنه يحدد وجهًا مفقودًا منذ أشهر مضت، لم يتعرف عليها على سرير نقل المرضى، وإنما فوق مائدة تشريح، أثرًا مألوفًا جدًا مثل صوت، مثل وجه قابله عدة مرات، وجه مضبب، وجده من جديد، الآن هو محدد ومختلف عن أى وجه آخر.

«إذن أنت مرة أخرى»، كان يفكر، وهو يفحص برقة بالغة حتى كاد يجهل أن فى يده جهازًا تناسليًا لطفلة هُتك ولُطخ، الجروح، الخدش، اللحم وردى اللون، غير المحمى بشكل لا نهائى، الضعيف أمام أى قسوة. أقل ضغطة كانت توقظ عند الطفلة تقلصات الألم، وكان يحاول تهدأتها قائلاً أشياء بصوت خفيض، لن يصيبك شىء، حبيبتى، لن أفعل لك شيئًا، سأنتهى حالاً. فحص الركبتين المجروحتين، الحمراوين، جلد الفخذين، الذى بدأ يصبح دافئًا، رغم أنه لا يزال يحتفظ بشحوبة زرقاء، الأخمص الوردية للقدمين، المتسخة بالطين وقد نفذ إليها قطع صغيرة من الزجاج والأحجار. استخرجها بحذر بالملقاط، وحفظها فى كيس آخر، عليه لاصق آخر، وكرر بصـــوت غير مسمـــوع، «إذن أنت، يا نذل، إذن كان عليك أن تحملها إلى نفس المكان».

- أتقول شيئًا؟ - قال الأب، وهو يجلس عند رأس الطفلة، لم يجرؤ بعد على أن يسأل.

- لا شيء، عذرًا. جعله فيريراس يُنزل رجليها وكان قد غطاها بملاءة حتى منطقة البطن. - كنت أتكلم وحدى.

العلامات الزرقاء فوق الوسط وفوق الجلد المشدود، فوق الضلوع، الخدوش، الآثار الحمراء من ضغط الأصابع: - أعرفك، كان يفكر، كان يقول فى نفسه، وكل شيء كان يكتشفه كان يؤكد حدسه، صوابه الانتقامى، شعيرة عانة أخرى داخل الفم، أسفل اللسان، علامات الأظافر على الرقبة، البقع البنفسجية فوق الكتفين وأسفل القفا، بالضبط مثل البصمات، مثل المرة السابقة، مثل الأيدى المطلية بطلاء أظافر الذى يتذكر أنه كان قد رآه على جص القرى فى المغرب، طيف يدين أزرق، منذ سنوات كثيرة مضت. كان يحسب الكلمات التخصصية التى كان قد كتبها فى التقرير بعد ذلك، المفردات المحددة التى تصف وتمحو فى نفس الوقت العار، ولكن بصفة خاصة كان يتخيل أنه يتحدث عن الآخر، عمّن تعرّف عليه فى علامات أفعاله، فى غرس المطواة حول أحد ثديى الطفلة الصغير، فى الشعر القوى المجعد، ولكن بصفة خاصة، فى شيء آخر كان متأكدًا منه، رغم أنه ينقصه تأكيد فحص الإفرازات والدم تحت الميكروسكوب، دليل بدا له صورة لا شك فيها ولكن ما زال ظل المغتصب بشكل جزئى، القاتل المكرر تقريبًا. قال بصوت مرتفع لأنه كان يعرف ما كان ينتظره ويخشاه الأب، الذى حتى الآن لم يجرؤ أن يسأل عنه، وهو جالس بجوار ابنته، يربت على يديها، ويسمعها كلمات دلال بشكل طفولى بينما يتابع على استحياء حركات الطبيب، والتعبيرات المتتابعة لوجهه.

- لم تغتصب. على الأقل بشكل تقنى، إذا كان ذلك يواسيك. قال فيريراس. تهتك غشاء البكارة، ولكن ليس هناك علامات على الولوج بداخلها. ليس هناك آثار لحيوان منوى.

- حمدًا لله. كانت أيدى الرجل متشابكة تحت ذقنه، كأنه يصلى - يمكننى أن أحملها إلى البيت؟

- من الأفضل أن تظل هنا تحت الملاحظة، لمدة ثمان وأربعين ساعة على الأقل. من الملائم عمل آشعة لها، خاصة، على الصدر، يمكن أن يكون أحد الضلوع قد كسر. الآن سأحقنها كى تنام لمدة اثنتى عشرة ساعة على الأقل. هذا ما تفتقده بالفعل. يمكن أن تظل حضرتك معها.

ساعدها الأب على أن تعتدل، ألبسها مثل طفلة حمقاء أو نائمة قميص التأمين الاجتماعى الذى كانت قد أحضرته إحدى الممرضات. شاحبة جدًا وعلامات بنفسجية أسفل عينيها، تبدو فجأة مع القميص الكبير عليها أنها ليست الطفلة التى وصلت لتوها لمرحلة البلوغ وإنما امرأة شديدة النحولة، أضعفها المرض أو الجوع، يُربكها الخوف، مثل اليهوديات فى صور معسكر التصفية. - وفى الحال سيجيئون ليحملوها إلى غرفة، قال فيريراس. ولكن ربما تسترد عافيتها، كان يفكر، كان يرغب ويطلب، فى صلاة باتجاه حميمى وليس دينى، فقط عمرها اثنتا عشرة سنة، ما زالت تحتفظ دون مساس بحافز النمو الجسمانى والنسيان: لم تستطع قتلها، أيها النذل، لن تستطيع أن تسمم حياتها المستقبلية. بعناية بالغة حقنها فى الذراع حقنة منوم وأشار على الأب أن يمسك بقطعة قطن مبلل بالكحول فوق الجلد مكان الحقن. - الآن ستنامين، قال لها، واقترب بحذر، رغم أنها لم ترفض هذه المرة، - سترين كيف أنه لن تأتيك أحلام سيئة.

خلع القفاز ولم يخلع المعطف الأبيض، وغسل يديه. عندما جاء الممرضون ليحملوا الطفلة، التفت الأب نحوه وضغط على يديه لمدة طويلة، بقوة شديدة، من الألم والراحة، والامتنان. كان رجلاً شابًا، يبلغ أقل من أربعين سنة، وجهه هادئ رغم الإنهاك العصبى وساعات الكرب التى بدت أكثر من ساعات كرب ابنته.

عندما مكث بمفرده، بحث فيريراس فى سترته التى تشبه سترات راكبى الدراجات البخارية والمكتشفين، المعلقة على المشجب، الصفيحة المسطحة الفضية، تجرع جرعة ويسكى أحرقت حلقه ثم معدته تاركة إياه فى هدوء غير مُجد، فى تعب وأرق: كان قد أيقظه التليفون فى الثالثة فجرًا، والآن هى الخامسة والنصف، ولم تمض ولا دقيقة واحدة دون أن يدق أحد الباب. مرر تحت أنفه عبوة الويسكى المفتوحة: لم يفح منها رائحة الكحول وإنما رائحة دخان وعشب بحرى، رائحة تيار ماء مالح. رائحة ويسكى الشعير يخفف من الروائح الطبية للقاعة الصغيرة، يمنحه قوسين بينهما شىء يشبه الراحة والنسيان.

أين أنت الآن، يا نذل؟، بماذا تشعر؟، فيم تفكر بعد فعلتك؟. فتح الباب دون أن يطرق عليه أحد وظهر المفتش عند الباب.

- هل هو من فعلها؟

- أقطع رقبتى إن لم يكن هو. - لاحظ فيريراس أن عينى المفتش تذهبان صوب عبوة الويسكى المفتوحة: تفوح رائحته، مثلما تفوح رائحة التبغ وتتحرك مع الروائح القديمة والمحببة، الألياف الحلوة المحترقة، المذابة فى الرماد والدخان، ذرات الكحول فى الهواء -، تجرع شفطة. قدم له الصفيحة، رفض المفتش بحركة سريعة وهو يبعد عينيه. ويسكى الشعير هو وصفة طبية.

ولكن كان هناك شيء، لم يكن الكحول ولا إثارة البحث التى تجددت، والصيد الوشيك. الآن هناك شىء، لم يكن موجودًا إطلاقًا من قبل فى عينى المفتش الرماديتين، فى مقلتيه الممعنتين والغائرتين، هناك ضعف تواق، أو مخافة شىء، كأنه قد فقد خلال الأيام الماضية، الأيام القليلة الماضية منذ آخر مرة رآه فيها فيريراس، فقد الأهلية أو الثقة فى نفسه التى كانت تبدو طبيعية لديه مثل شيب شعره أو درجات حمرة وجنتيه، أهدابه العظمية، الجلد يبدو دائمًا مشعًا بسبب ريح شديدة البرودة، لعدم المساواة بين هذا المناخ ومناخ الشمال. قال فيريراس:

- فى المكان نفسه، وفى الساعة نفسها.

- هل تحدثت معها؟

- لا تستطيع أن تتكلم. دهش فيريراس كثيرًا من أن المفتش يخاطبه بصيغة أنت. - كان فوق شعرها وفوق قميصها أوراق صبار، مثل فاطيما. إذا رغبت نذهب الآن إلى المنخفض وأنا متأكد أننا سنجد ملابسها.

- ولكنه لم يقتلها.

- ربما لا يعرف أنها لم تمت.

- لا أفهمك.

- ربما اعتقد أنها ماتت، مثل فاطيما.

- أحاول خنقها؟

- فكها مخلخل ولسانها تقريبًا مشقوق. فمها ملىء بخيوط قطن.

- أراد أن يخنقها مثلما فعل مع فاطيما.

- مؤكد. مثلها تمامًا.

- هيا بنا نذهب إلى المنحدر. وقف المفتش ولاحظ فيريراس أن أزرار القميص الذى يرتديه ليست مزررة بشكل جيد، وأن هناك بقعة أحمر شفاه فى حافة الرقبة، بالقرب من عقدة ربطة العنق التى لم تربط بإحكام كما هو معتاد. إذا كان هذا: شعر فيريراس بالحسد، بالحقد الشجى، كان فى شدة الارتباك، فى نهاية الإثارة والتعب، وضرورة فحص الوجوه، من تحديد البصمات، تحدثت مع سائقى التاكسى الذين عثروا عليها، ومع الطبيب المناوب ومع والد الطفلة؟. أكمل المفتش: بالفعل مستحيل، ولكننى سأحاول ألا ينشر فى الصحيفة أى شىء غدًا ولا أن ينفلت لسان أى شخص.

- أتريد أن يأمن؟

- على العكس. الآن كان قد لاحظ المفتش نظرات فيريراس، ومرر يده بتلقائية على رقبته. - أريده أن يتأكد أن الطفلة ماتت وأنهم وجدوا الجثة. تحدث أنت مع الممرضات والتمرجية وألزمهم على أن يقسموا لك على ألا يقولوا شيئًا.

خرجا من المستشفى بعد السادسة صباحًا، صامتين يتدثران من البرد ورطوبة الليل، فيريراس مع حقيبته الصغيرة ليأخذ الأدلة، والمفتش يحمل فى جيوب سترته بطارية قوية. كان المستشفى فى مكان غير مأهول فى ضواحى المدينة، صوب الشمال بالقرب من أشجار الزيتون الأولى. تمتد سحابات كبيرة داكنة من الأفق المموج للغرب وهى تغطى بالفعل نصف السماء وكانت قد أخفت القمر. كانت الليلة أكثر ظلمة من ساعات مضت وللنوافذ المضيئة للمستشفى برود البُعد صعب المنال.

- علينا أن نسرع - قال المفتش بينما يعبران الجراج - ستمطر حالاً.

- مثل المرة السابقة، كان فيريراس قد جلس بجواره فى السيارة، كان قد أخذ مساحة أكبر من المكان الضيق جدًا بسبب حجم سترته، ووضع حقيبته بين رجليه. - ألا تتذكر؟ عثرنا على فاطيما وبدأ هطول المطر. أتذكر كانت آتية نفس الرياح مثل الآن.

عبرا من شمال المدينة إلى جنوبها، الشوارع المضيئة والمهجورة التى لا يمر بها الآن سيارات تقريبًا. كان وجه فيريراس بجوار الزجاج البارد لنافذة السيارة، وكان يرى تتابع الأبواب المغلقة والنوافذ المظلمة، بعضها مضاء، أضواء كهربائية لمن يبكرون يتناولون قهوة باللبن واقفين ويستعدون بمفردهم لبداية الطريق صوب أعمالهم المبكرة، أضواء ضعيفة خلف الستائر الخفيفة التى ربما تخص غرف نوم مرضى أو من يعانون من الأرق. إنه فى مكان ما - كان يفكر - بالتحديد هنا بالقرب منا، ربما لم يستطع النوم وأحد هذه الأنوار المضاءة هو ضوء غرفته، أو إنه مستيقظ فى الظل، أو إنه نام، من يعرف، منهكًا ومسترخيًا، آمنًا من غياب العقاب.

- أريده أن ينتظر وألا يقع شىء. قال المفتش، بفظاظة من ظل وقت طويل يفكر فى الموضوع فى صمت. - أن يبحث فى الصحيفة من فوقها إلى تحتها ولا يرى أى خبر، ولا خبر عن اختفاء طفلة أخرى. وأن يستمع إلى الراديو كل يوم، فى كل ساعة، وأن يصبح عصبيًا وهو ينتظر نشرة الأخبار. يحدث لهؤلاء ما يحدث للإرهابيين. فى الداخل تأكلهم الخيلاء عندما يروا مآثرهم فى الصحف. عرفت بعضهم كان يحتفظ بقصاصات ملصقة فى ألبومات، مثل الفنانين.

«يتحدث أكثر من المعتاد»: استمر فيريراس بمثابرة دقيقة فى ملاحظة الأشياء الجديدة الصغيرة فى تصرفات المفتش. كان يتحدث بسرعة، بسرعة أكثر، كان ينظر إلى العينين بشكل متكرر. قابعان فى السيارة، كان يعتقد أنه

يدرك، فوق رائحة التدفئة والملابس الشتوية المبللة، رائحة أخرى أخف، رغم أنها ضعيفة جدًا، رائحة كولونيا أو مكياج، رائحة حميمية لامرأة.

- هاتفونى من مكتبك فى حوالى التاسعة. قال، عن قصد، بمظهر من الطبيعية العادية جدًا. - لم يستطيعوا الوصول إليك وفكروا فى أنه يمكننى أن أعرف أين أنت.

وقف يراقب وجه المفتش من طرف عينيه باحثًا عن رد فعل: ظل المفتش رابط الجأش، ببساطة لم يقل شيئًا، كأنه لم يسمع، واسترد فى الحال الصعوبة المعتادة على اختراقه. من جديد كأنهما لا يعرفان بعضهما ومستعدان لإكمال مهمة منهكة غير لطيفة معًا، وأن يخرجا من السيارة فى السادسة والربع صباحًا فى الطرف الأكثر ظلمة وغير المأهول من المدينة ويعبرا متنزهًا صغيرًا له سور متهدم، به مصابيح كسرت أغلفتها ومقاعد مقلوبة فوق الحجارة: صامتين، خفيين تقريبًا، أمسك أحدهم بطارية مضاءة من مقبضها، وأمسك الآخر بحقيبة. كان يفوح من بين أشجار الصنوبر الضخمة للسور، المبللة بماء المطر، رائحة الخشب والصمغ القوية. قال المفتش بشكل غير متوقع:

- كنت فى المنزل حين هاتفونى. لم أغلق سماعة التليفون بشكل جيد.

على الأقل لم يكن قد تصنع أنه لم يسمع: اضطر إلى اختلاق كذبة كان تصرفه شبه مهذب. بين الحين والآخر تكسر الرياح كتلة كبيرة من السحب ويرسم ضوء القمر أمامهما ظلاً لكليهما. بعد ذلك بلحظة أظلمت من جديد، وكان يهديهما فقط ضوء البطارية.

نزلا إلى المنحدر، وهما يستندان حتى لا ينزلقا فوق جذوع أشجار الصنوبر، عثرا دون أى تردد على المكان الذى يبحثان عنه، نفس حفرة

المرة السابقة، الأرض المحفورة، الملابس الممزقة والملقاة، حتى تحول ضوء البطارية فجأة بالنسبة لهما متطابقًا وتذكر الاثنان، دون أن يقولا شيئًا، الشىء الوحيد الذى ينقص الآن حتى يكون التكرار متطابقًا تمامًا، هو العثور على جسد فاطيما الصغير العارى، وهى مرتدية فقط الجورب الأبيض، مع ذلك الشىء الذى يخرج من فمها المفتوح بشكل مبالغ. على بعد خطوات من الشوارع المضيئة للمدينة، من الأماكن المعتادة حيث تسمع أصوات وصافرة سيارات وحياة الناس، كان المنحدر وأشجار الصنوبر الكبيرة ذات الأغصان المرتفعة والجذوع المائلة والملتوية فى وعى المفتش والطبيب الشرعى غابة قديمة من الظلام والرعب، بعيدًا جدًا عن الحاضر، وعن ضوء النهار، وعن الجزء المتحضر والمأهول للعالم.

جثم الاثنان على ركبتيهما، كانا يبحثان، على مقربة من ضوء البطارية، كأنهما يطلان على بئر، رأساهما قريبتان، وتتحسس الأيدى بين الأوراق والجذور، وتصعد الرطوبة الباردة إلى عظامهما: أدوات فيريراس الصغيرة، الفرش، الملقاط، ورقة جامع الحشرات التى يلتقط بها عقب سيجارة فورتونا ويحفظه فى كيس بلاستيكى خاص بها، آثار الأقدام التى تكلف المفتش نفسه بتصويرها، مسببًا بفلاش الكاميرا عدم انتظام خاطف للظلال، ملابس الطفلة، قطعة قطعة، سروال الجينز، الجورب، الحذاء الرياضى أكبر من مقاس فاطيما ببعض الأرقام، السترة التى تلطخ أحد أكتافها بالدم. «ينقصنا السروال الداخلى» قال فيريراس: وجداه بعيدًا قليلاً، بعيدًا فى الوادى الذى يفصل المنحدر عن المتنزه، وقبل أن يحفظه فحصه فيريراس وهو يقرب جدًا ضوء البطارية. كان ممزقًا، ولا يزال مبللاً باللعاب وبالدم، وبمخاط كثيف. تذكر الاثنان اللحظة التى أخرج فيها فيريراس بالملقاط السروال الداخلى من فم فاطيما، الذى ظل مفتوحًا مثل عينيها،

واللسان محشور داخل الحلق، مشقوق فوق القصبة الهوائية، وتطل الأسنان الطفولية الصغيرة بالقرب من الشفة شديدة الشحوب.

فوق أحد المقاعد القليلة التى ظلت بلا مساس رتب فيريراس، على ضوء البطارية الذى أخذ ضوؤها يضعف شيئًا فشيئًا، الأشياء التى وجدها: بينما كانا يبحثان منحنيين فوق الأرض منتبهين لأى أثر ممكن أن يُمحى فى أى وقت عند نزول المطر، لم يكونا قد لاحظا أنها بدأت تشرق. صوب الشرق، بين سلسلة الجبال التى لا تزال مظلمة وطبقة السحب، كان قد بزغ شعاع أحمر تحول إلى اللون الذهبى.

- إذا رأيت آشعة الشمس تشرق من بين الضباب فمن المؤكد أنها ستمطر. قال فيريراس فى نفسه، وقد أدار له المفتش ظهره وهو ينظر إلى الوادى الذى به رمادية صباح شتوى ممطر.

- ماذا تقول؟

- أتحدث إلى نفسى.

التفت فيريراس ووجهه أصبح محددًا بالكامل فى الضوء الشبحى للشروق، كأنه قادم من لا مكان، بعيدًا فى الوقت نفسه عن القمر والشمس. تذكرت مقولة شعبية كان يقولها الناس فى القرى، عند الاستيقاظ مبكرًا للذهاب لجمع الزيتون ويندفع الجميع إلى الطريق بينما يكون الوقت ليلاً. يهبطون فى طريقهم إلى الوادى، ويرون تلك البقعة الحمراء فوق سلسلة الجبال ويقررون أنه إنذار مؤكد بالمطر. "إذا رأيت أشعة الشمس تشرق من وسط الضباب فمن المؤكد أنها ستمطر".

كان متصلبًا من الرطوبة والبرد، تؤلمه ركبتاه وجانبه كمخدرين من روماتيزم الشيخوخة. كان ينظر من المتنزه المهجور، إلى المنازل البيضاء التى تمتد صوب الجنوب متتبعة انحناءات السور المهدم فى جزء منه،

الأسقف، أبراج الكنائس، الأركان حيث يتلاشى فيها ضوء المصابيح دقيقة بدقيقة. فكر فى أنه لم يكن قد رأى الشروق فى حى سان لورنثو وفى وادى النهر منذ كان مراهقًا حيث كان يستغل إجازة عيد الميلاد ليتكسب مرتبًا يوميًا مثل زارع الزيتون ليدفع رسوم دراسة الطب. الآن البرد، وألم الغضاريف، وقلة النوم، تضعف من مناعته ضد الحنين، وشعر أنه أصبح عاطفيًا بشكل مخز، إنذارًا لنفسه، يتكرر له بشكل كبير كلما تقدم الوقت: تذكر الطعام فى منزل سوسانا جراى، منذ أيام قليلة مضت، ومضة حزينة للحدس الذى جعله يكتشف بجوارها الفضاء الخاوى، الفراغ أو ظل أحد، ظل رجل آخر لم يكن هو للمرة الثانية. قال للمفتش:

- هذا هو الحى الذى عشت فيه.

كانا قد جمعا كل العينات وملابس الطفلة وقد حفظاها فى الحقيبة. هنا كانت السينما الصيفية التى كان يحضرنى إليها أبواى كل مساء. كنا نسمع من بعيد موسيقى الأفلام، وعندما ندخلها كنا نشم رائحة قوية لزهور الياسمين ونجمة الصباح. أتذكر عندما افتتحوا هذا المتنزه القذر، من رآك ومن يراك. كان هناك مكان للزهور ولنافورة مستديرة وكان العشاق والمخطوبون يأتون للتنزه صباحًا يوم الأحد. اعتقد أنه كان هنا عندما رأيت لأول مرة محبين متشابكى الأيدى، حيث كانت تبدو للجميع شيئًا حديثًا جدًا، لأن المخطوبَين حينئذ كانا يتأبطان. كان الواحد يأتى ويشترى من كشك متحرك السجائر الأمريكية الملفوفة أو قرطاسًا من البندق المحمص، وفى الصيف كان هناك أيضًا عربة للآيس كريم وعصير الليمون الطازج المثلج. كانت أحدث موضة، المجيء للتنزه يوم الأحد فى حدائق الكابا، كنت أتخيل نفسى كبيرًا آتى لأمسك بيد خطيبتى بعد قداس الثانية عشرة فى كنيسة السلفادور وأشترى لها مثلجًا أو قرطاس البندق الساخن، أو سيجارة واحدة أو سيجارة تبغ فاتح

بالنعناع، كان ثمنها بيزيتا واحدة، وهو مبلغ كبير حينئذ. أنظر إلى ما آل إليه كل شيء: سرنجات وزجاج زجاجات البيرة. وهذا النذل الذى يحضر مرتين طفلة دون أن يراه أحد، دون أدنى خطر. حتى لو كانتا قد صرختا لم يستطع أحد سماعهما. الحى الذى كان حينذاك أصبح مدينة أشباح.

رغم أنهما كانا واقفين، بجوار السيارة، يستمع له المفتش وهو ممسك فى يديه المفاتيح، دون عجلة مع سلوك إرادى ليستمع، لم يكف فيريراس عن الملاحظة «يتقدم بى العمر» أعلن، بضيق محدد من نفسه، رفع أكتافه فى حزن قبل أن يركب السيارة. «غير لطيف التفكير فى هذا، ولكن لم يعد يعجبنى العالم». بالإضافة إلى ذلك أكرر لنفسى، أفكر فى حذر، ضعفت همتى، لمن كان قد قال هذه الكلمات منذ وقت قصير: كان قد قالها لسوسانا جراى، تذكر فى الحال، السبت الماضى عندما كان يتشاركان شرب النبيذ الأحمر، وسمك الفرن والصلصة الناعمة التى قُدمت معه، على مائدة عليها مفرش وفوط من القماش حيث كان ينقصها فقط أدوات مائدة وطبق أمام كرسى خال حتى يصرح بوضوح أكثر إلى ظل أو دليل على من لم يكن هناك. إذن، عندما فكر فيها، تعرّف على أثر الكولونيا الذى كان قد أدركه عندما ركب السيارة وكان لديه لحظة من الصفاء الذهنى المصاحبة للحظة صفاء ذهنيًا تنبئيًا وحاسة شم، وفهم أن الحضور الشبحى للسبت الماضى فى منزلها ونظراتها كانت تنتمى بنوع من التناغم المكشوف أو الغامض، إلى حضور آخر غير مرئى يصاحب المفتش الآن، وقد تركت بقعة من أحمر الشفاه على قميصه، ورائحة كولونيا خفيفة، وطريقة محددة للنظر أو البقاء هائمًا أو شبه مبتسم. «سوسانا» كرر فى صمت، كان يفكر فى الاسم كيف ينطقه، «سوسانا جراى» وهو يتذكر أشياء وقعت أو لم يقدر لها أن تقع منذ سنوات طويلة مضت، الآن هو أكثر خمودًا بسبب الانهماك جراء ليلة سيئة،

يستند الوجه فوق النافذة بينما يتأكد طلوع الصبح فى الشوارع التى لا تزال خالية وتضرب بعض نقاط المطر المتفرقة والقليلة الزجاج فى صمت.

- أترى، لا يخيب. قال، وهو يعتدل حتى يدفع عنه النوم، خجلاً من ظهور ضيق المراهق. إذا رأيت أشعة الشمس تشرق من وسط الضباب فمن المؤكد أنها ستمطر.

٢٦

«الأمر ليس أنه لديّ قوة لأستمر فى تخبئة نفسى»، قال صوت أجش وليس حاسمًا على الجانب الآخر من الشبكية، كان الصوت منهكًا مثل الرمال الخشنة، فى حقيقته ضعيف، بصفة خاصة الآن، حيث لا يملك الدعم الواضح للحضور الجسمانى، مثل تلك الأصوات التى تتغير تمامًا عندما تُسمع عبر التليفون، كاشفًا أشياء تنحرف أو تشوه النظرة، «الحكاية هى أنه لا يناسب سنى. ليس من الكرامة أن أعيش كذابًا ومتخفيًا مع عمرى الذى بلغ أكثر من خمسين عامًا، ليس لى رغبة خاصة، ولا حماس، ولا إيمان عميق، سمِّه كما تحب، الشىء الذى يستمر فى مساندتى عندما لا يتبقى للشخص منا معتقدات ولا توقعات. خلال وقت لا يذكر يمكننى أن أتقاعد إذا أردت. اقترحوا علىّ ذلك عندما وافقوا على نقلى، نعم إذا فضلت ذلك يمكننى أن أطلب جهة إدارية وأظل فيها حتى تكتمل سنوات الخدمة المتبقية، أذهب إلى مكتب صحفى أو حتى إلى وجهة أكثر رقيًا، مكتب استشارات رفيع المستوى فى الوزارة، اعترافًا بسنوات خبرتى، وبالخدمات التى أسديتها، كما كان يقال من قبل. لا أعرف إذا قالوا ذلك ليكافئونى أو ليتخلصوا منى وربما هم لا يعرفون أيضًا، لم يعد شىء واضح فى هذا العمل وبالفعل منذ سنوات لا نعرف كلية من هم داخل القانون ومن هم خارجه، من يكذبون ومن يقولون الحقيقة. ولكن فجأة أخافنى كثيرًا أن أصل إلى ما كنت دائمًا بعيدًا عنه جدًا، الانسحاب أو ما هو أسوأ منه فعلاً، التقاعد، إنها كلمة مريعة، التقاعد، وبناءً عليها الشيخوخة؛ لأن الإنسان منا يعتقد دائمًا أن من يشيخون ويموتون هم الآخرون، مثل من يعانون الهجمات الإرهابية. فى كل مرة كانوا يقتلون شخصًا أو يصيبونه إصابة بالغة، شخصًا منا، كنت أحاول مراجعة أفعاله

لأكتشف، فيمَ أخطأ؟، ما هى الحماقات التى ارتكبها؟، لأن هذه كانت طريقتى لتهدئة نفسى، حتى أشعر أننا جميعًا لسنا سواء، من أن هناك طريقة معقولة لتقليل لخطر أو حتى تجنبه. ولكن بالطبع كان هذا غير حقيقى، فى جزء كبير منه، لا أحد يمكنه أن يتخذ كل الاحتياطات ولا أن يمنع كل الأحداث، لا أحد متأكد بالكامل إذا كان يوجد شخص مستعد أن يقتل شخصًا آخر مغامرًا بحياته الشخصية. انظر إلى هؤلاء الإرهابيين، يربطون لاصقًا من عبوة متفجرة على البطن، عبوة لا تكلف الكثير ولا تزن أكثر من وزن مسجل صغير، يصعدون أحد الأوتوبيسات فى القدس ويتسببون فى مجزرة، أسهل شىء فى العالم، لا شىء يقل قيمة عن هذا، أو إرهابيين من هنا مع الصواريخ التى يطلقونها على السيارات وأجهزة التحكم عن بعد، اعتادوا أن يكونوا أكثر تطورًا من الإرهابيين، علاوة على عدد هؤلاء الناس الذين على استعداد أن يعلموهم بالأشياء، والمواعيد، عن عادات من يختارونهم. كنت أفكر، كنت أقنع نفسى أن كل شىء تحت سيطرتى، ولكن كان هذا وهمًا، مثلاً عندما يشرب الشخص منا ويركب السيارة ويعتقد أنه يقود بشكل جيد جدًا، وأنه يرى جيدًا ولا يرتعش نبضه. كذبة، ولكنها كذبة حقيقية جدًا، يمكننا أن نقول، بكل ما تتيحه لنا التفاصيل، إنها إحدى الأكاذيب التى اخترعها النصابون الكبار، الماهرون الذين بالتحديد بسبب ذلك الأكثر شبهة؛ لأنه فى الحياة الحقيقية لا يوجد شىء منته بهذا الشكل، متقن الصنع، كل شىء يبدو نتيجة الصدفة أو السرعة، أو الارتجال، أزمة غضب، مثل الغالبية العظمى من الجرائم، ما عدا الجرائم السياسية أو المهنية، التى تتشابه كثيرًا فى الواقع».

توقف الصوت عن الكلام وصمت، سمعه الأب أوردونيا يبلع ريقه واعتراه الإحساس بأنه لا يعرف من يتحدث إليه، الوجه الذكورى المكشوف عبر الظلام البارد للكنيسة، يتجزأ بين فتحات الشبكية على شكل متوازى أضلاع.

«ولكن الكحول يفيد فى هذا» أكمل الصوت الرتيب، الذى يعتريه الشك الآن، كأنه يبحث عن الخيط المفقود «حتى يختلق التصنع، يسير الشخص ثملاً ويلعب بحياته، بحياته الشخصية وبحياة الآخرين، ويعتقد أنه يقود السيارة وأن نبضه ثابت، تكون عيناه محتقنتين بالدم ونفسه متشبعًا بالويسكى ويفكر بأنه لا أحد يدرك، وأن كل شىء تحت السيطرة. وهكذا تعيش سنوات وسنوات، كلما مر الوقت تكون ضائعًا بين التصنع فى كل شىء، فى المحادثة، مع الأصدقاء، تصنع البطولة، أيضًا تتصنع فى الرغبة الجنسية. كنت أفكر أننى كنت شجاعًا عندما لم أطلب النقل رغم التهديدات بالقتل، ولكن لم تكن شجاعة ما أشعر به، وإنما كان عناد الثمل، ثمل من أسوأ الأنواع، الذى لا يعرف إلى أى حد وصل به السكر، الذى لا يزال يتصنع أمام الآخرين. فى الواقع ليس من الصعب التصنع؛ لأن كثيرًا من الناس يشربون أيضًا، والبعض يحتمى فى البعض الآخر، علاوة على ذلك لا أحد يحملق كثيرًا، كما تقول صديقة لى، سوسانا جراى، لا أعرف إذا كنت تعرفها، أو تتذكرها، قالت لى إنها عندما كانت شابة كانت تذهب إلى بعض الاجتماعات مع حضرتك، تلك الاجتماعات للمسيحيين المتدينين. ولكن لا تفقد صبرك، لم يضع منى الخيط من جديد، ما جئت من أجله هو بالتحديد التحدث عنها، ولكن ليس بعد، قبل ذلك يجب أن أشرح لك أشياء أخرى يمكن ألا تفهمها لأنه بالتأكيد لم تتذوق الكحول فى حياتك».

«أتذوقه كل يوم أثناء القداس، ألم تعد تتذكر؟». قال الأب أوردونيا بشىء من السخرية، وتوقف الصوت، وعاد يُسمع بصبغة من المهانة، بعيدة عن كل فكاهة، عن كل تأخير.

«كنت قد بدأت أشرب وبشكل آلى، وفى الحال تثور غريزتى، أعتذر عن الكلمة، ولكن كان علىّ أن أبحث عن امرأة فى أى مكان وبسرعة، دون جورب أحمر ولا إغراءات بطيئة، ودون أى نوع من العاطفة، دون أن أفكر

حتى فى الخيانة الزوجية. من بين الأسباب لم يكن لدىّ وقت، كان علىّ أن أعود للبيت فى ساعة معقولة إلى حد ما، كان علىّ أن أوقع، كما كان يقول زميل لى، الزميل الذى قتلوه فى ذلك المطعم الذى كان ينتظرنى فيه. عندما وصلت كان لا يزال كأس الويسكى الذى شرب منه فوق المائدة، لم ينته من الويسكى ولا من القهوة ولا تزال السيجارة فى المنفضة. كان هناك أماكن، نوادٍ يعرفوننا فيها ولا يتقاضون منا ثمن المشروبات، بالنسبة لرجال الشرطة، يمكنك أن تتخيل أنها موجودة فى كل المدن وفى أكثر من ليلة كنا ننتهى إليها، أو أنتهى أنا وحدى؛ لأننى فى الواقع لم أكن أفضل أن أذهب مع أحد، كنت دائمًا أخجل، مثلاً عندما كنت فى المدرسة الداخلية وكان الآخرون يمارسون العادة السرية فى مجموعة، كانوا يقومون بمسابقات ليروا من له السبق فى الاحتلام. كنت أحاول الذهاب بمفردى، أهاتف زوجتى لأقول لها إن لدىّ الكثير من العمل وألا تنتظرنى، رغم أننى لم أكن أهاتفها فى كثير من المرات، كنت أفكر فى القيام بهذا ثم أتركه لوقت آخر، عندما كنت أنتهى من كأسى وأنظر إلى الساعة ويكون الوقت قد تأخر جدًا بحيث من الأفضل ألا أهاتفها، تكون قد نامت وقد يفزعها صوت التليفون إذا دق فى مثل تلك الساعة. ولكنها لم تكن تنام، لا تنام ولا تصدق كلمة واحدة من التى أقصها عليها، كانت تنتظرنى مستيقظة وهى ترتدى الطيلسان وخف المنزل وتشاهد التلفاز حتى ساعة متأخرة، كنت أصل وأحكى لها كذبة وتبدأ هى فى معاتبتى بسبب أننى لم أخبرها، وتنخرط فى البكاء، وأكثر ما كنت أشعر به كان السأم، والرغبة فى أن ينتهى ذلك دفعة واحدة كى أذهب لأنام لأنه دائمًا كان الوضع هكذا، كلانا يفعل نفس الشىء ويقول نفس الكلمات، هى تلقى علىّ باللوم وأنا أقدم اعتذارات وأكاذيب، دائمًا كان الوضع هكذا لا أعلم كم مر من السنوات، وكلما مر الوقت ازداد الأمر سوءًا؛ لأنه كانت قد بدأت المكالمات المجهولة، التهديدات، كنت أغير رقم التليفون وخلال أسبوع كان هؤلاء يعرفون بالفعل الرقم الجديد، وكانت هى من تسمعهم، وليس أنا؛ لأننى

لم أكن موجودًا فى البيت تقريبًا. فى النهاية لم تكن تحتمل أى جرس، أكان جرس التليفون أم غيره، ولا جرس المنبه، ولا جرس الفرن، كل الأجراس كانت تفزعها، والآن فى ذلك المكان الذى توجد به لا يسمحون أن تسمع أجراسًا، عندما يستقبلون مكالمة لها تدخل إحدى الراهبات لتخبرها».

كان الأب أوردونيا يسمع وهو مطأطئ الرأس، تميل صوب شباك غرفة الاعتراف، وعيناه شبه مغمضتين ويداه معًا فى حجره أو يلعب بحواف المريلة التى يرتديها، فى وضع غير مستقيم لا تجيزه أى قواعد دينية، وإنما كانت العادة والصبر على الإنصات، طوال سنوات طويلة، فى نفس هذا المكان، من الاستماع وهو يعلم أن متحدثيه لا يطالبونه فى الواقع بالانتباه، وإنما بوجوده البسيط المجرد على الجانب الآخر، صوت أنفاسه أو حركاته، التأكد من أن أحدًا يسمع، حيث يحتوى فى ذاته على جزء من الراحة، من العفو المطلوب الذى يمنح دائمًا. أحيانًا كان ينام فى غرفة الاعتراف، وكان يتكرر ذلك مع تقدمه فى العمر، أصبح نومه خفيفًا وغير منتظم، نوم خفيف وقلق لإنسان عجوز. كان قد استيقظ هذا الصباح عندما كان لا يزال الجو مظلمًا، وعندما سمع فى الظلام صوت المطر اعتراه إحساس بالامتنان، من البهجة والفرح للصلوات المجابة، حتى للكسل ليمكث فى الفراش يسمع صوت المطر، على الأقل الجرعة المحددة جدًا أو البدائية جدًا من الكسل الذى يمكن أن يعشش فى شخصية مثل شخصيته، جبلت على العمل، ومنحت القليل لترضية النفس، أكان ذلك فى الراحة أو فى الضيق.

كانت قوة المطر تهز زجاج النافذة، والآن تهب الرياح بقوة، فى الأماكن غير المأهولة حيث كانت توجد من قبل ورش ومزرعة، وحيث يوجد الآن مبان تحت الإنشاء، ورافعات لها أصوات معدنية تهتز بينما تمتلأ شقوق الأسمنت والجراجات التى تحت الأرض بالماء، والطين الرمادى المكثف. بحث يتلمس زر المصباح، وعندما أضاء النور وقعت نظارته فوق

الأرض. اعتدل ليلتقطها وتجمدت أخمص قدميه عندما وطأتا البلاط. لف نفسه بطيلسان قديم على شكل مربعات، وغسل وجهه بماء شديد البرودة، فى الحوض الصغير المجاور لغرفته، حيث كان يوجد أيضًا طبق دش. لم يكن الأب أوردونيا يعيش فى زهد شديد لأنه كان قد رفض بقرار إرادى وسائل الراحة التى كان لا يمكن أن يستغنى عنها الآخرون: كان يعيش هكذا لأنه لا يعرف أن يتخيل نفسه يعيش بطريقة أخرى، ولأن تلك الأشياء التى يستمتع بها الآخرون تبدو له غير مهمة. كان ينظر دون انتباه حقيقى إلى واجهات المحال ويتذكر دهشة سقراط أمام وفرة السوق فى أثينا: «كم هى الأشياء التى توجد ولا أحتاج إليها». كان يعجبه سريره الصغير، من أعمدة أُسطوانية قديمة، يلتصق فى الحائط، ليس من وقت طويل مضى كان ينام عليه بإعجاب، رغم صغره، وخشونة الملاءات وحقارة المرتبة، كان يبدو له خوان السرير، الذى تقشرت زواياه، والمصباح بغطائه الأزرق المعدنى الذى كان عليه، شهود على موضة معينة أصبحت قديمة جدًا منذ الستينيات حيث كان فعليًا يفضلها العاملون فى تزويد رجال الدين والكنيسة بالأثاث. لم يتمكن دائمًا من العيش متسقًا مع روحه، ولكنه كان متسقًا مع غرفته، التى لا يسميها زنزانته؛ لأنها كانت قد بدت له فخمة وشديدة الأناقة. كان يحمسه بردها وعندما كان يستيقظ صباحًا، يكون لا يزال الوقت مظلمًا ويطأ البلاط حافيًا، لم يفكر فى أنه تكفى سجادة ودفاية كى يصبح كل شىء أكثر راحة. كان يستيقظ مبكرًا جدًا لأنه كان يجهل سعادة البقاء فى السرير، وما كان عليه أن يهزم إغراء الكسل لسبب بسيط هو أنه لم يجربه أبدًا.

فى السابعة إلا الربع يكون قد ارتدى ملابسه، سترة صوفية رمادية ذات رقبة عالية، وسروالاً من قماش الدنيم الأزرق الذى يشبه ما كان يستخدمه أثناء عمله وهو قس عامل، مع حذاء أسود كبير كان قد رماه أى شخص غيره على الأقل منذ عشر سنوات مضت، ولكنه لا يزال يعتنى به

ويحمله إلى المحل الوحيد لإصلاح الأحذية الذى تبقى فى المدينة حتى يضعوا له نصف نعل، ابن صانع الأحذية شيوعى كان قد تبادل مع الأب أوردونيا فى زمن سابق مناقشات منهكة وشيقة حول وجود الله، الطبيعة البشرية أو الإلهية للسيد المسيح، قوة الثورة الاجتماعية للإنجيليين، مناقشات فى صوت خفيض، بالطبع، وقعت عند نفس البوابة التى تدخل منها لسيدات بأحذيتهن القديمة الملفوفة فى ورق صحف، ثيولوجيا عمالية خفية.

كان حذاؤه يصر عندما يعبر الردهات الخاوية للمدرسة الداخلية ذات الأضواء الخافتة جدًا فى الأركان، مثلما هو الحال فى شوارع مدينة غير مأهولة، البلاط الأبيض والأسود يقلل الرؤية فى الظلمة الباردة وفى نظرة الأب أوردونيا التى تحيط بها دائمًا مسافات من الضباب؛ لأنه مصاب بقصر النظر. كان قد رحل أو مات الكثير من الناس طوال السنوات الماضية، وبدت المدرسة الداخلية أكبر، وكان قد تضاعف عدد الحجرات، وغرف النوم، والقاعات، وطول الردهات والسُّلَّم، الرتابة المتكررة للبلاط، الأبيض والأسود، العريض المتباعد الآن عن بعضه وله صدى فى الأماكن المرئية، بينما الأب أوردونيا ينزل بخطوات بطيئة ونشطة صوب الكنيسة، رأسه قوية كبيرة ويتقدم الذقن فوق الصدر، الأيدى خلف الظهر أو تتلمس بحذر سور السُّلم، تتقدم الركبتان كأنهما ما زالتا تجدان مقاومة من رداء الكاهن رغم مضىّ سنوات طويلة دون أن يرتدى الأب أوردونيا ثوب الكاهن. لا زال يتذكر الفضيحة فى المدينة، القساوسة والوَرِعات، العنصر الكاثوليكى، كما كان يقال حينئذ، مرتبكين وحانقين لأن أحد اليسوعيين كان قد خرج للشارع وهو فى ملابس رجل الدين رغم أنه لم يكن ممكنًا أن أحدهم قد رآه، الأمر كان مجموعة من الأصوات الثرثارة فى مكان ارتداء ملابس القسوس وساعة طقس الأيام التسعة، فى الموائد المزودة بمدفأة حيث ينصهر كل مساء سأم المسبحة، فى أى من المقاهى التى كانت قد تبقت حينئذ: ذلك القس الذى كان

حفيدًا أو ابن أخ للجنرال صاحب التمثال قد مر من شارع نويبا مرتديًا ملابس مدنية، وسترة سوداء وياقة بيضاء، مثل البروتستانت، كان دائمًا من اليساريين، كانوا يرونه قادمًا، ويرفضون تحيته، كانوا يقابلونه وينظرون إلى الجانب الآخر، أحد قدماء الفيلق الأزرق الذى كان لا يزال يحمل مسدسًا بصق أمامه قبل أن يعبر إلى الرصيف الآخر، مساء يوم الجمعة المقدس، فى وسط الجماهير.

الآن تبدو له هذه الأشياء غير حقيقية. يبدو غير حقيقى أنها كانت موجودة، والشىء غير الحقيقى أكثر أنه مع مرور الوقت كفّ عن الوجود، بالشكل الثابت الذى كانت عليه، لا يمكن تدميرها أبدًا. كى يصل إلى مكان ملابس القسوس وأشيائهم كان على الأب أوردونيا أن يعبر أفنية ممارسة الرياضة غير المحمية من المطر. منذ سنوات طويلة لا يلعب أحد فى ذلك المكان كرة السلة، ولكن لا تزال الخطوط البيضاء مرسومة فوق الأسفلت وما زالت ترتفع قوائم السلة المعدنية. أراد أن يسرع، ولكن الحذاء كان قد انغمس فى حفرة ماء لم يرها، سقطت نظارته ولمدة دقيقة رأى نفسه مهانًا ومدعاة للسخرية إلى حد ما، انحنى فى الظلام، تحت المطر الغزير يبحث عن النظارة، يخشى أن يطأها مع ضباب وعدم دقة قصر النظر.

كان قد أصابه الكثير من البلل. جفف شعره ووجهه فى غرفة ملابس القسوس بمنشفة، ونظف زجاج النظارة بحذر قبل أن يبدأ ارتداء الملابس للقداس. خالف عادته وأشعل دفاية صغيرة كهربائية حتى يجفف قدميه. جلس برهة أمامها، بالقرب منها حيث فاح منها فى الحال رائحة الجلد المحترق لنعل الحذاء. فرك يديه، يهزمه الآن، مثل الشيخ الكبير، برد الصباح المبكر، يحزنه إمكانية إصابته بزكام أو حتى بالتهاب رئوى إذا ظل مرتديًا ذلك الجورب الخشن والمبلل أثناء القداس، فى برودة الكنيسة الشاسعة دون وجود مؤمنين.

بشيء من التكرار، وخاصة فى الشتاء، لا يوجد أحد على المقاعد، وكان الأب أوردونيا يقول القداس له وحده بشكل حصرى، مما قلل حماسه إلى حد ما. بواب المدرسة الداخلية رجل عجوز جدًا مثل الأب أوردونيا، كان هو من يفتح الكنيسة ويضيء الأنوار. ارتدى ملابسه، دون حماس كبير، أعطاه الاتصال بالملابس الكنسية إحساسًا بالبرد الشديد، وكذلك برودة معدن المذبح. سار صوب المذبح الكبير، وهو يشعر ببلل جوربه، وخطوته بطيئة، وظهره مَحنىّ أكثر من أى يوم آخر، استند بيده على المذبح، ركع كى يصلى وعندما رفع عينيه رأى الأجسام القليلة لنفس السيدات اللائى يأتين كل يوم لا يراهن جيدًا بسبب المسافة والظلام. ولكن تلك المرة كان هناك شخص آخر، يجلس فى الخلف، ظِل أطول من الجميع، مستحيل أن يتعرف عليه، إنه بعيد جدًا، إنه ظِل لرجل ببقعة خضراء داكنة لمعطف أو سترة، رجل لم يعتد أن يكون فى كنيسة، أو أنه كف عن التردد على الكنائس منذ وقت طويل حيث يجهل تغير العادات الدينية الكنسية. تعرف عليه دون أن يرى وجهه، وعندما انتهى من القداس، بدلاً من أن ينسحب، كما كان قد فكر مسبقًا، حتى يغير السترة الصوفية والجورب ويعد كوب لبن دافئ، وضع الطربشيل فوق السترة الصوفية واتجه ببطء صوب غرفة الاعتراف، دون أن يعرف تمامًا إذا كان يلبى موعدًا أو أنه يوجه دعوة.

«تذكرت حضرتك مرات كثيرة. فى أعماقى، عندما كنت أفكر أننى أختبئ من الآخرين، ربما كنت أختبئ من حضرتك، مما فكرت فيه عنى إذا كنت قد عرفت أننى أتكسب عيشى فى الجامعة عن طريق تمرير تقارير إلى الوحدة السياسية الاجتماعية عن الأشخاص الذين يدرسون معى فى نفس الصف ويعملون فى السياسة أو يتمردون، أو لو كنت قد رأيتنى أرتعش عند الخروج من السيارة أو بعد لمس عاهرة فى أحد أندية الترفيه التى لم تتقاض منى مالاً لأننى شرطى. لا أؤمن بالله ومنذ أن تزوجت لم أطأ أى كنيسة، إلا

لأحضر زفافًا أو مراسم جنازة، ولكن فاجأتنى نفسى فى بعض المرات وشعرت بحاجة ماسة لأن أعترف وأتلقى العفو، احتياج قوى للغاية، بالطبع ليس الآن، ولا اليوم، هذا ليس سبب مجيئى. بالفعل منذ شهور لا أشرب ولا أخرج إلى تلك الأماكن للبحث عن النساء. تركت الكحول والتدخين فجأة، قبل أن يوافقوا على نقلى بوقت قليل. ذات ليلة وصلت إلى المنزل، ثملاً أكثر من المعتاد، خلعت ملابسى فى الظلام، كما أفعل دائمًا، فى الآونة الأخيرة، منذ لم تعد زوجتى تنتظرنى وهى مستيقظة، خلعت ملابسى وأنا أتعثر فى الأشياء، محدثًا كثيرًا من الجلبة، ولكنها لم تتحرك، ولا أيضًا كلفت نفسها عناء تصنع النوم، وأن تدير ظهرها لى فى السرير، كنت أراها كأنها كومة على ضوء أرقام المنبه وكنت أريد أن أكتشف إذا كانت تتنفس مثل شخص نائم أم لا، وهو يتصنع النوم فى الوقت نفسه، كنت مقتنعًا أننى سأصل إلى ذلك. الآن أدركت أن هذا التصنع لم يكن ممكنًا، منذ أن أقلعت عن الشرب وعن التدخين يمكننى أن أشم عند الآخرين رائحة الكحول والدخان، فى ملابس الناس وفى نَفَسِهم، أشمه بقوة، وأفهم أننى عندما كنت أصل حينئذ إلى المنزل تكون الرائحة التى أدخل بها إلى غرفة النوم قوية جدًا، من المستحيل إخفاؤها رغم محاولتى ذلك. ولكن بالفعل أقول لك، الواحد يعتقد أنه يسيطر ولا يسيطر على أى شيء، يكون تحت رحمة أى حادثة، أى مصيبة، لربما قتلت أحد هؤلاء الإرهابيين الذين يهددوننى بالتليفون وكانوا يتركون رسالة من مجهول فى صندوق بريد البناية أو لربما كنت قتلت نفسى بالسيارة أو بالاشتباك فى مشاجرة مع أحد فتوات الكباريهات أو أحد تجار المخدرات فى أحد البارات التى كنت أذهب إليها ليلاً، متصنعًا فى كثير من المرات أننى أذهب إليها لأسباب عمل، أو أننى كنت أتخيل ذلك وأصدق نفسى، أقول لنفسى الكذبة مثلما أكذب على زوجتى. كان ذلك أسوأ الكذب، أو أخطره، عندما كنت أختلق الكذب لنفسى وأصدقه، كأن يقوله لى شخص آخر، الشخص الذى يستحوذ على عندما أكون فى شدة الثمالة. كنت أشعر بهذا

أحيانًا، عندما أستيقظ ليلاً، ولا زلت تحت تأثير السُكر، كنت جالسًا فى الظلام بجوار زوجتى وشعرت أن هناك شخصًا آخر فى الغرفة، فاعترانى الفزع ولكننى لم أجرؤ على إشعال النور، حتى لا أوقظها، واستمر هذا الآخر هناك، كأنه ينظر إلىّ وأنا نائم، كنت أرى ظله بالضبط وعندما أرمش أكون ما رأيته هو السترة الملقاة فوق الكرسى. كانت هناك مرات أنسى فيها أشياء وتُمحى من ذاكرتى ساعات وحتى ليالٍ بأكملها، اعترانى التفكير أنه عندما يحدث لى ذلك لأن الآخر يكون قد استولى على تمامًا ويسرق منى حتى الذكريات. ذات مساء وصلت إلى المنزل فى ساعة متأخرة ورقدت على الأريكة دون أن أخلع الحذاء ولا ربطة العنق ونمت ولكن فى الصباح التالى استيقظت في الفراش دون أن أتذكر أى شىء، وأنا أرتدى رداء البيت، وصداع فظيع فى رأسى، وداخل رئتى حريق من الدخان. ولكن تلك الليلة التى ذكرتها لك، آخر ليلة، كنت ثملاً جدًا لدرجة أننى لم أجرؤ على قيادة السيارة، علاوة على ذلك لم أتذكر أين تركت السيارة، وظللت أسير لا أعرف كم من الوقت مضى، مبللاً، من مطر الشمال الخفيف، ولم أعرف أيضًا كيف تمكنت من الوصول إلى منزلى. كنت أبحث عن تاكسى، ولم يظهر تاكسى واحد، وكنت أسير وأسير دون أن يخلصنى لا السير ولا البرد من الثمالة. توقفت مرتين أو ثلاث مرات فى مكان ما لأتبول؛ تبول السكارى الطويل هذا؛ السكارى الذين تفوح منهم رائحة كحول شديدة. وصلت أمام باب بيتى، نظرت إلى أعلى لأرى إذا كان ما زال النور مضاء فى منزلى، وحينئذ تعثرت وسقطت. لا أعرف كم من الوقت مكثت على الأرض، على بطنى، دون حراك، لحسن الحظ كان هناك سقف حمانى من المطر. كنت راقدًا فاقد الوعى ووجهى فوق بلاطة باردة جدًا، تخيل حضرتك إذا كان قد أتى أحد من الجيران فى هذه اللحظة، ما زلت أفكر وأخجل من تذكر ذلك. كان يعجبنى أن أظل ممددًا هناك، لم يكن لدىّ أى رغبة لأنهض وأدخل منزلى، فى تلك اللحظة كنت أفهم هؤلاء السكارى الذين يظلون نائمين فى

الشارع، ملقين فوق أحد الأرصفة. لا يمكن الانحطاط أكثر من هذا، وهذه حقيقة، حرفيًا، يعتريه الهدوء لوصوله إلى الأرض، لا يشعر بأى خطر من السقوط ولا من الدوار، والأرض ثابتة جدًا، وآمنة جدًا ومتسعة جدًا، حيث يبدو أنه لا يمكن أن يقع للشخص أى شىء بعد ذلك، تعطى إحساسًا بالقوة، بالهدوء الكبير، الهدوء والهجران، يبدو أنه يحمى الشخص منا قانون الجاذبية نفسه. كنت أفكر أنه يمكن أن يصل أو يخرج أحد، رغم أنها كانت الرابعة أو الخامسة صباحًا، لكن الخجل لم يكن سببًا كافيًا لأنهض. نهضت لأننى بدأت أشعر ببرودة شديدة وعندما وقفت على قدمىّ أصابنى الدوار كنت سأسقط تقريبًا مرة أخرى، كنت قد اشتقت لأمن الأرض، الأرض المباركة، كما كان يقول الناس من قبل. تخيل كمّ الحذر الذى تمكنت منه لأنام تلك الليلة، أو كيف أمكننى الاعتقاد بأنها نائمة وأنه من الممكن ألا تستيقظ، مع كل الجلبة التى كنت قد فعلتها، حتى مع نفس الرائحة التى ترافقنى. كنت أعرف أنه عندما أنام سيصيبنى الغثيان، ورغم ذلك رقدت، وعندما دخلت فى الفراش، ابتعدت هى أكثر صوب الجانب كأنها لا تريد أن ألمسها. رقدت وبدأت أغلق عينى وجاء ما هو أسوأ، أولاً أن هناك شخصًا غيرنا فى الغرفة، ثم الدوار، والإحساس بأنه إذا لم أعتدل وأشعل النور سأموت. نهضت فى الظلام، وتمكنت من الوصول إلى الحمام، جلست فوق التواليت وحينئذ بدأت أتقيأ ولم يكن لدىّ الرغبة حتى كى ألوى وجهى إلى ناحية أخرى كى يسقط القىء على الأرض. تقيأت على نفسى، فوق سترة الرداء المنزلى، فوق السروال نصف المخلوع وفوق ركبتى، وسببت لى رائحة القىء غثيانًا أكبر وجعلتنى أتقيأ مرة أخرى. مكثت ورأسى مطأطأة وفمى مفتوح ولعابى يسيل أنظر مثل الأحمق إلى ما خرج وإلى ما يعود ويخرج من فمى، كأنه لست أنا من يتقيأ. كان علىّ أن أصلح ذلك، كان علىّ تجنب أن تراه زوجتى، علىّ أن أنظف الحمام وأنظف نفسى، وأن ألقى كل ما أرتديه، رداء المنزل، السروال الداخلى، الخف، كل شىء ملىء بالقىء، وأنا جالس على التواليت، غير قادر

على الحركة، أرغب أن أموت، رغبة عارمة فى أن أصبح ميتًا أكثر من كل الرغبات المجتمعة التى اعترتنى مطلقًا فى الحياة. لم أعرف كيف تمكنت من تنظيف كل شىء، هذا الجزء مُحِى تقريبًا بالكامل من ذاكرتى، ولا حتى أعرف إذا كنت قد فعلته أنا، الحال هو أننى استيقظت صباحًا فى الحادية عشرة ولم أكن قد سمعت المنبه. كنت أرتدى رداء منزليًا نظيفًا ورئتى مسقوحة كأن فوقها بلاطة، ولم تكن زوجتى موجودة، ذهبت إلى الحمام وكان كل شىء مرتبًا، كأننى كنت أحلم بالقىء وبكارثة الليلة الماضية، ولكن فى المرآة رأيت أن لدىّ جرحًا وكدمة داكنة جدًا فوق الحاجب الشمال. منذ ذلك الوقت لم أعد للشرب ولا للتدخين. لم أقرر ذلك، لم يكلفنى أى عناء، على العكس، إذا شممت كحولاً أو دخانًا يصيبنى غثيان، يعود إلىّ المرض الفظيع الذى شعرت به تلك الليلة. الآن، مؤخرًا، أشرب القليل من النبيذ ولكن فقط عندما أكون مع تلك المرأة التى أريد أن أكلمك عنها، سوسانا، سوسانا جراى».

توقف الصوت: كى يسترد أنفاسه بعد كلمات كثيرة، أو ربما لينتظر سؤالاً لم يوجهه الأب أوردونيا، الذى كان مطأطئ الرأس، منصتًا، متعبًا، يحرك رأسه بضعف بينما يفرك ببطء يديه المتشابكتين، شاعرًا بالبرد والرطوبة فى قدميه، وبأنه أوشك أن يصيبه الزكام.

«أتعرف ما بدأت أشعر به بعد أن أقلعت عن الشراب؟ لا شىء من الضيق، ولا الإحباط بسبب عودتى لرؤية الأشياء كما هى، الأشياء ووجوه الناس. شعرت أننى قبل أن أترك المنطقة الشمالية، قد كنت رحلت، غيرت البلد، وأعيش الآن فى بلد آخر أكثر برودة، به هواء أكثر نظافة، مثل الأصبحة هنا عندما تثلج ليلاً وتكون السماء زرقاء تمامًا. كل شىء خارج عينى، فى تلك البلد، كان أكثر كثافة، كأنه أكثر دقة، وخاصة الألوان والروائح، تشعرنى بالدوار رائحة برتقالة تُقشر على بعد عشرين مترًا منى،

أو أننى أرى امرأة قادمة فى الشارع وألاحظ الدقيقة المحددة التى أشم فيها شعاع عطرها. ولكن كل هذا كان يحدث فى الخارج، لأن البلد الذى كنت به حينئذ ولم أكن أريد مغادرته، فى الحقيقة لم يكن بلدى ولن يكون بلدى أبدًا. لا أعرف إذا كنت أستطيع شرح الأمر، فى هذا البلد الجديد دائمًا هناك ضوء فى الصباح وأنا قادم من بلد آخر كان الوقت فيه دائمًا ليلاً، ليلاً ليس طبيعيًا علاوة على ذلك هو ليل مطبق، مع أنوار البارات المظلمة، والهواء الملىء بالدخان. ليس لدىّ حنين ولا رغبة فى العودة، منذ اللحظة الأولى كنت أعلم أن الحياة الماضية كانت قد انتهت، ولكن فى البلد الجديد أدركت أنى لم أتألم، أقول، إننى فى زيارة، إلى أن يقتلونى أو أن أموت، إنه ستؤثر فى روائح وألوان الأشياء وليس الأشخاص، كلهم أجانب، عدائيون أو لطفاء، ولكنهم غير مبالين بى. حتى منذ شهرين، عندما وقعت جريمة الطفلة فاطيما، عندما رأيتها ميتة فى المنحدر، دون شىء يسترها، إلا الجورب الأبيض، حينئذ أدركت أننى لم أكن قد شعرت فى حياتى مطلقًا بأى شىء حقًا، مقارنة بما شعرت به عندما رأيتها، ملقاة هناك، بها زرقة، شاحبة، وأنظر إلى ما رأيته فى حياتى، رأيت موتى وأشلاء، جثثًا متعفنة، رأيت كل ما يمكن أن يُرى، ولكن فى الحقيقة كان هناك شىء بداخلى لم يتأثر أبدًا، وكنت أرى أنها قوة الروح، شجاعتى الجسدية، ولكن لم يكن هذا هو السبب، كانت اللا مبالاة هى السبب، أو على الأكثر كانت الكراهية، كان تسمم الموت والغيظ، عندما رأيت جثة أحد زملائى، شخص اغتيل لتوه، كنت أعيش فى مرات كثيرة شديد السكر وأدركت بشىء قليل جدًا هذه الحالة مثل إدراكى لثمالة الكحول. ولكن المعاناة، المعاناة بحق من أجل أحد، ليس الكراهية ولا الرغبة فى الانتقام لنفسى أو أن أقتص بيدى، كبتر عضو دون تخدير، لم أشعر بهذا إلا فى تلك المرة. لم يعننى مطلقًا أن يكون لى أولاد، وعندما عُرف أن زوجتى لا تستطيع أن تحمل كانت الراحة هى كل ما لاحظته بصفة خاصة، ولكن

عندما رأيت فاطيما شعرت أن ابنتى هى من أُغتصبت وقتلت، أنا الذى لم يكن لدىّ أبدًا النداء ولا الرغبة فى أن أكون أبًا، ولم أكن أتمعن فى الأطفال. بدأت أراهم فى هذه الأشهر وأنا أتكلم مع زملاء فاطيما، وأذهب إلى المدرسة وقت خروجهم للبحث عن وجوه أشخاص مشتبه فيهم، وجوه وعيون، مثلما قلت لى حضرتك. وهكذا يقود الشىء إلى شىء آخر، كل شىء يتشابك، وهذا هو أغرب شىء توقفت لأفكر فيه، إذا لم ينقلونى إلى هنا لما كنت قد رأيت هذه الطفلة بعينيها وفمها المفتوح والجورب الأبيض، ربما كنت علمت بشىء عن طريق الصحف أو التلفاز، ولا حتى هذا، وما كنت قد تعرفت على هذه المرأة، سوسانا، لا أعرف إذا كنت قد قلت لك إنها كانت معلمة فاطيما. كانت أول مرة أراها فيها عندما سألتها عن أشياء تتعلق بالطفلة، ويبدو لى أننى لم أمعن النظر فيها كثيرًا، ربما أمعنت النظر فقط فى أنها لها لكنة واضحة تقول إنها من مدريد، ولكن لم أمعن فى أى شىء آخر. هى تتذكر كل شىء، تتذكر ما كنت أرتديه هذه المرة، تتذكر كل شىء قلته لها، ولكن تقول دائمًا إن من الطبيعى ألاّ تلتفت الناس لأى شىء ولا أن يتذكروا أى شىء، وعندها حق، أيضًا فى هذا، كنت أعتقد أننى قوى الملاحظة ومعها تأكدت أن هذا ليس صحيحًا، لم أكن أشعر بشىء وأيضًا لم أكن أرى شيئًا تقريبًا، ولم أكن أسمع. مثل تلك القصة التى ترد فى الإنجيل التى حكيتها لنا، بالفعل لا أتذكر جيدًا، عن شخص أصبح كفيفًا لأنه ظهرت له بعض الزوائد الجلدية فى الأعين "بعضهن مثل الزوائد الجلدية"، هذا ما أتذكره بالفعل، أتذكر هذه الكلمات، "بعضهن مثل الزوائد الجلدية"».

«الأب توبياس»، قال الأب أوردونيا، «كنت أعتقد أنك لا تتذكر شيئًا».

«هذا ما كنت أعتقده أنا أيضًا. ولكن كان كل هذا تصنعًا، مثل تصنع الكحول، مثل كل التصنع فى حياتى، أكثر من خُدع فحسب كنت أنا نفسى.

كنت أعتقد أننى أرى ولم أكن أرى أى شىء، كنت أعتقد أننى أعلم وكنت أجهل كل شىء، كنت أعتقد أن لدىّ خبرة بالنساء وكان كذبًا، إذا كنت قد مت قبل أن ألتقى بسوسانا فما كنت سأعرف أبدًا ما هى الرغبة والتمتع بامرأة بحق. سيبدو لحضرتك سوقيًّا، أو غير ملائم، ولكن هذا صحيح، وحتى لا أعرف أن أقوله لها، أشعر بالخجل، أقسم لك أننى لم أكن أعرف أن هذا الأمر يمكن أن يكون على هذا النحو، بعذوبة كبيرة وقوة شديدة، يسير جدًا، وسامحنى إذا جئت كى أقص على حضرتك خيانة زوجية، أقص عليك ولا أعترف ولا حتى أطلب من حضرتك أن تعطينى العفو. لا أشعر بألم فى قلبى، كما كنتم تقولون، وليس لدىّ نية التصويب. كنت منذ برهة معها، أول مرة أنام فى منزلها. لم أعرف أحدًا لديه كل كم الكتب التى لديها، ولا كم الأسطوانات، ولا كم الموسيقى التى لا أعرف حتى أنها توجد، شىء يجعلنى مثل التلميذ المبتدئ، تلميذ فى كل شىء، مع العمر الذى بلغته باعتبارى أكبر منها بعشرين سنة تقريبًا، مما يجعلنى أتساءل فى أى شىء حقًا قضيت حياتى، بعيدًا عن العمل، بعيدًا عن العمل والكحول والتصنع والتخفى الدائم. هذا أيضًا لم يحدث لى أبدًا، لا مع نساء ولا مع رجال، الرغبة فى الاستماع إلى أحد، فى تعلم ما يعرفه شخص آخر، ليس مثل أولئك المتحذلقين الذين كانوا فى الجامعة عندما كنت أدرس، الذين كانوا يعرفون كل شىء ويهينون من لم يكن فى مثل ذكائهم ولا فى مثل ثقافتهم. من يعرف حقًا شيئًا ما، أريد أن أقول لحضرتك، بطبيعية، كما تعرف هى، سوسانا، حتى أنها تسخر قليلاً من نفسها، تقول إنها لَما كانت قد قرأت كتبًا كثيرة ولا استمعت إلى أسطوانات كثيرة إذا كان قد حالفها الحظ مع الرجال. يا للخجل، وأكتشف الآن أننى لا أعرف شيئًا، وأننى فى الحقيقة لم أعن أن أتعلم ولا أفهم شيئًا، وفجأة لا أعرف فيم قضيت حياتى، بعيدًا عن الشعور بالخوف ومطاردة الإرهابيين وشرب الويسكى؟! وجدت نفسى خجلان ليلة أمس، عندما وصلت

إلى بيت سوسانا، كنت قد اشتريت لها زهورًا وزجاجة نبيذ ولكن فى المصعد بدأت أفكر فى أنه ربما تكون الزهور سوقية والنبيذ سيئ للغاية. حتى الآن لم أكن قد توقفت عند هذه الأشياء. فجأة كأننى مبتدئ فى كل شىء. أعرف أن هذا ليس حقيقيًا، فى جزء منه، ولكن يعجبنى التفكير فيه، والحقيقى أن كثيرًا من الأشياء تحدث لى للمرة الأولى. سيبدو لك غريبًا، ولكننى لم أنم أبدًا مع امرأة ليست زوجتى، لم أنم أبدًا هكذا، أحتضنها، دون أى شىء فوقى، دون أى شىء فوق كلينا، أسمع نفسى أقص عليك ذلك وأشعر بقليل من السفه، ولكن بالزهو أيضًا. استيقظتُ عندما لاحظت أننى أنهض وتوجهت إلى المطبخ كى تعد لى قهوة، شممتها بينما أحلق ذقنى فى حمامها، بين كل تلك المراهم والكريمات التى لديها، ليلاً أرتنى إياها وانفجرت فى الضحك، قالت إن أى شخص يرى كل هذهِ الكمية من منتجات التجميل سيفكر أنها فى مرحلة التدهور النهائى. فتحتُ برطمانات الكريم، زجاجات الكولونيا، دون أن ترانى هى، شممتها كلها، وشممت أيضًا البُرنس، وحينئذ بدأت أشم رائحة القهوة، وعندما خرجت كانت تجلس بجوار مائدة المطبخ أمام القهوة باللبن التى أعدتها لى، بشعرها غير الممشط، مرتدية طيلسانًا من الحرير مزهرًا بزهور حمراء، أعتقد أن الطيلسان كان نصف مزرر، وكانت تضع ساقًا فوق ساق، كانت حافية، يعلو وجهها النعاس ولكن قد وضعت أحمر شفاه، ليس لشىء إلا لتودعنى، هذا أيضًا لم يحدث لى أبدًا، اصطحبتنى حتى باب المصعد وقبلتنى فى فمى، والشىء الوحيد الذى أفكر فيه الآن هو الوقت المتبقى حتى أعاود رؤيتها، فى مهاتفتها كى نأخذ طعام الغذاء معًا فى الظهيرة، رغم أننى لا أعتقد أنها تستطيع، عليها أن تكون فى المدرسة فى الثالثة والنصف. لا أريد التفكير فى شىء آخر، حاليًا، فيما سأفعله غدًا وبعد غد، الأحد، عندما يجب علىّ الذهاب إلى المصحة، لا أعرف ماذا سأفعل وليس لدىّ رغبة فى الاستمرار فى التصنع والتخفى، ليس لدىّ رغبة ولم

يتبق لى عمر، لست نادمًا، لا أعرف إذا كان نوعًا من النذالة ولكن لا أشعر بالذنب. هذا أيضًا يحدث لى لأول مرة فى حياتى، لن أموت لإحساسى بالذنب والندم، الآن لم يعد الموت سيان بالنسبة لى. لم أكن شجاعًا طوال تلك السنوات الكثيرة، عندما اعتقدت أننى مسيطر على الخوف ولا يهمنى كثيرًا أن يقتلونى، كان الأمر أننى لم أكن أعرف الفرق بين أن أكون حيًا أو ميتًا».

توقف الصوت، ولكن الأب أوردونيا ظل يسمع صوت أنفاسه على الجانب الآخر من الشبكية، يرى الآن الظل صامتًا مترقبًا، ظِل شخص كاد يفقد ملامحه الفردية، ليذوب فى أشخاص آخرين، كثيرين، رجال ونساء وأصوات ليس لها حصر كانت قد ركعت طوال سنوات فى نفس المكان، حيث ثرثروا باعترافاتهم وذنوبهم التى مُحيتْ الآن، المتبادلة جدًا فيما بينهم، اعترافات جبانة، همسات، نُطِق بها فى خوف أو زهو، مع ضرورة استقبال العفو، آثام حقيرة أو فظيعة، خيانات زوجية نمطية، طموح الاستحواذ على ممتلكات أو نساء الآخرين، اضطرابات مريعة ظلت طوال سنوات أو عقود مختبئة فى ضمير أحد، فى الصوت الوديع لظِل لم يستطع الأب أوردونيا فى مرات كثيرة أن يعطيه ملامح أحد الوجوه. لم يقل شيئًا بعد، ولكن ما زال الظِل ينتظر، الرجل الذى كان قد ركع لأول مرة فى نفس المكان منذ أكثر من أربعين سنة، فى أول مرة للاعتراف الاضطرارى: لا يعرف الأب أوردونيا ماذا ينتظر هذا الرجل ولا يعتقد أيضًا أن الرجل نفسه يعرف. كان يسمعه يتنفس، قلقًا، مضطربًا فى دهشة حياته الجديدة التى اكتشفها مؤخرًا، من قدرته على السعادة والوقاحة، فى قرارة نفسه أحمق جدًا كى يستمتع بها بقدر ما ينسى الحياة الأخرى الأكثر ظلمة التى كانت تنتظره، مكتب الشرطة الذى كان سيعود إليه بعد أن يمشى من هناك، واجباته الزوجية، النظرة الفزعة والفارغة للمرأة التى سيعاود زيارتها الأحد. عجوز وزاهد يحتمى داخل غرفة الاعتراف، قدماه باردتان، مع بداية ارتفاع درجة حرارته وثِقل

فى الجبهة، فوق العينين، شعر الأب أوردونيا بالشفقة عليه وعلى كل الظِلال التى كانت قد سبقته خلف الشبكية، شفقة وامتنان للعناية أو الرحمة الإلهية بسبب إعفائه هو نفسه من ضيق واضطراب العشق الجسدى، الذى بالكاد كان قد احتك به طوال حياته، بنفس الطريقة لم يخضع تقريبًا مطلقًا لخمود الهمة ولا للمرض. من أكون أنا كى أحكم أو أعفو عمن يأتون ليقصُّوا علىّ شيئًا؟، كان يفكر، ما الذى يمكننى أن أعرفه عن رغباتهم أو عن عذاباتهم؟.

٢٧

كان يذهب كل صباح ليقابلها، فى التاسعة إلا الربع، يتكلم فى سماعة البوابة الأوتوماتيكية وكانت تجيبه بنفسها، وقد استعدت للخروج بالفعل، كانت تهزم الخوف والذكريات وتهبط بمفردها فى المصعد، تراه عند الباب وسرعان ما تبتسم له، كانت تتذكر بمرح، لم يُمس، كأنها محصنة، الآن أكثر نضجًا، دون أية آثار مرئية على المصيبة أكثر من ندبة فى الخد الأيمن، التى يمكن أن يكون سببها سن المطواة، رغم أنها لا تتذكر اللحظة ولا ألم الجرح، كانت تلك إحدى الأشياء القليلة التى كانت قد نسيتها، كما كانت قد نسيت أيضًا ما حدث لها عندما بدأت تفقد الوعى، عندما نزل الرجل الحانق من فوقها وتركها تشعر أنها تنسحق تحت ثقله وبسبب الضربات العنيفة الفاشلة من عانته، شعرت أن هناك شيئًا صلبًا وقاسيًا ينغرس فى بطنها ويجرحها وتفكر الآن فى أنها عرفت أنها ستموت حقًا وأنها كانت المطواة وليست أظافره التى كان يغرسها فيها للانتقام لأنه لم يتمكن من الحصول على ما كان يحاوله، كان قد كرره لها مرات كثيرة عن ماذا سيفعل، مع النطق بكلمات قذرة جدًا لم تسمعها هى مطلقًا، وخجلت كثيرًا عندما كانت تقولها للمفتش، أمام والدها.

كانت تقف على أطراف أصابعها كى تعطيه قبلة وتخرج بمفردها من الباب، كما علموها أن تفعل، تبدأ فى السير أمامه فى طريقها إلى المدرسة، الحقيبة فوق ظهرها، مرتدية واقى مطر أصفر، وحذاء عاليًا أصفر من الجلد، ومعها مظلة وردية اللون فى أيام المطر. تلتفت لحظة من حين لآخر صوب المفتش، ليس إلا لتتأكد من أنه يتبعها ويعتنى بها، لكنها إذا وجدت

بنات أخريات فإنها تطيع الإرشادات التى تلقتها وتتصرف بطبيعية تامة، دون أن تنظر للخلف، أو أنها تنظر للخلف بطريقة ماهرة بحيث لا يشك أحد فى علاقتها بالرجل الطويل الأشيب الذى يسير على مسافة محددة منها، مركزًا دائمًا عليها، دون أن تبتعد عن ناظريه حتى تختفى داخل المدرسة، فى جلبة كل صباح بين الأطفال الذكور والإناث والأمهات، حيث اعتادت أن تظهر مثل الهدية اللحظية المضافة إلى حضور سوسانا جراى، المشغولة جدًا والجادة فى طريقها إلى العمل، مجهولة تقريبًا، بسترتها الزرقاء بزرقة البحر أو بمعطفها الجلدى أيام المطر، دائمًا متعجلة، على وشك أن تصل متأخرة، تمسك بكتب وحافظات ورق بين يديها، تغمض تقريبًا عينيها المصابتين بقصر النظر حتى تميزه، يُحييها بإشارة مترددة، خجل أكثر منه حذر وتخف.

كان يمكنه أن يوكّل هذه المهمة إلى مفتش آخر أو إلى شرطى مدنى، ولكنه كان يفضل أن يذهب هو بنفسه ليس فقط من أجل المحفز وهو رؤية سوسانا جراى التى يقابلها فى الطريق ويلقى عليها تحية الصباح، كان سيحييها لو كان قد استمر ما كان فى البداية، من وجه إليها الأسئلة وعرض عليها صور مرتكبى الجرائم الجنسية. كان يعجبه انتظار الطفلة عند الباب وتقبيلها على خدها الغض الذى اقترب من المراهقة حيث بالكاد يلاحظ فيه الندبة، ويتبعها بعد ذلك فى الشارع وهو يراها أمامه، ظاهريًا شديدة الضعف رغم ذلك قوية وتغلبت واستردت أنفاسها من الفزع، متأكدة من أنه يحميها، شريكها فى السر الخطير اللذان نجحا فى الحفاظ عليه، فخورة بمهارتها التى ساعدتها على ذلك. كان قد رآها ترتعش فى أول يوم، على فراش المستشفى، تحتضن أباها، ضعيفة وشاحبة، مرتدية قميص التأمين الاجتماعى الذى كان واسعًا عليها، لم تكن قد استردت صوتها بالكامل بعد، تتحدث بشكل غريب، عندما تفصل بين شفتيها بسبب جرح اللسان الذى أنقذ حياتها عند طيه كثيرًا للخلف، كان فيريراس قد قال ذلك، لأنه بهذا الشكل كانت قد تبقت مساحة

ضيقة جدًا عبرها ظل يدخل خيط خفيف من الهواء إلى الرئتين، رغم السروال الداخلى الممزق الذى أُدخل فى فمها ووصل إلى الحلق، والموجه خصيصًا ليسبب لها نفس الاختناق الذى حدث لفاطيما، التى سبقتها، نسخة غير متطابقة.

خيط الهواء هذا والبرد، قال فيريراس، كان البرد قد أيقظها، ولكن كان بصفة خاصة هذا الشيء الهادئ والذى يصعب إخضاعه الموجود عندها، كان المفتش يفكر وهو يراها تمشى صوب المدرسة، وعندما رآها تخرج مرة ثانية فى الواحدة والنصف ظهرًا، فريدة أمام ناظريه، وسط البنات الأخريات اللائى فى الحقيقة يشبهنها كثيرًا، بعباءاتهن الجلدية ضد المطر وزيهن الرياضى، وهن يحملن حافظات وحاملات أوراق تزينها صور مطربى وممثلى السينما. كان يتذكر شيئًا كانت قد حكته له سوسانا جراى: ما شعرت به فى أول مرة تركت فيها ابنها فى فناء أحد دور الحضانة، بين الأطفال الآخرين، فجأة ليس هو الطفل الوحيد الذى كانت قد أنجبته وشاركها الحياة، وإنما طفل آخر من بين كثيرين، من الصعب تمييزه من بعيد، رغم ذلك لا يزال يخصها وحدها لو رأته بمفرده، بمظهر من عدم الحماية وفى الوقت نفسه الاكتفاء، وبداية الاستقلال الشخصى.

كانت بَاولا، الطفلة، تخرج بين الأخريات وسرعان ما تبحث عيناها عنه فى خفاء، ببريق من التواطؤ والمكر، لا يجب أن يعرف أحد شيئًا، كانوا قد قالوا لها، لا معلمتك ولا أعز صديقاتك، لا أحد. كانوا قد حاكوا حولها نسيجًا ثابتًا وغير مرئى من الحماية والسرية، نظامًا من الصمت كان يطيعه أيضًا سائقو التاكسيات الذين كانوا يقلونها والممرضات المكلفات بالعناية بها فى غرفة محجوزة فى المستشفى، والآن يمنح المفتش قناعة حميمية وحذرة عندما تأكد أنه حصل على ما بدا له فى البداية ضروريًا ومستحيلاً، ألا يصل

اختفاء بَاولا والعثور عليها إلى الصحف أو إلى نشرات الأخبار، ولا أن تنتشر الإشاعة فى المدينة: أن يسأل المجرم لماذا لا يقول أحد شيئًا؟، أن يفقد أعصابه، وأن يجرؤ ويعود إلى المكان الذى ترك فيه الطفلة معتقدًا أنها ماتت مثل فاطيما.

ولكن أكثر شيء أسعده هو مشاهدة صباح مساء استرداد بَاولا التدريجى لنفسها، يتبعها فى طريقها صوب المدرسة، ثم يتحدث معها بعد ذلك، وقت تناول القهوة، ليس فقط عما حدث لها فى تلك الليلة وإنما عن امتحاناتها وألعابها، عن كتبها وعن برامج التلفاز التى تعجبها. فجأة تصبح مهمومة وهى تنظر إلى المفتش بطريقة تبدو له الآن معتادة، نظرة خوف وفى الوقت نفسه تذكر، نظرة فخر لأنها استعادت تفصيلة صغيرة مفيدة بالنسبة له، والتى يدونها فى الكراسة الموجودة معه دائمًا فى متناول يده: «كانت السترة من الجلد البنى» قالت، ليس لأنها اجتهدت فى التذكر، وإنما لأنها كانت قد طافت هذه الصورة المفردة فوق سطح الذاكرة التى لا تزال مضطربة، «لم يكن بالساعة التى يرتديها عقارب، وإنما أرقام، وكان لها إطار بلاستيكى أسود».

كانت قد استغرقت عشرة أيام حتى عادت إلى المدرسة، دون أن تجرؤ على الخروج إلى الشارع ومقابلة الغرباء، فى البداية كان أبوها يرافقها والمفتش، ولكن سرعان ما بدأت تتغلب على الخوف شيئًا فشيئًا، وجاء اليوم الذى تجرأت على أن تهبط وحدها فى المصعد، ويوم آخر قالت فيه إنه لم يعد من الضرورى أن يصطحبها أبوها إلى المدرسة، حتى لا تشك زميلاتها فى شيء، قالت هى بنفسها، كانت قد سألتها بعضهن لماذا يصطحبها أبوها من يدها، وهى فى الثانية عشرة من العمر، كما لو كانت فى الحضانة.

كان المفتش ينتظر أمام سور المدرسة، أكبر سناً من غالبية الآباء والأمهات، وأيضًا أفضل منهم مظهرًا، بملابس شتاء الشمال، ويبدأ فى الحملقة فى كل وجه من وجوه الأطفال الذين يخرجون فى دفعات صاخبة، بين جلبة السيارات والناس، والمظلات أيام المطر وعندما يتعرف على وجه بَاولا يلاحظ وثبة من الهدوء والفرحة. يمشى خلفها وهو يحفظ الآن الطريق عن ظهر قلب، يصطحبها حتى الباب، يفتح لها باب المصعد، يقبلها مودعًا، ثم يعود فى المساء، ليتحدث معها، دائمًا بجانب والدها، الذى كان يربت على يديها ويستمع إليها بمزيج من الحب الشديد والغيظ، الحب الشديد تجاه ابنته التى تتذكر والغيظ الكثيف الذى لا يريد أن يظهره أمامها. كان يقول له، عندما لا تكون الطفلة أمامه «الشىء الوحيد الذى أريده هو أن تعدنى حضرتك أنك ستحبسه»، «ولن تتركوه يخرج إلى أن يموت».

كان المفتش يصل فى الرابعة والنصف أو الخامسة مساء ويكونون بالفعل قد أعدوا له القهوة، تقدم بَاولا القهوة بنفسها له ولأبيها، ولا تنسى أن تضع له ملعقة سكر واحدة، وأن تسأله بعد مرور وقت قليل إذا كان يريد تناول كوكاكولا: كانت قد قالت له إنها لم تر أى شخص ناضج يحب تناول الكوكاكولا بكثرة مثله. كان أبوها موظفًا فى مكتب البريد ولم يمر عام منذ مجيئه إلى المدينة. الأم تعمل نادلة فى أحد الفنادق. كانت تعمل فى نوبة المساء ولم يعتد المفتش أن يقابلها، كلاهما كان يقترب من سن الأربعين، وكان تواضع منزلهما يعطى الانطباع بالراحة، بحياة تلقائية مبهجة: كانت هناك صور للزوجين وهما يحتضنان، وصور للاثنين مع الطفلة وهى صغيرة جدًا، وهما يمسكان بيديها فى أحد المناظر الطبيعية الذى يبدو منظرًا أجنبيًا، ثلاثتهم بمظهر السفر، بالسراويل الجينز والسترات الصوفية والأحذية الرياضية، أمام سيارة مليئة أو أمام خيمة معسكر.

كان يصل ومعه مسجل، ودفتر للتدوين، مع ألبومات من صور المشتبه فيهم ومواد للتعرف عليهم، وتخرج الطفلة لتفتح له وتقف على أطراف أصابعها لتعطيه قبلة، سرعان ما تصبح حانية؛ لأنه كان يبدو أن لديها استعدادًا فطريًا للحب، مثلما هو حال الأشخاص الذين لديهم استعداد طبيعي لكرم الضيافة، أو اللا مبالاة. كانوا يجلسون كل مساء فى نفس المكان، يجلس المفتش على كرسى، ويجلس الأب وابنته على الأريكة، أمام المائدة المنخفضة حيث توجد القهوة وحيث يبدأ المفتش فى إدارة المسجل. «أريدك أن تتذكرى كل شىء»، كان يقول لها، «دون أن تخجلى، دون أن تهتمى إذا كنت متأكدة أم لا من أنك حكيته لى من قبل».

لكن لم يكن ينقصها الحماس، كان لها ذاكرة لا يمكن أن تخطئ، ومقدرة على الإدراك وعلى الاحتفاظ بالأشياء تصبح أكثر حدة يومًا بعد يوم، موجات من التفاصيل الجديدة، من الملامح والكلمات لم تكن قد استردتها حتى تلك اللحظة. فى اليوم الأول، فى المستشفى، بالكاد تتلعثم، بلسانها المتورم الملتوى، ترتعش وعيناها تائهتان. الآن هى ليست قادرة فقط على أن تتذكر كل شىء وإنما على أن تحكى كل شىء بدقة أحيانًا لا يمكن مسامحة نفسها عليها. لم تناقض نفسها أبدًا، لم تكن تحكى شيئًا غير متأكدة منه تمامًا. كانت تتوقف عن الكلام، تبتلع ريقها قبل أن تكرر كلمة أو حركة مقززة بصفة خاصة، كانت تنظر إلى أبيها من طرف عينيها، وتشد على يده، وهى مطأطئة الرأس، دون أن تجرؤ على النظر فى عين المفتش.

- كان يأمرنى بأشياء وكنت لا أفهمه.

كان يقول كلمات لا أعرف معناها. قال لى كثيرًا عاهرة، كان يأمرنى بأن أخلع ملابسى ولم أكن أطيعه، وحينئذ كان يضربنى بكل قوته ويطرحنى

أرضًا، كنت أنهض مرة أخرى، كان يشتاط غيظًا، يتنفس بعمق وصوته يرتعش.

- أخبرينى ما شكله، كيف كانت لكنته.

- شكله عادى، من هنا، مثل أى شخص آخر. صوته غريب، ناعم جدًا. كان يدخن كثيرًا. كان يخرج السيجارة وكان يشعلها بيد واحدة بينما يمسك المطواة باليد الأخرى.

- فى أى يد؟

- فى اليد اليمنى. أغمضت الطفلة عينيها، وضغطت على شفتيها، وهى تستدعى ذاكرتها. ــ نفس اليد التى تنزف. السيجارة فى اليد اليسرى والمطواة فى اليمنى. القداحة كانت زرقاء اللون، كان يفشل كثيرًا فى إشعالها. كان يلعق الدم من يده.

- هل رأيت لون القداحة فى المنحدر؟

- رأيتها على السلم، أول مرة أخرجها. كان يفشل لأن يديه كانتا ترتعشان. كانت ماركة السجائر فورتونا. كان يدخن السيجارة وهو يعض عليها دون أن يخرجها من فمه. قال لى إنه سيحرقنى. كان يسحب من السيجارة بقوة وهو يقربها منى.

- يقربها من وجهك؟

لم تقل الطفلة شيئًا، نفت بحركة من رأسها، وهى تبعد عينيها مرة أخرى.

- يقربها من هنا. أشارت بحركة سريعة بإصبع السبابة ذى الظفر المقروض إلى استدارة صدرها البسيطة – ثم يضع المطواة . قال لى إذا أراد سيقطعه.

«قطع سطحى لسلاح أبيض حول الثدى الأيسر» كان قد قرأ المفتش فى تقرير فيريراس. فى غرفة الطعام العائلية الدافئة والمحمية، أمام المائدة المنخفضة حيث كان هناك طاقم قهوة حديث، بجوار الأب وابنته الجالسين على الأريكة، اعتراه فجأة شىء من الرعشة الجسدية من الشر المحض، برودة المطواة المغروسة فى جلد الطفلة المتصلب من البرد، فى لحمها الأبيض، الذى بلا حماية تحت ضوء القمر. عند وصولهما إلى المنحدر كان قد أمرها بخلع ملابسها، قالت. كانت قد رفضت، أو ببساطة لم تستطع أن تطيعه بسبب الخوف الذى أصابها بالشلل، بضربة من نفس اليد التى تمسك بالمطواة كان قد أطاحها أرضًا، وحينذاك بدأت تخلع ملابسها وهى ترتعد من البرد، متضايقة ليس فقط من البرد وإنما أيضًا من الدهشة، من عدم القدرة على الفهم. لم تكن تفهم ما أمرها به، وإنما تسبب الكلمات غير المعروفة والحركات الآمرة التقزز والفزع.

على الأرض كانت قد لاحظت أن الرجل يرتدى سروالاً من الجينز وحذاء أسود، بلا رباط، حذاء ملطخًا بالطين لم يكن حذاء شتويًا. ولكن لا، قالت، تتذكر الآن أنها كانت قد التفتت إلى الحذاء والجورب قبل هذا، رأتهم بينما كانت تمشى مطأطأة الرأس عبر كل أرجاء المدينة، وتلك الأصابع التى تقبض على قفاها، إنه حذاء يشبه الأحذية التى من الجلد الناعم، بكرات من القماش تتحرك من جانب لآخر، له كرة واحدة فقط، كانت قد وقعت الكرة الأخرى، لا أتذكر أيهما، ربما تكون كرة الحذاء الأيمن: كان المفتش يدون، كان يبتسم لها محفزًا، ولكن يراعى كثيرًا ألا يضغط عليها، ألا يحاول أن يلوى إيقاع أو سيل الذكريات بالتفصيل، كان يغلق الكراسة ويحفظ القلم عندما كان يرى أن الطفلة بدأت تصبح عصبية جدًا، كان يسألها عن شىء فى المدرسة، يهنئها على ذاكرتها القوية، من المؤكد أنها لا تعانى من أية

مشكلة فى تعلم دروسها، قال لها، إذا احتاجت أن تعمل عندما تكبر ليس عليها سوى طلب وظيفة مفتشة مباحث.

- تقولين لى إن لون الجورب كان فاتحًا، أكان أبيض أو له لون آخر؟ – عاد وسألها.

- متأكدة أنه كان أبيض.

- أكان يرتدى خاتمًا فى يده أو كان بها أية ندبة؟

- لم يكن يرتدى أى خاتم، وإنما سوار.

- هل هذا السوار ما يسمونه بالآنسيل esclava؟

- أعتقد نعم. كان كأساور النساء ولكن أصغر قليلاً.

- أكان يبدو من الفضة أم من الذهب؟

- من الذهب. ابتسمت الطفلة. ولكن بالتأكيد كان تقليدًا. يداه كبيرتان، أكبر من يديك ومن يد أبى. كان غريبًا إذا نظرت إلى وجهه أن تقول إن له تلك اليدين. أطراف أظافره سوداء. كان يخدشنى بأظافره.

- أكانت أظافره طويلة؟

- لم تكن طويلة، ولكنها كانت مكسورة، كأنها لم تقص بطريقة جيدة. كان للحزام مشبك كبير لم يكن بمقدورى أن أفكه وكان يجذبنى من شعرى ويضع المطواة فى وجهى. كان مشبك الحزام باردًا جدًا كان يدق رأسى عليه، كان يقول إنه لا يريد أن أخدعه، إننى بالتأكيد فعلت مرات كثيرة ما كان يريدنى أن أفعله.

تذكرت أن وجهه كان مستديرًا، وذقنه صغيرة جدًا، قد أمعنت النظر فى هذا جيدًا، كان يبدو أن الوجه لم يكتمل تحت الشعر الأسود، المجعد،

جبهته صغيرة، حواجبه كثيفة، ملتصقة تقريبًا ببعضها فوق الأنف: عرض عليها المفتش شرائح ضوئية، كتالوجات بها عيون، أفواه، أنوف، أوجه بيضاوية، وكانت تختار بسرعة أو تتردد، الشعر لم يكن هكذا بالضبط، كان مجعدًا قليلاً، خشنًا تقريبًا، كانت الجبهة عريضة أكثر، لم تكن الأذنان متباعدتين كثيرًا. أبعدوا صينية القهوة عن المائدة، وقطع الوجه المحتمل كانت قطعًا للعبة جعلت ثلاثتهم منغمسين ولكن كان عليها أن تكملها هى بمفردها، غير متأكدة، مضطربة، مفزوعة فجأة بين مزيج من الملامح التى تجلب لها ذكرى حية أكثر من اللازم، فى تتابع عيون كان لها دائمًا نظرات تهديد ولكنها لا تصل إلى أن تشبه أعين الرجل الذى هزمها بالضرب وأجبرها على خلع ملابسها وعلى الرقود على ظهرها فوق الأرض الخشنة الثلجية وتراه كيف ينحنى فوقها بسيجارة فى فمه يعض عليها، والمطواة فى يده اليمنى، بعد أن فك الحزام وسقط السروال حتى كعبيه.

شيئًا فشيئًا، بشىء من البطء لم يغضب المفتش، لأنه يعرف الآن أنه يعتمد على ميزة السر، سيتشكل أمامه وجه، شكل بالكامل، ستبنيه الطفلة كأنها ستضع فى كل مكان قطعة من قطع لعبة الفك والتركيب، مثل أولئك الناحتين الذين كما كان قد رأى المفتش فى أحد الأفلام الوثائقية يستمرون فى وضع قطع صغيرة من الصلصال الطازج أو من الشمع حتى يشكلوا تمثالاً. عندما كان يمكث بمفرده، عند خروجه من منزل بَاولا، أو عندما لا يستطيع النوم فى منتصف الليل ويراجع ما دونه فى كراسته ويسمع من جديد صوت الطفلة من المسجل، يراجع كل شىء من الأشياء التى يعرفها بالفعل، كل الفقرات والتفاصيل الصغيرة التى تضاف إلى ذلك الشكل البدائى من الصلصال الذى تشكله. الساعة الرقمية الرخيصة، الأظافر السوداء، سوار الذهب المقلد، الوجه المستدير. حكى كل هذا لسوسانا جراى، وجعلها تسمع كلمات الطفلة، عدّد لها بدقة كل ما يعرفه عن هذا الرجل الذى تتصل به ألفة

مصابة بعدوى التقزز. كان قريبًا ورغم ذلك يظل مجهولاً تمامًا، يعرفون طوله، وشكل وجهه، ولون شعره، وشكل أظافره وماركة السجائر التى يدخنها، ورغم ذلك لم يتمكن المفتش من الاصطدام به، ولم يتعرف عليه. كان قد مر يرافق الطفلة بجوار باب قسم الشرطة دون أن يلتفت إليه أحد، كان قد مر بسيارة مراقبة للشرطة وهو يغرس أصابعه فى قفا الطفلة ويقبض فى أحد جيوبه على مطواة تفتح آليًا، ولكن لا شىء من هذا جعله مرئيًا. كيف كان مظهره؟، سأل بَاولا مرات عديدة وأراد أن تتذكر هى أو تكتشف ملمحًا واحدًا لا يمكن الشك فيه، عيبًا جسديًا، شيئًا يميزه، ولكن الطفلة كانت تجيب دائمًا بنفس الطريقة، مستسلمة وهى ترفع أكتافها، على الأريكة، بجوار أبيها، أمام فوضى الصحف الجنائية، واللوحات التى عليها رسم لوجوه:

- كان مظهره عاديًا.

كانوا يذهبون فى السيارة، فى بعض الأمسيات، يقود الأب ويجلس المفتش وبَاولا على الكرسى الخلفى، يجوبون نفس طريق ذلك المساء، ويطلب المفتش من الطفلة أن تمعن النظر فى كل الرجال الشباب الذين تراهم، وأن تخبره إذا رأت أى شبه، أيًا كان هذا الشبه فى الملابس أو فى الوجه، أو فى طريقة المشى. كانوا يسيرون ببطء، بجوار الرصيف وكانت بَاولا تنظر صوب الشارع دون أن ترمش، جادة ومنتبهة، وصورتها الجانبية فى مواجهة زجاج النافذة، ناضجة تقريبًا، ترفع يدها وتشير بإصبع السبابة، ثم تترك يدها تسقط وتعض على شفتيها: كانت تعتقد أنها رأت سترته، أو أنها قد رأت حذاءه الأسود المصنوع من الجلد الخفيف، حتى أنها كانت تعتقد لمدة لحظة من الفزع والتخيل أنها رأته، وخاصة عندما يكون قد حل الليل وتتشابه الشوارع كثيرًا مع الشوارع التى كانت قد مرت بها وهى منومة مغناطيسيًا بشكل آلى ومعزولة عن الحياة. أى شخص يمكن أن يكون هو، أى شخص ذى مظهر عادى، من بين الرجال الشباب العاديين الذين يسيرون

فى الشارع عندما تمسى، شباب يرتدون سراويل الجينز، وجوههم مستديرة وشعرهم أسود، فى سترات طويلة مثل معاطف الليالى الشتوية الرطبة. كل مساء، عندما يبدأ الظلام يحل، يعود إليها الخوف، رغم أنها محمية داخل السيارة الدافئة والمظلمة، وحينئذ تضع يدها على كتف أبيها وتطلب منه راجية أن يعود بها إلى المنزل. كانت تنظر نحو أضواء الواجهات، والناس الذين يسيرون وهم يرتدون المعاطف ويمسكون بالمظلات على الأرصفة، جالسة بجوار المفتش، دون أن تجرؤ أن تقرب وجهها كثيرًا من زجاج النافذة، متخوفة أن تكتشفها تلك الأعين التى لم يساورها الشك حولها عندما رأتها أول مرة فى المصعد.

كانت تتذكر تقريبًا كل شيء ما عدا هذا، الأعين، كانت تراها فى كوابيسها وعندما تستيقظ تكون قد نسيتهما. لم تكن تتذكر لونهما أو شكلهما، لم يمكنها أن تقول إذا كانت واسعة أو ضيقة، جاحظة أو غائرة، لم تكن ترى فى الصحف الجنائية للمعتقلين ولا فى الرسوم التى يعرضها المفتش عليها أعينًا تجعلها تجد أى تشابه مع تلك العيون. كانت تتذكر فقط حواجب كثيفة وداكنة. رسم الروبوت الذى كان يشاهده المفتش بمفرده فى مكتبه، على ضوء مصباح قصير، بينما لم يكن قد قرر أن يهاتف رقم المصحة التى كان قد أقلع عن مهاتفتها كل مساء، كان وجهًا بسيطًا ومستديرًا، له حواجب كثيفة ومقوسة، وفم صغير وذقن مقتضب، وبه بقعتان بيضاوان مثل القناع الذى يوضع مكان عينين غير موجودتين.

٢٨

تعرفت عليه المرأة بمجرد أن رأته ساكنًا ووحيدًا عند نهاية طاولة البار، رغم أنه لم يكن هناك كثير من الضوء وفى الحقيقة لم يكن هناك أى سبب لتتذكره. كانت قد رأته مرة واحدة منذ عدة أشهر وحينذاك لم تكن قد تحدثت معه لأنها كانت مشغولة مع زبون آخر، قروى ذى وجه أحمر متورم كان ينظر إلى فتحة فستانها بعينين غائمتين لسهران ثمل. كان ذلك قبل بداية الطقس السيئ، كانت متأكدة، قبل أن يأتى الشتاء مبكرًا، ويفسد كل شيء، الشتاء وموت تلك الطفلة، حيث تسببا فى حبس الناس فى منازلهم وتركت المحال الليلية خاوية. من كان سيتحمس ويخرج ليلاً مع كثرة الأمطار، مع رجال الشرطة أولئك الذين يرتدون الملابس المدنية يتجولون فى البارات ويجعلون الجمهور القليل الذى لا يزال هناك يهرب، مع كل ليلة تحل يوجهون الأسئلة ويعرضون صورًا، يبحثون بين الفتيات إذا كن يتذكرن زبونًا شديد الغرابة، يتميز بشيء محدد، صعوبة فى الانتصاب، مثلاً، كانت قد سألت الفتاة نفسها من كان يبدو أنه يرأس الآخرين، شعره أبيض أو أشيب، جاد جدًا، لم تكن قد فهمته فى البداية، ولكن سرعان ما انفجرت فى الضحك، تريد أن تقول حضرتك، شخص عاجز جنسيًا، قالت، ولكن رجل الشرطة نظر إليها بطريقة جعلتها تتوقف عن الضحك، لدرجة أنه أشعرها بالخجل، فى النهاية كانوا يبحثون عن قاتل طفلة عمرها تسع سنوات، لم يكن الموضوع يحتمل المزاح.

شخص عاجز جنسيًا، كرر رجل الشرطة، أو شخص يصبح عنيفًا جدًا أكثر من المعتاد، رفعت أكتافها، هى الآن جادة أيضًا، تجلس على الكرسى المرتفع بجوار طاولة البار، كان هناك رجال غرباء عنيفون لا يمكنها هى ولا زميلاتها تذكر أحدهم، ربما سيتذكرن عكس هؤلاء، إذا وصل إليهن أحد طبيعى.

أعطاها رجل الشرطة الذى لم ينظر مرة واحدة إلى فتحة الجيوب، ولو بنظرة عابرة أو لا إرادية، بطاقة بيضاء، حيث سجلت بيديها رقم تليفون، ولكنها لم تكن ترتدى شيئًا يمكنها من الاحتفاظ بها، مع الملابس القليلة والضيقة التى ترتديها، تركتها فى مكان بالقرب من التليفون، أو الكاشير ولم تعد تتذكر هذه البطاقة. بعد ذلك، فى مثل تلك الليلة أو فى الليلة التالية بينما كانت تموت من الملل وتنتظر أن يأتى أحد، منتصبة وكوعاها فوق طاولة البار، والسيجارة تحترق بين أصابعها، الطويلة جدًا والضعيفة التى سرعان ما تتدسر، فى ظلام الحمرة، الزرقاء والشبه خالية للنادى حيث تمحو أسطونة لخوليو إيجليسيس محادثة فتاتين مع زبون، عندما تذكرت ذلك الشاب، ولكن فقط بشىء عابر، لم تكن تعرف شيئًا عنه ولم يكن حتى قد تحدث مع الفتاة التى رافقها إلى المكان المحجوز لهما، فتاة مجنونة كانت قد اختفت من النادى بعد ذلك بأيام قليلة، وأخذت معها شلة الفتوات والمدمنين هاربة من شىء أو من شخص. لم تكن تفكر فيه إلا بسبب محادثتها مع رجل الشرطة ذى الشعر الأشيب، وأيضًا لم يدر بخلدها أن تهاتفه أو تبحث عن تليفونه الذى ربما لا يعرف أى منهم أين يكون. نسيت ذلك الرجل الوحيد والصامت كما تنسى الجميع، بمن فيهم الذين اعتادوا المكان، كانت تختلط عليها وجوههم فى ضوء النادى الخافت، وجوه منكفئة تتنفس بقوة قبالة فمها أو رقبتها على أسرة الغرف المحجوزة. كانوا يخرجون من الباب متشبعين بالكحول ويمجون به زهو أو هزيمة، وهى تقول لهم وداعًا حبيبى، عُد قريبًا، وتنساهم تمامًا، إلا إذا كانت خبرتها أو غريزتها حددت لها تحذيرات لا يمكن الخطأ فيها، علامات خطر، جشع. ولكن هذا الشاب ليس له شىء جدير بالتذكر، ولا حتى الخوف منه، وأيضًا لا يمكن القول بأن مظهره يجلب الكثير من المال أو عنده ضرورة غير معتدلة لإنفاقه.

ربما ما حدث، أول ما لفت نظرها المرة السابقة والآن تأكدت عندما عادت ورأته، رغم أنه تغير فى شىء، ولم تعرف بعد فى أى شىء، أنه كان لا يرتبط بشىء لا مع المكان ولا مع الظرف، لم يكن يشبه فى شىء الزبائن المعتادين، سائقى شاحنات أو مسافرين أو أصحاب محال الأجهزة الكهربائية، أصحاب ورش السيارات أو محال تجارة القماش التى تغلق نشاط محاله فى الثامنة مساء وقبل أن يعودوا إلى المنزل يخرجون بالسيارة إلى ضواحى المدينة، إلى المكان غير المأهول الذى يقع بين الطريق الرئيسى وأشجار الزيتون حيث تومض أضواء النادى وتبرق من الداخل النوافذ الصغيرة مغطاة بستائر من اللون الأحمر الداكن.

تراه الآن، وقبل أن تقترب منه بسيجارة بين أصابعها ليست مشتعلة، كما كانت قد رأته المرة السابقة فى نفس المكان وبنفس السلوك بعيدًا عن كل ما يحيط به، صلبًا أمام العواطف وسوقية الموسيقى، أمام الظلام الذى تبرز فيه الألوان الذهبية الرخيصة للديكور وزجاج الكؤوس، فتحات الفساتين، أمام الوجوه، منكمشاً مثل طالب المعهد الدينى، فى ركن من طاولة البار القريبة جدًا من الباب يرتدى سترة من الجلد، أكتافه صغيرة، وجهه منخفض ومستدير، كأنه يخجل أو لا يجرؤ أن ينظر إلى الفتيات مباشرة، منغمسًا فى الكأس الذى أمامه، فى علبة السجائر والقداحة التى كان قد تركهما فوق طاولة البار بمجرد أن دخل. كان شابًا فى مقتبل العمر، واثقًا من نفسه، يعطيه الوجه شديد الاستداره مظهرًا طفوليًا، علاوة علىٍ ذلك، وعلى الرغم من أنه كان جالسًا، كان يمكن ملاحظة أنه ليس طويلاً، طوله ما بين متر وستين أو خمسة وستين. عندما نزلت من فوق كرسى البار لتقترب منه غمزت للنادل غير النشيط مثلها فى أمسية من الرياح الثلجية التى ربما تجلب الثلوج. رغم ارتفاع صوت الموسيقى، هذه الأسطوانة الدائمة لخوليو إيجليسيس، كان يسمع صفير صوت الرياح فوق السقف يهز الأبواب

الصغيرة والزجاج فى نوبات عنيفة. اقتربت من الشاب، وهى تهز أكتافها وجانبيها قليلاً، دون أى خجل، دون اقتناع حقيقى. كانت حواجبه وعيناه قريبة جدًا من بعضها، ورغم أنه لاحظ أنها تقترب لم يجرؤ على أن يرفع نظره، كان شديد العصبية، شرب رشفة طويلة وسحب نفسًا قويًا من السيجارة، حاول أن يعتدل، وعندما قالت له أهلاً سرعان ما تغير تعبير عينيه، أصبح نظرة عدائية، متكبرة حتى مهينة أو جارحة بعض الشىء، كان يحاول الآن أن يشبه الزبائن الآخرين، يجب أن يكون شيئًا يحمله الرجال بداخلهم وفى لحظة معينة يزدهر حتى مع أكثرهم خمودًا للهمة والشجاعة، زهو متكرر، طريقة فى الفحص والتقييم، من أعلى إلى أسفل، بشىء من الخبرة، مثل من يمارس مهارات وسيطرة منذ القدم، متوارثة بين الذكور، تعلموها بالغريزة، دون حاجة للتعلم ولا لمثال يحتذى به.

ولكن فى هذا ما زال هناك شىء لا يوجد عند الآخرين، تعرفه الآن مثلما عرفته فى المرة السابقة، رغم أنها لم تعد تتذكر البطاقة التى عليها رقم مكتوب بخط اليد كان قد تركه لها رجل الشرطة ولم تكن قادرة على شرح ما الذى كانت قد لاحظت فيه، ما كان يميزه، بعيدًا عن سلوك الوحدة والشك الذى كان قد جعله يستقر فى ركن طاولة البار، مع أكتاف السترة المبللة وعلبة السجائر والقداحة ومفاتيح السيارة التى يمسكها فى إحدى يديه الكبيرتين، حضر معه عندما دفع الباب تيار من الهواء البارد والماء المثلج الذى نثرته الرياح، هواء غريب نثره صوته الناعم فيما بعد. لم تكن نوعية الأصوات التى يتحدث بها الرجال فى هذا المكان، لم يكن يوجهون هكذا كلامهم إلى الفتيات، لم يكونوا ينظرون إليهن بهذه الكيفية، بذلك التعبير الخائف لشاب قادم من زمن قديم، لخطيب تقدم بطريقة رسمية لا يمكن رفضه، تعبير طبيعى، بهذا الوجه لابن تعشقه الأمهات وصديقات الأمهات، لابن مثالى، قوى أمام إغراءات الجسد والمجون، غير مبال بها، غريب عليه

الضوء والموسيقى والعطور القوية للنادى مثل المسيحى الجديد المضطر إلى حضور واحدة من حفلات المجون فى الأفلام عن الرومان.

من أين قدم، فى تلك الليلة التى لم يرد أحد أن يغامر فيها خارج الغرف الدافئة والشوارع المألوفة؟، عمّ كان يبحث مسافرًا فى سيارة إلى مكان غير مأهول، بعيدًا عن آخر منزل ومحطة وقود حيث نادرًا ما يتوقف أحد كى يتزود بالوقود؟. خجول، محترم، فزع، مع هذا الظل الذى تعكسه الحواجب فوق العينين شديدة الجوار من بعضها، نفس العينين التى اكتسبت بريقًا مختلفًا لم يكن كثير منه رغبة بقدر ما هو سيطرة للتأكيد بشكل عاجل على الرجولة. بدأت بالكاد تكرر بغير رغبة طقس المحادثة – أتشعل لى السيجارة؟، ما اسمك؟، أأنت من هنا؟، أتدعونى لكأس؟.

كان هناك شىء آخر يميزه عن الآخرين: كان ينظر من العمق، من بعيد، بالنسبة للآخرين إذا كان مجرد النظر إلى أعينهم مرة واحدة فقط يُعرف بسأم ما يبحثون عنه وكيف يكونون، فى حالة هذا يظل كل شىء خفيًا، مثل عمق بئر أو نفق لا يرى نهايته. أشعل لها السيجارة، وقال لها اسمًا بالتأكيد ليس اسمه الحقيقى مثل الاسم الذى قالته هى له، ظلت تنظر إلى أظافرها الطويلة جدًا المطلية بلون أحمر، أظافر شكلها غريب، أو مغر فى نهاية يد فى الحقيقة سمينة وقصيرة، بها رقعة داكنة تتلاشى فى الضوء القليل للنادى، وفى ضوضاء ولمعان الأساور الرخيصة. قال، إنه كان قد جاء فقط ليتناول كأسًا، ليتحدث برهة من الوقت، يعمل محاميًا، لديه مكتب فى عاصمة المحافظة، يعيش بمفرده، فى شقة صغيرة، وعندما ضربت كأس الشمبانيا الذى قدم إليها توًا بكأسه قالت له لا بد وأن يكون ذكيًا جدًا لأنه أصبح محاميًا فى هذه السن الصغيرة ويمتلك مكتبًا خاصًا به وشقة، ربما يكون قد احمر خجلاً، ولكن لم تستطع أن تعرف، كان لون وجهه فى ضوء النادى أحمر، يذوب اللون الطبيعى للوجوه ويتبدل ببقع أو ظلال، بشحوب مسحوق التجميل

والأجساد الدهنية نتيجة الكريمات وأحمر الشفاه. بدا مضطربًا أو متفاجئًا قليلاً عندما قالت له إنها تتذكر أنها قد رأته من قبل، ولكن سرعان ما بحثت عن حماس فى الكذبة الواضحة، كان فعلاً قد مر من هناك منذ بضعة أشهر، عند عودته من رحلة عمل إلى مدريد، كان قد تحدث مع فتاة أخرى لا يتذكر اسمها، قالت هى اسمها "سريا"، على الأقل كانت هى تحب أن ينادونها هكذا، جميلة ولكنها نحيفة جدًا، بسبب الرذيلة، أكيد كان بجسمها انحناءات، وتقدمت نحوه بجانبيها وفتحة الصدر، لامست ركبته بفخذها العريضة، التى يشدها النيلون. قالت، سأشعر بالغيرة، انظر كيف تتذكر فتاة أخرى وأنا هنا، سأعفو عنك إذا ما دعيتنى إلى كأس أخرى، ولكنه الآن لا يعيرها أى اهتمام، ينظر إليها كأنه يحتقر كلماتها وحركاتها السوقية، يداها الخشنتان اللتان هما كيدَى الخادمة رغم أظافرها الطويلة المطلية باللون الأحمر، وشعرها المصبوغ، الذى تتوسطه خصلة داكنة. ماذا حدث لها؟، سأل، ولكنه كان يتحدث بصوت خفيض حيث لم يترك صوت خوليو إيجليسيس مجالاً تقريبًا لأن يُسمَع صوته، كانت قد رحلت فجأة دون أن تقول حتى وداعًا، كانت مدمنة ضائعة، رغم أنها كانت تخفى ذلك، كان عليها أن تنفى ذلك كى يقبلوها فى ناد ذى مستوى مثل ذلك النادى، رغم أنها الآن بالتأكيد ملقاة فى الشارع، فى أحد الطرق تشعر بالبرد.

فقط فكر حقًا فى "سريا" أو أيًا كان اسمها وفى سبب هروبها بعد مضى وقت، رغم أن حدسه كان قد نبهه من قبل إلى ذلك، كان عليه أن يعرف، كان عليه أن يرفض، ولكن هناك مرات يعرف فيها الشخص أنه لا يجب أن يفعل شيئًا محددًا ورغم ذلك يفعل ذلك الشىء، كأنه يفعله لأنه مقدر له، كأن عليه أن يفعله، يفعله لأنه قدر أو عادة، لأنها كانت تشعر بالملل والضيق فى تلك الليلة ولم يكن ممكنًا أن يصل أحد آخر قبل موعد غلق النادى، ولأنه فى الحقيقة لم يبد أبدًا أنه رجل خطير، نعم كان يبدو غريبًا، ولكن ليس أكثر غرابة من آخرين كثيرين، إنه ماجن يرتدى قناع القداسة، كان له وجه من

يحضر القداس ويؤدى الصلاة، أكيد أنه يذهب ليعترف بعد ذلك، وأنه عضو فى أحد طرق أسبوع الآلام، ربما حتى تكون له خطيبة رسمية ولن يقترب منها حتى ليلة الزفاف. لا يزال الكثيرون هكذا، كانت قد تحملت ثمالة ومجون أكثر من شخص فى حفلة توديع العزوبية، يحيط به ويحمسه أصدقاء أكثر ثمالة منه، وهم يرتدون ربطة عنق مرخية ويمسكون الويسكى فى أيديهم فوق الأكتاف الأخوية وأفواههم كبيرة بسبب حجم السيجار الذى يمضغونه، يا له من شىء مقزز!

هذا ليس مثل هؤلاء، إنه غلبان، يبدو أنه لم يفهم عندما فعلت له حركة تشير إلى الغرف المحجوزة حيث يمكنهما تناول كأس وهما يتحدثان فى هدوء، يتعرفان على بعضهما بشكل أفضل، حتى يكون الجو أقل برودة، كان منكمشاً جدًا وكانت هناك مدفأة. تغير فى ثوان، كان يبدو أحمق وناعمًا، وفجأة كانت له حركة حاسمة، نظرة، حركة سريعة جدًا فاجأتها، كان يمكنها أن تكون أكثر حذرًا. مضى معها خلف ستار أحمر وعندما كانا فى الغرفة الصغيرة المجردة تقريبًا من كل شىء ظل واقفاً فوق الأرض الأسمنتية الباردة، والكأس فى يده، وعلبة السجائر والقداحة فى اليد الأخرى، ضعيف جدًا لدرجة تشعر بالألم، كان يبدو أنه لم يوجد مع امرأة قط حتى تلك اللحظة، كان قد تمتم بذلك الصوت لفتى طيب عندما كان يسأل مترددًا عن الثمن أو عندما كان يحاول أن يتحقق من المقابل، دون أن يقول أى كلمة بذيئة، دون أن يسمى الأشياء بأسمائها، مشيرًا إليها، مثلما كان يتجنب عينيها بينما كان يراها تتجرد من الملابس، نشطة متصلبة من البرد، جلدها مقنفد من البرد رغم حرارة المدفأة المشتعلة فى ركن بالقرب من السرير، أو بالأحرى سرير حديدى، بلا ملاءة وبه مرتبة من الإسفنج الصناعى وفوقه مفرش قديم، عليه ألواح خشبية تصدر أزيزًا تحت وزن الرجل، الذى لم يكن قد خلع حتى الحذاء ولا السترة، كان فقط قد أنزل السروال وظل يدخن، وهو

يرشف جرعات قصيرة من الرون مع الكوكاكولا، صامتًا، غير متناسق مع ارتدائه للسترة ووجه من يتناول، والسروال الساقط، كأنه جالس فى الحمام، رجلاه قصيرتان وممتلئتان، وبهما شعر غزير، قصير ومجعد، بالتأكيد لديه شعر غزير فى الظهر، مثل غزارة الشعر الموجود فوق الأصابع وعلى ظهر اليد.

قال لها بصوت منخفض ألا تخلع الكعب ولا الجورب، باعدًا أكثر بين رجليه وأشار عليها بحركة كى تجثو أمامه، وحينئذ أصبحت الإشارة سوقية ومباشرة بشكل غير متوقع، فظة مثل الكلمات التى نطق بها، والتى لم تكن تتخيل هى أبدًا قبل ذلك بثانية أنها ستسمعها من هذا الصوت. كانت هناك سجادة متسخة أسفل السرير، ولكن رغم وجودها سرعان ما اخترق البرد ركبتيها. لذلك قررت أنه من الضرورى أن تنتهى فى أسرع وقت، من المؤكد أن هذا الماكر لا يستمر فى الانتصاب، سيهجره مع آهة ونفس ناعم وسيصبح بعد ذلك فاقد الهمة ومخيب الرجاء، ما زال فمه مفتوحًا وجفونه مغمضة دون أن ينجح فى تنظيف نفسه بلفة الورق السلولوز الذى يوجد دائمًا فوق خوان السرير.

شعرت بأصابع اليد تضغط على قفاها، توحى لها بحركة سريعة وآلية، تتنفس عن طريق الأنف، تسمع فوقها كلمات الآخر، الجمل التى تعلمها من المجلات أو الأفلام التى بلا شك يكررها كى يستثار والتى لم تكن هى قادرة على ربطها مع نفس الوجه أو الصوت الذى كان له منذ دقائق، ولكن سرعان ما فهمت أنه سيكون صعبًا وربما مستحيلاً، كانت قد شكت عندما رأت ما كان يوجد تحت سروال الجينز وحاولت أن تخفى ردة فعلها، دهشتها، رغبتها فى أن تطلق مزحة. تشعر بالاختناق الآن، عيناها مغمضتان، تسمع نَفَسه والكلمات القذرة التى ينطقها بصوت منخفض وناعم مثل التراتيل، كانت تشعر بالبرد وبخشونة الأرض تحت السجادة وبألم فى ركبتيها، تشعر بهبوب

الرياح فى الخارج، علىِ الجانب الآخر من الحوائط، وموسيقى خوليو إيجليسيس التى لا تزال تُسمع فى البار. بلا فائدة كانت تلعق وتعصر وهى شاعرة بالضجر متعجلة، كانت تخفف من التقزز المحايد بينما تفكر فى أشياء أخرى، ولكن حينئذ إحدى اليدين التى كانت قد انغرست فى قفاها تجذبها الآن من شعرها، تجعلها ترفع رأسها، وتجبرها على أن ترى الوجه المستدير والمتحول للرجل وسكين المطواة التى تفتح آليًا والتى فتحت بالضبط أمام عينيها وتلامس خدها. تذكرت الآن رجل الشرطة ذو الشعر الأشيب، وتذكرت البطاقة المكتوب عليها بخط اليد رقم التليفون، ولكن لم تستطع فى الحال أن تتذكر شيئًا أو تفكر فى شىء، بدا لها أن تلك اليد ستقتلع الجلد عند منبت الشعر ولم تستطع أن تصرخ من الألم لأن سن المطواة كان فوق رقبتها، يضغط على الجلد، وقد أوشك أن ينغرس فى الجلد بينما يُكمل الكلمات وتجبرها اليد التى تجذبها من شعرها على أن تحرك بأكثر سرعة رأسها. مرة أخرى تنتفخ لم تكفه الكلمات وكان يحتاج المطواة ليشعر بالإثارة، كان يتنفس بعمق، ولكن لا يستغرق الأمر أكثر من لحظة، وتعود وتهبط من جديد، فى البداية كانت بطريقة لا تدرك، ولكن سرعان ما تكون واضحة، وأيضًا دون حل، رجعت هى للخلف ونجحت فى أن تتخلص من يديه، كانت ستصرخ ولكن كان يعوزها التنفس، وبعد ثانية لم يعد ممكنًا أن تصرخ لأن الرجل، المجهول، كان قد جذبها من ظهرها وألقاها على الأرض الأسمنتية، سجنها بين رجليه المفتوحتين وكان يرسم دوائر بسن المطواة حول حلمات ثدييها، وهو يقول لها برقة ما الذى سيفعله بها إذا لم تصمت، وهو يسألها إذا كانت فعلاً لا تعرف لماذا تلك الفتاة، سريا، كانت قد غادرت المدينة سريعًا دون أن تودع أحدًا، وما الذى جعلها تشعر بالخوف الشديد.

منفعل، يعوض عن أذيته، متأكد من ضعفها، كان ينظر فى عينيها دون أن يرمش بينما كان يرفع السروال والسوستة ويزرر الحزام. حفظ السجائر

والقداحة فى جيب سترته، وتأكد من أنه يحمل المحفظة، ومفاتيح العربة ومفاتيح منزله. كانت المرأة قد نهضت من الأرض وجلست على السرير، وكان شعرها المصبوغ بصبغة شقراء يغطى نصف وجهها، التوى الكعب، جسدها أبيض ضعيف، تشعر الآن بالتقزز، أقل إثارة الآن مثل الغرفة التى لها سقف من الأسبستوس وعارية مثل الجراج، مع نافذة صغيرة من الزجاج المطلى باللون الأحمر له بريق الدعوة والغموض لمن يمر فى عربة على الطريق. اقترب منها ولا تزال المطواة فى يده، جعلها ترفع وجهها وهو يجذبها من شعرها. قال لها، احترسى مما تفعلينه وما تقولينه، لأنه بإمكانى العودة. ترك شعرها، وأخذ الكورسيه أو اللباس الداخلى أو أيًّا ما كانت ترتديه وألقاه عليها، وعندما أدار لها ظهره تأكد فعلاً أنها لن تطلب استغاثة، ولن تصرخ كى يمنعوه من الرحيل، الفتاة الأخرى أيضًا، سريا، لم تكن قد قالت شيئًا، كان قد اكتفى بالقفز فوقها وبدأ يدخل فى فمها سروالها الداخلى حتى تتذكر وتفهم، ظل ساكنًا وهو يسمعها تتكلم، ولم يلتفت نحوها وهو يضغط بقوة على المطواة فى يده.

«أحب الرجال ذوى القضيب الكبير والمطواة الصغيرة». احمر خجلاً، واشتعل وجهه غضبًا، التفت وتراجعت المرأة الجالسة على السرير إلى الخلف وهى تنظر إليه، كان يضغط بقوة على المطواة فى راحة يده، كانت ستجرحه، رفع قبضته وتابعت المرأة هذه الحركة كأنها لا تستطيع أن تبعد حدقتيها عن بندول منوم مغناطيسى، ضربها ضربة واحدة، بقبضته الصلبة الضخمة مثل المطرقة، رآها تسقط على ظهرها فوق الوسادة وأنفها يدمى، ضغط على أسنانه وغرس أظافره فى راحة يده وعبر الستارة الحمراء، الهواء القوى والموسيقى دون أن يرى أكثر من بقع ودون أن يسمع شيئًا سوى صوت أنفاسه ودق الدم فى صدغيه. خرج إلى البرد، إلى الرياح المثلجة، أدار العربة وسمع غلق الباب بقوة وصراخ من وراء ظهره، ورأى

أمامه الطريق المضىء بأعمدة الإنارة، والخطوط البيضاء، والصفوف السريعة لأشجار الزيتون، أضواء المدينة البعيدة إلى حد ما، تنعكس بضوء متلألئ فى سماء منخفضة وبيضاء كأنها تضاء من الداخل، سماء فصل شتاء قارس ينذر بهطول الثلج.

عبر الشوارع الخاوية دون أن يتوقف فى الإشارة الحمراء، دون أن يعرف كم كانت الساعة، ولا إلى أين يتجه، كلما تقدم يُسرع، فى خط مستقيم، كان يسمع الموتور يهتز ويزمجر وكان يبقع بلاستيك المقود بالدم، كان يمسكه بيده اليسرى حتى يلعق جرح اليد الأخرى، ودون اهتمام كان يمسح الدم فى السروال، وفى السترة، كان يبتلع ريقه ويعتريه الغثيان من طعم الدم، كانت رائحة السمك الموجودة دائمًا داخل العربة تشعره بالدوار. عند وصوله إلى ميدان الساعة توقف فى إشارة، كان هناك دائمًا حراس عند باب القسم علامة على اليقظة أو الفطنة، لكن لم يكن هناك أضواء فى الشرفات، وكان الباب مغلقاً. يمكث الأنذال فى الداخل فى مأوى من البرد. ينقر بأصابعه فوق المقود ينتظر تغير الإشارة، كان يلعق راحة يده بسرعة، أدار السيارة بسرعة، وتصدر أطر العجلات أزيزًا فوق الأسفلت يتحدى الحراس غير المرئيين، المدينة النائمة أو الجبانة التى تختفى خلف أبواب المنازل المغلقة: صامتون، خائفون، رجل واحد يثير الرعب فى مدينة بأكملها، اتفقت بلا جدوى على القبض عليه، تبسط له مكائد لا يعتقد أنه سيقع فيها، تخفى أشياء، يريد أن يمحوها، كأنه أحمق.

يمر يوم تلو الآخر ولا يجد شيئًا فى الصحيفة التى يقذفها بعد أن تبقعت بالدهن القذر وقشور السمك بعد أن ينظر فيها من أول إلى آخر صفحة، لا شىء فى الراديو ولا فى نشرات الأخبار، كانوا يريدون أن يخدعوه، كان متأكدًا، يريدونه أن يطمئن، أن يخطو خطوة غير صحيحة،

يخامره الشك، كان يذهب إلى كشك الصحف فى الصباح الباكر متحكمًا فى دقات قلبه، غارسًا أظافره فى راحة يده، ولأنه لم يكن معتادًا على قراءة الصحف كان يفكك الصحيفة أثناء البحث، كان الغضب يهزمه، مخيب الرجاء، مجروحًا أو مضطربًا، فى البداية عدم استعداد مباغت للإنذار وحتى للخوف ثم عدم التصديق، كان يشعر عن أى وقت آخر بإحساس أنه كان قد حلم بما يتذكره، وذات ليلة، دون أن يستطيع السيطرة على نفسه، سار فى الشوارع غير المأهولة للحى فى طريقه للمتنزه والمنحدر، ولكنه كان يتوقف دائمًا قبل أن يصل، على الحافة، ربما لم يجدوها حتى الآن، فى النهاية ومن الوهلة الأولى وجدها بالصدفة أحد الكناسين، لا أحد يذهب الآن إلى الحديقة مع رياح وبرودة الشتاء، لا أحد يذهب ولا المدمنين ولا مجموعات السكارى التى تذهب ليلة الجمعة. ولكن لا يبدو أيضًا أنهم يبحثون عنها، أو أنهم افتقدوها، بالطبع مستحيل، إنهم يترقبون، لا يمكنهم أن يخدعوه، إنهم ينتظرون أن يقوم بخطوة خاطئة، أن يصبح عصبيًا ويرتكب خطأ ما. لا يزال بمنأى عن الخطر وغير مرئى، تعتريه رغبة الاتصال بهاتف قسم الشرطة ويقول لذلك المفتش، رئيسهم، فى تحد، اعثر علىّ إذا استطعت ذلك، ويغلق حينئذ الخط، يهاتفه من هناك، من الكابينة الموجودة فى الميدان، على بعد خطوة من الحراس والشرفة المضيئة: الاقتراب كثيرًا من حد الشيء والابتعاد والرجوع للخلف حينئذ، آمن، غير مرئى، يقرب يده من باب معدنى عليه لافتة تحذيرية *ممنوع اللمس، خطر يؤدى إلى الموت*، ويشعر كأن بأنامله مغناطيسًا، يغرس حد المطواة أو سنها فى جلد ناعم وطرى بالضبط شق طوله ملليمتر، وخزة لا تصل إلى جرح، ولا تصل إلى أن تجعل الدم يتدفق.

يتوقف عند اقترابه من الحديقة، أوقف الموتور، أطفأ الأنوار، وما زالت السيارة تهبط إلى أسفل فى صمت، توقف بعيدًا عن آخر عمود إنارة ولا يزال على بعد مسافة من الظلال غير المحددة لسياج الشجيرات

والأشجار الساكنة، ولاحظ حينئذ أن الرياح كانت قد توقفت. لم تعد يده تنزف: يمكنه أن يتبع الخط الخفيف للجرح بطرف لسانه. لم يكن هناك أحد بالقرب منه، لم يكن يسمع شيئًا، لا الرياح ولا صوت موتور أى سيارة. فى مواجهة الصورة الجانبية لأسقف المبانى والأشجار كان يبزغ بريق مثل الشيفون أو ضباب السماء المنخفضة. إنه بعيد عن الخطر، هادئ، متدثر، متخف داخل العربة بلا ضوء، فى طرف المدينة غير المأهول، بعيد عن أى شك، الآن هادئ، تقريبًا مطمئن، يدخن، تحتمى السيجارة المشتعلة فى التجويف الموجود بين إصبعى اليد، محتاط، كى يستمتع أكثر بعدم رؤيته، إذا مر أحد من المحتمل ألا يلاحظ أنه موجود فى العربة، مختبئ فى ظلام داخل العربة، مع الدخان.

إذا أدار الآن الموتور ونزل من التل فى دقائق قليلة سيكون فى طريق العودة إلى منزله. رأى نفسه يرقد فوق السرير دون أن يتمكن من النوم يستمع إلى سعال وثرثرة والديه، يتخيل أنه ينهض فى الخفاء ويسير بخفة فوق الأرض حتى يعبر الحديقة وينزل إلى المنحدر، كان يحلم بذلك. خرج من العربة، غير شاعر بأفعاله بشكل جزئى، كأنه يرى نفسه من الخارج، جزء منه ساكن وسلبى والجزء الآخر يتقدم، كما يحدث فى الأحلام، مثلاً عندما يرقد فى الظلام ويقدم الخيال بكل التفاصيل شيئًا يكون قد حدث بالفعل أو شيئًا لن يحدث أبدًا. كان يسمع تحت وطأة أقدامه أحجار الحديقة وقطعًا من الزجاجات المكسورة. ترك خلفه العربة، آخر الأنوار الموجودة فى الأركان، المنازل البيضاء التى أغلقت أبوابها وكان للأرض التى يطؤها ضوء مستنفذ، مثل السماء، فى تناقض حيث تجعل ظلال الأشجار أكثر كثافة. كان قد مر وقت طويل ليس ممكنًا أنها لا تزال هناك، ملقاة، منسية، تعفنت، أو ربما كانت مثلما رآها بالضبط عندما رحل تحت ضوء القمر، فجأة فقد إحساسه بالوقت وأصبح للمرة الثالثة فى تكرار نفس الليلة، والوجه

الذى كان قد رآه وجه الطفلة الأولى، فاطيما، كان قد محا وجه الطفلة الثانية، ولا حتى تمكن من معرفة اسمها. نزل إلى المنحدر وهو يستند على جذوع أشجار الصنوبر، يجعله الطين ينزلق، من المؤكد أنه لن يحتاج ضوء القداحة حتى يجد المكان المحدد، الحفرة، سيصل إليها وعيناه مغمضتان، كما كان قد وصل اليها بخياله فى كل ليالى الأرق، فى الأحلام التى كانت توقظه بقفزة فزع وإحساس بالخطر والدوار.

تعثر فى شيء، كانت قد تشابكت قدماه فى شبكة من الجذور المكشوفة، ولكن كان لديه رد فعل سريع ولم يصل إلى التدحرج عبر المنحدر، ظل منسحقًا على وجهه على الأرض مثلما كان لديه إحدى عشرة سنة أو اثنتا عشرة سنة يتجسس على العشاق والمخطوبين. اعتدل وهو مغتاظ، لطخه الطين، لذا عندما يصل عليه أن يضع الغسالة كى يتجنب أسئلة والدته غير المناسبة والمفزعة فى الصباح التالى، أين كنت؟ لماذا اتسخت كل ملابسك بالطين؟، إياك أن تكون قد ثملت يا بنى. تحسس ما بداخل جيوبه، كان قد سمع صوت شيء يسقط منه، ليست مفاتيح العربة، إنها المطواة، لعن الشيء بصوت مرتفع، يتحسس وهو على ركبتيه والآن لا يجد القداحة، وجدها أخيرًا، من حسن الحظ لم تكن قد سقطت أيضًا، ظل محتفظًا بها مشتعلة لبضع ثوان وعندما انطفأت حدثه قلبه بأنه كان قد رأى شيئًا، ولكن ليس ممكنًا، أراد أن يشعلها مرة أخرى ولم تخرج الشعلة، وإنما يخرج البنزين فقط، تدور عجلتها دون أن تخرج الشعلة، قد نفد الحجر أو أن أصابعه ترتعش أو أن أصابعه باردة جدًا. رأى حذاء، ولكنه كان ينظر من حوله ولم يكن يرى إلا جذوع الأشجار وظلالها، من الأفضل أن ينهض ويرحل فى الحال، لم يفت الوقت بعد، بدا له أن إحدى الأشجار تتحرك وبعد ذلك بلحظة أصاب عينيه وميض أصفر، غطى وجهه بيده، كان أمامه ضوء كشاف على بعد أمتار وكان يقترب منه، ثم كشاف آخر، على أقصى اليمين،

وثالث فى ظهره، ثلاثة مثلثات من الضوء المكثف تتحرك فى اتجاهه، لا يزال لا يرى أحدًا أو لا يميز الأشباح البشرية من ظلال الأشجار. اعتدل ينظف ركبتيه، والسترة، وهو يبعد عينيه عن الضوء الذى كان يغلفه واستغرق دهرًا حتى يقترب، الآن يصاحب الضوء ضوضاء وقع خطوات وأجساد تتحرك حوله، من بين كثافة الزرع، تخرج من بين سياج الشجيرات، تبتعد عن أشكال أشجار الصنوبر. قف، قال الصوت، لا تتحرك، لا تتقدم خطوة، وظهر مسدس بين الضوء الأصفر للكشافات. أشاح بوجهه إلى الجانب، أغمض عينيه، ورفع يديه ببطء، رغم أن لا أحد أمره بذلك.

٢٩

«انزع الكلبشات»، قال المفتش. نفذ الحارس ووقف بعد ذلك خلف الكرسى الذى يجلس عليه المقبوض عليه، القيود فى يد المفتش وشبك ذراعيه ليراقبه عن قرب، وهو ينظر إليه من الجانب دون أن يخفى احتقاره وفضوله وكرهه. أشار المفتش على الحارس بالخروج، ألقى الحارس التحية بضيق وبحركة سريعة وخرج وهو يغلق الباب تقريبًا بشكل فظ، رغم أنه ظل واقفًا على الجانب الآخر من الباب، ظهره العريض كأنه ظل أزرق اللون على الزجاج المنغبش. كان المفتش قد أمر بألا يدخل أحد وألا يحولوا له أية مكالمة.

كان يريد هدوءًا ووقتًا، ليس وقتًا كثيرًا ربما كان يريد فقط بضع ساعات، الساعات المتبقية من تلك الليلة، ليس ليتأكد مما كان يعرفه الآن ولا ليحصل على اعتراف وإنما ليفهم شيئًا، ليحاول أن يفهم على الأقل قبل أن يبدأ صخب الصحفيين وكاميرات التلفاز وقبل أن يطبقوا الإجراءات المتبعة فى القضايا. يحتاج الآن أكثر من أى وقت مضى للهدوء، للبطء والسرية. فيما وراء شرفة مكتبه، فى ميدان الجنرال، فى المدينة بأكملها، الخاوية والنائمة المتدثرة فى عباءة ليلة شتوية، لا أحد يعرف شيئًا إلى الآن، وكان هو يريد ألا ينتهى السر مع ضوء النهار وألاّ يعود للاقتراب من القسم، الحشد الخانق لمن يبحثون عن عناوين للأخبار ولمن يصرخون بأفواه مفتوحة ويحركون قبضاتهم مطالبين بالقصاص العاجل، بالانتقام.

بعد البحث لمدة طويلة لديه فقط بضع ساعات، حسب، ليس أكثر من ساعتين أو ثلاث حتى تبدأ التليفونات فى الرن ويبدأ تجمع المجموعات أمام

القسم متحلقين حول التمثال والنافورة حيث تتجمد المياه الآن فى كل الليالى، ولكن إلى الآن لم يقل شيئًا، لم يتذكر أيًّا من الأسئلة التى كان قد أراد أن يوجهها له فى كل تلك المدة، منذ بداية شهر أكتوبر، منذ كان قد رأى فى المنحدر ثم على مائدة التشريح وجه فاطيما، عينيها المفتوحتين، الجورب القصير الأبيض فى نهاية الأرجل النحيفة، المجروحة والمتصلبة. طوال شهور كثيرة يبحث عن نظرة واحدة والآن يراها أمامه، نظرة غائرة سوقية، دون غموض ودون تعبير زائد، نظرة يمكن أن تكون لأى شخص، مثل الوجه أو اليد أو السترة المصنوعة من الجلد الرخيص، ببقع من الطين فى الكوعين وفى القبضتين، كل شىء رخيص وعادى، الأشياء التى كان قد أخرجها من جيوبه والموجودة الآن فوق المائدة، قداحة زرقاء، قلم جاف بيك، علبة فارغة تقريبًا من سجائر فورتونا، مفاتيح سيارة، مفاتيح منزل فى ميدالية دعاية لورشة غسيل وتزييت، مطواة بالضبط كما وصفتها الطفلة بَاولا، مقبض أسود ورأس ثور معدنية فوق المقبض، وتقريبًا لا شىء آخر، عملتان ورقيتان متسختان فئة المائة بيزيتا، تفوح منهما رائحة شىء قوى، رائحة سمك، بعض العملات، منديل من الورق عليه بقع داكنة، ربما بقع دم: الأشياء فوق المائدة، سوقية ولكنها أيضًا غير عادية، بالقرب من التليفون والمصباح، والصفيحة المعدنية لحفظ الوثائق والخزانة الكرتونية لحفظ الأوراق حيث حُفِظَ فيها كل الصور والوثائق الرسمية للتحقيقات، لشهور من الإجراءات، والتقارير وأعمال مكتوبة على الآلة الكاتبة وصيغ مكررة فى لغة إدارية مضجرة. الصفحة الأولى للملف كانت نسخة من محضر اختفاء فاطيما. وآخر صفحة كانت تقريرًا أرسله مقر المحافظة من معهد الأرصاد الجوية بالتواريخ والساعات المحددة لظهور القمر بدرًا فى الشهور الأخيرة.

كان الشاب الجالس أمامه مطأطئ الرأس ويُدَلِك معصميه، معصمين عريضين جدًا تركت عليهما القيود علامات حمراء قوية، الأظافر، الأصابع، والشعر المجعد على ظهر اليد، لون لحم نيئ، كل ما قد رأته وحكت عنه

بَاولا، السوار الذهبى الذى يرتديه فى معصمه، الساعة الكبيرة والعادية. تعرّف المفتش عليه رغم أنه لم يره أبدًا قبل تلك اللحظة، ولكنه أدرك أنه تنقصه إثارة الأعصاب التى تخيل فى مرات كثيرة أنها ستسيطر عليه عندما تأتى هذه اللحظة، وكذلك ينقصه الإحساس بالنصر وبالغضب. ما كان قد لاحظه فى أعماقه كانت بداية إحباط، وتعب، وعجلة فى أن ينهى ذلك فى أسرع وقت. هذا الوجه المستدير والحاجبان الطويلان المقوسان، الذقن شديدة الصغر والعينان شديدا القرب من بعضهما، كان هذا من يبحث عنه كل يوم وتقريبًا كل ساعة فى الأربعة أشهر الأخيرة، تخيل العدو أنه وجه ضخم، وجه وحش، آخر وجه كانت قد رأته فاطيما قبل أن تموت مختنقة ومرعوبة، الوجه الذى كان يظهر بدقة مشئومة كل ليلة فى كوابيس بَاولا، رغم أن النظرة كانت تمحى بمجرد أن تستيقظ. قالت سوسانا جراى بعد ذلك «كنت أشترى منه السمك كل سبت» وهى تنظر إلى الصور فى دهشة وعدم تصديق، مع درجة من التقزز لم تفيدها الكلمات، «كنت أشفق عليه لأنه بدا لى خجولاً جدًا على أن يكون بائعًا ماهرًا ولم يكن يوجد كثير من الناس أبدًا فى المحل، تقول زبائنه السيدات إنه عندما مرض أبوه كان عليه أن يترك المدرسة ليعمل».

«ابحث عن عينيه» كان قد قال الأب أوردونيا، فى وقت يعد الآن بعيدًا جدًا، قالها بعد موت فاطيما مباشرة، قبل سوسانا جراى: كانت عيناه حمراوين، غائرتين، ذليلتين، تحملقان فى الأرض أو فى حافة المائدة، فى العلامات الحمراء التى تركتها القيود. يمكن أن يكون قد رأى عينيه مائة مرة ولم يشتبه فيهما. أى نظرة يمكن أن تكون لبرىء أو لمذنب، كان يفكر، وهو يتذكر النظرات الهادئة والصادقة التى كانت موجودة فى كل صورة من صور لافتة أكثر الإرهابيين الذين يبحث عنهم. فى النهاية، لم يكن الوجه مرآة الروح. ما الذى يراه ذلك الشاب الآن فى وجه المفتش، فى عينيه

الرماديتين اللتين لم تتوقفا عن النظر إليه، بفضول وإحباط متساويين، ولكن دون أى أثر لغيظ عنيف مثل الذى نظر إليه به رجال الشرطة الآخرون عندما قبضوا عليه، عندما حمل يده إلى جيبه فى حركة خاطئة وأسقطه أحدهم من الخلف، ولوى ذراعه حتى كاد يكسرها تقريبًا، يسحق وجهه عمدًا فى الوحل، وهو يشتمه. سترى يا نذل، سنفعل بك نفس الشيء الذى فعلته بالبنات الصغار.

اهدءوا، قال صوت خشن خفيض، أول صوت كان قد سُمع عندما أضيء الكشاف أمام وجهه. جعله أحد يرفع وجهه من الأرض وهو يمسكه بقوة من رقبة السترة، واقترب منه الكشاف أكثر بحيث عندما فتح عينيه بدا له أن الكشاف يحرق عينيه فعاد وأغمضهما وهو يحميهما بقبضته المضمومة فى رد فعل طفولى. «لم أفعل شيئًا» قال ولا زال يغمضهما بينما يجذبونه ويدفعونه من الخلف، متجهين لأعلى صوب سياج الشجيرات التى تفصل المنحدر وأشجار الصنوبر عن الحديقة، «لا يمكنكم أن تقبضوا علىّ». تحدث الصوت الخشن الضعيف دون أى لكنة تهديد أو سخرية: «لا نقوم بالقبض عليك، ستتفضل معنا للتحقق من هويتك». من حوله كانت تتحرك بارتباك مجموعة من أشعة الكشافات وظلال طويلة ترتدى البزات الرسمية. عند مدخل الحديقة، بالقرب من المكان الذى كان قد ترك فيه العربة كانت تومض الأضواء الحمراء والزرقاء لثلاث سيارات شرطة. بدفعة صائبة وكأنها صدفة جعلوه يدخل فى إحداها وجلس حارسان على جانبيه. ضم فخذيه على أمل ألا يلحظوا أنه تبول. الآن يرى وجه رجل الشرطة باللباس المدنى الذى كان قد قرب الكشاف جدًا من عينيه، نفس الوجه الذى كان قد رآه تلك المرة فى التلفاز لبضع ثوان قبل أن تغطيه صحيفة: كان يعطى أوامر بين الأضواء وغلق أبواب السيارات والحركات العنيفة الصامتة للبزات الرسمية، قال ألا يديروا الصافرة، ليس ضروريًا أن نوقظ أحدًا. كرر «لم أفعل شيئًا» وهو مسجون بين كتفى الحارسين، اللذين يفوقانه فى الضخامة والقوة، يداه مكبلتان

بالقيود مضمومتان فى حجره، تشعر بالبلل، «أقسم لكم، أعيش بالقرب من هنا، كنت أقوم بنزهة».

«أنا الذى سآخذك فى نزهة» قال أحد الرجلين، دون أن ينظر إليه، وحينئذ انطلقت السيارة وتقدمت ببطء فى الشارع المستقيم، الخاوى الذى يصب فى الميدان، تتقدمها وتتبعها السيارتان الأخريان، اللتان لم تضيئا أنوار الإنذار.

كان ينتظر وهو مرتبك أنه عندما يصلون إلى قسم الشرطة سيحبسونه فى زنزانة. كانت هناك إضاءة ضعيفة فى المدخل وفوق السُلم، ضوضاء خطوات خفيفة، أصوات تتحدث بصوت خفيض، وأبواب تفتح وتغلق. «لا يريد رئيس المباحث أن يُعرف الموضوع بعد»، همس أحد خلفه، أحد الجنديين اللذين جعلاه يصعد وهما يدفعانه بفظاظة إلى سُلّم ضيق وقليل الإضاءة. كان مثل الوصول إلى منزل استيقظ أهله مبكرًا يوم الانتقال لمنزل آخر أو يوم سفر، يُفعل كل شيء بحذر شديد حتى لا يوقظا الجيران. حملوه فى ردهة بها إطار حائط من القيشانى البنى ومكاتب مفتوحة بها ماكينات آلة كاتبة وورق غير مرتب فوق موائد معدنية. فى أحد الأركان كان هناك دلو به ماء متسخ وممسحة. أمام جندى يعتبر عجوزًا عن الآخرين يرتدى نظارة ويكتب ببطء على الماكينة، كان عليه أن يقول اسمه وعنوانه، ورقم هويته، عمله واسمَى والديه. لم يشتمه أحد، لم يعره أحد اهتمامًا: كانوا يدفعونه، يأخذونه، أمسك أحد كل إصبع على حدة حتى تطبع بصماته فوق ورق كرتون أبيض، أعطوه قطعة قماش متسخة تفوح منها رائحة الكحول كى ينظف يده، جعلوه ينزل من سُلم آخر، ولكن الآن أيضًا لا يأخذونه لزنزانة، وإنما إلى حجرة بها قيشانى أبيض حيث التقطوا له صورًا من الأمام ومن الجانب، وصورة أخرى للجسم كله بجوار مقياس مترى.

«إذن تبول عليكم» قال الرجل الذى يلتقط الصور إلى الجنود، رغم أنه لم يعطه اهتمامًا ولا حتى حملق فيه كثيرًا، كأنه يذكر إحدى بقع الطين التى فوق سرواله أو سترته. «هيا، يا شاطر، سنضع لك حفاضة»، قال أحد الجنود ودفعه مرة ثانية لصعود السُّلم، إلى نفس الردهة التى بها القيشانى البنى حيث كان يوجد الدلو والممسحة. أضواء مصابيح الفلورسنت تعطى لكل الوجوه التى تمر عليها شحوب الأرق، والتعب من مواعيد العمل الليلى. «هناك خطأ، سيدى، سترى حضرتك أننى لم أفعل شيئًا»: كان يسير والتفت برأسه إلى الشرطى، وهو ذليل، ظاعن، بالتواضع المناسب، باحثًا بلا جدوى عن نظرته، ليقدم له تعبير البراءة الذى لا مجال للشك فيه، الذى لا يكلفه شيئًا بأن يقنع نفسه به. «لا تهاتفوا البيت من فضلكم» كان قد قال عندما سألوه عن رقم هاتفه «كى لا تعرف والدتى ويصيبها الذعر». لم يسخروا منه، ولم يفعلوا أى حركة ليفزعوه أو يهينوه: بدوا فقط كأنهم لا يسمعونه. دق الجندى بأصابعه على باب ثم فتحه وجعله يدخل أمامه. لم يكن موجودًا فى قبو، ولا فى زنزانة وإنما فى مكتب آخر، أقل إضاءة وأيضًا أقل فوضوية من المكاتب الأخرى، به مصباح فوق المائدة، بجوارها آلة كاتبة فوق عربة بعجل، خزانة معدنية، سترة خضراء داكنة معلقة على مشجب، مقعد له ظهر معدنى أقعده عليه الجندى بحركة مباغتة وعنيفة. لم يكن يوجد شىء على الحوائط البيضاء سوى تقويم وصورة لفاطيما. رجل الشرطة بالزى المدنى، الرجل ذو الشعر الأشيب كان بجوار الشرفة مديرًا ظهره، التفت ببطء صوبه وهو يبحث عن عينيه، بدا شديد الهدوء ويداه فى جيوبه.

كان ينتظر واقفًا وهو ينظر إلى الميدان الخاوى فى منتصف ليلة شتوية، السماء مضببة وشاحبة، بملامح بنفسجية، مع انعكاس لأضواء الشوارع، والأضواء العاكسة التى تضىء التمثال، كنيسة ترينداد، برج الساعة، حيث ستسمع دقات أجراس الثانية قريبًا. أغراه أن يهاتف سوسانا جراى حتى يسمع صوتها المنطفئ والعذب أثناء النوم لكى يقول لها ببساطة

«لقد أمسكت به»، ولكن لم يرد أن يسبب لها فزعًا بسبب جرس التليفون فى تلك الساعة من الليل، رغم أنه ربما لم تكن قد نامت بعد، لعلها تقرأ فى السرير بجوار فوضى الكتب المكومة وكريمات التجميل الموجودة دائمًا فوق خوان السرير، وهى تنتظره دون أن تسمح لنفسها بمزيد من القناعة بأنه سيصل.

كان قد انتظر ليصعدوا إليه، المقبوض عليه، بنفس الإحساس من الهدوء المتوتر، التوقع والرقابة المطلقة، التى كان يذهب بها عندما تمسى إلى المنحدر، فى الأيام الأخيرة للقمر وهو هلال، وفقًا لاقتراب البدر. لم يقل شيئًا فى البداية ولا حتى لسوسانا جرى، ولكن كانت هى، بشكل غير تطوعى، ما جعلها تدرك فكرة بدت له هو نفسه غير منطقية، أو على الأقل غير مقبولة، إحدى هذه الأفكار التى جعلته يكره الأفلام كثيرًا. كانا يتنزهان فى ليلة باردة جدًا عند المنظر المطل على السور، خلف كنيسة السلبادور، أمام الوادى وسلسلة الجبال، وهما متدثران كثيرًا، دون أن يتلامسا، يهزمهما غموض ما لا يصرحان به، وأشارت سوسانا إلى القسم الأصفر للقمر الذى بزغ لتوه فوق أحد التلال: «أتتذكر عندما رأيناه المرة السابقة، فى الشهر الماضى؟ القمر نصاب. إذا لم تقل أنت لما عرفت أنه هلال».

فى رغبة للذكريات المشتركة كان يخزن تفاصيل من الماضى القريب، أشياء تستحق التذكر من أسابيع قليلة ماضية، بالفعل يعتريه وعى ضعيف عن مدة استمرار الحب. فى الصباح التالى، وهو قابع فى مكتبه، تأكد من التواريخ وبحث فى التقويم، هاتف معهد الأرصاد الجوية، وهو غير واثق، مستثارًا، متذكرًا فجأة ليلة من الأرق كان فيها القمر بدرًا حينما هاتفوه بالتليفون ليخبروه بشأن ظهور جثة فاطيما، كانت تستحوذ عليه هذه الثمالة الصباحية من الذكاء والنشاط الجسمانى التى كان يستيقظ بها منذ أن أقلع عن التدخين والكحول، عصبيًا جدًا دون أن يجرؤ على بحث الأمر بعد مع

فيريراس، وهو يتذكر ثانية تدفق الضوء القمرى الذى ظهر فيه صورة ظهر سوسانا جراى أول مرة يراها عارية، بالتحديد بعد ذلك بشهر، يومًا بيوم، كان يتأكد منه فى النتيجة وفى الملف ولم يستطع أن يصدق ذلك، نفس الليلة التى كانت فيها الطفلة الثانية، بَاولا، على وشك الموت.

لم يقل شيئًا لأحد. شرح له شخص من معهد الأرصاد الجوية بالتليفون أنه تبقى أربعة أيام حتى يكتمل القمر. عندما أمست خرج من المكتب، وهو متدثر جيدًا من البرد القارس، رفع رقبة السترة وزررها ويداه غائرتان فى القفازات فى الجيوب، متخف تقريبًا يحمل مسدسًا وكشافًا وسار فى الشارع المستقيم الخاوى الذى يظلم تدريجيًا ويصب فى حدائق "الكابا". أحيانًا كان ينظر خلفه بغريزة الشك التى لم يخففها مرور الوقت. كان الحى الذى نشأ فيه فيريراس به القليل من الضوء مثل طريق الوادى: بعض الضوء فى الأركان البيضاء، خلف ستائر أحد الشرفات، ضوضاء بعيدة عن الموسيقى وأصوات أجهزة التلفاز، عن أصوات التصفيق.

ولكن فى الحدائق لم يعد يسمع شيئًا، لم يكن يوجد أى أثر على وجود بشرى، كان لا يمكن تصديق أنه بالقرب من هناك توجد شوارع بها مرور ومنازل مأهولة، على بعد خطوات وبالفعل توجد فى عالم آخر. كانت بالونات أعمدة الإضاءة قد انكسرت بعد قذفها بالحجارة منذ وقت طويل مضى ولم ينشغل أحد ليبدلها، مثلما لم يقطع أحد سياج الشجيرات الصغيرة ولم ينظف الأوراق والغصون ولم يزل الزجاجات المكسورة، الأكياس البلاستيكية وصناديق النبيذ الفارغة. ليجد المكان المحدد الذى يبحث عنه عند المنحدر، الحفرة التى كانت ترقد فيها فاطيما وبَاولا، فقط كان عليه أن يضىء الكشاف لحظة، بالكاد ومضة تركته بعد ذلك فى ظلام دامس جدًا. سرعان ما فقد الاحساس بالوقت وانمحى من عنده الغرض الذى قاده إلى ذلك المكان. كان ساكنًا، يسند ظهره على جذع أحد أشجار الصنوبر، وهو

يلاحظ أن برد الأرض يصعد إليه من أخمص قدميه، رغم نعل حذائه الصلب الآتى من الشمال وجوربه الصوفى. أسكنه الظلام بالظلال والأشباح المحددة تدريجيًا مثل صمت الأصوات: أصوات تصدر من رؤوس الحيوانات التى فى الجحور، أرجل بها أظافر صغيرة فوق طبقة من الأوراق المتعفنة من الرطوبة التى تغطى الأرض، صوت طقطقة الأفرع العالية، والسماء من فوقها بيضاء ومضببة، أحيانًا البقعة غير المحددة لضوء القمر البدر تقريبًا، يختفى حتى بالكاد تنطفئ، وتظهر بعد ذلك بقليل بين أجزاء سريعة للسحب التى تدفعها الرياح التى تهب من فوق الأرض الباردة والرطبة، من فوق الأشجار الهادئة، وأشجار الصنوبر الضخمة المائلة. أسفل، فى نهاية المنحدر حيث تبدأ البساتين، يسمع صوت الماء فى السواقى المتدفقة، ويصعد منها رائحة خضرة وضباب. تذكر عن بعد وعاطفة الحنين الطفولى الذى كان قد سره له فيريراس: أصوات وموسيقى السينما المفتوحة يسمعها فى الحدائق وفى الحى بأكمله فى ليالى الصيف الناعمة.

ولكنه لم يكن يفكر فى شيء، كان ساكنًا فقط ومكث ينتظر، غير مبال بالبرد ولا بمرور الوقت، فى هدوء لم يكن صبرًا ولا سرية، وإنما حالة خاصة للحواس وللروح، هو بالكامل معطل، مترقب، صعب أن يميز بين ظلال الأشجار مثل الحيوان المترقب داخل غابة، نمر بين مكان مأهول بالحواجز الطويلة التى تشبه خطوط جلده أو حشرة فى العشب الجاف الذى له نفس لونها الرصاصى. اليدان الدافئتان المستعدتان داخل القفازات الصوفية والجيوب المبطنة، للمس المسدس، الكشاف، القدمان اللذان لا يتحركان كى يفرقا البرد الذى يضرب فى الأرض. هو نفسه شعر أنه يمحى، أنه ينزلق ويختفى فى تدفق مشاعره مثل القمر بين السحب المسرعة. كان يعيش بين قوسين من الصمت والزمن. بدأت تدق أجراس ساعة البرج ولأنه منذ وقت طويل لم يسمعها حسب أنها التاسعة: استمر فى العد والآن هى الثانية عشرة،

كان قد أمضى خمس ساعات عند المنحدر، كان قد تجمد جلد وجهه وكانت برودة الأرض قد يبست ركبتيه.

عاد فى الليلة التالية، والتالية. كانت قد انخفضت درجة الحرارة كثيرًا وظلت السماء دائمًا منخفضة ومضببة، من رمادى متسخ وناعم، كل شىء مثل بلد يقع أكثر فى الشمال. فى الليلة الثالثة، الليلة السابقة لتمام القمر، سمع بالقرب صوت خطوات وأصوات واعتراه الإحساس بأنه يستيقظ من حلم لا يعرف من سقط فيه. فوق، بالقرب جدًا منه، على الجانب الآخر من سياج الشجيرات كان أحد يتحرك، فى الأسفل كان يتحدث صوتان مختلفان، صوت رجل وصوت امرأة. سمع حركة ملابس وأجسام، صوت قداحة. سرعان ما دار بباله، مثل ابتكار غير معتاد، أنه إذا فاجأهما سيفكران أنه من الذين يتسولون. تقدم قليلاً، ورأى شعلة سجائر، ثم شعلة حمراء طويلة أضاءت وجهين نحيفين وسريعين، يميلان فوق شىء يبرق: كانا يحرقان هيروين فوق قطعة من ورق مفضض، كانا يتشاجران على شىء بفظاظة المدمنين الرتيبة وثقل الثمالى البطىء.

تلك الليلة كانت قد تجاوزت الواحدة عندما طرق باب سوسانا جراى، وهو شديد البرد، مستسلمًا لخمود الهمة والرغبة. كانت سوسانا ترتدى النظارة بينما أسعفها الوقت لتضع أحمر شفاه بينما كان هو يصعد فى المصعد. كانت تستخدم كرداء المنزل قميصًا كبيرًا من قمصانه. كان يعجبها كثيرًا ارتداء قمصانه ورباطات العنق، كان لديها موهبة خاصة تجعلها جذابة وهى ترتدى ملابس الرجال. من أين تأتى؟، قالت له وهى تلمس بيديها الدافئة وجهه المتجمد، يبدو أنك قد رأيت موكب الموتى المقدس[1].

---

(١) وفقًا للمثيولوجيا الشعبية فى بعض مقاطعات إسبانيا (وخاصة جليقية وأشتوريش) هى عبارة عن موكب من الأموات أو الأرواح يطوف بعد الساعة ١٢ بالمنازل التى أوشك أن يتوفى فيها أحد أفرادها. (ت).

كان قد تبقى يومان ليصبح القمر بدرًا. اختار دورية من بين الجنود التى بدت له مصدر ثقة، طلب منهم السرية وقال لهم إنه تلقى مكالمة مجهولة، معلومة سرية من الضرورى التأكد منها. بعد ثلاث ساعات من المراقبة، عندما بدأ الرجال يتحركون نتيجة فراغ الصبر والشعور بالبرد، طلب أحدهم منه بصوت خفيض إذنًا ليدخن، رأوا الصورة التى تتحرك بين سياج الشجيرات، تتحرك نحوهم، دون تردد، بحذر، كأنه يأتى إلى لقاء سرى. رأى هناك وجهه، جعله يلتفت، ولا يزال على الأرض، وضع الكشاف أمام عينيه، وفى البداية عندما نظر إليه اعتراه لمدة ثوان الإحساس بأنه أخطأ. لم يكن شبه الرسم الآلى، هذا الوجه البسيط والمستدير لا يمكن أن يكون الوجه الذى كان يبحث عنه منذ وقت طويل.

«هو يعرف أنه يبدو عليه الطيبة»: الآن، فى المكتب، على الجانب الآخر من المائدة، تجرأ المقبوض عليه لأول مرة أن ينظر فى عينيه، يرفع عينيه تجاهه، كان لا يزال واقفًا، بتعبير طيب خجول وطاعة تحترم. «لم أفعل شيئًا سيدى الرئيس، أقسم لك بأمى، أعيش بالقرب من هناك، وكنت أقوم بجولة». الصوت ناعم جدًا، وديع، مزيف تمامًا، مثل الخنوع الجبان لعينيه القريبتين من بعضهما، الكبيرتين والخاليتين من الحياة، اللوزتين مثل أعين القديسين الذين فى الأيقونات أو فوق البلاط البيزنطى، قالت سوسانا جراى عندما رأتهما. الفم صغير مكتنز، الذقن صغيرة جدًا لا تدرك مع استدارة الوجه، تتحرك اليدان فوق الحجر، إحداها فى مواجهة الأخرى، الأظافر تحك أو تجرح فى الظهر الملىء بالشعر، تنغرس فى الراحتين، يسمع صوت اللعاب عند البلع.

كان يتابع بعينيه حركات المفتش: كان المفتش قد مال على المائدة وتناول المطواة بين إصبعى السبابة والإبهام وجعل يخرج سريعًا شفرة السكين. جعل الصوت الآنى لفتحها المقبوض عليه يرتعش. «ليست ملكى» قال، وهو يبلع ريقه من جديد، مطأطئ الرأس ينظر إلى يديه «وجدتها فى

الحدائق»، ولكن لم يكن المفتش قد قال أى شىء. ترك مرة أخرى المطواة فوق المائدة وأخيرًا جلس وألقى برأسه إلى الخلف على مسند الكرسى ذى العجل الذى يلف متحركًا بلا إدراك تقريبًا معه. الآن تنزلق النظرة الغائرة فوق المائدة تتوقف عند القداحة، وعلبة السجائر المجعدة والخالية تقريبًا. «إذا أردت يمكنك أن تدخن» قال المفتش، رأى علامات الامتنان التلقائية، الشراهة الفزعة عند أى مقبوض عليه، اليد التى تتقدم بعصبية صوب علبة السجائر وتبحث عن سيجارة، رعشة فوق الفم، وصعوبة فى إشعال الجذوة. صوت النفس العميق، يخرج الدخان فى دفعات من الفم فى ارتياح. خط أبيض ورفيع من الدخان الذى يخرج من الأنف جعله يتذكر طرف قطعة القماش التى كانت تطل من إحدى فتحات أنف فاطيما. كان يبتسم بينما يُخرج الدخان، كان يشكره بعينيه، ويقدم له براءته، نبل وجهه.

عاد المفتش للوقوف بفظاظة اضطرب لها الآخر بشكل غريزى. خلع من فوق الحائط صورة فاطيما، أبعد بحركة مفاجئة من يده الأشياء التى كانت فوق المائدة، دون أن يهتم من أن بعضًا منها، القداحة أو المفاتيح سقطت على الأرض، ووضع الصورة على المائدة أسفل ضوء المصباح. «هل رأيت هذه الطفلة من قبل؟» نظر بتركيز ثم سرعان ما أبعد عينيه، وقال لا بحركة من رأسه، وهو يسعل، يبلع ريقه ويبلع الدخان. «رأيتها مثل الجميع فى التلفاز وفى الصحيفة»، تأخر تقريبًا دقيقة ليقول هذا. أبعد المفتش الصورة وأخرج من الدرج الذى يحفظ فيه وهو مغلق بالمفتاح ظرفًا بنى اللون لصور أخرى، الصور التى التقطها فيريراس فى المنحدر وفى غرفة التشريح فيما بعد. دفع بالظرف إلى الطرف الآخر من المائدة ببطء بأطراف أصابعه، ورجع للخلف صوب ظهر المقعد. تصنَّع المتهم أنه لم يره، كانت رأسه غائرة جدًا فوق صدره حيث لم ير المفتش تعبير وجهه. كان يتنفس بقوة من أنفه، يهتز فوق الكرسى كمن استمر وقتًا طويلاً دون أن يتحرك. قرب المفتش مِنفضة السجائر منه. عندما أطفأ فيها المتهم عقب السيجارة

التقط المفتش العقب بمنتهى الطبيعية وبحذر شديد وحفظه فى كيس بلاستيكى صغير، وسجل شيئًا على الورقة اللاصقة فوقه. هذه الحركة البسيطة أيقظت بريقًا من الخطر فى عينى الآخر، تعبيرًا من المكر يناقض أى أثر من الوداعة أو الخوف فى عينيه كان قد انمحى منذ لحظة. بعد ذلك أخرج المفتش آخر سيجارة ملوية ومتكسرة من العلبة وأمسكها بين أصابعه. كان يبدو أنه سيقدمها له أو أنه سيسحقها. رُفعت العينان البيضاوان القريبتان أكثر من اللازم من بعضهما لتنظرا إلى السيجارة وليس إلى وجه المفتش أو للظرف البنى الذى كان فوق المائدة. قال له المفتش بصوته الخشن الخفيض:

- افتحه، انظر ما يوجد بداخله.
- أتأذن لى بالتدخين؟
- افتح الظرف. أمر المفتش الآن بصوت أعلى، ليس كثيرًا ولكنه كاف حتى يلاحظه الآخر.

ترتعش الأصابع الكبيرة الحمقاء بصورة خفيفة عند رفع لسان الظرف وبالكاد استخرج نصف الصورة الأولى. لا توجد أيد أخرى فى العالم أعرفها أكثر من هذه، فكر المفتش فى تعب وضيق، برغبة مفاجئة لينهى ذلك فى أقرب وقت ممكن. كان يعرف بصماته، طول وعرض أصابعه، قدرة الأظافر على الجرح. كان قد تتبع أثر بقع دمائه فوق لوحة تشغيل المصعد، وفوق سور مكان وضع اليد ومن فوق حائط السُلم، من فوق قماش اللباس الرياضى، فوق مكان العض على جلد الطفلة الميتة. رآها يدًا غير متماسكة وجبانة، مشلولة دون أن تجرؤ على الاستمرار فى إخراج الصورة الأبيض والأسود التى يرى فيها فى المستوى الأول وجه فاطيما.

- إننى آمرك، ألا تسمعنى؟ قال وقد أصبح فظًا فجأة، عدائيًا، وقد ترك صيغة الاحترام "حضرتك" كإنذار أول على أنه لن يتأخر فى ترك، على الجانب، أى اعتبار آخر. انظر إلى الصور، انظر إلى ما فعلت.

وقف مرة أخرى، فظًا يتهمه، انتقل إلى الجانب الآخر من المائدة، خطف الظرف من الأيدى العريضة الخالية من الحياة وبدأ فى وضع الصور الواحدة تلو الأخرى فوق المائدة، حتى شغل المائدة بالكامل، العينان المفتوحتان بلا حدقات، وفم فاطيما المفكك، جسدها العارى المفكك، مضاء بفلاش الكاميرا، محاط بالظلام. يرتعش الآخر وينفى بحركة من رأسه المطأطأة، دون أن ينظرا إلى الصور وتهز الرجفة يديه وشفتيه ووجهه المكتنز. جذبه المفتش من شعره بحركة انتقامية ليجبره على رفع رأسه. سرعان ما أطلقه، بحالة عدم رضا جسدى عنيف، كأنه لمس شيئًا دهنيًا. الآن تنظر العينان وهما مفتوحتان وتعانى عضلات الوجه الطرية من انقباضات عنيفة وسريعة. غطى وجهه بكلتا يديه وخلف الأصابع الممتدة لاحظ المفتش أن عينيه ما زالتا مفتوحتين، ما زال منتبهًا إليه.

«الذنب ذنب القمر» قال وما زال يغطى وجهه، تغطى الأصابع وجهه مثل المشربية، «كنت ثملاً وجعلنى القمر أفكر فى أشياء غريبة. كانت أمى تقول لى عندما كنت صغيرًا إننى قمرى. ولكننى لم أرد قتلهن. ما كنت أريده هو ألا يصرخن...».

وضع المفتش يده على كتفه وارتعش جسده كله كأن شحنة كهربائية لمسته. كان يبكى وكوعاه فوق الركبتين، أو كان يبدو أنه يبكى بصوت عال خلف قناع اليدين. قدم له المفتش السيجارة وساعده حتى يشعلها وهو يمسك جيدًا بمعصمه كى يوقف رعشة يده وسرعان ما أطلقه. فكر بقلة حماس أنه جاءت لحظة استدعاء الجندى الذى سيكتب الاعتراف على الماكينة. «إنه

يمثل» قال فى نفسه، عندما سمع البكاء المتقطع، النفس الذى يعوقه مخاط الأنف. مد له منديلاً ورقيًا ونظف الآخر أنفه وعينيه، وهو يكرر أنه لم يكن يريد أن يفعل لهن شيئًا، وأن القمر والشراب هما السبب فى كل هذا. «إنه يمثل ورغم أنه الآن يحكى كل شيء قاله وفعله ويقول إنه نادم إلا أن كل هذا يشكل جزءًا من تمثيله، ولا هو ولا أى شخص آخر يستطيع أن يعرف أبدًا ما يشعر به وما يفكر فيه حقًا، ولا حتى إذا كان يفكر فى شيء أو يشعر بشيء». تقريبًا يغضبه الآن الصفة الوضيعة للخداع، التمثيل الواضح مثلما تغضبه القسوة الباردة للجريمة وتخمد من همته. فى الواقع يمكن ألا يشعر بالخوف ولا بالذنب، كان يفكر، ولا حتى يجتهد كثيرًا فى التصنع.

٣٠

ما أن استيقظت أدركت أن هذا الصباح لن يكون مثل كل الأصبحة. كان مثلما تستيقظ فى بداية إجازة أعياد الميلاد وهى تعرف أن هناك بردًا بالخارج وأنه لا يجب أن تغادر دفء السرير وأنه تتبقى أيام كثيرة كى تعود إلى المدرسة وليس من الضرورى عد هذه الأيام، مثلما لا تعد العملات عندما تملأ اليد بها. الاستيقاظ مبكرًا، فى موعد المدرسة، وعدم النهوض من السرير والاستمتاع هكذا أكثر من الاستمتاع بالنوم، الاستماع إلى ضوضاء البيت عن قرب، صوت الراديو فى المطبخ، حوار والديها، وسرعان ما تفوح رائحة القهوة والخبز المحمص. الآن تنام فى سرير والديها لأنها لا تزال لا تحتمل البقاء بمفردها فى الظلام فى غرفة نومها، ويتناوب أبوها وأمها على النوم بجانبها، وعندما كانت تبدأ تضطرب وهى نائمة كانا يحتضنانها ويهمسان لها بأشياء فى أذنها، يضيئان النور ويهزانها كى تستيقظ، ولكنها كانت غارقة جدًا فى النوم يحاصرها بالكابوس الذى فى مرات كثيرة لم ينجحا فى إنقاذها منه، كانا يريانها وقد أصبحت متصلبة، تتلاحق أنفاسها بقوة كلما مر الوقت، تنكمش فوق الوسادة كأنها تحتمى من ضربة، تفتح عينيها بشكل مبالغ فيه لكن رغم ذلك لا ترى ضوء الغرفة ولا وجه أبيها أو أمها وإنما ضوء قمر متكرر فى غابة من الرعب فى كل ليلة، ترى وجهًا يميل عليها، ويدين وركبتين غير مرئيتين يسحقونها وتحاول دون فائدة التخلص منهم، إلى أن توقظها هزة عنيفة أو إحدى صرخاتها. فى مرات أخرى دون أن تستيقظ تمامًا، تبدأ فى أن تهدأ، تغمض عينيها وتسترد هجران الأذرع والأرجل، ويعود التنفس مرة أخرى ليصبح منتظمًا وناعمًا، تنفس صحى وعميق لنوم طفولى: كان الكابوس قد اختفى تدريجيًا، أو أنها هى

نفسها كانت قد نجحت فى أن ينزلق الكابوس خارجها، صوب حلم آخر وديع، كأنها كانت قد مرت بالغوص فى مياه عكرة ومظلمة إلى مياه أخرى أكثر دفئًا. كان أبوها أو أمها يطفئان النور وربما كانا لا يتمكنان من العودة للنوم مرة أخرى. تستيقظ بَاولا صباحًا دون ذكريات سيئة وكان يعجبها أن تجد نفسها فى السرير الواسع مع رائحة ودرجة حرارة جسد الكبار، مع هذا الغموض الموجود دائمًا فى الغرف والأشياء التى تنتمى إلى الحميمية الصارمة للآباء.

باختلاف أيام العمل الأخرى، اليوم عندما استيقظت كان أبوها موجودًا بالبيت، يفعل أشياء فى المطبخ، يستمع إلى الراديو، وكان وجوده وأصوات مقدمى البرامج هو ما أعطى لبَاولا الإحساس النهائى ببداية الإجازة: كل عام، فى يوم سحب ورق اليانصيب الخاص بعيد الميلاد، عندما يستمع أبوها وأمها إلى السحب عبر الراديو ودائمًا يقومون بنفس المزحة التى تَبدو لها فقط حقيقية: «إذا سمعناهم يقولون الرقم الموجود معنا لن نذهب اليوم إلى العمل».

تحب بَاولا الاستيقاظ فى هذا اليوم أكثر من يوم عيد الملوك المجوس: أن تسمع أصوات والديها قريبة جدًا، تأتى من المطبخ واضحة جدًا ودافئة مثل رائحة العيش المحمص والقهوة[١]. كسلانة جدًا، تسمع صوت المطر يضرب على شيش نافذة غرفة النوم المسدول، تقلبت تحت اللحاف كى ترى فى الساعة الموجودة فوق خوان السرير كم الساعة، ورأت بانزعاج أنها تجاوزت التاسعة، ربما نسى والداها أن يوقظها أحدهم وستصل متأخرة إلى

---

(١) يوم الملوك المجوس هو يوم السادس من يناير ويقابل الملوك المجوس بابا نويل في التقليد الأمريكى حيث يعتقد الأطفال أن الملوك يأتون ليلاً ويتركون لهم الهدايا. وفقا للتقليد الإسبانى كان الملوك المجوس وهم ثلاثة ملوك من الشرق هم من بشر بميلاد المسيح عليه السلام. (ت).

المدرسة؛ لأنه بالطبع ليس صباح سحب أرقام اليانصيب وبقى أكثر من أسبوعين على بداية العطلة، كانت قد تذكرت ذلك بقليل من الإحباط عندما استيقظت تمامًا. نادت على أمها، وانطفأ الراديو فى المطبخ، وطل الاثنان فى نفس الوقت على غرفة النوم، دون أن يفقدا بعد الوجه المنزعج. لم يكن صباحًا مثل كل الأصبحة، بالطبع كان أبوها يرتدى ربطة عنق وسترة داكنة، ولم تكن والدتها فى رداء المنزل ترتدى الخف، كما اعتادت أن تكون عندما كانت تعمل بالفندق فى المساء وكانت تستمتع وتظل فى رداء المنزل حتى العاشرة أو الحادية عشرة.

اقترب الاثنان من السرير وبدا لها أن لهما وجه من يقترب من مريض. جلس أبوها بجوارها، ومر بيده على شعرها وقال لها لا داعى للعجلة وإن اليوم ليس عليها أن تذهب إلى المدرسة، وإنه فى العاشرة سيأتى المفتش ليرافقهم. «ليس عليك أن تشعرى بالخوف مطلقًا بعد ذلك»، قالت أمها، وهى جالسة بجوار زوجها، عند حافة السرير، وهى تمر بيدها على كتف زوجها بحركة أدهشت بَاولا وأعجبتها كثيرًا؛ لأنها كانت قد لاحظت أن الرجال اعتادوا وليس النساء أن يحيطوا أكتاف زوجاتهم بذراعهم (أبوها وأمها، باختلاف تقريبًا كل الآباء والأمهات التى تعرفهم هى، كان لهما نفس طول القامة) «لقد قبضوا على ذلك الرجل» قال أبوها، وسألت هى فى الحال، بتأكيد مقدم، بفخر، إذا كان المفتش قد قبض عليه «من سيكون إذا لم يكن هو؟»، قال أبوها، «لقد هاتفنا منذ برهة ليقول لنا الخبر. الآن عندما يصل سيحكى لك بنفسه كيف فعل ذلك».

ولكن لا يزالان لم يجرؤا على أن يقولا لها إلى أين يصطحبانها عندما يصل المفتش: هى نفسها خمنت ذلك بذكاء حاد ربما تعلمته من الأفلام، ولكن لم تقل شيئًا لأنها عندما تصمت لا يعيها كثيرًا السيطرة على الخوف. شعرت

أن خوف الظلام والمطاردة يعودان إليها فى ضوء الصباح، فى كنف منزلها، وهى بالقرب من أبويها، بأنها تنزل مرة أخرى على السُّلم صوب باب المبنى مع تلك الأصابع التى تتغرس عند بداية قفاها. بفزع عنيف سمعت جرس البوابة الأوتوماتيكية وهرولت لتفتح هى بنفسها، متأكدة من أنها سوف تسمع صوت المفتش. سيذهب أبوها معها. فى المصعد شد على يدها بقوة وعندما دفعا الباب سرعان ما رأت المفتش الذى كان ينتظر على الرصيف بجوار سيارة شرطة متخفية حيث أعطاها تعرفها عليها نوعًا من الزهو. وقفت على أطراف أصابعها كى تحتضنه، وقبلته على وجنتيه الباردتين اللتين يفوح منهما رائحة ذكورية بعد غسول الحلاقة. كان المفتش قد أحضر لها شيئًا، مثلما كان يفعل فى كل مرة يزورها فيها: اعتادت أن تكون علبة صغيرة من الحلوى أو كتبًا، دائمًا ملفوفة فى ورق هدايا. كانت سوسانا جراى هى من تختار له الكتب. استقلوا السيارة، هى ووالدها فى الكرسى الخلفى، وعندما التفت المفتش إليهما لاحظت بَاولا وجهه المتعب. كان شديد الشحوب وليس حليقًا بشكل جيد، عيناه غائرتان أكثر من المعتاد، بهما بقعتان حمراوان صغيرتان على جانبى العين: فجأة شعرت نحوه بالشفقة، بدا لها أكثر ضعفًا، وأكبر سنًا.

– ليس عليك أن تنشغلى بأى شىء. هو لن يراك ــ قال المفتش.

– سأراه عبر زجاج على جانبه الآخر مرآة؟

أومأ المفتش بالإيجاب وهو يبتسم. وكما أنه لم ينجب أطفالاً، فقد عرف منذ وقت قليل أن الأطفال، بفضل التلفاز، تطلع على الإجراءات البوليسية. كان يلاحظ فى المرآة المنعكسة عينَى بَاولا الذكيتين الهادئتين. كانت متكأة قليلاً على والدها الذى كان يشد برقة على يدها التى فى حجرها. يده دافئة وكبيرة ويدها تصبح أكثر برودة كلما تقدمت السيارة صوب وسط المدينة

المزدحم بالناس على الأرصفة وصافرات السيارات فى مثل هذه الساعة من الصباح. ولكن ليس عليها الآن أن تحملق فى كل الأشخاص الذين تراهم لتشير إلى أى تفصيلة لدى أحد، لتشير إلى سروال، إلى طريقة تصفيف شعر، إلى حذاء، إلى طريقة فى السير. الآن تعرف إلى أين تذهب ومن سترى، كانت قد نسيت هذا الوجه بالكامل، تبقى لها فقط مساحة فارغة تصبح خانقة أكثر بمقدار برودة اليدين التى لا تصاب بالعدوى من حرارة يد أبيها، بدأ قلبها يدق بعنف.

- لقد سمعوا الخبر فى الراديو، انتشر الخبر. قال المفتش، وهو متعب بلا مبالاة، دون أن يلتفت إليهما، وهو يشير إلى مجموعات من الأشخاص تتوافد على الميدان، بالقرب من قسم الشرطة، وكاميرات التلفاز التى بدأت تظهر.

انحرفت السيارة فى شارع جانبى وتوقفت بجانب باب صغير حيث كان ينتظر رجلان يرتديان الزى المدنى. خرجوا بسرعة، ينظر رجال الشرطة بكل جدية إلى نهاية الشارع ليروا إذا كانت هناك كاميرا أو أى صحفى. بشكل غريزى أمسكت بَاولا بيد المفتش ويد أبيها وذهبت وهما يقودانها تقريبًا طائرة فى ردهة قليلة الضوء تحيطها خطوات وقوة رجال الشرطة، يدها باردة جدًا، أنفاسها سريعة وغير منتظمة، ركبتاها ضعيفتان جدًا كما فى تلك الليلة عندما كان ذلك الرجل يدفعها وهو يضغط على قفاها بأصابعه وكان يبدو لها أنها تمشى دون أن تحرك قدميها اللتين كانتا تنزلقان وهى تطفو على السُّلم والشوارع المليئة بالناس الذين كانت تقابلهم دون أن تراهم ولم تكن تسمع صوتها إذا كانت قادرة على الصراخ وطلب الإغاثة.

دخلوا فى غرفة صغيرة وأغلق الباب خلفهم تاركًا إياهم فى ظلام غريب، مثلما تشاهد التلفاز والأنوار مطفأة. كان هناك حائط من الزجاج، أو نافذة كبيرة، وأمامها كان هناك مقعدان طلب المفتش من بَاولا وأبيها أن

يجلسا. كان لديها انطباع بأنهم سيعرضون فيلمًا. على الزجاج كانت ترى بغموض وجهها ووجه أبيها، وخلفهما رجال الشرطة الآخرون واقفين، يميل المفتش صوب شيء يمكن أن يكون ميكروفونًا.

حينئذ انطفأ النور تمامًا وعندما عاد وأضيء كان نوعًا آخر من الإضاءة ولم تكن ترى هى أى شيء. رأت بعد ذلك غرفة خلف الزجاج، حائطًا أبيض ينعكس عليه إضاءة مثلما ينهض أحد ويذهب إلى المطبخ وهو نائم تقريبًا ويفتح باب الثلاجة ليشرب ماء. كان الحائط مقسمًا إلى خمسة خطوط رأسية، محددة بمؤشرات قياسية، وفوق كل قسم كان هناك رقم كبير، مرسوم باللون الأسود من واحد إلى خمسة. «تفضل» قال المفتش فى الميكروفون وهو يقرب فمه كثيرًا منه. كان صوته أكثر خشونة عن أى مرة مضت، أكثر ضعفًا، وعندما سمعت منه هذه الكلمة «تفضل» ارتعدت باولا. شد أبوها على يدها، وأمسك بها، كانت قد قامت بحركة تعكس أنها سترحل.

واحدًا واحدًا، دخل خمسة رجال فى الغرفة التى على الجانب الآخر من الزجاج ووقفوا ورءوسهم أسفل الأرقام «لينظروا أمامهم» قال المفتش، وقبل أن يلتفتوا كلية، دون حتى أن يروا وجوه الآخرين، رأت باولا ما لم تكن تريد ذاكرتها أن تتذكره، ما كان فقط يظهر مشوشًا ليلة وراء ليلة فى كوابيسها، العينان الطويلتان والقريبتان جدًا من بعضهما، بمنطقة ظل حول الحاجبين، النظرة الباردة، الميتة، الثابتة، التى تركز عليها، تتعرف عليها عبر الزجاج، تتكهن بها عبر المرآة كأنها قادرة على اختراقها، يرى أبعد مما يمكن أن تراه النظرات الأخرى، فى الظلام، خلف الحوائط، يرى داخلها، داخل باولا. كان المفتش يقول لها شيئًا ولكنها لم تكن تسمعه تقريبًا، كان يسألها إذا كانت قد تعرفت على أحد أولئك الرجال، كان يطلب منها أن تشير إليه بإصبعها، أن تقول رقمه. كانت تريد أن ترفع يدها اليمنى وكان مستحيلاً، كانت تريد أن تتكلم وانحبس الصوت فى حلقها، كانت لا تتمكن من

التنفس، كانت شفتاها تتحركان ولم تتمكن من أن تُكوِّن بهما كلمة واحدة، كما كانت تحاول أن تقول شيئًا فى الحلم وتكون كأنها بكماء. فقط كانت تنظر وهى متجمدة فوق المقعد، تندفع قليلاً صوب الأمام، دون أن تلاحظ بالفعل أن يدها فى يد أبيها، ولا تشعر بوجود أحد آخر فى الغرفة المظلمة، كانت ترى أمامها بالضبط بدقة مفزعة وعن قرب، نفس السروال الجينز والحذاء المنخفض الأسود والسترة الجلدية الرخيصة، الحزام العريض، ذا المشبك المعدنى، الوجه المستدير، وبصفة خاصة العينان، العينان اللتان تنظر إليهما فحسب، تكتشفها دون جهد، دون شك ودون تشتت، بهدوء مطلق، بتعبير ليس تهديدًا، وإنما سخرية تقريبًا، كأنه يريد أن يعرفها أنه لا شىء يفيدها لا المرايا ولا الخدع، وأنه لا يهم أن يكون هو على جانب من الحائط، من الزجاج وهى على الجانب الآخر يفصلهما جنود فى زى رسمى، وأبواب مصفحة وأقفال وأسلحة نارية. كانت يداه بجوار بعضهما رغم أنهما لم تكونا مكبلتين بالقيود وكان يميل برأسه قليلاً للوراء: كان يراها، لا يدرك ذلك أبوها ولا المفتش ولا رجال الشرطة الآخرون ولكنها تدرك، كانت تعرفه، كانت متأكدة، كان يقول لها بعينيه ما كان يقوله لها فى بعض المرات فى الحلم، إنه سيعود ليتخلص منها وإنه لن يتركها حية فى المرة القادمة، كان يقوم بحركة بفمه، كان يحرك شفتيه، كأنه يكلمها ولا يمكن أن يسمعه أحد غيرها.

الآن ترتعد، كان أبوها يحتضنها وهى لا تزال ترتعش بقوة، مثلما فى تلك الليلة، كانت تسمع الضوضاء الضعيفة والرتيبة لصوت أسنانها، ولكن كان ضروريًا أن تنطق بكلمة، أن ترفع يدها وتقدم إصبع السبابة. «رقم أربعة» قالت، ولكن سُمع صوتها غريبًا جدًا ولم يفهمه أحد، بلعت ريقها، رغم أن فمها كان جافًا، مررت لسانها على شفتيها، كانت العينان تريانها وتتومانها كى تصمت، ولكنها لم تغمض عينيها ولم تستسلم، عادت لتقول

الكلمتين، الآن أكثر وضوحًا، هى نفسها تسمعهم، رفعت يدها اليمنى ومدت ذراعها حتى لمس إصبع السبابة الزجاج. حينئذ اعتقدت أنها ستستمر فى قول شىء ولكن ما خرج من حلقها كان نحيبًا أو صرخة، تشبه الصرخة التى كانت توقظها فى منتصف الليل فى بعض المرات: مثل الصرخة التى كانت تقطع الكوابيس، وهكذا اختفت العينان والغرفة المضاءة على الجانب الآخر من الزجاج، كأنه نتيجة تأثير الصرخة، والآن كان أمامها من جديد المرآة فى الظلام، ووجهها غريب الشكل وشاحب بجوار وجه أبيها. «انتهى الأمر»، قال المفتش، وهو يضع يده على كتفها لينقل لها شعورًا قويًا بالقوة والحنان، «أعدك بألا تعودى لرؤيته مرة أخرى أبدًا». ولكن فى نفس اللحظة التى يقول فيها كان يفكر بكل خمود همة جراء ساعات كثيرة بلا نوم أنه لا أحد يعدها بهذا الوعد، ولا أحد لديه النفوذ ليوفى بهذا الوعد.

٣١

أوقف السيارة فى محطة وقود فى منتصف الطريق وبينما كانوا يملؤون خزان الوقود وينظفون الزجاج دخل إلى كابينة تليفون ولكن فى البداية لم يطلب أى رقم، إنما مكث والسماعة فى يده اليمنى وهو يسمع صوت الصفارة الضعيف ويقرأ الكلمات التى كانت تظهر وتومض فوق الشاشة الزجاجية الصغيرة «أدخل العملة». بحث فى جيوبه وتمكن من أن يجمع بعض العملات ولكنه لا يزال غير متأكد من أن عليه الاتصال، وبالطبع لم يكن يعرف ماذا سيقول لو تجرأ واتصل.

عند خروجه من السيارة كان قد ارتدى نظارة الشمس. كان ضوء شمس مايو قد أضر عينيه المتعبتين من الأرق، كان الضوء يشوشه مثل صدى الصوت الحاد جدًا بعد ليلة من الثمالة. سترتفع درجة الحرارة كلما تقدم اليوم، سيرتفع ضباب خفيف من الأرض المبللة بشدة من المياه طوال أشهر طويلة وسيلمع بقوة اللون الأخضر الصارخ واللامع للمزارع فى الشمس، واللون الأصفر البراق لنبات السمارة المخزنية الذى ينمو بقوة غير معتادة بين نباتات الغابة، بين صفوف أشجار الزيتون وحفر الطريق.

خلف زجاج النظارة كان ضوء النهار الخفيف أكثر تسامحًا. كان المفتش يعانى من ثقل ليلة من الثمالة دون شراب، الدوار، قلة الحماس، عدم موافقته هو نفسه على تصرفه، الخجل من الليلة، من تصرفه. كانت سوسانا قد قصت عليه أن بعض الهنود فى غرب كندا عندما يسافرون بسرعة كبيرة ليرشدوا حملة من الأوروبيين يتوقفون ليرتاحوا يومًا بالكامل أو يومين كى يتأكدوا من أن أرواحهم تلحق بهم، البطيئة جدًا عن أجسادهم. متألمًا، خطر

بباله أنه بالتحديد فى ذلك الصباح، فى السيارة، كانت روحه قد لحقت به، روحه القديمة، التى اعتقد بشكل خادع أنه تركها خلفه عندما ترك الكحول ونبيذ الشمال، عندما وجد سوسانا جراى، كان قد استغرق عدة شهور حتى يجد نفسه، ولكن كانت هناك الروح القديمة مرة أخرى، متسخة من آثار ثمالات قديمة، مثل الجير أو الأكسيد الذى لا يستطيع التخلص منهما، روحه التى سممتها الأسرار، الندم، أحقاد ورغبات متعفنة، بها ازدواجية العجز، والذنب. ضغط على رقم رقم من أرقام هاتف سوسانا (يحفظه ولكن كان يشك فى أنه سيعود ويستخدمه) وبالكاد بمجرد أن انتهى من وضع الأرقام وضع السماعة بتعجل، وفى الحـــال عـــاد ورفع السماعة خوفًا من أن يتعطل الجهاز. ولكنهم الآن يحصنون الأرقام جيدًا حتى تقاوم عنف الأشخاص الفظة.

أشار إليه عامل محطة الوقود بأنه أنهى العمل فى السيارة. فى أقل من نصف ساعة يمكنه أن يصل إلى المصحة ولكن لا يزال الوقت مبكرًا جدًا وفى كل الأحوال لديه شىء عاجل ليقوم به، موعد آخر. ولكن لا يعرف لماذا سيذهب إليه، هل لأنه يترك نفسه أو أن شيئًا يجذبه إليها بشكل منفصل مثل اضطراره إلى لقاء فى الواحدة تمامًا فى الحديقة الصغيرة التى بها تمثال للبتول من الجص، أو اضطراره للعودة فى اليوم التالى إلى المكتب. الآن التليفون الذى يتصل به هو تليفون المصحة. هذا الرقم أيضًا كان من المحتمل ألا يعود ويستخدمه. تحدث مع راهبة، أكد عليها بلا ضرورة الساعة التى سيصل فيها، سألها عن زوجته، التى كانت قد جمعت كل ما فى غرفتها وجهزت حقائبها، قال الصوت، الخدمى والكنسى، فى هذه اللحظات لا يمكنها أن تتكلم معه لأنها تستمع إلى القداس.

أعطاه التحدث عبر التليفون استراحة سريعة كى يتنفس الصعداء، سمح له تخيل القيام بعمل أشياء، أن يكمل أفعالاً ضرورية وواضحة. بمجرد

أن أدار محرك السيارة وضع أحد الأشرطة التى كانت سجلتها له سوسانا جراى فى الراديو كاسيت. الآن يقوم بذلك دائمًا بطريقة آلية ولأنه لم يكن لديه أية موسيقى سوى التى اختارتها هى، كل الأغنيات والمقطوعات التى يسمعها سرعان ما تستدعى وجودها، الكلمات التى كانت قد قالتها بينما تستمع إلى هذه الموسيقى والذكريات التى استدعتها هذه الكلمات. بالمصادفة كان قد وضع أحد الشرائط التى كانت تعجب سوسانا كثيرًا وتتركها حزينة، لحن باربير. يا للغرابة، فكر، ها أنا أعرف حتى أسماء الملحنين. قاد السيارة بعض الدقائق وهو يستمع إلى الموسيقى، ولكنه فجأة أوقفها، خجلان من الجيشان العاطفى الذى سببته وأيضًا من خيانته الواضحة، التى تحوله الآن، فى وحدة السيارة وهو ينظر لوجهه بالنظارة الداكنة فى المرآة على اليسار، إلى ممثل. كان يفكر فى أنه ليس له حق فى أن يتفاعل مع الذى بفضل سوسانا جراى قدم له، الذى لم يكن فى الحقيقة ملكه ولا كان يمكن أن يكون ملكه ولا يخصه، ولذلك سُحب منه بابتعاده عنها، ربما كان قد سُحب منه بالفعل والآن يختلس مشاعر لا تخصه.

عندما تستقل زوجته السيارة ستسأله باندهاش عن كل هذه الأشرطة، إذا انتبهت، إذا كانت حقًا قد خرجت من الإغماءة التصلبية الخفيفة التى عانت منها فى الشهور الأخيرة. ستقول، لم أكن أعرف أنك تحب الموسيقى كثيرًا، ربما تشك بالفعل، وتكون أوشكت أيضًا أن تنتبه إلى بعض التغيرات الرقيقة والخفية فى الوقت نفسه فى ملابسه، فى ربطة العنق، حتى فى طريقة نظرته البسيطة. «أنت لا تدرك ولكنك لا تنظر كما كنت تنظر من قبل» كانت قد قالت له سوسانا، وكلاهما ينظر فى مرآة الحمام، فى منزلها، كلاهما عار، شعره غير ممشط، بنفس البريق من الإشباع وعدم المبالاة فى العينين.

ولكن كل هذا أصبح ماضيًا. يعيش الآن فى أول صباح لعصر آخر، فى الليالى التى تسبق مستقبلاً يشبه حياته السابقة. قبل أن يخرج لم يكن فقط

قد تفحص السيارة بحثًا عن أى عبوة ملصقة بشريط لاصق أسفل المقعد الأمامى، أو عن أى سلك أو توصيلة فى الموتور لها مظهر غير عادى. كان قد بحث فى درج السيارة، فى الأرضية، فى شنطة السيارة، عن أى شىء يخص سوسانا. «لأنك شرطى، ستتحقق من هذه الأشياء أفضل من الخائنين الآخرين»، كانت قد قالت سوسانا، بقدرة على المرارة والسخرية فاجأت المفتش وجرحته، لأنه لم يكن معتادًا على عدائها. كنت أنتِ من اقتربتِ منى، فكر فى أن يقول لها، لكنه فكر فى هذا كثيرًا فيما بعد، وفى الحقيقة ما كان ليقول لها ذلك؛ لأنه حتى التفكير فى هذا يجعله يخجل من نذالته. نظف منِفضة سجائر السيارة حيث كان بها عقبان سجائر، بعثر بشكل مبالغ فيه معطر الجو ليمحو أى أثر للكولونيا التى تتعطر بها سوسانا التى يشمها هو بقوة فجأة فى كل مكان، فى فرش السيارة، فى ملابسه، فى الهواء. فتش فى جيوبه ومحفظته: كان هناك إيصالات للبطاقة الائتمانية بها تواريخ وأماكن محددة، موعد عشاء، أول يوم تقابلا فيه فى «جزيرة كوبا». فى ضيق بدأ يمزقهم واحدًا واحدًا إلى قصاصات صغيرة جدًا مع قلق بشأن خيانته.

لم يكن قد كلمها أبدًا عن زوجته وتخلت سوسانا بشىء من الحساسية المفرطة أو الخجل شيئًا فشيئًا عن السؤال. كانا يتصنعان عند لقائهما أنه لا يوجد شيء خارجهما، أنه يمكنهما فصل الساعات والأماكن التى يكونان فيها معًا عن السلسلة الزمنية العادية لكليهما: مثل الليلة الأولى فى تلك الغرفة المجاورة للنهر فى "جزيرة كوبا" فى مأمن من الحياة والزمن اليومى، كانا قد أُلغى كلاهما، بنفس الطريقة الحاسمة التى يقص بها بمقص الصور غير الضرورية من فيلم، قالت سوسانا، وهى تقوم بحركة المقص بإصبعيها السبابة والوسطى، فى آخر ليلة، منذ عدة ساعات مضت، أمام العشاء الذى لم يتذوق أى منهما شيئًا منه، حزينين لاقتراب الوداع، مقدمًا يسكنان فيه، عاجزين عن الاستمتاع بالوقت القليل جدًا المتبقى لهما. «ولكن الحياة ليست

فيلمًا» قالت سوسانا، ورشفت رشفة من النبيذ فى أحد كؤوسها المفضلة، التى كانت قد وضعتهما على المائدة عندما ذهب ليتناول العشاء معها، «مع العمر الذى وصلت إليه لم أعد أستوعب بعد».

هو لم يكن يقول شيئًا: كان ينظر إلى طبقه، يشرب القليل من النبيذ، وكان ينظف شفتيه بإفراط من تربى بشكل جيد. كان قد أمضى حياته كرجل ناضج صامتًا يؤجل الأشياء، متحليًا بالصمت أو تاركًا القرارات الحميمية والرغبات إلى وقت لاحق. لم يكن يكلفه شيئًا ألا يحدث سوسانا عن زيارته كل يوم أحد إلى المصحة، حتى يتصرف ويقرر منح نفسه هدنة ومددًا متتابعة: بعد شهر آخر، بعد عدة أسابيع، وفجأة، فى النهاية، بعد عدة ساعات، ساعات ليلة واحدة، بعد أن صمت طوال بضعة أيام عن خبر التاريخ المحدد لخروج زوجته من المصحة. دخلت من جديد الروح القديمة فى جسده واستردت التأجيل الذى كان من قبل، الكذب، والمكر البائس. كان يفكر غدًا: سأخبرها، كان يَعِد نفسه، يُقسم، غاضبًا من نفسه، من عدم قدرته على الكلام، ذلك المساء عندما عاد لرؤيتها، بعد برهة، قال، مرة أخرى سأقول لها غدًا. كان يودع سوسانا ونذالة تصرفه كانت تبعده مقدمًا عنها، جعلته يعيش مبكرًا فى زمن المستقبل الذى سيكسر فيه العادات التى كان قد اكتسبها مؤخرًا وفقط بشكل جزئى سرية حياته الشخصية. كان هناك قمصان وربطات عنق خاصة به فى خزانة ملابس سوسانا، كانت الفرشاة وصابون الحلاقة فوق مسند زجاجى فى الحمام، بين رف من أرفف أدوات التجميل التى لم يشك هو أبدًا فى تنوعها، والتى كانت تعددها سوسانا وهى تسخر من نفسها، كريم للقدم ضد الخلايا الميتة، مرطبات للنهار والليل، كريم منشط، كريم ضد السلوليت، مثبت، على حافة التشوهات الجسدية، كانت تقول، على بعد خطوة من السحر والشعوذة. اليوم كان قد ذهب دون أن يأخذ شيئًا، كان قد أخذ دشًا فى وقت مبكر عن الأيام الأخرى، وكانت هى قد رافقته إلى

الباب وهى فى طيلسان حريرى مزهر بزهور كبيرة صفراء وحمراء، حافية، شعرها متمرد وفوق شفتيها أحمر شفاه، ولكن عندما قالت له وداعًا لم تكن قد قامت بحركة لتقبله، مثلما كان يحدث فى المرات الأخرى ولم يجرؤ هو أن ينحنى ليفعل ذلك، قال لها إلى اللقاء، فى نغمة الصوت المحايد للمرات الأولى التى كان يودعها فيها، واتجه نحو المصعد ودخل دون أن يلتفت. لم يكن قد ناما تقريبًا. كأنه تكرار مصمت للحياة القديمة، فى حوالى السادسة صباحًا، عندما كانت قد أشرقت، كان يتصنع النوم كى يتجنب أسئلة أخرى، كى يتجنب لومًا ممكنًا لم تقم به سوسانا جراى.

كان يخجل لأنه لم يكن قد أخبرها عن الوقت القليل المتبقى ليصرحوا لزوجته بالخروج، ولكن الخجل كان يكبر كل يوم وحتى مع كل ساعة تمر، ويصعب عليه التحدث كلما مر الوقت. كان يستطيع، كان قد أوشك أن يتحدث عندما قالت له إنهم وافقوا على نقلها إلى قرية قريبة جدًا من مدريد. كانت تتحدث بجدية شديدة، وصراحة تامة، بتلقائية، بالضبط عكس جُبنه وتأجيلاته الخفية.

- أنت تعرف أننى أمضيت سنوات كثيرة أريد أن أرحل من هنا، ولكن إذا طلبت منى أن أبقى، رغم عدم وعدى بأى شىء، لو طلبت منى مرة واحدة أن أبقى، غدًا مباشرة سأرفض النقل. لاحظ أننى أحبك ومن أجلك مستعدة أن أستمر فى العيش فى هذه المدينة، حتى لو كان من أجل أن أراك بين حين وآخر، حتى لو تأتى إلىّ ساعتين قبل أن تعود إلى منزلك أو تصطحبنى نهاية أحد الأسابيع فى رحلة عمل وتتركنى مخبأة فى غرفة الفندق مثل إحدى أولئك العاشقات اللائى كن للرجال من قبل. لم يكن يجب أن أقول لك هذا بهذا الوضوح، أعرف أننى كنت سأكون أكثر غموضًا إذا جعلت نفسى بعيدة المنال أو إذا صمت ولو جزءًا من

صمتك، ولكننى لا أحب ذلك، لقد قلت لك تلك المرة، ليس لدىّ وقت ولا أنفع فى ذلك.

فجأة كان الوقت هو الذى أنهى، سبب له (وليس لها، التى كانت تراه يأتى بوضوح دون تشاؤم، لكن أيضًا دون أى أمل) نفس الخوف لو اكتشف أن الهواء ينفد منه، أو أن مرضًا سيقتله قريبًا. كل شىء كان يشكل جزءًا من الوداع، من النهاية غير المقبولة. كان ينتظر فى المكتب، فى السادسة والضوء يدخل من الشرفة المفتوحة، الملمس الدافئ لهواء المساء المحمل بحبوب اللقاح يسبب له شعورًا لا يحتمل مواجهته: كان يشتاق للبرد، لمطر الشتاء البعيد، لليل المبكر والأبواب المغلقة، الميزة السرية عندما يصل إلى منزل سوسانا بعد منتصف الليل منهكًا يشله البرد، ويترك نفسه للمساتها وهى تخلع له ملابسه بيديها الدافئتين الماهرتين، التى تفك رباط الحذاء وتخلعه بعد أن تتركه يسقط بثقله فوق أرض غرفة النوم، تدلك بقوة وتضم إلى صدرها قدميه شبه المثلجتين نتيجة انتظاره عند ذلك المنحدر حتى يشعر بمزيد من الدفء.

ما كانت تفعله ذلك المساء، تلك الليلة، كان محتملاً أنها تفعله لآخر مرة. فى الصباح كان له حوار طويل بلا ضرورة مع مدير المصحة أو بالأحرى كان قد استمع إليه طوال فترة طويلة على التليفون. الحمد لله، زوجتك إذن لم تكن معافاة تمامًا إلاّ أن ظروفها تسمح بأن تُكمل علاجها فى البيت. منذ صباح غد، إن شاء الله، على زوجها أن يكمل مهمة الممرضات والأطباء والمهنيين، كان الطبيب يقول: حياة هادئة، غذاء متوازنًا، دواء خفيفًا، نزهات، تمارين رياضية معتدلة، وممنوع الفزع. بلا شك يمكنه هو أن يتولى مهمة أن تمر زوجته بمرحلة النقاهة. ماذا ستفعل عندما تخرج، كان قد سأله الأب أوردونيا، بشىء من الانتقاد فى نبرة صوته مع قليل من الألم. ألم بصفة خاصة تجاه المرأة المريضة المحبوسة والمنومة من الحبوب، وأيضًا متألم من أجله ومن أجل سوسانا جراى: فى أى متاهة تضيع مشاعر

الرجال والنساء، بناءً على أى قانون يتحولون بالتناوب إلى ملائكة، منفذين أحكامًا، إلى جلاد وضحايا لبعضهم لبعض، بشكـــل رتيب، دون تعلم ودون راحـــة، دون أن يفيـــدهم بشيء خبـــرة الألم ولا يقلل من همتهم أبدًا قط تكرار الفشل.

فى إحدى أمسيات شهر مايو كان ينظف المائدة، يدير ظهره إلى الشرفة، قبل أن يخرج كان يحفظ الأوراق داخل الحافظات وفى الأرفف، فى الأدراج. على الحائط لا تزال صورة لفاطيما بالألوان، بعيدة جدًا فى الزمن، مضى سبعة أشهر فقط على موتها، يعدت قبل الأوان، الطفلة الباقية. فوق المائدة توجد صورة أخرى التقطتها أم بَاولا فى يوم أحد فى الميدان أمام الحديقة التى تحيط بقاعدة التمثال: تبتسم الطفلة بينه وبين أبيها وهى تحضن الاثنين. كان هو يبدو مقارنة بهما، أب شاب جدًا وابنة عمرها اثنا عشر عامًا، عجوزًا بشكل مفاجئ، كان يفكر بارتياب فى أن من لا يعرفه يمكن أن يتخيل أنه جد الطفلة.

بالكاد كان يتذكر ما كان قد أعطاه كثيرًا من الاهتمام، سيطرة فكرة البحث عنه، الترقب الليلى عند المنحدر، القبض على المتهم، التحقيقات، أو فلاشات المصورين، الحشد المتجمع فى صباح جليدى حول قسم الشرطة ينادى فى صراخ بالعدالة، بالقصاص العاجل. بعد إثارة الساعات الأولى، بعد الزهو الذى لم يجرؤ حتى على أن يظهره أمام سوسانا، ما شعر به فى الحال كان خمود همة وفراغًا، ورغبة قوية جدًا فى أن كل شيء سينتهى، بمجرد أن يحصل على التصريحات، ويتأكد من دلائل الاتهام، من أن القاضى يأمر بالسجن غير المشروط وسيختفى من الميدان الغزو الثانى لآلات التصوير والصحفيين.

لأنه شعر بالابتعاد كثيرًا عن تلك الأشياء علاوة على المكالمة التليفونية التى فاجأته واستقبلها هذا المساء عندما كان على وشك الرحيل، مساء آخر يوم كان يسمح له فيه بالحفاظ على حياة خيالية مع سوسانا جراى. نغمة الصوت على السماعة جعلته يتذكر مدير المصحة، لدرجة أنه اعتقد لوهلة أنه مدير المصحة. ولكن من كان يهاتفه كان رئيس السجن الاحتياطى، لينقل له، قال، رجاء سجين هو يعرفه جيدًا، أكيد أنه ليس من الضرورة أن يقول له اسمه. كان يتحدث بمظهر من المدح المشكوك فيه، ربما كان الحسد المهنى. منذ أن تمكن من القبض على قاتل فاطيما كان المفتش قد لاحظ عند بعض الأشخاص إعجابًا فى الوقت نفسه مشكوكًا فيه ونوعًا من الحقارة لم يرحه كثيرًا، علاوة على ذلك كان غريبًا عليه.

- يريد أن يرى حضرتك فى أقرب وقت، مباشرة غدًا، إذا كان ممكنًا، يقول إنه أمر فى غاية الأهمية، مسألة حياة أو موت.

- هل يعرف محاميه بهذا؟

- ليس لديه محام الآن. كان لديه محام تركه الأسبوع الماضى. لا أحد يريد الدفاع عنه. أعتقد أنه كان عليهم أن يختاروا له عشوائيًا شخصًا من بين المجلس الإدارى لكلية الحقوق، لا أحد يريد أن يتورط معه.

فى الطريق، على بعد، عندما رأى مبنى السجن اعتراه شعور قوى جدًا بعدم الراحة، لم يكن المبنى مشيدًا من وقت طويل، أسوار بيضاء ومستوية وسط أرض بور، ليست ضاحية ولا ريفًا بالكامل، يوحى بالانغلاق والتعقيم. كان يمكنه ألا يذهب، ما زال الوقت سانحًا للعودة. ليس لديه أى شىء يتحدث فيه مع ذلك الرجل. أنهى عمله بعد حصوله على الاعتراف وجمع الأدلة، وحينئذ كان قد اعترته مشاعر من الضيق، الفراغ، والتفاهة بصفة خاصة: عندما كان يبحث عن القاتل كانت قد عظمت دون أن يدرك

ذلك أهمية مهمته، والآن، وقد انتهت لتوها، يقارنها بشكل غير إرادى مع انتشار القسوة والشر، مع ألم والدَى فاطيما الذى لا يخفف والفزع الذى كان قد رأه فى عينى بَاولا. لم يكن هناك مكافأة ممكنة، لم تكن هناك طريقة لإصلاح العار، لأخذ القصاص بحق، لمحو جزء من ضيق المعاناة. لم يبد له الشعور بالفخر، الزهو بالنجاح، غير لائق فحسب وإنما عدم احترام للضحايا.

«ولكن لا أحد يهتم بالضحايا»، كان يفكر: أما الجلاد فاستحق اهتمامًا أكبر، سرعان ما أحيط به الأخصائيون النفسيون فى إلحاح، أطباء أمراض نفسية، قسوس للاعتراف، أخصائيون اجتماعيون، تطارده حتى داخل السجن الصحف وتقدم له القنوات التليفزيونية المال حتى يحكى قصة حياته وجرائمه، وأن يمنحهم حق عمل فيلم أو مسلسل عن حياته. على الأقل لم يحصل على تكريم علنى، مثلما فعلوا فى الشمال، قال باشمئزاز وقلة حماس لسوسانا جراى، على الأقل لن يضعوا اسمه على شارع، لن يخرجوا صورته من الكنيسة ويتجولوا بها وهى مرفوعة كأنها راية دينية.

لكنه كان قد ذهب لرؤيته، كان هو من استدعاه ولبى هو طلب لقائه، كان يعبر النقاط الأمنية لسجن شُيد لتوه يعطى مظهرًا من التعقيم التكنولوجى مثل تعقيم المستشفى، ولكن فرضوا فيه بقوة شاشات المراقبة الإلكترونية، الحوائط البيضاء، الإضاءة غير المستخدمة للردهات، الرائحة الدائمة والقديمة لكل السجون، ضوضاء الخطوات والأصوات المقعرة التى لا تنسى، الأقفال، الأبواب المعدنية. دخل كابينة بيضاء بلا نوافذ، مغلقة وتكعيبية مثل زنزانة مشفى الأمراض العقلية، لها إضاءة تنعكس بكثافة متطابقة فوق كل الحوائط والأرض ولا تُشكل ظلالاً. كانت هناك مائدة فى الوسط، بيضاء أيضًا، مثلما هو الحال فى المكاتب الحديثة، ومقعد واحد فقط، على الجانب حيث يوجد المفتش. أمامه بالضبط كان هناك باب آخر وفوقه كاميرا فيديو صغيرة.

كان الموظف الذى يرتدى الحلة الرسمية والذى كان قد رافقه خرج وأغلق بهدوء الباب الذى كان فى ظهره. فوقه كانت هناك كاميرا أخرى. انتظر أكثر من دقيقة وهو يجلس على المقعد الوحيد، غير المريح، وهو يتخيل الشاشات التى يمكنهم أن يروه فيها الآن، ويكتشفوا حركات تلقائية يجهلها هو، الأشياء التى يفعلها الشخص عندما يمكث بمفرده. فتح الباب الموجود أمامه، ولم يكن قاتل فاطيما هو الرجل الذى رآه المفتش على العتبة.

افترض لمدة ثانية أن هناك خطأ، ولكن فى الوقت المناسب تجاوز الحركة التلقائية ووقف. تعرف على العينين رغم أنهما لم تكونا محقونتين بالدم بسبب ليال كثيرة من الأرق، لم يكونا غائرتين وكأنهما مختبئتان أسفل مظلة الحاجبين. الآن ينظر بصراحة مستعدًا أن يكون ودودًا ومهذبًا تؤكد عليها الأشياء الأخرى التى حولته إلى شخص لا يمكن التعرف عليه فى البداية، لم تكن فقط الحلة الداكنة وربطة العنق، والشعار الصغير الدينى فى عروة الحلة، الشعر قصير جدًا، الوجه مستدير وحليق بشكل ممتاز، وحتى وجهه أحمر تحت ضوء مصباح الفلورسنت. التفت وهو يومئ برأسه ليهمس بالشكر إلى الموظف الذى كان قد رافقه، تمسك يداه المتشابكتان معًا فوق بطنه بشىء، بكتاب أسود الغلاف وعليه أحرف ذهبية، إنه يُمسك بالإنجيل. حركة اليدين ترجع بلا شك إلى أنه كان مكبلاً بالقيود، ولكن كانت القيود بالتحديد هى أكثر الملامح غير المتماسكة على مظهره. كان لحركة أكتافه، فى الطريقة التى يميل بها برأسه بشكل خفيف إلى الجانب، فى المحافظة على قدميه بجوار بعضهما، وداعة علمانى تلقى تعاليم الدين، قداسة من تناول لتوه. لم تكن يداه حتى هى نفسها رغم القيود: كانت أكثر بياضًا، أكثر نحافة عن ذى قبل، وكانت أظافره نظيفة ووردية، رغم أنها كانت مقروضة، لاحظ المفتش أنه كان يقرضها بأسنانه وعندما أدرك كان عليه أن يعاتب نفسه ويخفض يديه، خبأها خلف غلاف الإنجيل.

ظل ساكنًا على الجانب الآخر من المائدة، متقبلاً بوداعة إهانة أن يظل واقفا. من حين إلى آخر كان يرفع رأسه بطريقة لا تدرك تقريبًا وينظر لمدة ثانية إلى كاميرا الفيديو، ربما كان يسأل نفسه عما إذا كانت تعمل حقًا. بحركات كهذه، خاطفة، أكثر سرعة من رمشة عينه، تعرف عليه المفتش، ظل مترقبًا. حتى الصوت كان قد تغير: كان ناعمًا جدًا مثل ذى قبل ولكنه أكثر قتامة، كأنهم أخضعوه أيضًا إلى نوع من النظافة الصحية، مثلما فعلوا مع الأيدى وأطراف الأظافر.

«كنت اعتقدت أن حضرتك لن تأتى» قال دون أن يبعد نظره عنه، «كنت أصلى من أجل أن تأتى، كنت أريد أن أقص عليك الحقيقة قبل أن أقصها على أى شخص آخر، فى النهاية أدين لك بالخطوة الأولى فى إنقاذى. كنت تعتقد حضرتك أنك ستكون أداة عدالة البشر ولم تدرك أن يد الله هى من ترشدك إليها. لم تكن تصدقنى وكان لديك كل الحق، لم أكن أقول الحقيقة. قلت لك إننى كنت من قتل تلك الطفلة، وإننى تركت الأخرى ميتة، وسألتنى حضرتك، لماذا فعلت هذا وقلت لك إن الذنب هو ذنب القمر، أتذكر جيدًا، ولم تقل شيئًا، ولكنى رأيت فى وجهك أنك لا تصدق كلمة واحدة مما أقول وقلت لى: لماذا البنات الصغيرات؟، لماذا لم تجرؤ مع النساء؟، ولم أجبك، لم أكن أعرف كيف أجيبك، بعد ذلك سألنى الأخصائى النفسى وقلت له لأن النساء يسخرن منى ويقلن إن قضيبى قصير جدًا. وهذا أعجب النفسيين، ولم يعجب حضرتك، خجلت أن أقول لك ذلك، طلبوا منى أن أعاود وأقص عليهم عندما كنت فى دش الجيش وكانت المياه شديدة البرودة وتقلص القضيب وكنت أقص عليهم، وقصصت عليهم حكاية العاهرتين اللتين سخرتا منى، أخرجت المطواة للأولى، الأكثر شبابًا، وفزعتْ بشدة حتى أنه لم يعد لها أى أثر، أما الأخرى، فقد فزعت بدورها، رغم أنها حاولت التصنع لأنها كانت أكبر سنًا وأكثر تجربة. ظلوا ينظرون إلىّ بجدية وهم يرتدون معاطفهم البيضاء ويحملون دفاترهم وطلبوا منى أن أقص مرة أخرى، لا أعرف كم عدد

المرات، هل عندما كنت صغيرًا كانوا يسخرون منى أو كانوا يضربوننى فى المدرسة؟ وهل كنت أخاف أبى كثيرًا ومتعلقًا بأمى؟، كنت أقول لهم نعم على أى شىء وكانوا يصدقون، لم يكونوا مثل حضرتك، لم يكن ليخطر ببالى أن أحكى لك شيئًا من هذا، ولكن أيضًا كنت أريد أن أخدعك، لأننى كنت أول من خدع، هذا يوجد فى الكتاب المقدس، كنت مشتتًا فى الظلمات، قلت لى لماذا قتلت فاطيما وقلت لك لم أكن أريد قتلها ولم أكن أريد أن أؤذيها، كنت أريد فقط ألا تصرخ، ونفس الشىء مع الطفلة الأخرى، ليس أكثر من تغطية فمها، وكل شىء كان كذبًا، حضرتك كنت تعرف ذلك جيدًا، لأن يد الله هى التى أرشدت، حضرتك كنت تعرف كمية الشر الموجودة بداخلى، قال لى ذلك زميل الدرس الدينى، من علمنى قراءة الكتاب، روحك بئر من القذارة، هذا ما قاله لى، ومعه حق، ولكن لن أستمر فى قول الأكاذيب، الآن أريد أن أقول لك الحقيقة».

تنفس، بلع ريقه، ونظر أقل من الثانية إلى المفتش دون وداعة، أخفض عينيه واحتضن الإنجيل بين يديه وسُمع صوت سلسلة القيود، مر بلسانه على شفتيه، ربما كان يشتاق إلى سيجارة.

«جاء ذلك المحامى وقال لى إن الأطباء النفسيين سيقولون إننى مجنون وإننى أعانى من تخلف عقلى وسيعلنون أننى لست مذنبًا، كما يقولون هم، ولكن بدا أنهم شهدوا أننى كنت مذنبًا، وقد سألت المحامى عن كيف حدث ذلك وأجابنى أنت مسئول عن أفعالك، ولكن بالنسبة لى كل هذا سيان، بالنسبة لى العدالة التى تهمنى هى عدالة السماء، وليس عدالة البشر، قال لى المحامى برغم أنهم سيقرون بذنبى لن أقضى أكثر من عشر سنوات فى السجن، ولكن بالنسبة لى كأنهم سيحبسوننى هنا حتى الموت، روحى حرة، رغم كثرة الجدران والزنزانات التى يضعوننى فيها، كما يقول زميل الدرس الدينى، أجمل شىء هو حرية الروح الحقيقية، لا يستطيعون وضع قيود القوانين البشرية على الروح. أنا أعرف أن الله شاء أن يحضروننى هنا وأن

تحبسنى حضرتك كما حُبس السيد المسيح فى بستان الزيتون كى تخلصنى مما كان يتملكنى، هذا ما كنت أريد إخبارك به، لذلك طلبت أن يتصلوا بك. لم أكن أنا من قتل تلك الطفلة».

أراد المفتش أن يرحل. نظر من الجانب فى اتجاه ساعته ولاحظ الآخر حركته. يجب أن ينهض حالاً، ويدير ظهره لتلك النظرة الثاقبة الخبيرة، لهذا الصوت الرتيب ويحاول أن ينسى كليهما للأبد. ولكنه لم يكن يفعل شيئًا، كان يجلس ويسمع فحسب، وينقر بشكل خفيف بأصابع اليد اليمنى فوق سطح المائدة البلاستيكية البيضاء التى لا تنعكس عليها الظلال، ضعيفاً أمام الصوت، والعينين واهتزاز الجسم الذى يتحكم فيه، الذى جعله يتذكر عندما كان طفلاً وكان يصعد إلى منبر خشبى ليجيب من الذاكرة على سؤال الأب أوردونيا فى الدين، وليكرر الإجابة بدقة كان يغمض عينيه ويتأرجح وهو يستند على قدم ثم على القدم الأخرى.

«لم أكن أنا، كانت يداى، كان جسدى ولكن لم أكن أنا. كان الشيطان. العدو. كان الشيطان قد استحوذ علىّ. اقرأ الكتاب المقدس. هنا يأتى تفسير كل شىء. أنا برىء. ليس للحجر ذنب فى الضرر الذى يسببه وإنما الذنب هو ذنب اليد التى تقذف به. حد السيف لا يقتل وإنما الشرير الذى يرفعه أمام أبناء الله. ألا تصدقنى أيضًا الآن، رجل قليل الإيمان، أرغب فى أن تتعرف على زملاء الدراسة الدينية، هم يحفظون الكتاب عن ظهر قلب، يمكنهم أن يشرحوا لك أفضل منى. من قبل كنت أنسى الأشياء، أو أننى كنت أريد أن أنسى نفسى ولم أتمكن من ذلك، كنت أظل مستيقظًا الليل كله أفكر. الآن يمكننى أن أتذكر كل ما فعلته يداى وليس علىّ أن أعانى، يمكننى أن أنظر إليهما دون خجل، رغم أنهما مقيدتان بعدالة البشر، كما كانت يدا سيدنا المسيح مقيدتين».

- هل هذا ما قاله لك المحامى لتحكيه فى المحكمة؟ حاول المفتش ألا يظهر غضبه كله ولم يرفع صوته أكثر من اللازم. هذا الشيطان القذر؟

كان الآخر يلاحظ فى هدوء، وهو ينتظر، واقفًا، ورأسه مائلة إلى الجانب قليلاً، وكتفاه مرفوعتان، بيضاء من قشر الشعر. مرة أخرى رفع ناظريه بسرعة صوب كاميرا الفيديو. يستمر فى التمثيل، يفكر المفتش، لا يمثل علىّ فقط وإنما يمثل على من يراقبون الصالة عن طريق الشاشات، لمن يسمعون صوته بعد ذلك ويعاودون النظر إلى وجهه فى شريط الفيديو.

«ولكننى هزمت العدو، هذا ما أردت إخبارك به، ستفهمنى، رغم أننى أفكر فى أنك لا تصدقنى. الآن يمكننى أن أتذكر كل ما فعلته، ما فعلته يداى، وهذا لم يعد يعكر صفوى، لم أعد أمضى الليل بلا نوم مثل ذى قبل، عندما كان يبقينى مستيقظًا، فى تلك الزنزانة، عندما كنت أسمع من بعيد صراخ أناس يريدون أن يقتلونى. أنا أيضًا كنت أريد أن يقتلونى. ولكنى أقرأ الكتاب الآن وأقول الصلوات وأغمض عينى وأنام، يحضر إلىّ ملاك الله رحمة النوم؛ لأن روحى فى سلام. أتعرف كم سنة عقوبة طلبها لى وكيل النيابة؟ تقريبًا خمسمائة سنة ولكن سيان إذا كانت ألف عام، لا يهمنى ألا يكون عندى محام، ليس علىّ أن أجيب أمام قوانين البشر وإنما أمام قانون الله، وهو يعرف أنه اختبرنى وأننى برىء، المجد لله، دائمًا المجد والعظمة لله».

وقف المفتش ورجع الآخر إلى الوراء خوفًا، بحركة آلية رغم ذلك لم تعكر هدوء عينيه الكبيرتين الخاليتين من الحياة مع حدة الفراغ أو العينين اللتين لا يسبر غورهما، فى العينين التى من الفسيفساء البيزنطى أو تلك التى فى الصور المصرية الجنائزية للعصر الرومانى التى أرته إياها سوسانا جراى فى أحد الكتب، مقارنة مع العينين اللتين ظهرتا فى الصور الفوتوغرافية التى نشرتها الصحيفة فى اليوم التالى للاعتقال.

- كم تبلغ من العمر الآن؟ وهو ينظر بثبات إلى حدقتى الآخر مثلما كان هو قد نظر إلى عينيه عندما دخل إلى الكابينة.

- ثلاثة وعشرون سنة، وحضرتك؟

- هذا ليس من شأنك.

- ألا تلاحظ؟ حضرتك فى سن أبى.

ستكمل عشرًا فى أقصى تقدير. الآن رفع المفتش صوته، أكثر خشونة من المعتاد، يرتعش تقريبًا من غيظ غير مجد لم يعرف أن يحتويه. بعد أن تتجاوز الثلاثين بقليل ستكون فى الشارع مرة أخرى وستفعل نفس ما فعلته هذه المرة، وإذا عادوا وأمسكوا بك ستمضى سنوات قليلة أخرى وستكون حينها رجلاً قويًا ومؤذيًا عندما يطلقون سراحك من جديد، إذا لم يرد إلهك أن تموت قبل هذا.

فعل الإشارة المتفق عليها فى اتجاه الكاميرا التى كانت أمامه. لم يكن يريد أن يرى هاتين العينين مرة أخرى. عندما كان عليه أن يشهد فى المحكمة بعد ذلك بعامين أو ثلاثة بعد الانتهاء البطىء للإجراءات التى تسبب الغضب، سيحاول ألا ينظر إليهما، سيحاول ألا يفكر فى أنهما كانا ينظران إليه. سمع الباب الذى كان خلف ظهره يفتح بسرية التكنولوجيا لسجن عصرى ونفس الموظف الذى كان قد رافقه يقف على العتبة، يداه متشابكتان، وفى عينيه تعبير محايد، أسفل مقدمة الكاب الذى به شريط للزينة، كأنه كان ينظر إلى الحائط الأبيض الذى أمامه، إلى الباب الذى فُتح بعد ذلك بثانية على الجانب الآخر. ابتسم السجين للمفتش عندما سمع صوت الباب وترك الإنجيل فوق المائدة.

- احتفظ به، قال. لقد أحضرته لأهديه لك. لعله يجلب لحضرتك الكثير من الخير كما فعل معى.

خرج دون أن يدخل أحد ليبحث عنه وأغلق الباب خلفه بهدوء، أحكم غلق الباب، وفى انعكاس ضوء مصباح الفلورسنت، بدا أنه لم يبق أى أثر لفتحة الحائط البيضاء الملساء.

٣٢

سُمع صوت جرس الباب بوضوح غامض فى المنزل شبه الخاوى الآن، ذهبت سوسانا جراى لتفتح معتقدة أنه ابنها، الذى كان قد نزل لشراء شىء من محل الطلاء والأدوات الحديدية، ذهب ليشترى شريطًا لاصقًا ليغلقا الصناديق الكرتونية الأخيرة المليئة بالكتب والأسطوانات. كان قد فاجأ كثيرًا سوسانا عندما صمم على النزول بنفسه ليطلب صناديق الكرتون من السوبر ماركت؛ لأن هذا كان جديدًا جدًا على ابنها الذى كان شديد الخجل وغير قادر على أن يتكلم مع الغرباء والتصرف بطبيعية فى حضورهم حتى وقت قليل مضى. كانت قد حفظت الكتب والأسطوانات وأغلقت وختمت كل واحد من الصناديق بمهارة يدوية مدهشة أيضًا وبطاقة جسدية شبه جديدة تقريبًا مثل تلقائيته ليطلب خدمة من السوبر ماركت. عندما رفع ابنها أحد هذه الصناديق، كان أثقل من الصناديق الأخرى لأنه كان يحتوى على جزء من أجزاء أحد الموسوعات، كانت سوسانا قد حملقت فى عضلات ذراعيه، الذراعين اللذين كانا نحيفين جدًا وبهما الكثير من الشعر، الآن مع علامات على عضلات وأربطة رجل، عضلات ذكر ناضج وكذلك القدمين الكبيرتين اللتين كانتا قد لاحظتهما بشىء من الفزع عندما خرج هذا الصباح من الدش، ملفوفًا فى البرنس الرجالى الذى لم تسأله لمن يكون، رغم أنها كانت متأكدة من أنها قد لاحظت الجديد فى مظهره، مثلما كانت قد رأت استخدامه للفرشاة وصابون الحلاقة ليهذب شعر الذقن اللذين كانا لا يزالان فوق حامل الزجاج، بين زجاجات الكولونيا وكريمات التجميل.

كان يفكك الأرفف مستخدمًا مفكات كانت توجد دائمًا فى صندوق عدة لم تستخدمها هى مطلقًا، فرح لأنه يصلح من عدم مهارة والدته اليدوية التى

كانت تحضر عرض مهارته الذكورية باسمة وغير مصدقة. قبل أن يحفظ الكتب كان ينظر بشكل من التقدير إلى بعضهم، وكان قد تحمس عندما وجد أسطوانات كثيرة أصبح الآن في سن مناسبة ليعجب بها؛ لأن ذوقه كان قد نما مثل قامته والآن يستمتع بإريك كلابتون[١]، بى بى كينج[٢]، ذا بوليس[٣]، أو بول سيمون، وكان يدهش ويشعر بالمدح لكون أمه تملك كل هذه الموسيقى، علاوة على ذلك اعترف وقدر الأغانى الحالية التى اكتشفها هو بنفسه؛ أغانى R.E.M[٤] وبصفة خاصة الأغانى التى كان قد أحضرها معه فى شريط وكان قد وضعها بمجرد وصوله.

كانت تسمع أغنية لإريك كلابتون عندما سمعت دقات الباب، وفكرت سوسانا فى أنها كانت تفضل أن يتأخر ابنها بضع دقائق فى العودة من محل الحدادة؛ لأن الأغنية كانت *Tears in Heaven* ولم تستطع أن تتجنب أبدًا عند الاستماع إليها أن تدمع عيناها. كانت قد سمعتها مع ابنها مساء أمس بينما كانا يفكان شيئًا فى المطبخ، وكان قد سألها عن معناها. «تحكى عن رجل مات ابنه ويريد أن يعرف كيف يكون اللقاء به فى السماء». عندما قالت هذا خشيت أن يفكر الولد أن الأغنية عبارة عن شيء ناعم جدًا، إذا عادت وأدارتها من البداية وترجمتها له بيتًا بيتًا. لاحظت فى خجل وسعادة أنه لاحظ تأثر صوتها وبدلاً من أن ينتقد فعلها أو يشعر بعدم الراحة بسببها، كان قادرًا على مشاركتها، ربما أحس أيضًا أن بالنسبة لأمه تشير كلمات الأغنية

---

(١) – إريك كلابتون (١٩٤٥) مغن وملحن وعازف غيتار إنجليزى. (ت)
(٢) – بى بى كينج (١٩٢٥) ملحن ومغن وعازف غيتار أمريكى. (ت)
(٣) – ذا بوليس كانت إحدى فرق الروك المشهورة فى ثمانينيات القرن الماضى. (ت)
(٤) R.E.M هى إحدى فرق الروك الأمريكية التى تأسست عام ١٩٨٠، عام ١٩٩٧ انفصل عنها عازف الدرامز، بيل بيرى، ثم أعلن حلها بصورة نهائية فى سبتمبر ٢٠١١. (ت)

إلى مشاعرها الخاصة بها من حنان وشعور بفقدانه. اكتشف هذا الآن، عندما كف عن العيش معها، كان يعجب بها سرًا لامتلاكها هذه المواهب، لارتدائها بطريقة غريبة قليلاً تبدو شبابية عن طريقة ملبس زوجة أبيه وأمهات أصدقائه، ربما لم تعرف أى منهن أن تترجم له من الإنجليزية الأغنيات التى تعجبه.

أصبح أطول منها، ولكن لم تنم رجلاه وذراعاه فحسب طوال السنة الدراسية الأخيرة وإنما نمت شخصيته أو روحه وأصبح تعبير عينيه أكثر صراحة من الذى كان عليه منذ بضعة شهور مضت، وأصبح لصوته حدة حاسمة ناضجة مثل حجم رجليه أو عضلات من يهوى الرياضة. كان شعره حليقًا جدًا عند القفا، مجعدًا كثيفًا فوق الجبهة والعينين، كان يرتدى بهذا الحماس المزدوج من الانفراد ومتابعة مجتمع من يبلغون الرابعة عشرة من العمر الذى كان قد بلغها لتوه: قميصًا كبيرًا، هدية منها، سروالاً من الجينز الأسود، حذاء رياضيًا أسود ضخمًا، وتضخم أكثر من حجم قدميه ويزيد من التوازن بين طريقة مشيه غير المنتظمة والمتعالية.

ولكن بصفة خاصة كان يتحدث، كان يتحدث إليها، كانا قد ظلا يتحدثان ليلة أمس حتى إلى ما بعد الثالثة، وهما يجلسان بجوار بعضهما، على السرير الكبير الذى كان أحد قطع الأثاث القلائل التى لم تزل بلا فك، كانا يتحدثان أو يستمعان إلى الأسطوانات، حتى أن الولد كان قد شرب كوب نبيذ أثناء العشاء وحمسه النبيذ على أن يكلمها عن صعوباته مع الكيمياء والرياضيات وعن حماسه لرواية *الصياد الخفى*(1) التى كانت قد أهدتها له فى

---

(1) الصياد الخفى هى رواية للكاتب ج. د. سالينجر، ظهرت عام ١٩٥١ رغم أنها ظهرت فى حلقات مسلسلة قبل النشر بسنوات قليلة. بطلها مراهق متمرد، سببت الكثير من الجدل بسبب جرأتها واقترابها من مشاكل سن المراهقة. (ت)

إحدى زيارات نهاية الأسبوع، كلمها عن أصدقاء وعن أفلام وأخيرًا عن زميلة فى الصف الثامن تعجبه كثيرًا، ولكن ربما لا يعاود رؤيتها لأنها ستنتقل للعيش فى مدريد.

«مثلى»، قالت. كانت سمعته يتكلم، كانت تنظر إليه، إنه شاب صغير وجاد، ذو شعر داكن وبثور فوق الأنف والجبهة، وصل لتوه إلى عتبة الحياة الناضجة، إلى ارتياب ورغبات الكبار، وفى الوقت نفسه طفولى أكثر مما يوحى به مظهره الجسدى: فى بداية كل شىء، مشت، فكرت، بشىء من الحب لم يكن نفس الحب بالضبط الذى كانت تكنه له فى الطفولة. كانت تلوم نفسها لإحساسها لمدة طويلة بالمرارة تجاهه، بالحقد والغيرة التى شعرت بهما عندما قال لها الولد إنه يرغب فى أن يعيش فترة مع والده.

لن تطلب منه الآن أن يذهب معها إلى مدريد. لا تفكر فى أن تنافس زوجها السابق فى الحيل والابتزاز العاطفى الناعم الأكثر لزوجة، ولكن أيضًا كان صحيحًا أنها ليس لديها رغبة ولا قوة لتغامر حتى تتلقى أى رفض. بعد الثالثة ذهب الولد ليرقد ومكثت هى دقيقة تدخن فى الشرفة وهى راقدة على السرير الهزاز، حافية القدمين تشبكهما فوق سور الدرابزين المعدنى، فى الهواء الهادئ والدافئ لليل يونيه. عند مرورها بعد ذلك بجوار الغرفة التى ينام فيها سمعته يتنفس ولم تقاوم إغراء الدخول لتراه على ضوء الردهة. كبير جدًا، يرقد فوق سريره الذى لا يسعه لأنه كان له وهو طفل، الآن له ثقل جسد رجل هزمه النوم، وأثر أخير للضعف أو للطفولة فوق الشفاه شبه المفتوحة وفى الجفون التى أغمضت فجأة بسبب الضوء بينما يبتلع ريقه ويقوم بضوضاء المضغ. لم تنحن فوقه لتقبله خوفًا من أن توقظه.

جعلها الدق على الباب تبتعد عن الموسيقى وعن تفكيرها فى الليلة السابقة. دق الجرس مثلما كان يدق منذ ثلاث عشرة سنة مضت فى الشقة

الى اشتراها لتوهما حيث بدأا يستقران بعد أن وقّعا إيصالات لا حصر لها حيث سينتهيان من دفعها مع بداية القرن الحادى والعشرين: كل شىء خاو من جديد بالكاد دون شىء آخر سوى جهاز الموسيقى، صناديق الكرتون، السرير الكبير وسط غرفة النوم بلا خوان السرير ولا الستائر، مع مصباح معلق فى سلك ملتو وملطخ بالطلاء. كل شىء ولا شىء فى فترة تجاوزت عشر سنوات، كمية الأشياء غير المفهومة التى تتكوم دون هدف طوال الحياة، أكوام الأوراق والأشياء غير المفيدة، الأحذية القديمة، الملابس المنسية، الصور الفوتوغرافية، قصاصات الصحف، الوثائق الرسمية، بطاقة التطعيمات لابنها، شهادة المعلمات، كراسات بها محاضرات، كتب عن صناعة الفخار أو عن الماركسية خاصة بزوجها السابق، جواز سفر انتهت صلاحيته منذ سنوات طويلة مضت. نظفت المنزل وباعت كل الأثاث تقريبًا وأبقت فقط على بعض الأشياء التى تحبها أو التى تحمل لها ذكريات لا تريد التخلى عنها، كانت تنظف حياتها أيضًا، كانت تبسطها وبدا لها أنها تحمل إليها هواء جديدًا وتجعلها أكثر انفتاحًا وأكثر رحابة مثل منزل خاو طلى لتوه. بين الأشياء غير المنتظرة التى وجدتها كان الشريط التعريفى الذى كانوا قد علقوه لابنها فى أحد كعبيه فى المستشفى الذى ولد فيه. وهى ترى الولد يغلق بنشاط غطاء الصناديق بالشريط اللاصق كانت قد تذكرته عندما كان عمره سنة ونصفًا فى اليوم الذى سلموهما فيه مفاتيح الشقة وبدءوا يضعون فيها الأشياء وينظفونها. الطفل الذى كان سمينًا وأشقر كان لا يزال يسير غير آمن، وهو يرتدى مريلة من الصوف وسترة صوفية وحذاء برقبة أخضر اللون، كان يسير فى الغرف يحمل منظف الزجاج وقطعة قماش، منشغلاً وهاويًا بتقليد والديه، ويضع الحلمة فى فمه يتنفس عن طريق الأنف.

أوقفت الموسيقى قبل أن تفتح الباب: فكرت بينما تتجه صوب الباب، لاحظت أنه حتى فى طريقة دق الجرس بدأ ابنها يكون ناضجًا. فى الوقت نفسه الذى كانت تفتح فيه بالفعل كانت قد بدأت تلتفت بسرعة من يُفترض أن

يكون من وصل لتوه؟، وكانت تريد استئناف فى أقرب وقت مهمة كانت قد توقفت، ولكن لم يكن ابنها هو من فتحت له. كان المفتش على العتبة يرتدى حلة فاتحة اللون وفى عينيه تعبير بعدم الثقة وبعدم الحماية تقريبًا كأنه خائف ألا تتركه يدخل.

- غير معقول! كان يمكنك أن تتصل قبل أن تأتى. قالت. ورفعت يدها إلى شعرها بشكل تلقائى، ربما لا تكون فى صورة لائقة، مع قلق أنها لم تكن قد مشطت شعرها، ولم تضع أحمر شفاه. كانت ترتدى أحد قمصان ابنها، وسروالاً من الجينز قديمًا وخفًّا أبيض من القماش. لم تكن تستطيع أن تعرف أن ملابس الصيف هذه وهذا المظهر المهمل جعله يتوتر بعد عدة أسابيع دون أن يراها، لا تعرف إلى أى حد تحركه الرغبة. تقدم ليقبلها بنفس الريبة الكبيرة التى ظهر بها على الباب دون أن يتقدم خطوة إلى الداخل، وهو يكتشف فجأة بشكل من التخلى والإنذار، الحوائط البيضاء والفارغة والصناديق المكومة على الأرض.
- لم تخبرينى أنك سترحلين.
- لم تسألنى.

سمعوا صوت المصعد يصعد وظهر الولد أمامهما حيث لم يكونا قد تحركا. لاحظت سوسانا عدم راحة المفتش الذى شعر بالإحراج بسبب ابنها، غير قادر على تلقائية رد الفعل فى وجود الابن، بسرعة شديدة، فى ثانية، كان قد تنبأ الابن من يكون هذا الرجل، وبعد أن تبادل نظرة مع أمه، طلب منها مال ليذهب لشراء شىء آخر يحتاجه، حبل أو ورق للتغليف.

- هذا بابلو. قالت سوسانا وهى تستمتع بداخلها بالطريقة الرسمية التى مد بها المفتش يده لابنها، مع غضبها بسبب صرامة أفعاله. اسمه بابلو مثل بابلو نيرودا ومثل بول سيمون، خمسون بالمائة لكليهما.

قال الفتى وداعًا وهبط السلم مع ضوضاء الركض.

- أتفكر فى الدخول؟ تنحت سوسانا إلى أحد جانبى الباب. تقدم المفتش عدة خطوات صوب الصالون وظل ينظر الحوائط حيث تبقت فقط الأماكن الفاتحة التى كانت خلف اللوحات المعلقة وظلال قطع الأثاث التى فكت لتوها باعتبارها انطباعات سلبية. سيطر عليه ضيق الوداع الذى لا يمكن علاجه، الذى أصبح أشد لأنه لم يكن يعتمد عليها. كأنه ظل مشلولاً دائمًا، على حافة قراراته وأفعاله، كان يعتقد أن العالم والزمن سيوقف أيضًا فى انتظار أفعاله والآن يدهشه كثيرًا أن يكتشف أن الأمر ليس كذلك، إنه كانت تقع أشياء فى الأسابيع التى لم يهاتف فيها سوسانا ولم يذهب ليبحث عنها ولم يكف عن التفكير فيها وافتقادها بينما يساعد زوجته فى التأقلم على الحياة الجديدة، فى المنزل المؤجر الذى لم تكن قد رأته إلى الآن.

- كم يبلغ عمر ابنك؟

- سيكمل الخامسة عشرة من العمر.

- لا يمكن تصديق ذلك.

- الآن الأولاد يكبرون بسرعة جدًا.

- الأمر ليس هذا – لأول مرة يبتسم المفتش منذ وصوله. لا يصدَّق أن يكون لك ابن كبير هكذا. أنا دائمًا أفكر فيك وكأنك شابة صغيرة، ولستِ أمًّا لمراهق أطول منى.

- ليس معقولاً، أنت تريد مجاملتى.

- لست أجاملك، أكثر ما يعجبنى فى الحياة هو النظر إليك. فى عين المفتش كانت هناك لمعة، دليلاً على ما يقوله. حدث لى شىء غريب معك، أدركت ذلك فيما بعد. أول مرة أراك فيها فى المدرسة لم تظهرى أمامى

شابة. أعتقد أننى كنت أراك كما يتخيل الشخص منا المعلمات، امرأة متوسطة العمر، فى الأربعين. بعد ذلك فى كل مرة كنت أقابلك فيها بدا لى أننى أكتشف أنك فى الحقيقة أكثر شبابًا من المرة السابقة. ربما لأننى تعلمت أن أحملق، كما تقولين.

- أو أننى كنت أهتم بمظهرى كثيرًا لأعجبك.

- فى ذلك المكان، فى «جزيرة كوبا»، عندما عدت من الحمام رأيتك شابة أكثر من أى وقت آخر. لم يبدُ أنك تبلغين أكثر من نيف وعشرين سنة.

- كان النور مطفأ.

- ولكن كان القمر بدرًا.

كان كلاهما أمام الآخر، فى وسط الصالون الخاوى، دون أن يقترب كثيرًا ودون أن يرجع خطوة للخلف. لم يكن هناك ما يجلس عليه. وفى المطبخ لم يتبق شىء يتناوله. يا للعبث!، فكرت سوسانا. تجده أمامها ويصبح كل شىء صعبًا جدًا؛ لأنه لم يتبق ولا كرسيان حتى للجلوس عليهما.

- آسفة. قالت، وهى تبحث عن نغمة لوضع مسافة. لم يتبق لى شىء. لا كوكاكولا ولا كرسى. ولا كوب حتى أضع لك قليلاً من الماء. كيف حال زوجتك؟

- بخير، أفضل حالاً. أخفض المفتش عينيه وبلع ريقه قبل أن يتكلم من جديد. – ولكنى لم آت لأتحدث عنها.

- لا أستغرب ذلك، لم تفعل ذلك قط. أفترض أنك تفكر فى أن السكوت عن الأشياء يجعلها تختفى. هذا يفعله الأطفال الصغار الذين يغمضون أعينهم ليمحوا ما يخيفهم، يفكرون فى أن الشىء الذى لا يرونه لا يوجد. ولا هاتفتنى طوال شهر ونصف. قرأت فى الصحيفة أنك ستنال ترقية لأنك

أمسكت بقاتل فاطيما واشتريت زجاجة نبيذ بيجا سيسليا لأحتفل بها معك، ولكن عندما مر أسبوع ولم تهاتفنى هاتفت فيريراس وشربتها معه. أعلن عن حبه مرة أخرى. فى كل مرة نشرب فيها سويًا أكثر من كأسين من النبيذ يعترف لى بحبه. وضعت له أغنية لكيرت ويل تغنيها لوريت لين[1]:

مسكين يا قلبى الأحمق

تهرب ممن يحبك

وتبكى على من يهملك

- حكى لى فيريراس أنه كان معك. كنت أموت من الغيرة.
- أيضًا لا تموت كثيرًا، فى الحقيقة، عندما لم تهاتفنى. تفكر فى أنك بالسكوت عن وجودى والتصنع بأنك لم تتعرف علىّ سأختفى؟
- كانت زوجتى قد خرجت لتوها من المصحة. لم يبد لى صوابًا أن أهاتفك.
- لم يبد صوابًا بالنسبة لمن؟ لأجلها أو لأجلى؟
- سوسانا، من فضلك.

كان يروق لها أن ينطق اسمها والطريقة التى يقوله بها، ولكنها لم تكن تفكر أن تستسلم لنظرات الندم وعدم الحماية، لن تصمت عن شىء الآن.

- أنسيت كيف كنت عندما خرجت من هذا الباب الليلة التى أمضيناها صامتين فى الظلام، دون أن نفعل شيئًا، كأننا عاجزان، دون أن نستطيع النوم؟ ولا حتى قلت لى إنها ستخرج فى اليوم التالى.

---

(١) **كيرت ويل** (١٩٠٠ ــ ١٩٥٠): ملحن ألمانى، ترك ألمانيا مع زوجته المغنية لوريت لين ومنذ عام ١٩٣٥ استقرا فى الولايات المتحدة الأمريكية. (ت).

- كنت سأخبرك به تلك الليلة.

- كنت قادرًا على ألا تخبرنى به أبدًا، إذا لم أكن أنا من وجد خطاب المصحة. تركته ونسيته فوق خوان السرير. شعرت بالسوء كأننى وجدت خطابًا من امرأة أخرى.

- كان لدىّ التزمات تجاهها.

- ألم يكن لديك التزمات تجاهى؟ ألا يضطرك لشىء النوم مع امرأة لمدة ستة أشهر؟

- لا أصدق أنك تقولين هذا. إن وجودى معك ليس له علاقة بأى التزام.

- يا لسوء حظى فى الحياة! لا أحد يشعر بأن عليه واجبًا تجاهى. لا أحد يظل معى للواجب، أيضًا ليس هناك سبب آخر حتى يظل أحد بجانبى، لذلك من تبقى وحيدة هى أنا، هذا نعم، دون أن يُخلق عند أحد شعور بالذنب ولا بالندم، باختلاف زوجتك أو زوجى السابق. أنا فرصة، المهجورة المثالية. يناسبنى المرض، أو وجه معذب مثل الذى يضعه أبو ابنى؛ لنرى إذا كان أحد يشعر بالتزام بشىء نحوى. اللعنة، أتشعر بالذنب الشديد صوب امرأتك؟، ألم تشعر بالذنب ولو مرة واحدة تجاهى فى كل هذه المدة؟

أدارت له ظهرها، لم ترد أن يراها تبكى وبالأحرى ألا يعود ابنها ويجد الدموع فى عينيها وأنفها أحمر. فى غرفة النوم، تحت الوسادة، كان لديها كيس مناديل ورقية. جلست على السرير حتى تمسح عينيها ثم تنفست بعمق بعد ذلك وعندما أبعدت يديها عن وجهها كان هو على العتبة، بنفس السلوك الذى كان عليه منذ دقائق مضت؛ عندما فتحت له ولم يجرؤ على التقدم إلى الأمام وترك العتبة. فكرت فى أن لكل شخص فينا رسمًا، حركة واحدة فقط تحدده، وكان هذا هو ما يحدده بالكامل: واقفًا على باب، دون أن

يقرر القيام بالخطوة التالية، بسبب عدم الثقة أو الخوف من ألا يكون مقبولاً، أو ربما، فى قرارة نفسه، لنقص الاقتناع الحقيقى، الدافع البسيط للعيش. كان ينظر إليها هكذا فى آخر يوم، آخر صباح، وهى تضع أحمر الشفاه وتزين عينيها أمام مرآة الحمام تريد أن تمحو آثار الليلة السيئة وهو يقف على الباب مائلاً بشكل خفيف بجانبه ينظر إليها برغبة عارمة وفى نفس الوقت باستعداد ممتاز للتخلى عنها كأن حقًا لا يكلفه كثيرًا الرحيل ولا حتى فقدانها. يتذكر، كان يرتدى ملابسه، حليق الذقن، ممشط الشعر، يرتدى ربطة عنق وسترة داكنة مناسبتين حتى يذهب إلى المصحة ومستعدًا أن يطيع بكل دقة القواعد التى بفضلها هى فقط، بفضل سوسانا، كان يقول إنه تحرر.

- انظر إلى ابنى عندما كان عمره ستة أشهر. وقفت، شجاعة من جديد، استردت روحها وهى تريه صورة كانت قد وجدتها بين الأوراق مساء أمس ولم تتعب من النظر إليها، كانت قد تركتها على خوان السرير قبل أن تنام. كان أكولاً جدًا وكان يضغط وجهه كثيرًا إلى صدرها وتقريبًا لا يستطيع أن يتنفس.

رأى المفتش سوسانا، لم تكن شابة صغيرة السن وإنما فى مرحلة عمرية أخرى سابقة من حياتها، رآها تقريبًا مراهقة بوجه أكثر استدارة من الآن دون الخطوط المحددة للأنف والذقن، دون انتفاخ منطقة تحت العين، شعرها طويل وخصلة شعر متدلية باستقامة فوق العينين، ترتدى بطريقة ليست فقط قديمة وإنما بطريقة ساذجة، ترتدى قميصًا أبيض ذا رقبة عريضة ومطرزة، تنورة طويلة وصندلاً من الجلد. يفضلها الآن، ناضجة من أثر الزمن، تشكلت نتيجة ذكاء وتعلم السنوات. فى الصور كانت ترضع الطفل الذى كان ذا وجه أحمر مستدير ومغمض العينين.

- لم أرد أن أخبرك - قالت سوسانا - بالتحديد فى تلك الأيام كنت أعتقد أننى حامل. أفزعنى هذا، فكرت فى أن العالم سينهدم فوق رأسك إذا وصلك هذا الخبر، ولكن إذا كنت تريد منى الحقيقة أصابنى الإحباط المميت عندما استيقظت ذات صباح وكانت قد أتتنى الدورة الشهرية. ألم تتوقف للتفكير فى أن يكون لنا طفل أو أنه كان يمكننا أن يكون قد ولد لنا طفل؟ تقول السيدة منا إن هناك أشياء محددة قد انتهت من حياتها وفجأة تكتشف أنه يمكنها إن تبدأ. أبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، ما زلت فى العمر المثالى لأحمل. ولكن قل لى شيئًا، لا تنظر إلىّ هكذا، ألا تفكر فى أن تقول لى لماذا أتيت؟

- لأطلب منك ألا ترحلى. ضمها المفتش بحركة مفاجئة. - لا أستطيع العيش بدونك.

- تأخرت قليلاً، ألا تعتقد ذلك؟. حاولت أن تتحرر من العناق ولكنه لم يتركها - لو كنت قد طلبت منى ذلك منذ شهر لما كنت قد شككت فى البقاء حتى لو كنت قد استمررت مع زوجتك لما كنت قد ضغطتُ عليك، ولكننى لا أقترح عليك أن تجعلنى حبيبتك الثابتة. كل ما أريده من هذا هو أن أقول لك إننى كنت أحبك.

- أنا أيضًا كنت أحبك.

- كنت؟

- وما زلت. أتيت لهذا السبب.

انفصلا عندما سمعا أن المصعد يقف بالقرب من الشقة. ولكنه عاد وواصل الصعود ولم يدق جرس الباب.

- ولكن فى هذا الوقت أدركت أنه يروقنى كثيرًا العودة للعيش فى مدريد. قالت سوسانا. جئت هنا لأتبع رجلاً ومكثت نصف عمرى، والحقيقة أننى لا أريد الاستمرار دون أى سبب آخر سوى أن أكون بالقرب منك. والدى سعيد جدًا لاستقبالى من جديد فى منزله. منذ أن ماتت أمى لم يجد من يؤنسه وسأضع نظامًا محددًا فى حياته. هو قوى وشديد الاستقلالية وأرى أنه لا يزال ناجحًا عند النساء مثل النجاح الذى كان يلاقيه وأمى على قيد الحياة؛ لذا أعتقد أنه لن يكون ثقيلاً معى. له شقة كبيرة فى شارع إيبثا تتسع لكل كتبى وأسطواناتى وقطع الأثاث القليلة التى لم أبعها. هو مسكن من مساكن الطبقة الغنية، كما يقول زوجى السابق كان يجعلنى أشعر بالخجل من العيش فى ذلك المكان الذى يروقنى كثيرًا. تعبت جدًا من هذه المدينة ومن هذا العمل. لم يعد التدريس حلمى، فقدت قوتى، علاوة على ذلك ليس الزمن جيدًا لممارسة هذا العمل. من المحزن أن ترى كيف يكبر الأطفال ويصبحون حمقى، الأطفال الذين علمتهم القراءة والكتابة، كيف يتعلمون سريعًا فقدان الخيال والذكاء وخفة الظل، ويصبحون كبارًا أفظاظًا. بنصف المجهود يمكن أن يصبحوا ظرفاء ومثقفين، ولكن لا يشجعهم أحد على ذلك، وأكثر من لا يشجعهم هما والداهم وتقريبًا لا أحد منا. هل أخبرتك أنهم أعطونى مكانًا فى إحدى مدارس "ليجانيس"؟ سأخرج وأرجع إلى مدريد فى القطار كل يوم، ولكن أريد أن أقوم بأشياء أخرى أكثر من ذلك، أريد أن أنتهى من رسالة الدكتوراه وأبحث عن عمل آخر إذا أمكننى، سيكون لدىّ فى مدريد فرص أكثر من هنا، المدينة نفسها ستجبرنى على أن أكون أكثر يقظة. أريد أن أعود للتنزه فى "الريتيرو" صباح أيام الأحد، وأذهب لسوق "الراسترو" ومتحف البرادو، أتناول بيرة أو بيرمو وقت الظهيرة فى

ميدان سانتا آنا[١]. لست مستعدة لأن أتقاعد، لن أمضى بقية حياتى أتناول الإفطار: نيسكافيه مع بسكوت، وأتدفأ بمدفأة كهربية فى قاعة استراحة المعلمين. أنا أحبك كثيرًا وأفتقد ابنى كثيرًا عندما تمر أيام دون أن أراه، ولكننى لا أستطيع الحياة وأنا أنتظركما، متوقفة على ما يقرره كلاكما.

- أعطينى وقتًا. قال المفتش. لا تعطينى وقتًا كبيرًا إذا لم تريدى، أعطينى مهلة.

- أنا لا أعطيك إنذارًا. لن أجبرك على فعل أى شىء. ألم يستوقفك التفكير فى أنه ربما لا تهتم زوجتك بالاستمرار فى الحياة التى عاشتها معك طوال كل هذه السنوات؟ أنت تعرف الآن عيبى، أننى دائمًا أنظر إلى الأشياء من جانب من يكونٍ أمامى. ربما يناسبك أن تقول لها ذات مرة ما تفكر فيه وما تشعر به حقًا.

احتضنها مرة أخرى وهو يضمها بقوة شديدة باحثًا عن فمها، البشرة الناعمة لخصرها أسفل القميص، تقتله الرغبة، مع حاجة جنسية عاجلة لرجل أكثر شبابًا منه، لمن ذاق حقًا منذ وقت قليل فقط ما كان لا يعرف أنه موجود والآن لا يعرف أن يعيش دون هذه العذوبة. كان يدفعها صوب السرير ولكن فضلت هى أن تتحرر منه بينما لا تزال تسيطر على نفسها، الولد سيصل فى أى لحظة، قالت، لا زالت قانعة، يرضيها عشقه، ووجهه المضطرب عندما ابتعدت عنه.

- ألا يمكنك البقاء بضعة أيام؟

---

(١) ليجانيس هى إحدى ضواحى مدريد، والريتيرو هو حديقة كبيرة تقع فى وسط مدريد بها بحيرة وقصر به مرايا ويقام به سنويًا معرض الكتاب، والراسترو هو سوق يقام كل أحد فى مدريد تباع فيه أشياء جديدة وأشياء مستعملة من كل المنتجات. (ت)

- إذا مكثت من الممكن ألا أرحل أبدًا. فى الوقت الذى كانت ترفض فيه بهمة بحركة من رأسها أشارت سوسانا بحركة من يديها إلى الحوائط الفارغة: بالإضافة، لم يعد لى شىء هنا.

- أترحلين اليوم؟

- هذا المساء. أريد أن أصل إلى مدريد قبل أن تمسى. لا أستطيع أن أصدق، بعد سنوات كثيرة قابعة هنا ولا ينقصنى سوى أربع ساعات أقود السيارة لأعود إلى مدينتى.

صحبته إلى الباب ولم تمنحه احتمال أن يقول وداعًا بطريقته البائسة التى فعلها مرات كثيرة، فى وداعات كثيرة لا يمكن غفران مرارتها وشللها. قبلته وهى تفتح فمها كثيرًا وهى تتذوق شفاهه المبللة باللعاب، تبعثر شعرها عندما ابتعدت عنه. أغلقت الباب واتجهت سريعًا إلى الشرفة حتى تراه أسفل، فى الشارع، على بعد ثلاثة أدوار وفى الضوء القوى لظهيرة شهر يونيه. كان فى مقابل المنزل، ناحية الظل شاب يرتدى نظارة، نظر إلى أعلى وسرعان ما أبعد عينيه، بلا شك كان قد لفت انتباهه صوت الشباك المعدنى فى صمت الشارع. نسيته عندما رأته يخرج من باب المبنى؛ الرأس الأشيب الشامخ، الظهر القوى أسفل أكتاف السترة القماشية فاتحة اللون، التى كانت قد اختارتها له بنفسها، كانت آخر شىء اشترته له قبل أن يتوقفا عن رؤية بعضهما. من بين آلاف الرجال تميز طريقة المشى هذه، ذلك النوع من الضيق النشيط الذى يتحرك به. فى بضع ثوان سيختفى عند ملف الناصية. كانت ستغلق النافذة ورأت أن الشاب الذى يرتدى النظارة لم يعد على الرصيف المقابل. كان قد عبر الشارع ينظر يمينًا ويسارًا على جانبى الشارع، كان يحمل شيئًا فى يده اليسرى. كان يسير مسرعًا جدًا وسرعان ما لحق بالمفتش، رغم أنه لم يصل إلى صعود الرصيف، كان يمشى تحت حافة

الرصيف، قام بحركة غريبة، رفع شيئًا، الشيء الذى كان فى يده. حينئذ فهمت سوسانا جراى، فجأة بدأت تصرخ بقوة صرخةً هزت هواء الشارع الساكن ودمرت حنجرتها، منعتها تسمع صوت الطلقة الأولى.

٣٣

في جزء من الثانية كان قد التفت قبل أن يسمع الصراخ ليس لأن صوت الخطوات التى تقترب منه من الخلف حذره، كانت خطوات سرية لنعل من الكاوتش، لحذاء رياضى رآه بعد ذلك فوق الأرض الملطخة بالدم: كان الظل هو ما أخافه، الظل المعوج الذى يستطيل ناحيته فى الطريق، على يمينه والذى أيقظ فيه، مثل البرق، غريزة المراقبة والخطر الخامدة فى الآونة الأخيرة، والمنسية تمامًا فى هذا الصباح، عندما خرج من باب سوسانا جراى وهو يفكر فى الضرورة التى لا يمكن تأجيلها، فى الحقيقة والشجاعة ليس خائفًا أن يهزمه الجبن ولا الندم الشخصى الشديد أو الفروض الاجتماعية وإنما بشىء أسوأ بكثير، أكثر تسممًا وأكثر تأصلاً فيه، استعداده للتقبل، للتأجيل، عادته لتقبُّل الموروث كأنه شىء لا يمكن علاجه، وتقبل الصمت وعدم الفعل. خرج من الظلام البارد للباب وجرحت الشمس عينيه وبدأ السير على الرصيف يقاوم إغراء الالتفاف ورفع بصره صوب نافذة الطابق الثالث حيث دون أدنى شك ستكون سوسانا جراى، يتذكر تحذيرات زياراته الأولى، حماقته فى التخفى وعصبيته التى تتسبب فيها نظرات جاراتها. خرج وهو يفكر فى سوسانا التى كان قد ضمها الآن بيأس خوفًا من أن يفقدها والتى كان قد رآها فى الصورة التى مر عليها أربعة عشر عامًا، كان شعرها طويلاً ولها خصلة شعر متدلية فى استقامة، امتلاء تحت العينين، ترتدى قميصًا مفتوحًا يطل منه ثدى صغير ومستدير يرضع منه بمشقة الطفل ذو الشهور الستة. لم يخفّ بعد ضغط الرغبة الجسدية: خرج من الباب مطأطئ الرأس، دون أن ينظر على جانبى الشارع، بعيدًا عن ضوء الصيف الشديد، معاديًا للضوء، خامد الهمة، يتملكه وازع داخلى يمكن أن يكون فى الوقت

نفسه سعادة وحسرة، من الاستسلام والحماس تغذيه قوة عصبية مطابقة للقوة الخاصة بالأصبحة الأولى التى كان يستيقظ فيها وهو خال من الكحول والدخان. خطا خطواته الأولى على الرصيف ولم يلتفت لينظر ما وراءه كما يجب أن يفعل وكما كان يفعل دائمًا، لم يراقب جهة اليمين، الذى كان الأضعف لأن جهة اليسار كان يحميها الحائط، الذى كان يسير بالقرب منه، يدخل ويخرج فى المناطق الصغيرة لأفريز وغطاء المنازل. سمع الصرخة ولكن قبلها بجزء من الثانية، جزء من نظرته لا يسيطر عليها الوعى كانت قد أدركت شيئًا تافهًا ولا يخيف بشكل كامل، ظل يقترب من ظله وربما كان قد سجلت مسامعه أيضًا احتكاك نعل الكاوتش بالأسفلت، واهتزاز الهواء بسبب أحد يسرع ويتنفس بصوت عال. ولكن كانت الصرخة هى ما أيقظه من تقوقعه على نفسه وكان محتملاً أنه إذا لم يبدأ بالالتفاف والإحساس بالخطر لما وصل إلى معرفة الذى كان على وشك أن يحدق به، وربما كان قد مات دون أن يدرك حتى أنه سيموت: كان الفارق أقل من ثانية ولكن هذا الوقت استوعب كل شىء، يستوعب جزءٌ من الثانية صغيرٌ للغاية لما كان يمكن قياسه بالكرونومتر الحياة والموت بالكامل، آخر طوفان للذاكرة وانفجار للنسيان، أثر الرصاصة التى تخترق الجلد وتحرق الجلد وتدمر العظم وتوقف القلب، حركة يد ترفع وهى تمسك بمسدس على مستوى القفا ووجه يلتفت ويد أخرى مرفوعة وتنبسط كأنها لا تريد أن تضرب الشمس عينيه. سمع المفتش الصرخة وفى فقاعة بطيئة جدًا من الوقت ساكنة داخل بعض أعشار الثانية رأى وجهًا قريبًا جدًا يفصله عنه، فقط طول الذراع الممتد حتى ترتاح فوهة المسدس فوق قفاه. بحث عن عينيه، تذكر أنه كان قد رأى عينين فاتحتين خلف نظارة ذات إطار رقيق، وفوق هذا الوجه وجه قاتل فاطيما رغم عدم تشابههما فى أى شىء فيما بينهما، مثلما توضع أجزاء ممكنة للعبتين فوق بعضهما فوق ألواح شفافة عندما يحاول الحصول على صورة آلية. رأى بكل وضوح وبكل التفاصيل كأنه يفحص صورة فوتوغرافية أو لوحة،

وجه شاب، حليق بشكل ممتاز، ذقن عريض، شفاه صارمة، نظرة هادئة، أعين ليس بها أى تعبير ومباشرة خلف زجاج تلك النظارة التى بلا شك كانت نظارة ماركة، كان إطارها مذهبًا رقيقًا حيث لمع ثانية فى الشمس. فكر بشىء من الدهشة، بهدوء غير متوقع «أهذا هو الوجه الذى كان سيقتلنى؟». وداخل هذه الثانية التى لم تصل إلى النهاية فهم أن الإحساس الحقيقى لاقتراب الموت فقط يمكن أن يعرِّفه من يكون قد أوشك على الموت، وأنه ولا إحساس آخر فى الحياة يشبهه أو يعلن عنه: الهدوء، الدهشة، التوقف الصامت للوقت.

ولكن الصرخة، التى كانت قد حذرته، أضيفت إلى صوت الطلقة الأولى حتى تكسر اللحظة الساكنة وتوقظه من غفلته، من قدرية الموت. عندما قامت يده اليمنى بحركة لحماية الوجه كانت قد صدمت الذراع المتصلب الذى كان يمسك بالمسدس، والطلقة التى فى جزء من ثانية من قبل هذا كانت قد حطمت رأسه دون أن يصل هو لمعرفة أنه سيموت، هشمت بشكل كارثى زجاج واجهة أحد المحال. بدأ فى الركض ولكنه أدرك أنه لن يمهله الوقت ليصل إلى الناصية، ارتمى على الأرض وتدحرج بحثًا عن مأمن بين السيارات المتوقفة وهو يحمى رأسه بذراعيه المتشابكتين فوق الوجه. عد كل واحدة من الطلقات الثلاث التى تتابعت مندهشًا من أنه لا يشعر بألم، من أنه لا يزال حيًا ليواصل الاستماع والزحف دون أن يصل أبدًا إلى حافة الرصيف حيث توجد السيارات، حيًا كى يشم رائحة متفجرات ويرى فوق أسمنت الرصيف نعلاً أبيض ملطخًا بالدم. «لقد اقترب الآن كثيرًا كى يقضى علىّ ولكن لن أسمع هذه الطلقة» فكر بجلاء يشبه تلك البدايات العقلانية الخاطفة التى تظهر أحيانًا وسط حلم. أراد أن يرفع وجهه من فوق الأرض كى يرى مرة أخرى من سيقتله ولكن لم تواته القوة، ظل يتنفس وفمه مفتوح فى مقابلة الحجر الذى يحرق وسمع ضوضاء معدنية ومألوفة،

زناد مسدس محشور وبعد ذلك احتكاك خطوات تذهب. ووجهه فوق الأرض يسمع كل شيء بقوة، الخطوات ودقات القلب، خطوات ودقات تسمع فى نفس الوقت فى عمق الأرض وفى الجسم الجاثم فوقها. الآن يتحول كل شيء إلى غابة من الخطوات، وخفقان قلب وظلام به حمرة، لأصوات توصل إلى أن يميز صوتًا واحدًا فقط من بينها، فى الوقت نفسه الذى عرف فيه ملمس اليدين اللتين تلمسان وجهه.

«لم أمت» قال، سمع مكررًا بصوت عال إلى نفسه «لم أمت» قبل أن يتلاشى بين ذراعى سوسانا جراى ممسكًا بها بغيظ بكلتا يديه ضائعًا فى حلم محموم وعاصفة من الدم وصوت صافرة الإسعاف.

المؤلف فى سطور:

أنطونيو مونيوث مولينا (أوبيدا ١٩٥٦-   )

كاتب إسبانى معاصر وعضو مجمع اللغة الإسبانية منذ عام ١٩٩٦. درس تاريخ الفن فى جامعة غرناطة، والإعلام فى جامعة مدريد. يعد من أشهر الكتاب الإسبان المعاصرين. كتب أولى رواياته عام ١٩٨٦ "*طوبى له*" وحصل عنها على جائزة Icaro للآداب. شغل منصب مدير معهد ثربانتس بنيويورك فى ٢٠٠٤ حتى ٢٠٠٦. من أهم أعماله الروائية:

ـ طوبى *له* ١٩٨٦

ـ الشتاء في لشبونة ١٩٨٧

ـ أمير الظلام ١٩٨٩

ـ الفارس البولندى ١٩٩١

ـ البدر ١٩٩٧

ـ سيفاراد ٢٠٠١

ـ ليلة الزمان ٢٠٠٩

ومن مقالاته:

ـ قرطبة الأمويين ١٩٩١

ـ حقيقة الإبداع ١٩٩٣

ـ حديقة آدم ١٩٩٦

ـ كُتِبَ فى لحظة

المترجمة فى سطور:

هــيام عبده محمد

- مدرس الأدب الإسبانى بكلية الآداب جامعة حلوان.
- حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة كومبلوتنسى بمدريد بتقدير ممتاز، وتخصصت فى الأدب النسائى.
- شاركت في عدد من المؤتمرات المحلية بالجامعات المصرية المختلفة، كذلك شاركت بورقة بحثية فى لقاء شباب الباحثين بمدينة الكارا دى إيناريس (إسبانيا ٢٠٠٥)، ومؤتمر جمعية الأدب المقارن البرازيلية فى جامعة ساو باولو (البرازيل ٢٠٠٨)، ومؤتمر جمعية التاريخ والأدب والعلوم والتكنولوجيا بجامعة كومبلوتنسى (مدريد ٢٠١٠).
- نشر لها محليًا عدد من الدراسات بالإسبانية، وتقديم كتاب الأيام لطه حسين بالإسبانية فى العدد الثانى لمجلة فيلوس فى مارس ٢٠٠٦ بمدريد، وكذلك نشر لها دراستان فى العدد الثاني بمجلة Todas as letras N ٢٠٠٩ التى تصدر عن جامعة Presbiteriana Mackenzie (البرازيل)، وفى مجلة إيسيدورا (إسبانيا)، العدد السابع عشر، سبتمبر ــ ديسمبر ٢٠١١. ونشر لها بالعربية تقديم كتاب الرواية النسائية المعاصرة ١٩٧٠ – ١٩٨٥ لبيروتيه ثيبليخوسكيته، فى المجلد الأول لمجلة أواصر ٢٠٠٨.
- قامت بترجمة بعض المقالات لمجلة بريزما ومقال نشر بمجلة أواصر.
- ترجمت كتاب مقاربات لغاودى فى كبادوكيا لخوان غويتصولو ٢٠١١. (المركز القومى للترجمة)
- ترجمت حكاية معلمة لخوسيفينا الديكواه. (نشر المركز القومى للترجمة)

المراجع فى سطور:

هـــالة عبد السلام عـــواد

ـ أستاذ الأدب الإسبانى والترجمة المساعد بكلية الألسن جامعة عين شمس.

ـ لها العديد من الترجمات الأدبية والنقدية بالعربية والإسبانية.

ـ ومن بين من ترجمت لهم: بارغس يوسا، بويرو باييخو، خوليو كورتاثر، خوسيه ماريا مرينو، خابيير طوميو، دومينجو باديا، كارمن رويث، على منصور.

ـ لها نحو عشر دراسات بالعربية والإسبانية نشرت بمصر والخارج.

التصحيح اللغوى: **رفيق الزهار**

الإشـــراف الفنى: **حســـن كامل**



ليلة اكتمال القمر هي الرواية الثامنة لمولينا ونشرت عام 1997، وفيها يشعر القارئ للوهلة الأولى بأن الرواية هي ذات طابع الروايات البوليسية التي تميزت بها بعض أولى أعماله. ولكن بعد القراءة المتفحصة المتأنية يكتشف أن التقنيات والغاية منها قد اختلفتا، إلا أن الكاتب لجأ إلى هذه الحبكة كي يجعل القارئ يفكر في تاريخ إسبانيا المعاصر، ويتأمل ويتدبر الآفات والآثام الحالية من العنف وأوجهه المختلفة، والضمائر السيئة، بالإضافة إلى التفكك وعدم التضامن أو المؤازرة.

تقوم الرواية، علاوة على الرغبة في جذب انتباه القارئ، على تحقيقات يقوم بها مفتش بوليس للبحث عن قاتل طفلة، وهو مريض سيكوياتي يشد انتباه وسائل الإعلام والأشخاص. وهذا الموضوع، سواء أكان في الروايات أو الأفلام البوليسية، لاقى نجاحا كبيرا في حقبة الثمانينيات والتسعينيات وخير مثال على ذلك سلسلة الأفلام التي بدأت بفيلم "صمت الحملان"، والتي تلقى رواجا حتى يومنا هذا.




تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح